فلسفة الشرق

تأليف : مهرداد مهرين

ترجمة : محمــود علاوى

مراجعة : عبد الحميد عبد المنعم مدكور



599

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومى للترجمة

فلسفة الشرق

تأليف : مهرداد مهرين
ترجمة : محمود علاوى
مراجعة : عبد الحميد عبد المنعم مدكور



٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

– العدد : ٥٩٩
– فلسفة الشرق
– مهرداد مهرين
– محمود علاوى
– عبد الحميد عبد المنعم مدكور
– الطبعة الأولى ٢٠٠٣م

هذه ترجمة كتاب :
فلسفهٔ شرق
مهرداد مهرين
مؤسسه مطبوعاتى عطائى

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

تقديم(*)

(أعذر شعباً حارب سنوات طوالا

ولما لم ير الحقيقة سار فى طريق الضلال) .

صديقى العزيز السيد مهرداد مهرين: لقد طلبت منى أن أعرِّف فى هذه المقالة الباحثين عن الحقيقة كما يقسمهم الفلاسفة المسلمون ، وأن أورد بعضاً من آرائهم فى هذا البحث حتى تتضح فصول كتاب «فلسفة الشرق»، وأن يكون هذا بمثابة الفهرست لأفكارهم، ومن هنا أقول كما قال فلاسفة الشرق :

إن الباحثين عن الحقيقة أو الحقائق يدركون الدنيا بالنظر والاستدلال أو عن طريق الرياضات والمجاهدات بالنفس، وبهاتين الوسيلتين إما أنهم يؤمنون بالدين أو أنهم لا يعتنقون أى مذهب أو دين ، فإذا بحثوا الحقائق بالنظر والاستدلال وتركوا المذهب أطلق عليهم الفلاسفة (المشاءون) الذين كان رائدهم منذ القدم الفيلسوف أرسطو وكانوا يؤمنون بآرائه . وإذا استدل الباحثون عن حقيقة أسرار الدنيا عن طريق التجرد واجتناب لذات الدنيا ، أطلق عليهم الفلاسفة (الإشراقيون) وكان رائدهم منذ القدم الفيلسوف اليونانى أفلاطون رائد الفلاسفة الإشراقيين .

ويعد "السهروردى شهاب الدين المقتول"[1] أحد هؤلاء الفلاسفة المتأخرين ، وإذا استدل الباحثون عن حقيقة أسرار الدنيا بالنظر والاستدلال أسميناهم (المتكلمين) ورائد هؤلاء واصل بن عطاء وأبو الحسن الأشعرى .

(*) السيد (كيلانى) أحد العلماء والمعلمين فى نجف وله اطلاع واسع على فلسفة الشرق خاصة الفلسفة الإسلامية ، وقد ألف كتباً عديدة فى هذا المضمار بالعربية والفارسية ، ولهذا طلبت منه أن يكتب تقديماً لكتاب فلسفة الشرق فكتب المقالة الطيبة المذكورة والتى أوردناها كاملة – م. مهرين .

(١) قتل شهاب الدين السهروردى عام ١٢٠٨ م .

فإذا استدل الباحثون عن الحقيقة على الحقائق عن طريق المجاهدة بالنفس وتهذيب الأخلاق وتزكية النفس والإيمان بالدين ، أطلقنا عليهم اسم (الصوفية) ، ولعل أول شخص أرسى فى الإسلام هذه الطريقة هو أبو هاشم الكوفى ، وفى عصرنا يمثل هذه الطريقة المرحوم الإمام نعمة الله الدامغانى . ومن هنا قُسِّم الباحثون عن الحقيقة إلى أربع فئات : المشائية ، والإشراقية ، وعلماء الكلام ، والصوفية .

المشاءون : ويرون أن خلاصة الأفكار التى وصلت إلينا فى هذه الأيام - ولا يزال الناس يفيدون منها ويستفيدون - نابعة من كتب ابن سينا مثل «الشفاء» و «النجاة» و «الإشارات» . ولكتاب الإشارات شروح عديدة أشهرها الشرح المنسوب لنصير الطوسى ، وهذا الكتاب قسمان :

القسم الأول : فى المنطق ، وقد تحدث ابن سينا فى هذا القسم عن الغرض من المنطق وكيفية الاستفادة والإفادة من الألفاظ وأنواع الدلالات ، والكليات الخمسة من جنس ونوع وفصل وعرض عام وعرض خاص . وكذلك أقسام القضايا وموادها والنقيض وعكسه فى القضايا والقياس والاستقراء والتمثيل والقياس الشرطى والاستثنائى والقياس المتصل والمنفصل والبرهان والجدل والمغالطة والخطابة والشعر .

القسم الثانى : فى حقيقة تركيب الأجسام وما هو أساس ماهيتها ، كالأجسام الأولى والثانية وكيفية تحديد الأسباب ، وفى الأنفس الأرضية والسماوية، وإثبات الروح فى وجود النفس البسيطة والمركبة والكلية والجزئية وأسبابها فى وضع الدنيا وإبداعها وأهل الدنيا وكيفية ظهورها عن علة العلل ، وفى الغايات والمبادئ وأساس ترتيبها ، وفى هذه الدنيا والدنيا المعقولة ، وفى تجرد الروح وأسرارها ، والسعادة والتعاسة فى البشر ومعنى ذلك، وأقسام السعادة والتعاسة ، ومقامات أهل السلوك والكرامات التى تصدر عنهم ، وأسرار الآيات التى تظهر فى هذه الدنيا .

ويعتقد المشاءون المسلمون أنه يوجد فى الدنيا ثلاثة أنواع من الموجودات : منها المادى الصرف مثل الأجسام والأجرام ، والمجرد الصرف مثل العقول الكلية، وبين هذين النوعين (المادى الصرف والمجرد) برزخ يسمونه النفس. وقد حصروا هذه

الأنواع الثلاثة في خمسة أنواع من الجوهر وهي : العقل والنفس والمادة والصورة والجسم ، وقد عللوا حصرها في هذه الأنواع كما يلي :

إن الجوهر أو المجرد (أو المادي المجرد) ليس مرتبطًا بأي حال من الأحوال في الفعل والانفعال بالمادة أو المدة ويسمونه العقل أو المجرد ذاتيا ؛ أي أنه بعيد عن المادة والمدة ، ولكن في مقام الفعل والانفعال فهو مرتبط بهما ، ويسمون ذلك النفس والروح . والجوهر المادي أو البسيط أو المركب البسيط أو المحل أو الحالُّ ، حينما يستقر هذا الجوهر المادي البسيط محل جوهر مادي بسيط آخر يسمونه الهيولي أو المادة ، وهذه الهيولي لا توجد خارج الذهن ، بل هي استعداد وقوة مجردة لأنه حينما يكون هذا الجوهر خارجًا عن الفاعلية بوصفه هيولي فلا يكون له ارتباط بغير ذاته ومع ذلك فهو محتاج للغير ، ولو أن هذا الجوهر المادي البسيط اتخذ شكلاً فإنهم يسمونه صورة ، والنتيجة أن كلاً من المادة والصورة مرتبطان معًا ولا يبتعدان عن بعضهما .

فمثلاً المادة أو الهيولي مرتبطة بالصورة ومن الناحية العملية فإن الصورة مرتبطة بالمادة من حيث المقدار والشكل ، فإذا كان الجوهر المادي مؤلفًا من هذا الحالِّ والمحل أو بعبارة أخرى من المادة والصورة سُمي الجسم. وإن ذلك الجوهر له أبعاد ، وكما يقولون كيفية ظهور هذه الأنواع الثلاثة الموجودة في علة العلل أو مبدأ المبادئ بناء على قاعدة الإمكان الأسمى : إن أول موجود صدر عن مبدأ الكل أو العقل ، وبعبارة أخرى ليس له فاعلية وليس صحيحًا أنه صدر عن الصورة أول الأمر ؛ لأن الصورة في الشكل والمقدار مرتبطة بالمادة ولا يمكن أن تصدر عن الجسم أولاً ؛ لأن الجسم مركب من المادة والصورة ومبدأ المبادئ بسيط وصدور مركب عن بسيط ليس جائزًا ولا يمكن أن يشكل النفس ، ولأن النفس في حد ذاتها مجردة ولكنها في مقام الفعل والانفعال مرتبطة بالجسم ، إذًا لا مناص من أنها صادرة أولاً عن العقل[1] .

الإشراقيون : وهؤلاء في الزمن الماضي واليوم كثيرون وأشهرهم في الماضي : هرمس وأفلاطون وأنباذقلس وفيثاغورث وسقراط ، وهم يونانيون ، وأشهر هؤلاء أفلاطون الذي ذكرت له آراء عديدة في الحكمة الإشراقية ، ومن آرائه المثل الأفلاطوني.

(١) للمزيد من التحقيق والنقد يرجع في هذا الموضوع إلى فلسفة مرتضى الكيلاني ومنطقه ، وقد سبقت الإشارة إليه . (المؤلف)

ومن المتأخرين في هذه المجموعة شهاب الدين السهروردي المقتول ، وأهم كتاب في فلسفة الإشراق حتى اليوم ويزخر بالإفادة والاستفادة هو كتاب «حكمة الإشراق» للسهروردي الذي شرحه قطب الدين الشيرازي . وهذا الكتاب قسمان : الأول في المنطق ويقع في ثلاث مقالات ، والقسم الثاني منه يقع في خمس مقالات ، المقالة الأولى منه في النور وحقيقته ويقصد بنور الأنوار أي نور الوجود . والثانية في ترتيب الوجود وبيانه ، والثالثة في كيفية فعل نور الأنوار في أنواع الموجودات وهي مرتبطة بالفصل الخامس في حركات الأجرام العلوية والسفلية . والرابعة في البرازخ وبعض قواها . والخامسة في المعاد والنبوءات والأحلام التي يراها الإنسان ، وفي التناسخ وأنوار عالم النور وبيان أحوال الأرواح بعد انفصالها عن المادة والمدة ، وفي شر هذا العالم وشقاوته وفي الدار الآخرة وشقائها وشر العالم المظلم ؛ أي الماديات ، وفي بيان الإنسان وكيفية إدراك الأسرار الخفية ، وكذلك في الفروق بين الأسرار التي يدركها الإنسان الكامل والأسرار التي يدركها الأولياء وأمثالهم وحالات السالكين في طريق الله وكيفية اختلاف درجاتهم في الدنيا . ويعتقد الفلاسفة الإشراقيون أنه يوجد عالم معقول غير العالم المحسوس وهذا العالم الظاهري يختفي وراءه العالم المعقول، ويعتبرون أنواع الموجودات في هذا العالم نموذجاً لذلك العالم غير المحسوس .

ومعظم هذه الموجودات تناسخية ، ويقال إنه لو أن إنساناً لم تكتمل لديه في هذا العالم الحكمة النظرية والعملية فإنه يبدو في هذا العالم في صورٍ متعددة حتى يكتمل الشيء الناقص[1] ، وحينئذ ينقطع تعلقه بهذا العالم . ولا تتنافى هذه النظرية أساساً مع دين الإسلام ؛ لأن المعتقدين بهذه النظرية لا ينكرون الآخرة، وقد اختبرت أنا نفسي هذا الأمر ؛ فحيناً أكون قد أنجزت أمراً قد صدر مني ولكن متى وأين ؟ لا أدري ، ومن الممكن أن يكون سبب هذا النسيان ناتجاً عن وجود جسد شبيه

(١) إن الإسلام يقول بنفس واحدة للجسم دون تناسخ (المراجع) ، كما أن دورة التناسخ هذه حلقة مفرغة لا يعرف مبدؤها من منتهاها ؛ لأنه من اللازم لكون الإنسان إنساناً بحكمها أن يكون في حياته السابقة حيواناً أو نباتاً ، وهذه دورة يأبى العقل أن يسلم بصحتها . انظر: سعيد حوى : الإسلام ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١١٥ . (المترجم)

له بآخر وأن هذا بحكم مبدأ الكل حيث تختفى أسرار المراحل السابقة[1] . ويعتبر المشاءون والإشراقيون أن علة العلل قديمة فى الذات والزمان، ويعتبرون أيضًا أن المعلولات أو الطبائع الكلية حادثة حدوثًا ذاتيا وأنها قديمة قدم الزمان ، وأن أفراد صور نوعية حادثة ذاتيا وزمانيا .

المتكلمون : هم الأشخاص الذين أرادوا دائمًا أن يقربوا الفجوة بين الموضوعات العقلية وأديان العالم، أو أن يوحدوا بين أهداف الأديان - بقدر المستطاع - وبين القواعد العقلية .

وعلماء الكلام فى الإسلام شعبتان، طائفة باسم **المعتزلة** وأخرى باسم **الأشاعرة** ، وتقول المعتزلة إن الإنسان مخير فى كل أموره ولا إجبار عليه ، فى حين تقول الأشاعرة إن الإنسان فى هذه الدنيا مسير ويعيش مجبراً وسوف يرحل عن الحياة مجبراً[2]، فماذا يفعل الإنسان أمام هذه القدرة . وقد اعتقد فى ذلك جلال الدين البلخى فقال : « أيها الرفقاء أغلق الحبيب الطريق ونحن الغزال الأعرج وهو صائدٌ أسودٍ فأى حيلة لنا غير الرضا والتسليم فى يد سبع هصور » . من أهم الكتب التى ألفت فى الماضى والحاضر وهو موضع الإفادة والاستفادة من قبل العلماء المسلمين هو كتاب: «المواقف» تأليف الأستاذ الإمام القاضى عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجى[3] ، وهذا الكتاب له أربعون شرحاً وأفضلها ربما يكون شرح الأستاذ على بن محمد الجرجانى المشهور بالشريف الجرجانى[4] ، ويحتوى على قسمين فى المنطق والكلام والحياة الأخروية وقسم الكلام فى مباحث الإلهيات بالمعنى العام والمعنى الخاص والجواهر والأعراض والمعاد (وآخر رحلة للبشر) والنبوة والخلافة . ويرى المتكلمون حسب اعتقادهم أنهم أحرار فى إثبات الخالق ، وهم يرون أن هناك فجوة بين العلة والمعلول فى الزمن الموهوم ، وربما يثبتون ذلك ، ويعتبرون الأنبياء أفضل من كل أفراد

(١) لمزيد من المعلومات انظر : البيرونى : تحقيق ما للهند من مقولة ... ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٩٥٨ ، ص ٤٤ . (المترجم)

(٢) هذا رأى غير صحيح بالنسبة إلى الأشاعرة ، إذ إنهم يقولون بالكسب الذى هو وسط بين الجبر والاختيار . (المراجع)

(٣) توفى عام ٧٥٦هـ .

(٤) توفى عام ٨١٦ هـ .

البشر لكونهم قد خُصُّوا بالإلهام والوحي من الله وليس لكونهم قد اكتسبوا العلوم والفنون المعروفة ، كما أن أسمى الأنبياء هو النبي الخاتم لأنه كان أميا؛ أي أنه لا يعرف القراءة والكتابة ، فكيف لشخص لا يمتلك قدرًا من العلم والفضل أن يصبح أفضل أهل الدنيا بل أفضل من فلاسفة اليوم ، وليس معلومًا إن كان الأنبياء أنفسهم قد ادعوا مثل هذا الفضل ، لكن أتباعهم نسبوا بعض الأحاديث – إلى الأنبياء – من أجل مصالحهم ولخداع الناس في ذلك الوقت ، وكانوا يعيشون بهذه الطريقة، وأعتقد أن الخبر الذي ينسبونه إلى الرسول الأكرم : "أنا مدينة العلم وعلي بابها" وهو حديث اختلقه علماء الكلام في صدر الإسلام ؛ لأن هذا الخبر محل تأمل من حيث السند والمتن .

وأغرب من كل هذا أن المتكلمين أنفسهم يعترفون بكذب طريقة علماء الكلام كما أنهم ضاقوا ذرعا بأسلوبهم الكلامي والاستدلالي ، وها هو أبو حيان التوحيدي الذي يمكن أن يعد من أفضل علماء الكلام والجدل لننظر ماذا يقول في كتابه "المقابسات" فيما يتعلق بالكلام والمتكلمين : الكلام كله جدل ودفاع وحيلة ، وقشر بلا لب ، وأرض بلا ريع ، وطريق بلا منار ، وإسناد بلا متن ، وورق بلا ثمر، والمبتدئ فيه سفيه ، والمتوسط شاك ، والحاذق منهم متهم (أي في دينه) ، آفته عظيمة وفائدته قليلة[1] .

وسألت أحد المتكلمين : ما عمل المتكلمين في الأديان والمذاهب ؟ قال : عمل المتكلمين في أي مذهب هو تحقيق المصلحة وإشغال العوام، وأحيانًا الاحتيال على الخواص والبسطاء والسذج . ومن ثم يسوقون هذه الافتعالات والبدع والمغالطات فيجعلون من المستحيلات أمورا ممكنة . وينقل أحد المعتزلة أشياء عن الصحابة والتابعين من أجل التدليل على صحة طريقة الاعتزال من خلال العقل والشرع ، ويفعل هذا الأمر نفسه أحد الأشاعرة إذ يخطِّئ طريقة المعتزلة[2] ويعتبرها طريقة

(١) انظر أبو حيان التوحيدي : المقابسات ، تحقيق حسن السندوبي – المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٩ ص ٢٢٣ . (المترجم).

(٢) لمزيد من المعلومات في هذا الشأن انظر : الإسلام (بحث تاريخي ، كلامي ، فقهي ، أدبي ، فلسفي مستل من دائرة المعارف الإسلامية الكبرى) مركز الدراسات الثقافية الدولية ، معاونية التعليم والثقافة ، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية ، ص ١٢٤ . (المترجم)

الزرادشتيين[١]، ويثبت المعتزلة بذلك أن تقدُّم المفضول على الفاضل جائز ، ومن أجل ذلك فإنهم يسوقون المقدمات لذلك الفاضل وينتحلون الأخبار المتعلقة بفضله ، ومما يناسب حال هذا النوع من الناس البسطاء السذج هذا الشعر للشاعر قاآنى :

(تبدو سفيهًا وأعمى

بين الهائم والحيران والساكت

فهو لص القافلة وأنت مسكينها

وهو شيخ المعربدين وأنت مسكين القرية) .

وللتعرف أكثر على هذه الفرقة يمكن الرجوع إلى كتاب «شرح التجريد» لجمال الدين حلى المشهور بكشف المراد ، وهو أشهر مثال أو نموذج للرد الرافض للفحش والسب ، وقد وضع الكتاب المذكور عقوبة للمذنب كما يلى : (فإن لم يرتدع يضرب بعصا الزندقة والتكفير، وإن لم يرتدع نُفى خارج البلاد حتى يُقضى عليه) .

الصوفية : أصل التصوف هو طريقة الاستفادة من الحقائق فى هذا العالم عن طريق المجاهدات والرياضة عن الهند واليونان وإيران ، ولا شأن لى بذلك . وما كان فى الإسلام وبين المسلمين منذ الصدر الأول حتى اليوم مجرد مصطلح ، وقد أطلق ذلك على الأشخاص الذين يلتزمون بالدين فى الظاهر وكذلك ما يحصلونه من حقائق الدنيا عن طريق المجاهدات وتهذيب الأخلاق، حتى إن اليوم يوجد فى إيران أكثر الفرق الأربع والتى لها طريقة الصوفية نفسها وأسلوبها ، وكما قلت يبدو أن أول شخص أطلق عليه فى الإسلام اسم صوفى هو: أبو هاشم الكوفى ، أما الآن فقد ظهر باسم هذا التصوف طرق وفرق عديدة وكل فرقة تكفر الفرقة الأخرى[٢] وتعدها خاطئة فى طريقتها وتظن أن طريقتها هى الصحيحة. والأشخاص الذين يريدون أن يسيروا فى هذه الطريق يذهبون إلى «المرشد الكامل» وبعد الحصول على القواعد اللازمة فإن

(١) هذا رأى الزيدية وليس رأى المعتزلة . (المرجع)

(٢) هذه أحكام متسرعة وغير دقيقة . (المراجع)

أى مريد متعلم عليه أن يشغل بتحصيل كتاب « شرح منازل السائرين » الذى يقع فى ٤٠ مقاماً[١] فى الأخلاق ثم يعمل بذلك ، وفى الكتاب رياضات لا حصر لها - شغل بها الكاتب فترة من الوقت - أصبح شيخا ليأمر بعد ذلك بتلقين الآخرين الذكر والإرشاد ، وللصوفية أربعة أسفار بالنسبة للسالكين فى طريق الله ؛ وقصدهم بالسفر توجه قلوب السالكين إلى طريق الله وإلى الله المنزه .

والسفر الأول : سفر السالك من الخلق بالحق . والسالك المتجه إلى الله يقوم بالمشاهدة كثيرا فى بداية سلوكه ، وفى الوقت الذى يغفل فيه عن مشاهدة الوحدة الحقيقية يدرك بعد قليل من التأمل أن لكل أثر مؤثرا ، لأن أى أثر محتاج وليس لأى محتاج حيلة أمام المؤثر وأن الغنى مقدم على الجميع .

وقد أصبح للسالك نفسه فى هذا السفر - على حد قول الصوفية - وجود حقيقى إذ إنه يرى كل الأفعال والآثار من مبدأ الكل .

والسفر الثانى : من الحق إلى الحق ؛ أى أن السالك يتجه إلى المبدأ وينظر فى صفاته ، وينتقل من وجوده إلى وجوب الوجود ، وينتقل من وجوب وجوده إلى توحيد واجب الوجود والبساطة التامة من العلم والقدرة والإرادة[٢] .

والسفر الثالث : من الحق للخلق؛ لأن السالك يستدل على ذات الحق بعنايته ، ويتجه إلى كيفية صدور الموجودات، وذلك يقوم على إعداد خاص أى من وجود علة العلل إلى وجود المعلول الأول الذى هو العقل الأول ، ثم يبحث عن الحقائق الممكنة . وقد اعتبر المتكلمون أن تشريع قوانين الشرائع فى هذا السفر من عمل الأنبياء لكن الفلاسفة وربما بعض الصوفية لم يخصوا أحداً .

والسفر الرابع : وهو السفر بالحق فى الخلق ؛ أى من العلة إلى المعلول إذ إن السالك ينظر إلى نفسه ، بالشكل الذى يكون ، وفى لوازمه المعلول هو مبدأ الحق ونفعه وخسارته ومبدؤه ومعاده .

(١) كتاب « شرح منازل السائرين » فيه مائة مقام وليس أربعين . (المراجع)
(٢) أصل هذه الأفكار موجود عند صدر الدين الشيرازى فى كتاب « الأسفار الأربعة » . (المراجع)

ويعتبر الصوفية فى الإسلام أن جميع الشرائع والأديان أوامر إرشادية باستثناء «مولوى»(١) ، ويجيزون ارتكاب جميع النواهى سرا(٢) ، وأيضًا ومن هنا يقرون بوحدة الوجود ؛ أى إنهم يعتبرون أن جميع الموجودات هى مظاهر وآثار لمبدأ الحق ، أى إن الوجود الحقيقى منه وإن باقى الأطوار والاعتبارات والتجليات ليست سوى جزء من مبدأ الكل . وشرح المسالك الأربعة هذه تحتاج إلى أربعة مجلدات وكل مجلد ٦٠٠ صفحة ... ويبدو أن السيد مهرداد مهرين قد ملَّ من سماع أحاديثنا ومن ثم علينا أن ننهى هذه المقالة .

"لو أقول إن وصفه لا حد له ، فإن هذا يتطلب منى العديد من المثنويات"

وما كتب نقل وليس على الناقل تبعة .

مرتضى الگيلانى

(١) مولوى هو الشاعر الإيرانى جلال الدين الرومى (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ) . (المترجم)

(٢) هذا كلام غير دقيق . (المراجع)

مقدمة المؤلف

كنت أهرب دائمًا من كتابة المقدمة ؛ لأنني كنت أظن أن المقدمة لا تعد شيئًا مهما بالنسبة للقارئ ، علاوة على أن عدداً محدوداً هو الذى يريد المقدمة أولئك الذين يريدونها لا يهتمون كثيراً بمحتوياتها ، ولكن على حد قول الإيطاليين فإن المقدمة هى مزة الكتاب أى طعمه ، لهذا أشير على سبيل الإجمال إلى بعض الموضوعات : فعلاوة على أن هذا الكتاب يبحث فى شأن المدارس الفلسفية فى الشرق فقد أضيف إليه من باب التشويق كلمات قصار ذات مغزى وحكايات حكيمة وأبيات مثيرة من دواوين شعراء إيران .

وعند تأليفى لهذا الكتاب كان اهتمامى منصبا على ثلاثة موضوعات ؛ الأول : روعى عند تقديم أية مدرسة الإنصاف والحيدة ، والثانى : روعى أيضًا الإيجاز من أجل عدم إضاعة وقت القارئ بقدر المستطاع وفى أقل كلمات ، والثالث : تجنبت بقدر المستطاع هذيان الميتافيزيقيين والخرافات الفلسفية . وقد يأخذ علىَّ البعض أننى جمعت بين الفلسفات المتضادة، وسبب ذلك فى نظرى واضح وضوح ألوان الطيف التى تتألف من عدة ألوان ، إذ إن أية مدرسة لا يمكن لها أن تدعى أنها وصلت إلى جوهر الحقيقة ، وفى نظرى القاصر أن مؤسس أية مدرسة فلسفية هو من استطاع أن يحصل على قطع من ماس الحقيقة وأن ينظر إلى الدنيا من زاوية خاصة .

وفى نهاية هذه المقدمة أتوجه بالشكر إلى القراء الأعزاء الذين استقبلوا الطبعات السابقة من هذا الكتاب وأتوجه بالشكر خاصة إلى السيد «مرتضى الگيلانى» الذى كتب تقديم هذا الكتاب، وأشكر كذلك السيدين الزرادشتيين فى بمباى خاصة «بتليوالا ودارو والا» اللذين أصبحتُ مدينًا لهما بما كتباه من أنواع المدح والثناء فى المجلات والصحف الهندية .

مهرداد مهرين

القسم الأول

معتقدات المصريين

معتقدات المصريين

مصر بحق هى مهد الحضارة؛ إذ إن المكتشفات التاريخية تشير إلى أن المصريين كانوا أول شعب قد أرسى الصروح الفكرية الرائعة ، وخطوا خطوات واسعة فى العلوم والفنون (خاصة الهندسة وعلم المعمار) كما دونوا بدقةٍ الوسائل الأخلاقية ، وسعوا إلى أن يوثقوا العلاقات بين الفرد والمجتمع .

وعلى الرغم من أن يد النسيان قد طوت أحداثا كثيرة من الآثار الفكرية للمصريين ، فإن الآثار القليلة[1] التى بقيت عنهم تشير إلى الملحمة الفكرية للمصريين ، التى كانت مثيرة للحيرة وجديرة بالاطلاع .

وما ننقله هنا هو قطرة من المحيط غير المحدود الذى خُبِّئ الجزء الأعظم منه فى صدر الأيام !

وهناك أثر فلسفى مصرى قديم يعود إلى عام ٢٨٨٠ ق.م . وهو المعروف باسم «تعاليم بتاح حوتب» أشار إلى أن مصر كانت فى العالم القديم أحد المراكز الثقافية الكبرى فى العالم .

وقد أبدى اليونانيون احترامهم الخاص بحكمة المصرى القديم ، حتى إن الكثير من فلاسفة اليونان (من قبل سولون وطالس وديمقريط وفيثاغورث وأفلاطون) قد اقتبسوا الكثير من آثار الفلاسفة والحكماء المصريين ، وليس لدينا اطلاع كافٍ على الحكمة المصرية ، وفى هذا المقام سوف نميط اللثام عن جانب الدراما الفكرية للمصريين .

(١) إن الآثار التى تركها المصريون ليست بقليلة ، ويمكن القول إن ما يحتويه أحد المتاحف المصرية يتجاوز آثار عدة دول من دول العالم القديم ، فقد ترك المصريون القدامى كنوزا لم تتركها أية حضارة أخرى . (المترجم)

آلهة المصريين

ولأن فلسفة أى قوم تبدو واضحة فى معتقداتهم الميتافيزيقية ، فسوف نبدأ بحثنا بآلهة مصر ، إذ كان الشعب المصرى فى مصر القديمة يعبد إلها خاصا به فى كل ناحية من البلاد ، وكان أسلوب العبادة يتخذ شكلاً مختلفًا من مدينة إلى أخرى ، ولكن عندما تشتهر مدينة عن باقى المدن ويكون لها تأثيرها فإن الإله الخاص بتلك المدينة يجبُ الآلهة الآخرين ويظهر كربٍ للآلهة ، ونتيجة لهذا السبب المذكور ظهر التثليث فى (إيزيس وأوزوريس وحورس) وأوزوريس هو إله النباتات ، وإيزيس ربة نوع السماء ، وحورس الصقر الإله ، ولقد لعبت هذه العوامل المختلفة دورا مهما لفترة طويلة فى سياسة مصر واقتصادها ، وبعد ذلك أصبحت الشمس أكبر إله ومن ثم ظهرت عقيدة مثل عقيدة زرادشت ، وبهذا المعنى كان المصريون يرون أن إله النور دائما فى صراع مع إله الظلمة (أهريمن) وهما فى صراع ليل نهار[(١)] .

ومن بين الآلهة الأخرى فى مصر: أنوبيس (رب نوع الأموات)، وخوفو (إله القمر)، ويخ بت (ربة نوع النسور) ، وأوتو (رب نوع الحيات) ، وباخت (ربة نوع القطط) ، وسليكس (ربة نوع العقارب) ، ونوت (ربة نوع السماء) ، وغب (إله الأرض) .

كان المصريون يعتقدون أن «نوت» امرأة ضخمة ، وأن بدنها مثل قوس فوق الأرض ، وأن فمها وساقيها فى ارتفاع الأفق ، وأن ساعديها ينتهيان فى الطرف الآخر من العالم المرئى .

(١) وهناك جانب من الحكمة المصرية قد وصل إلينا وهى كلمات حكيمة كتبت فوق أوراق البردى ، تشير إلى أن المصريين القدامى قد بلغوا درجات إنسانية عالية. وها هو نموذج من الكلمات المذكورة : (اهتم بالتحصيل والعلم وأحبهما مثل أمك) ، (إن العمل بحرفة ما يخلص صاحبها من الوقوع تحت رحمة الآخرين) ، (الرجل العالم هو الذى يمتلك قراره فقط) ، (إن السكوت أنفع كثيرا لك من الثرثرة) . (المترجم)

و «غب» إله الأرض وزوج نوت وقد انفصلا عن بعضهما بصعوبة، وإن هذا الإله هو الذى تصور المصريون أنه دائما يبدو نائمًا فوق سطح الأرض . و «شو» إله ليونتوبوليس وهو الذى فرق نوت وغب عن بعضهما وجعل نوت معلقة فى الهواء ، وهو يحتل الفضاء الخالى بين الأرض والسماء(١) . وكان المصريون ينحتون آلهتهم على شكل الحيوان والإنسان ، فمثلاً آمون على شكل جراد أو ثور ، وأوزوريس على شكل بقرة أو كبش، وأحيانًا كانوا يصورون الإله فى أشكال عديدة مثل آمون أى الخفى وهو إله مدينة طيبة ، وأحيانًا كانوا يصورونه على شكل إنسان وأحيانا أخرى فى صورة إوزة أو كبش .

وكان المصريون ينسبون أكثر آلهتهم المحليين إلى رع ؛ فمثلاً «آمون رع» الذى كان له قاربان ؛ واحد للنهار والآخر لليل ، وكان رع يهبط بقارب الليل فى فم ربة نوع السماء ، وبعد العبور من بدن السماء كان يظهر فجرا فى فترة النهار (هليوبوليس) أى مدينة الشمس التى كانت تقع على بعد ٢٥ ميلاً من ممفيس ، وتعد مسقط رأس إله الشمس «رع آتون» ، وهذه المدينة هى التى كان يطلق عليها اسم «أختاتونو» ؛ أى «أفق آتون» وقد لعبت دوراً مهما فى تاريخ المذاهب المصرية .

ويرى بعض العلماء أن مذهب التوحيد قد انتشر من هذه المدينة إلى أرجاء العالم .

التوحيد فى مصر - أخناتون

انتشرت فى مصر القديمة عبادة وحدة الوجود وهى تشبه وحدة الوجود فى الهند، وبهذا المعنى فإن المصريين كانوا يعتبرون الحياة مظهرا لقوة واحدة ولم يفرقوا فى هذا بين الإنسان والثور والشجرة والإله ؛ لهذا السبب كانوا يجسمون آلهتهم فى أشكال مختلفة . ويرى المصريون أن للدنيا مظاهر مختلفة وأن كل شىء فيها ينبع من مصدر واحد ، وبعبارة أخرى فإن الدنيا تبدو فى ألوان مختلفة مثل قوس قزح ، ومع وجود

(١) الدكتور بهمنش : تاريخ مصر .

هذه المظاهر المختلفة فإن هذه الألوان لا تعبر عن أكثر من لون واحد ، ونتيجة لذلك كانوا يظنون أن كل لون من الألوان المختلفة لقوس قزح يمكن أن يتبدل إلى لون آخر ، وكذلك فإن كل موجود من الموجودات فى العالم يمكنه أن يتبدل - فى ظل ظروف معينة - إلى موجود آخر[١] .

وهذا الاستعداد لامتزاج العناصر المتضادة كان باعثًا على أن بعض علماء المصريات كانوا يعتقدون أن المصريين كانوا موحدين وأنهم كانوا يرون وجه الوحدة فى مذهب التعدد، ويبدو أن هذا الأمر كان مسلما به ؛ لأن المصريين كانوا يعتقدون أن لهم ثلاثة آلهة هم : «رع» ، و «آمون» ، و«بتاح» ، وأن الثلاثة ليسوا إلا إلهًا واحداً ، فبتاح جسم الإله ، ورع رأسه ، وهم فى الحقيقة كانوا يعتقدون فى البداية بوحدانية الطبيعة وليس بوحدانية الإله ، وإن مذهب التوحيد فى مصر هو الظاهرة التى بدت إلى حد ما متأخرة .

وفى عصر «آمونوفيس» الذى تغير اسمه بعد ذلك إلى «أخناتون»[٢] اختير قرص الشمس رمزًا للإله الواحد ، وكانت أشعة الشمس بمثابة يدى هذا الإله تهبطان على سطح الأرض حتى تضيئا الدنيا بأنوارهما ، وقرص الشمس هذا حسب اعتقاد - أو على حد - آمونوفيس هو آتون[٣] الذى يقوم بعمله دون وساطة .

وقد نظم أخناتون نشيدا للشمس الذى عرف باسم «نشيد الشمس» وهو أشهر قطعة أدبية فى العالم القديم ، وبعض أجزاء نشيده هذا يشبه المزمور ١٠٤ (من مزامير داود)[٤] حتى إن البعض يظن أن هذه المزامير تقليدا للنشيد المذكور .

وهكذا كان يُظن أن «آتون» رب نوع الشمس قد خلق نفسه بنفسه ، وأن آتون له معنيان هما (كل شىء) و (زوال الوجود) وبعبارة أخرى فإنه يعنى آتون الوجود والعدم، أو الوجود والفناء ، والخلاصة: هو كل شىء .

(١) ما تركه المصريون القدماء من نقوش للحيوانات كافة من قرد وبقرة وثور وقط وخنفساء حيث جعلوا من هذه الحيوانات رمزًا للعبادة يدلل على حقيقة العبادة المذكورة . (المترجم)

(٢) الاسم الأصلى لأخناتون الذى يعنى «آتون القانع» كان «أمون حوتب» ولكن عندما كان مخالفا لمذهب أمون ، فقد غيّر اسمه . (المؤلف)

(٣) آتون أى : الحرارة التى تكمن فى الشمس . (المؤلف)

(٤) الكتاب المقدس ، المزمور (١٠٤) ص ٩٠٥ . (المترجم)

نشيد الشمس

هذه عدة أسطر من نشيد الشمس الذى نظمه أخناتون :

(كم أنت جميلة عندما تطلعين فى أفق الشمس

يا آتون الحى يا نبع الحياة

عندما تشرقين من الأفق

فإنك تغمرين كل الأراضى بجمالك

وعلى الرغم من علوك فإنك تصلين الأرض عبر الشمس

وعندما تغربين نحو الغرب فإن الأرض تتحول كالميت فى الظلمة

ويخلد الجميع إلى النوم فى غرفهم بينما تظلين أنت فوق رءوسهم

فتخرج الأسود من عُرُنِها

والحيات من جحورها

ويخيم الظلام ويغرق العالم فى الصمت.

وإن أحداً قد خلق هذه الأشياء ورحل واستراح فى الأفق(*)

وفى تلك الأثناء فإنك تطلين برأسك فتتلألأ الأرض بضيائك

وفى تلك الأثناء تبثين أشعتك

فينهض شعب مصر ويسعى فى الأرض

وبمجرد أن يغسلوا أيديهم وأرجلهم ويرتدون ملابسهم

فإنهم يضرعون بأكف الدعاء مقدسين طلوعك عليهم

(*) إشارة إلى الله خالق كل شىء . (المترجم)

وحينئذ يتوجه كل شخص فى كل أنحاء العالم إلى عمله

وتستريح الحيوانات فى حظائرها ، فتنمو الأشجار والأعشاب وتزدهر

فترفرف الطيور فى جداولها

وتُثنى عليك بأجنحتها

وترقص جميع الخراف فرحًا بك

وتطير كل الطيور

وعندما تبثين الدفء فى أولئك فإنهم يبدأون الحياة

فتتحرك السفن نحو الشمال ونحو الجنوب ذهابًا وجيئة

وتقفز أسماك النهر نحو أشعتك

وتشاهد أشعتك وسط البحر العظيم.

وأنت خالقة بذرة الحياة فى المرأة

تمنحين الروح للجنين فى بطن أمه

وتهدهدينه حتى لا يبكى

حتى إنك ترعينه وهو فى رحم أمه

وحينئذ تحل الروح فى الكتكوت وهو فى البيضة

وتبثين فيه النفس حتى يظل على قيد الحياة

فيخرج من البيضة وهو يصيح بكل قوة

فيعدو على قدميه هنا وهناك.

فكم هى عظيمة أعمالك ومتنوعة

وتخفى علينا جميعًا) .

أخناتون المصلح

وكما ذكرنا ، فإن أخناتون قد نفر من عبادة الأصنام ونشر عبادة التوحيد ، التي ربما كانت هي عبادة الطبيعة وكانت الشمس رمزها الأصلي ، إلا أن المغرضين كما اعتبروا الزرادشتيين عبدة للنار اعتبروا اهتمام أخناتون بالشمس نوعا من عبادة الأصنام أيضا ، لهذا سعوا بكل قوة إلى محاربة أخناتون . وكان بين كهنة أخناتون بعض المغرضين ؛ لأنه كان يعتبر رجال الدين السبب الرئيسي في تعاسة البشر ، وبمجرد أن توفي أخناتون عاد رجال الدين إلى أعمالهم ، وبهذا الشكل فقد قضوا على جميع إصلاحات المصلح ، وخلافاً لما كان يروج له أعداؤه فإن هذا الفرعون (أخناتون) لم يعتبر الشمس إلهًا يُعبد .

إذا كان إلهه هو تلك القوة غير المرئية التي لا تدركها الأبصار والأشعة المانحة للحياة في الشمس تصدر عنه ، وقد دعا أخناتون أتباعه ألا يبحثوا عن إلهه في المحاريب الضيقة والمظلمة أو في الميادين الملوثة بالدماء[1] ، بل يبحثوا عنه في المروج الخضراء والغناء ، وفي الورود الجميلة والطيور عذبة الألحان ، وهو بهذه الوسيلة كان يعلم العبادة من خلال أجمل مظاهر الطبيعة، وكان في الوقت نفسه يمنع إقامة المراسم الدينية التافهة التي كان يروج لها رجال الدين من أجل حصولهم على الأموال . وحتى يظل أخناتون في مأمن من شرور رجال الدين فقد نقل عاصمته من «نب» إلى «العمارنة» وهناك راح يدعو لمذهبه . وأحد إصلاحات أخناتون العظيمة الأخرى هو اعتراضه على الحروب؛ إذ كان يعتبر أن الحرب التي قد تكون سببا في حرمان الناس من الروح جرما عظيما ؛ لأن قتل مخلوقات الله بمثابة مخالفة للخالق نفسه . وهذا الملك المصلح مثل أغلب المصلحين كان متفائلاً ، وكان يتصور أنه بمجرد أن تنتشر آراؤه البسيطة للمحافظة على الصالح العام وتقديس الحقيقة ، فإنها سوف تسود أرجاء إمبراطوريته المترامية الأطراف .

(١) هنا إشارة إلى كراهية أخناتون للحروب والدعوة إلى السلام . (المترجم)

ولكن للأسف فإن أسلوب أخناتون الإنساني والمسالم كانت له آثار سيئة جدا على الدول الخاضعة له، حتى إن سياسته هذه قد أثارت الحكام المحليين لكي يتمردوا عليه ، وإن إخفاقه في سياسته الخارجية كان عاملاً مهما في القضاء على هذا الملك الحكيم الذي توفي في ريعان شبابه .

وأحد إصلاحاته الأخرى أيضا أنه على خلاف سائر الفراعنة المصريين كان يستمع للناس وأنه بشر عادي مثلهم ، وقد جرت العادة على أن الفراعنة كانوا يبتعدون عن الناس وقلما يظهرون في ملأ عام ، في حين كان يسعى أخناتون إلى عكس ذلك فكان دائمًا يُشاهَد بين الناس ، فبينما كان الرسامون يرسمون الفراعنة السابقين في جلال وعظمة ، رسموا أخناتون في هيئة بشر عادي فوق التابلوهات .

وعلاوة على هذا فقد كان أخناتون مصلحا عظيما، وملكا رحيما ، وزوجا وفيا وعفيفا ؛ إذ كان يحب زوجته وملهمته نفرتيتي إلى حد الجنون .

ورغم أنه حتى نهاية عمره لم ينجب أولادا ذكورا فإنه لم يتزوج بزوجة أخرى ، كما كان أبا طيبا وكان له سبع بنات ، وكما أنه كان مؤمنًا بالأخلاق الجميلة والتدين الحقيقي فقد راهن على هذه الأخلاق نفسها .

وقد توفي أخناتون عام ١٣٧٢ ق.م . عن عمر يناهز الثلاثين ، وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يقوم بالإصلاحات اللازمة خلال عمره القصير ، فإن اسمه الطيب قد خلده .

وبهذا الشكل فإن أخناتون الذي كان يريد أن يحكم مصر وفقًا لرؤية وفكرة ساميتين قد عاش على هذا ومات وهو يعتنق هذا الفكر .

الفيلسوف المتشائم

إن التشاؤم ليس ظاهرة جديدة ؛ إذ إن التشاؤم قد ظهر جليا منذ عدة آلاف من السنين ، وفي مصر كان هناك حكيم يدعى (إيبور) Ipuwer وهو رائد فلسفة التشاؤم ، ويصيح هذا الحكيم من أعماق قلبه : (ليت البشر ينعدمون ، فلا تنعقد نطفة في رحم ولا يولد شخص واحد) .

ويبدو أن هذا الفيلسوف أو الحكيم أبدى تشاؤمه تجاه الحضارة البشرية وأصبح نصير الهموم والفناء .

ليس إلهًا مقدسًا

كان للمصريين آلهة لا حصر لهم ، ولكننا سنذكر أهم هؤلاء الآلهة والأكثر تقديسا :

١ - «رع» أو الشمس .

٢ - «سو» أو الهواء .

٣ - «تيفنيت» أو الخلاء .

٤ - «غب - جب» أو الأرض .

٥ - «نوت» أو الماء .

٦ - «أوزوريس» أو النيل .

٧ - «إيزيس» أو الأرض الخصبة .

٨ - «سيت» أو الصحراء .

٩ - «نيفتيس» أو الأرض البوار .

وكان رع من أهم الآلهة وأكثرهم عظمة ، وكان المصريون يتصورون أن كل الآلهة والعناصر قد خرجوا من فم رع .

وكان وجود الشيء مرتبطا باسمه .

خصائص آلهة مصر

وكانت لآلهة المصريين خصال بشرية ؛ أى أنهم مثل البشر لهم نقاط ضعف ، وكانوا يغضبون بسرعة ويرضون بسرعة أيضا ، ولم يكن لأى إله من آلهة المصريين أخلاق ثابتة ، ولم يكن أى منهم طيبا بصفة مستمرة أو سيئا بصفة مستمرة أيضا ،

وعلى سبيل المثال كان رب النوع معروفا بسيت ، ومع هذا كان عدو آلهة الخير وبمعنى آخر كان يلعب دور الشيطان ، ومع ذلك يقوم بأفعال الخير وله أفعال مفيدة (خاصة بالنسبة للأموات) ! ومن ناحية أخرى فإن حورس كان يعد من آلهة الخير لكنه عند الغضب قطع رأس أمه «إيزيس» ، وهناك إله آخر وهو «رع» وقد ندم على أنه خلق كما خلق البشر، فسعى إلى أن يتطهر من هذه الوصمة ، فأرسل من أجل تحقيق هذا الأمر «سخمت» إلى الأرض حتى تقتل البشر .

فقامت «سخمت» بسحق هذا الحيوان المؤذى ولكن فجأة ندم رع على عمله وسعى إلى أن يتخلص من عيوبه، ولما كان رع ليس لديه رغبة فى أن يتراجع سخمت عن القيام بالمهمة فقد احتال ؛ أى أمر أن يُسكب سبعة آلاف إناء مملوء بمشروب الجعة الحمراء فى طريق سخمت حتى تظن سخمت أنها تسير فى طريق مملوءة بالدم فيكف اليد عن القتل ، وبالمصادفة فقد نجحت خطة رع ؛ فعبرت سخمت هذا الدم المصطنع سباحة وأصبحت ثملة إلى الحد الذى جعلها تكف عن القتل بنفسها .

أسطورة إيزيس

من بين أروع الأساطير المصرية أسطورة إيزيس وزوجها أوزوريس ، وكان أوزوريس الابن الأكبر لـ «غب» و «نوت» إمبراطور الأرض كلها .

وذُكر أوزوريس فى كتابات المصريين كملك مُظفَّر بشكل دائم ، إذ إنه أقر الأمن والعدل فى جميع أنحاء الدنيا ويعد حارس الحضارة العظيم ، وكانت إيزيس زوجته دائما ما تدافع عن جميع أعمال أوزوريس ، كما كانت تتعاون معه فى إنجاز الأعمال الطيبة .

وللأسف فإن شقيق أوزوريس «ست» قد اتفق مع «نوت» لكى يتخلصا من أخيه وأن يلقيا بجسده فى الماء ، ووفقا لرواية أخرى فإن ست احتال على أخيه باستضافته وتخلص منه .

ووفقًا للرواية الثانية فعندما كان يتناول الضيوف الغداء ، أمر «ست» بأن يأتوا بصندوق جميل ، أعد على مقاس أوزوريس، وحينئذ توجه إلى الضيوف وقال : (إن من ينام فى هذا الصندوق بشكل مستريح سوف يُهدى له) فاختبر هذا الصندوق جميع الضيوف حتى جاء الدور على أوزوريس ، وبمجرد أن دخل الصندوق أغلق ست عليه الصندوق المذكور بإحكام وألقى به فى البحر .

ووفقًا لهذه الرواية فإن «ست» قام بعد قتل «أوزوريس» بتقطيع جسمه إلى ٢٧ قطعة وألقى بها فى وادى النيل ، فقامت إيزيس بالبحث عن زوجها ودموعها تتساقط من عينيها ، وبمساعدة «توت» رب نوع الطيور وإيبس وأنوبيس جمعت أعضاء زوجها وجوارحه وحنطته ، فهجم حورس بن أوزوريس على رأس «ست» وأمسك به وكبله بالأغلال وجاء به إلى إيزيس ، فعفت عنه إيزيس فاضطر حورس هو الآخر إلى أن يكف عن محاربة العدو ، وأصبحت إيزيس منذ ذلك الوقت سلطانة الأموات .

ويمكن ذكر هذه الأسطورة بشكل آخر وهو أن الشمس «إيزيس» قد تظهر فى أفق السماء ، وتمر بها نهارًا وعندما تختفى الشمس فإن جيش الظلام يبدأ هجومه ليسحق جيش الشمس ويشمل الأرض بظلمته .

فتلوح فى الأفق نجمة أخرى هى (قمر إيزيس) فتنشر نورها فوق رءوس الناس ولكنها تبدو حائرة فى محيط الليل حتى تظهر شمس حورس فتهزم الظلمة ، وفى النهاية تدور حرب بين النهار والليل ولا تنتهى[١] .

أسطورة حورس

إن «حورس» هو اسم رب النوع ويسكن السماء ، والشمس عينه اليمنى والقمر عينه اليسرى ، ولحورس عدو مخيف هو «ست»، ويحقد ست على حورس بسبب عينيه الجميلتين، وقد أصبح هذا الحقد والحسد باعثًا لست إلى أن يوجه ضربات إلى عينى حورس المنيرتين فيتسبب ست فى الخسوف والكسوف لدى حورس .

(١) نقلاً عن تاريخ ملل الشرق ويونان البير ماله ، ترجمة هجير .

الحيوانات المقدسة

فى كل مدينة من مدن مصر يُعبد أو يقدس أحد الحيوانات ، ومن بين الحيوانات يأتى فى الصدارة العجل والقط ؛ فهما أكثر الحيوانات شعبية لدى المصريين ، وخاصة العجل "أبيس" الذى يحظى باحترام زائد ، فإذا مات هذا العجل دفن وفق تشريفات محددة .

وأشهر الحيوانات المقدسة الأخرى : الكبش وعنز إيزيس والتمساح والقطة باستيبس والصقر واللقلق والقرد والثعلب والفأر .

ويرى بعض العلماء أن سبب تقديس الحيوانات فى مصر هو عشق أسرة «توت» ، ولكن يرى بعض العلماء الآخرين من علماء المصريات أن سبب تقديس الحيوانات فى مصر هو أن المصريين كانوا يريدون أن يحفظوا أنفسهم من شرور الحيوانات المؤذية وأن يستمتعوا باقتنائهم للحيوانات المفيدة ؛ ولهذا السبب كانوا يقدسون حيوانات من قبيل الأسد والتمساح وأبى الهول (حيوان أسطورى مخيف ينخيلونه)[١] وكان يظهر فوق الأرض من وقت لآخر وكان يخيف الناس .

وكانوا يقدسون العجل والقط والخروف والبط ، وفى بداية الأمر كان المصريون يهتمون بنوع واحد من بين الحيوانات وكانوا يعبدونه ، ولكن بعد ذلك شملت عبادتهم كل أفراد النوع الحيوانى ، وبمعنى آخر فلو كانوا مثلاً يهتمون بقط فإنهم يعبدون كل أنواع القطط بعد ذلك ، وكان المصريون يقدسون القطط والكلاب حتى إنهم كانوا يقيمون المآتم عند موتها !

ويكتب هيرودوت أنه حدث ذات ليلة حريق فى إحدى المدن ، فاشترك كل المواطنين فى محاولة منهم لإنقاذ القطط من الموت قبل أى شىء آخر ! ولم يقدسوا الحيوانات فقط ، بل كانوا يعبدون الأشجار أيضاً .

(١) أبو الهول فى الأسطورة عبارة عن حيوان ، الجسم جسم أسد والرأس رأس إنسان . (المترجم)

عجل أبيس

وكان المصريون - مثل الهنود - يحترمون العجل والبقر احتراما خاصا ، وفى إحدى الروايات ورد أن هذه السماء ما هى إلا عجل وأن جلده يحتوى على العديد من النجوم، وكانوا يعتقدون أن هذا العجل يقف فوق الأرض على أرجله الأربع .

وأشهر الأبقار شهرة هو عجل أبيس وهذا العجل له علامات خاصة ؛ أى إن لونه أسمر ووجهه أبيض على شكل عقاب ، وقد شوهد هذا العجل فى ممفيس فى موضع خاص به ، عجل أبيس هذا لا يمكن أن يعمر أكثر من ٢٥ سنة فإذا عاش أكثر من ٢٥ سنة فإن الكهنة يخفونه .

الروح

يعتقد المصريون فى شأن الروح اعتقادا عجيبا، إذ إنهم كانوا يرون أن كل إنسان له روحان : الأولى تسمى «با» والثانية تسمى «كا» ، وكا تعنى القالب المثالى الذى لا يفنى[1] ولكن مع ذلك لابد من أن يبقى الجسم سليمًا للمحافظة عليها ، ولهذا السبب فإنهم كانوا يجعلون الجسم على هيئة مومياء ويدفنونها فى مكان آمن ، وكانوا يراعون الدقة فى تكفينها ودفنها حتى لا تفنى ، ولما كان من المحتمل أن جسد المومياء سوف يتلاشى فقد كانوا يصنعون تابوتًا لهذه الروح حتى إذا أرادت الروح أن تعود ثانية أمكنها ذلك .

وفى الحقيقة فإن الجسد بمثابة البيت وإن الروح بمثابة صاحب البيت ولاستدعاء صاحب البيت لبيته لابد من أن يكون البيت سليمًا ، وكان المصريون يعتقدون أنه حينما يتلاشى الجسد ويفنى التابوت (القالب) فإن روح الميت تصبح فى حيرة وتكون دائما فى معاناة .

(١) انظر : سليم حسن : مصر القديمة جـ ٢ ، مكتبة الأسرة ٢٠٠١ م ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ . (المترجم)

الموت

إن مبادئ الحياة لدى كل شعب ترتبط بفلسفة ما فى شأن الموت ، فالهنود مثلاً كانوا يعتبرون الموت هو الهدف الأساسى للحياة ولم يكونوا يهتمون كثيرا بالحياة ، ولكن المصريين على العكس لم يعتبروا الموت نهاية للحياة وأن هناك حياة أخرى وكانوا يسعون أن يعيشوا فى سعادة ، وفى الوقت نفسه فقد شيدوا المقابر المحكمة والرائعة لحياتهم بعد الممات ، ولعل المصريين هم أول شعب كان يعتقد فى فكرة البعث وأن موت الإنسان لا يعنى نهايته، وكانت أرض مصر هى التى تمنحهم الأمل فى الحياة بعد الموت ؛ لأنه لو أن كل شىء قد مات مثلاً فى أحد فصول السنة ووُورى تحت الثرى فى الصحراء فإنه فى الفصل التالى من السنة سوف يعود كل شىء للحياة . وقد رأى عمرو بن العاص فاتح مصر رؤيا بهذا المعنى (إن أرض مصر ستكون ترابًا ذات يوم ويومًا آخر ستكون نهرًا به الماء العذب ويومًا ثالثًا ستكون جنة من الورود والرياحين) ، كما أن الوضع الخاص لطبيعة أرض مصر منحهم الأمل بالحياة بعد الممات(1) .

وفى الوقت نفسه كان المصريون يلتفون حول التابوت الذى رقدت فيه تلك المومياء قبل تناول الغداء ، وبهذا الشكل كانوا يشيرون إلى هذا : إن هذا الميت يجب أن يسعد. وإن المصريين بذلك لم ييأسوا من الحياة بعد الممات . وكان المصريون يعتقدون أنه عندما يموت الإنسان يتبقى شبح منه ، وأن شكل هذا الشبح كالصقر ويتخيلونه فى ملامح الإنسان ، ومقام الموتى فى مصر يتساوى مع مقام الآلهة وكلاهما يحترمونه وكانوا يقدسون الاثنين (الميت والإله) .

بقاء الروح

يعتقد المصريون منذ قديم الزمان بوجود الروح ، وكانوا يظنون أن هناك عالما آخر ، يجازى فيه الأخيار ويعاقب الفاسدون؛ لأن الحياة الدنيا قصيرة لمعاقبة الأشرار ومكافأة الأخيار ، وبالنسبة لهم فإن المسألة لا تخرج عن أمرين : إما أن الأخيار

(1) انظر : سليم حسن : مصر القديمة جـ ٢ ، ص ٢٠١ . (المترجم)

يكافئون فى العالم الآخر ويعاقب فى الوقت نفسه الأشرار ، وإما أن الموت نهاية للحياة الإنسانية ، ولما أنه على النحو الأخير لا يكافئ الأخيار ولا يعاقب الأشرار على سوء أعمالهم ، فإن هذا الأمر يخالف العدل ، لذلك فإن المصريين ابتكروا المبادئ الدينية باعتقادهم فى عالم آخر .

وهكذا رأى المصريون أن هناك محاكمة يوم البعث سيمثُل فيها الجانى أمام المحكمة ؛ محكمة أوزوريس ، ويجلس قرد خلف هذا الماثل للمحاكمة ، ويوضع قلب هذا الشخص فى كفة الميزان وتوضع ريشة فى الكفة الأخرى فإذا تساوى القلب مع وزن الريشة أدين ودخل جهنم .

كتاب الموتى

من كتب مصر القديمة بعض الفقرات التى ما زالت باقية من كتاب الموتى ، ويحتوى هذا الكتاب على كلمات قصار وأدعية كتبت من أجل الموتى ، ويوضع هذا الكتاب لسنوات طويلة فى حياة الموتى لإرشادهم فى عالم الأموات ، ويحتوى هذا الكتاب أيضا على نسخة من أجل ابتلاءات العالم الآخر ، وهذا الكتاب يذكر قارئيه كيف يمكن إخفاء مساوئ الموتى يوم القيامة ومن ثم ينخدع الآلهة وينجو الموتى من العقاب .

القسم الثانى

معتقدات الكلدانيين

معتقدات الكلدانيين

كما أشرنا في القسم الأول من هذا الكتاب ، كان المصريون يعتقدون أنه يمكن للإنسان أن يتغلب على القوى المادية وأن يواصل حياته بعد الموت ، وقد شيد المصريون الأهرامات لتأكيد هذه الفكرة – فكرة البعث – بحيث يمكن أن نقول إن الأهرامات رمز لهذه الفكرة، لكن الكلدانيين يختلفون عن المصريين ولا يعتقدون في الحياة بعد الموت ، وفي هذا الجانب من الحياة لا يرون شيئا غير صحراء الفناء المطلق ، وربما لهذا السبب فإن الكلدانيين لم يخلدوا أنفسهم بأى صرح محكم بعد مماتهم وقضوا حياتهم مستمتعين بما فيها من وسائل الرفاهية . ونتيجة للشعور بالعجز أمام قوى الطبيعة القاهرة اعتقد الكلدانيون في الخرافات وأن هناك قوى غير مرئية وأرواحا طيبة وشريرة ، وراحوا يعبدون الآلهة التي ظنوها أقوى من الإنسان وأعلم منه ، والنتيجة المنطقية لهذه الرؤية هي إيمانهم بالسحر الذي انتشر في بابل انتشارا كبيرا ، ومن ثم فقد جنى رجال الدين غنائم كثيرة وذلك بخداعهم للأفراد البسطاء .

ومن ناحية أخرى فإن اعتقاد الكلدانيين في الأرواح جعلهم يظنون أن لهذه الموجودات روحا وإرادة ، حتى بالغوا فظنوا أن لملح الطعام روحا وأنهم يستعينون بها عند الحاجة .

وكان مفهوم معرفة الطبيعة في نظر الكلدانيين أنه بإمكان الشخص أن يفهم الأسرار الخفية للموجودات ، وأن يحيط علما بقدرتها وأخلاقها ، وأنه بعد الاطلاع عليها وعلى أسرارها يمكن أن يوظفها لنفعه والاستفادة منها .

ونتيجة لاعتقادهم في مثل هذه المعتقدات كان الكلدانيون يظنون أن الأرواح الشريرة قادرة على أن تتسبب في أذى الإنسان ، وأنه يمكن محاربتها عن طريق السحر .

الحكومة العالمية

وكان الكلدانيون يتخيلون أن هناك حكومة عالمية مشتركة المصالح فى السماء تشرف على أعمال جميع كائنات الأرض ، وكانوا يظنون أن حقوق كل شخص سوف يحصل عليها فى محكمة الآلهة بعد مشاجرات طويلة وعنيفة ! وأن رئيس المحكمة هو «آنو» إله السماوات وأن نائبه ابنه «انليل» إله الطوفان ومن بين الآلهة يوجد «سبعة آلهة يحددون مصائر البشر» ويلعبون دوراً رئيسيا فى ذلك الأمر، وعندما يتخذ الآلهة السبعة قراراً فإنه يتحتم على الآلهة الأخرى أن توافق على ذلك والإله «آنو» هو الذى يعلن حكم المحكمة ، وتنفيذ هذا الحكم مسئولية «انليل» .

المجتمع الإنسانى فى نظر الكلدانيين جزء مصغر من المجتمع العالمى ، وأعضاء المجتمع العالمى هم عبارة عن الجمادات والنباتات والحيوانات ، والبشر الذين يتبعون أحكامًا محددة ، وهذه الأحكام هى التى نطلق عليها اسم قوانين الطبيعة ، هى قوانين جبرية وليست اختيارية ، ولهذا السبب فإن الكلدانيين يسلمون تسليما مطلقا أمام مصائرهم ويسعون عن طريق الأدعية والنذور والتضرعات إلى أن ترحمهم الآلهة وأن تجنبهم المصير السيئ .

ولهذا سنلقى الضوء على معظم معتقدات الكلدانيين فى شأن حياتهم ، وسننقل بعضا من هذه الأساطير فيما يلى :

عشتار وتموز

من الأساطير الشهيرة للكلدانيين قصة عشتار وتموز ، ووفقًا لهذه الأسطورة فإن تموز قد أصبح رب نوع الشباب وهو عاشق عشتار إلهة الجمال والعشق وقد اتخذ منها زوجة بعد ذلك ، ولكن سرعان ما اختطفه الموت وأشيع أن زوجته قد دست السم له .

عشتار :

وقد ندمت عشتار على فعلتها وراحت تبكى ، وصممت على أن تذهب إلى عالم الأموات لتقوم بالبحث عن زوجها ، فأوقفها سلطان جهنم فى عالم الأموات وألقى بها فى السجن ، فغضبت عشتار وأمرت أن تسخر كل ما لديها من قوى فوق سطح الأرض ، ولما كانت عشتار إلهة الخصوبة والغريزة الجنسية ، فقد تلاشت الرغبة الجنسية فى الإنسان والحيوان ، وفسدت أحوال الأرض والسماء . ولم يقف الآلهة مكتوفى الأيدى أمام هذا الوضع السيئ فأرسلوا رسالة إلى إله عالم الأموات حتى يطلق سراح عشتار بأسرع ما يمكن ؛ فقام رب النوع بين الأموات بالامتثال لأوامر الآلهة وأذن لعشتار وزوجها بترك عالم الأموات .

أسطورة جلجاميش

نظمت هذه الأسطورة فى قصيدة حماسية طويلة عظيمة ، فكانت تعد أول قصيدة حماسية عظيمة فى التاريخ البشرى . وجلجاميش هو ذلك البطل عظيم القدر والمخيف الذى كان ثلثاه إلهًا والثلث الأخير إنسانًا . وقد ذهب بصحبة صديقه «انكيدو» لمصارعة ملك عيلام الذى كان عدوهما ، وبعد حرب حامية الوطيس ينتصر جلجاميش على ملك عيلام . وقد أصبحت شجاعة جلجاميش موضع اهتمام عشتار إلهة العشق ، فعشقته بكل كيانها وطلبت منه أن يتزوجها .

ولكن جلجاميش كان أعقل من أن تخدعه مثل هذه الإلهة المتسلطة التى تتخذ كل يوم عاشقًا جديدا ، ولهذا فقد رفض طلبها ؛ فغضبت عشتار وراحت تكن لجلجاميش كراهية شديدة ، ونتيجة لهذه الكراهية أرسلت عشتار ثورا بحريا لكى يفتك بجلجاميش إلا أن «انكيدو» يهب للدفاع عن صديقه ويقتل الثور فتتحول كراهية عشتار نحو انكيدو فتبتليه بمرض الجرب وفى النهاية يلقى حتفه، ولم تقنع عشتار بموت انكيدو بل ترسل له فهدا هصورا حتى يقطعه إربًا .

وبمجرد أن رأى جلجاميش هـذه الحادثة فإن أسراراً عـديدة تكشّفت له ، ولأول مرة فإن الموت يجذب انتباهه، حيث إنه يعد ظلمة عميقة تطول كل شيء دون رحمة ، وبمجرد أن يدرك جلجاميش أنه معرض للفناء والموت يصمم على أن يحظى بحياة الخلود .

ويذهب جلجاميش باحثًا عن حياة الخلود لكى يقابل جده «اوتا - نابيشتيم» ، وكان جده المذكور هو الشخص الذى أغرق العالم ونجا هو بنفسه فى إحدى السفن وحظى بالخلود(١) .

وبمجرد أن وصل جلجاميش إلى محل إقامة «اوتا - نابيشتيم» سأله عن سر حياة الخلود ، فيروى «اوتا - نابيشتيم» قصة الطوفان من بدايتها إلى نهايتها ، ولكنه يذكر له فى الوقت نفسه أنه لا يعلم شيئًا عن سر حياة الخلود وإن كان هو على قيد الحياة فهذا مرده إلى العناية الإلهية ليس أكثر ، إلا أن جلجاميش لا ييأس من هذا الرد ، فيقدم له «اوتا - نابيشتيم» عشبًا يجدد له شبابه ، واكتفى جلجاميش بهذا العطاء وعزم على العودة إلى بيته .

واهتدى تفكيره وهو يسير إلى أن يسبح فى جدول ماء وكان العشب ينمو على ساحل هذا الجدول ، وبينما شغل جلجاميش بالسباحة ، شوهدت هناك حية تأكل من هذا العشب ولقد لفت نفسها حوله ثم ألقت جلدها هناك ، وهى تعيش فى ذلك المكان وخرج جلجاميش من المياه لكنه كان حزينًا ويائسًا ، وعندما رآه رب نوع الموت واطلع على حالته ، رقّ له لهذا فتح له باب عالم الأموات وبمجرد أن دخل جلجاميش عالم الأموات قابل هناك صديقه «انكيدو» وسأله هذا السؤال الغامض : (كيف حال عالم الأموات ؟) لكن روح صديقه لم تجبه على سؤاله وراحت تبكى ، فأدرك جلجاميش من بكاء صديقه أن وضع عالم الأموات سيئ جداً وغير مرغوب فيه ، فلم يكن لديه حيلة سوى التسليم أمام هذه المأساة الكبرى .

(١) من المحتمل أن نوحًا هو الذى ذكرته القصة باسم «اوتا نابيشتيم» ؛ إذ إن اليهود قد أخذوا قصة نوح عن الكلدانيين . (المؤلف)

أسطورة الطوفان

«انليل» هو الطوفان العظيم الذى غمر البشرية، وعندما علم جميع الآلهة بهذا الموضوع ، انقسم هؤلاء قسمين أو جماعتين : جماعة أيدت هذا الحدث ، وجماعة عارضته . وفى البداية فإن «ايا» رب العلم قد آزر الجماعة الثانية ولكن بمجرد أن فهم أن الجماعة الأولى قد انتصرت فقد اختار من بين البشر شخصًا يدعى «اوتا - نابيشتيم» كان أذكى الجميع حتى ينجو من هذا الطوفان بركوب السفينة[1] ، وقد حثَّ «اوتا - نابيشتيم» «ايا» على الامتثال لأوامره وركبا السفينة وحملا معهما أزواجا من الطيور والحيوانات ولوازم الحياة ، وبمجرد أن ركب «اوتا - نابيشتيم» و«ايا» السفينة أغرق الطوفان الدنيا وأظلمت الحال لمدة سبعة أيام حتى انحسر هذا الطوفان فى اليوم السابع ورست السفينة فوق جبل .

وقد أطلق «اوتا - نابيشتيم» حمامة وبلبلاً فى السماء حتى يدرك بهذه الوسيلة إن كان وجه الأرض جافًا أم غير ذلك ، وبالفعل عاد إليه هذان الطائران وعلم بعد عودتهما أن الوضع سيئ للغاية ، وبعد قليل أطلق «اوتا - نابيشتيم» غرابًا ، إلا أن الغراب لم يرجع فأدرك «اوتا» من هذا أن الوضع قد تحسن . وبعد نجاة السفينة قدم الشكر للآلهة وقدم أيضًا القرابين ، وتقبلت كل الآلهة القرابين إلا «انليل» الذى حزن لعدم إتمام هذه المؤامرة .

وعلى أية حال فقد بقى «اوتا - نابيشتيم» حيا وعاش مخلدا ، إلا أن أولاده أصابهم الغرور جميعًا وراحوا يحقرون الآلهة ؛ ونتيجة لذلك فقد حسدوا آلهة برج بابل حتى يصلوا عن طريق ذلك إلى السماء ، لكن فى أثناء صعودهم نزلت بهم صاعقة عظيمة وأفشلت خطتهم وكان هذا عقابهم ، وكانوا يتحدثون بأكثر من لغة ولا يفهمون بعضهم وكانوا على خلاف فى الرأى .

(١) هنا إشارة إلى طوفان نوح وسفينته . (المترجم)

أسطورة ظهور العالم

فى البداية لم يكن هناك شىء يوجد دون اضطراب ، فلا السماء موجودة ولا الأرض ، وقد امتزج «ابسو» والمحيط من ناحية و «تيامات» أو الاضطراب من ناحية أخرى، أو بمعنى آخر قامت القيامة ، وحينئذ حدث الهدوء ، وظهر «انشار» «وكيشار» ؛ أى السماء والأرض وتحرر «آنو» وجميع الآلهة الآخرين من السماء والأرض .

وبينما لم يتم ظهور هذه الموجودات ندم «ابسو» «وتيامات» وصمما على أن يقضيا على الموجودات الأخرى ؛ فأرسلا كثيراً من الوحوش المخيفة لقتل الموجودات المذكورة إلا أن «ايا» إلهة العلم قد تغلبت على أعدائها بفضل بعض التعاويذ السحرية ، وتقهقر «ابسو ولكن تيامات لم يتأثر بنفوذ ايا» السحرى واستمر فى محاربته بمساعدة الوحوش ، وقد خاف جميع الآلهة باستثناء «مردوخ» وفروا من ميدان القتال ، وحارب مردوخ تيامات بمفرده ، وقطعه قطعتين فصعدت قطعة من جسد تيامات إلى السماء وهبطت القطعة الأخرى على الأرض ، وبعد ذلك ساد الاستقرار والهدوء كل مكان ، علاوة على أن كل نجم تحدد مجاله الفلكى ، وأصبح لا يتجاوزه .

أسطورة انليل وننليل

كيف ظهر القمر، وكيف أصبح للقمر ثلاثة إخوة ؟ وللتعرف على هذا اللغز ينبغى أن نلقى الضوء على آلاف السنين التى مضت ؛ أى العصر الذى بدأت فيه الخليقة .

وفى تلك الأثناء كان يعيش فى مدينة «نيبور» انليل «وننشبار گونو» وقد أخبرت «ننشبار گونو» ابنتها ألا تسبح وحيدة فى النهر ؛ لأنه من الممكن أن يراها شاب ويعتدى عليها .

ولكن ننليل كانت شابة عنيدة ولم تستمع لحديث أمها وذهبت للسباحة ، وقد وقع المحظور ؛ أى إن «انليل» رأى «ننليل» فشاركها فراشها بالقوة ، فحملت ننليل من انليل وأنجبت «سيت» أى رب نوع القمر ، ولكن جُرم انليل لم يغفر ؛ إذ إنه بمجرد أن عاد إلى مدينته

تم الإمساك به حينما كان يتجول فى أحد ميادين المدينة ، وقدموه إلى ولاة الأمر فى المدينة فحكمت عليه هيئة الآلهة المكونة من ٥٧ عضواً بالنفى من المدينة لهتك عرض ننليل.

واتجه انليل وفقا لحكم محكمة الآلهة إلى منطقة الأموات المهجورة تاركًا وراءه مدينته (نيبور) ولم تنس ننليل عاشقها السابق واتبعته ، ولأنه أخطأ بهتكه عرض ننليل ظن أن ولاة الأمر سوف يسيئون تفسير لجوء ننليل إليه ، لذلك فكر فى حماية هذه الفتاة بكل وسيلة .

وأول رجل قابله فى أثناء سفره إلى عالم الأموات كان حارس بوابة هذا العالم ، فاستخدم انليل قدرته الإلهية وبدا فى صورة حارس ، وبمجرد أن وصلت ننليل إلى البوابة رأت انليل ولم تدرك أنه فى هيئة جديدة تختلف عن هيئته الأصلية ، فأخبر حارس البوابة الكاذب الفتاة ننليل أنه وقف فى ذلك المكان بأمر من انليل وأنه سوف يحميها ، وفى النهاية خُدعت ننليل بالكلمات المختلفة للبواب الكاذب ، فضاجعها هذا الحارس أيضًا فحملت منه كما حملت قبل ذلك من انليل ، فوضعت ننليل ربة النوع هذه المرة (مسلامتيا) كما ورد فى الأساطير الكلدانية ، وسار انليل للمرة الثانية فى طريقه المجبر عليه بعد نفيه وراحت ننليل تبحث عنه ثانية .

أسطورة تيلمون

عندما قسم العالم بين الآلهة ، أصبحت منطقة البحرين(١) من نصيب «انيكى» و «نينهورساجا»، وبعد ذلك اقترح انيكى على نينهورساجا أن يمتزج ماء هذه الجزيرة ، فخطبها أول الأمر وفى البداية رفضت «نينهورساجا» خطبته ولكن فى النهاية استسلمت للزواج منه ، وكان ثمرة زواج الأرض «نينهورساجا» والماء «انيكى» ابنتهما الإلهة المعروفة باسم «نينساز» أى النباتات ، ولكن قبل أن يفيض نهرا دجلة والفرات فى أثناء الطوفان استمر سنوات ثم انفصل انيكى عن زوجته (نينهورساجا) قبل ميلاد الإلهة «نينساز» .

(١) يقصد الكاتب بمنطقة البحرين : منطقة نهرى دجلة والفرات . (المترجم)

وفى أواخر الربيع تنمو النباتات على ضفتى النهر ، وأيضًا ذهبت «نينساز» هى الأخرى إلى محل إقامة أبيها «انيكى» ولكن انيكى يروقه شباب ابنته «نينساز» فيضاجعها ، وبعد ذلك يتركها فتلد إلهة النباتات (نينساز) فتاة ولم تكن هذه الفتاة سوى (الليف) – على حد قول الأسطورة – الذى يستخدم فى نسج أقمشة الكتان ، وتلد هذه الإلهة بدورها إلهة القماش والنسيج أى (اوتو) .

والآن فإن «نينهورساجا» تدرك إلى أى مدى يصل شبق زوجها انيكى ، وتحاول «اوتو» أن تحترس وألا تنخدع أن يضاجعها انيكى، وتعمل «اوتو» بنصيحة «نينهورساجا» وترفض أن يضاجعها انيكى إلا فى حالة تقدمه لها بشكل رسمى للزواج منها .

ويستسلم انيكى أمام رغبة اوتو وشروطها فيقدم لها الهدايا الثمينة تعبيراً عن خطبته لها ، ولكن فى النهاية يخدع «اوتو» ويسقيها الخمر ، وبينما هى ثملة يقضى منها وطرا ، فتضيق (نينهورساجا) ذرعًا من أفعال انيكى السيئة وتسبه وتلعنه ونتيجة لهذه الشتائم فإن الآبار والأنهار تتعرض للجفاف ، ويغور الماء فى أعماقها ، فتقلق الآلهة من هذا الوضع وتطلب من الثعلب أن يحضر لهم «نينهورساجا» حتى يحثوها على أن تتراجع عن سبها لانيكى فتخدع «نينهورساجا» الثعلب وتذهب إلى الآلهة وتبدى ندمها (يمثل كل رب نوع عضو من أعضاء البدن) ومع ميلاد ثمانية آلهة يمثل كل إله رب نوع ، ويشفى انيكى من مرضه .

الأخلاق

إن الحضارة التى تتخذ من العالم سلطة واحدة لحكومة ما وراء الطبيعة هى بلا شك تعد الطاعة أعظم الفضائل ، إذن ليس غريباً لو رأينا أن الحياة فى منطقة ما بين النهرين هى مرادف للطاعة التى تعد توأمها .

وفى المجتمع البابلى يجب على الفرد قبل جميع أفراد أسرته (أى الأب والأم ، والأخ والأخت الكبرى) أن يمتثل للطاعة وأن وظيفته بعد ذلك أن يطيع الحكومة .

ونتيجة لاتباع هذا الأصل فإن الكلدانيين يحترمون الأب والأم – خاصة الأم – احتراماً زائداً ، وما أكثر الأمثال الشهيرة فى هذا الشأن :

(امتثل لأمر الأم فإنه مثل أمر الله) .

وكما قلنا فإنه لا يجب فقط على عضو الأسرة أن يحترم الكبار ، بل يجب على كل شخص كبير أيضا أن يحترم الأصغر منه ، فمثلاً : يجب على العامل أن يطيع الحاكم وأعضاء الحكومة، وأن يطيع أعضاء الحكومة الملك .

ويعتبر الكلدانيون الملك هو الراعي الذي يجب أن يطاع سواء أحبوا أو كرهوا ، وترد الإشارة في هذا المثل الكلداني : (جنود لا يطيعون الملك هم خراف لا تطيع راعيها) ، (أمر القصر مثل أمر «اونو» لا يمكن التمرد عليه) .

وأكثر من هذا فإنهم يريدون أن تنصاع لهم قوى ما وراء الطبيعة المختلفة ، ولهذا السبب فإن الكلدانيين عند مواجهتهم لسوء حظ فإنهم يبدون مثل طفل عاجز لا حيلة له ، ويظن الفرد الكلداني أن السماء أبوه فيلجأ إليها ويطلب منها المساعدة .

ولما لم تكن هناك محكمة حتى عصر حمورابي فإن المظلومين كانوا يلجؤون إلى إله ما وراء الطبيعة الخفي للانتقام من الظلمة[1] .

وإن أي مفسد يمكن معاقبته في هذه الدنيا ، والفكرة التي لم تخطر على بال أي كلداني أن هذا اللطف وهذه الرحمة وراءهما «حمورابي» العظيم ، الذي اعتبر أن القوانين وُضعت لرفع الظلم عن المظلوم وتنفيذ العدالة وهي حق مسلم به وليس هبة من قبل الخالق .

ومن بين الأعمال التي بقيت عن الكلدانيين كتاب باسم «كتاب الحكمة»، ذلك الكتاب الذي دوِّن فيه جزء من أخلاق الكلدانيين، ومن بين تعاليمه المذكورة :

(لا تسئ إلى عدوك ... وأحسن لمن أساء إليك ... ولا تتزوج من امرأة يكثر عشاقها ... والعاقل من لم يعجب بنفسه) .

(١) حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م) : أشهر ملوك الدولة البابلية ، قضى على الإمارات الصغيرة وحقق وحدة ما بين النهرين ، اشتهر بشرائعه الإدارية والاجتماعية . (المترجم)

زوال جميع القيم

فى أواخر كل حضارة ينتشر فى الغالب نوع من التشاؤم ، وقد حدث هذا أيضاً فى الحضارة الكلدانية ؛ حيث انتشر التشاؤم فى أواخر الألف الأولى ، وإحدى الفقرات التى بقيت عن تلك الفترة تثبت هذا الأمر، والفقرة المذكورة هى فى الواقع حوار بين سيد وعبده ، يعرف باسم «ديالوج أو حوار التشاؤم» .

وأسلوب هذا الحوار بسيط للغاية ، إذ إن السيد يخبر عبده أنه يريد أن ينجز عملا خاصا ، فيشجع العبدُ السيدَ ذاكراً له مزايا ذلك العمل ويحثه على أن يبادر به ، ولكن السيد فى أثناء إنجاز العمل يغير رأيه ويقول لعبده إنه لن ينجز العمل المذكور (فنرى) أن العبد يمدح هذه المرة أيضاً تصرف سيده ويذكر مثالب هذا الأمر .

وبهذا الشكل فإن جميع القيم الأساسية للحياة قد تناقش ، ويستنتج منها أنه ليس هناك شىء سيئ فى ذاته وليس هناك أيضاً شىء طيب فى ذاته ، وهذه عدة أسطر من حوار التشاؤم ننقلها :

(– أيها الخادم أتوافقنى أن أصاحب امرأة !

– صاحبْ ... يا سيدى ... صاحبْ.

– لا أيها العبد .. لا أريد أن أصاحب أية امرأة من النساء.

– لا تصاحب سيدى ... لا تصاحب !

إن المرأة فخ ومصيدة للرجل

والمرأة سيف حديدى حاد يقطع عنق الرجل الشاب) .

ويتحدث فى شأن التقوى فيقول :

(– أيها العبد أتوافقنى !

– لك الطاعة أيها السيد .. لك الطاعة

فلتأمر على الفور، سأحضر لك الماء وسأصب الكأس لسيدى!

ولتفعل هذا الأمر يا سيدى .. ولتفعل هذا الأمر ، فإن الرجل

الذى يصب الكأس للرب ، قلبه خالٍ من الهم والحزن.

– لا أيها العبد .. لن أصب كأساً لإلهٍ أبداً.

– لا تفعل يا مولاى .. لا تفعل

وقسماً بالله إن ذلك مثل الكلب وذيله) .

وبعبارة أخرى: هب نفسك للرب ودع الرب يشعر بأنه يحتاج إليك من أجل عبادته وخدمته .

حوار الخادم والسيد فى شأن إعطاء الصدقة ، وليس هناك حديث أفضل من كلامهما فى شأن التقوى :

(– أيها العبد أتوافقنى !

– نعم نفسى فداؤك نعم.

– أريد أن أتصدق على الدولة.

– فلتقل يا مولاى هذا ...فلتقل يا مولاى هذا

إن الرجل الذى يتصدق على الدولة مثل من يمنح صدقته لماردوخ [أى الإله] .

– لا ، أيها العبد لن أتصدق على الدولة.

– نعم لا تفعل هذا الأمر يا مولاى .. لا تفعله

فلتذهب لتشاهد أطلال المدن القديمة

ولتنظر إلى جماجم السابقين ولتنظر من منهم الخير ومن منهم الشرير ؟) .

وبعبارة أخرى: لا فرق سواء فعلنا الخير أو فعلنا السوء ففى كلتا الحالتين سيطوى النسيان أهل السوء وأهل الخير ! وليس هناك أى شىء حسن ، فكل شىء هباء ولا معنى له !

(– أتوافقنى أيها العبد !

– لك الطاعة سيدى ... لك الطاعة.

– الآن أخبرنى لأرى ما هو الخير ؟

ضرب عنقك وعنقى وإلقاؤهما فى النهر ، أهذا خير !)

ولكن السيد يغير رأيه ثانية ويقول :

– لا أيها العبد سأقتلك أولاً ، وليحدث موتك قبل موتى . فيسأل العبد أيضاً :

(هل تستطيع يا مولاى أن تعيش بعد موتى لمدة ثلاثة أيام ؟)

وبعبارة أخرى : ليس للحياة أى نفع سواء كانت طيبة أو سيئة وأى نفع أن نعمر طويلاً فى هذه الدنيا ؟!

مقارنة بين أفكار المصريين والكلدانيين

يرى المصريون والكلدانيون آلهتهم فى مظاهر الطبيعة ؛ فإن كان المصريون يعبدون الشمس رمز الإله فإن أهالى بين النهرين كانوا يعبدون الشمس كرب نوع الشمس .

وكان لكل من المصريين والكلدانيين نظرته الخاصة فى شأن الحياة بعد الموت ، لأن الكلدانيين لا يعتقدون فى الحياة بعد الموت على عكس المصريين .

وإن كان الكلدانيون يقلقون من الأرواح الشريرة ويخشون الموت ، فإن المصريين أقل اعتقادا فى الخرافات من الكلدانيين ولا يخافون الموت .

ومن ناحية أخرى فإن كان الفرعون بمثابة الإله ففى بين النهرين ليس الملك سوى خادم وعن طريق الآلهة يختار ويعزل برغبتهم أو يقتل ، ولهذا السبب فإن أهل بابل والملوك كانوا دائما ينتظرون ظهور علامات فوق الأرض أو فى السماء ، سواء فى صالحهم أو ضدهم ، حتى يحولوا دون وقوع سوء الحظ بقدر المستطاع .

أما فيما يتعلق بشأن الإله والخليقة فيمكن القول إن المصريين يتصورون أن خلق العالم هو عمل الإله القادر والمتعالى الذى يسيطر على كل شىء ، وليست هناك أية قدرة يمكن أن تقف ضده ، ولكن الكلدانيين كانوا يظنون أن خالق العالم هو نفسه خادم جماعة أخرى من الآلهة وهو عاجز أمام الآلهة الأكثر قوة منه ، إذاً فالمصائر البشرية لا يحددها إله واحد بل مجموعة من الآلهة ، ودور الخالق فى إبداع الخليقة

ليس سوى أحد المنفذين الذين هم كثيرون . وقد كان للكهنة دور كبير سواء فى بابل أو فى مصر وكانوا يتدخلون فى جميع شئون الدولة ؛ خاصة المسائل الاقتصادية ، وقد كان للدين تأثير كبير ، حتى إن العاصمة تسمت باسم دينى وتعنى بابل أى (باب الله) وتعتبر المركز الدينى ، ولكن من ناحية أخرى فإن كانت أرض الكلدانيين هى بلاد المنجمين والسحرة وعلماء الأحكام والشرائع ، فإن مصر هى بلاد المهندسين والصناع والعلماء ، وفى بداية الأمر كانت «كلدة» مثل مصر لكل مدينة فيها إله خاص ولكن شيئًا فشيئًا اختير إله العاصمة كرب الأرباب وتفوق «ماردو» على جميع الآلهة .

وكان أهل بابل يسعون – خلافًا للمصريين – إلى أن يدفنوا موتاهم بأسرع ما يمكن إذ كان أمر التكفين والدفن أمرا مهما ؛ إذ كانوا يتصورون أن أقسى عقوبة هى حرمان الشخص من تكفينه ودفنه !

وفى النهاية يمكن الإشارة إلى أن عقائد المصريين والبابليين قد أثرت كثيرا فى كتابات اليهود ، ويمكن القول أيضًا إن أفكار علماء اليهود وأخيلتهم مستمدة من نفس الكتابات الفلسفية والأدبية لهاتين الدولتين .

القسم الثالث

فلسفة الهند

نظرة إجمالية إلى فلسفة الهند

تزخر فلسفة الهند بكل أنواع الفكر ؛ فمن جانب ترى فلسفة الهند أن كل شيء هو الله[١] ومن جانب آخر ترى أن كل شيء في الله[٢] ، وحيناً ترى أن المثالية أساس كل شيء ، وحينا آخر تستبدل المادية بالمثالية ، وتارة تدعو لعبادة الله ، وتارة أخرى تدعو إلى الإلحاد ، ومن ناحية ترى أن المحبة هي الخير الأسمى ومن ناحية أخرى تعد الحق في القدرة .

ومن بين فلسفات الهند العديدة يمكن ذكر ستة أفرع من الفلسفة :

١ – فلسفة سانكهيه ٢ – فلسفة جارواكه ٣ – فلسفة نيايه

٤ – فلسفة ڤيدانته ٥ – فلسفة وى شه سيكه ٦ – فلسفة مى ماسه

والكتابات الفلسفية الهندية أربع :

١ – بورڤاباكشا **Purvapaksha** (ما ذكره الأسبقون) .

٢ – خاندانا **Khandana** (نقد فكر السابقين) .

٣ – اتراباكشا **Uttarapaksha** (شرح الفكر الجديد) .

٤ – سيدهانتا **Siddhanta** (نتيجة الفكر الجديد) .

وتنقسم الفلسفة الهندية إلى طبقتين :

١ – استيكا **Astika** الأفكار الفلسفية الإلهامية .

٢ – ناستيكا **Nastika** الفكر الحر والمستقل .

(١) Pantheisun .

(٢) Panentheisun .

ترتبط بعض النظم الفلسفية الهندية معًا ارتباطًا وثيقًا ، وعلى سبيل المثال فإن فلسفة سانكهيه هي الجانب النظرى لفلسفة "يوج"، وفلسفة جارواكه وفلسفة جين من نوع فلسفة ناستيكه وسانكهيه ونيايه ووى شه سيكه وتسير على نهج كتابات ڤيدا . وقد كتبت بعض التفاسير للفلسفات الهندية وسميت هذه التفاسير (سوترا) ، من قبيل برهما سوترا (فى تفسير فلسفة ڤيدا) وسوتراجى منى (فى تفسير فلسفة سانكهيه) وجوتمه سوترا (فى تفسير فلسفة وى شه سيكه) وسوتراى بتنجلى (فى تفسير فلسفة يوج) .

وتلعب برهما (القوة المقدسة) أعظم دور فى فلسفة الهند ، وبرهما أو القوة المقدسة هى الحقائق التى تتجاوز العالم العملى ، ومن هنا فهى تخلو من الألم والحزن ، فإذا اختفى العمل (Karma) فإن ثمرة العمل التى تتمثل فى الألم تختفى أيضا ، ويسعى أنصار فرقة مرتاضى الهند أن يتخلصوا من شرور العمل (كرما) عن طريق الوصول إلى (برهما) ، وعن طريق فلسفة الهند يمكن الوصول إلى برهما من خلال ثلاثة طرق :

١ – طريق العلم Gyana Marga .

٢ – طريق الأحاسيس Bhakti Marga .

٣ – طريق العمل Karma Marga .

وتوجد قوة برهما فى أعماقنا جميعا ، وهى جاهزة فى كل لحظة لكى تخدمنا شريطة أن ندركها .

ولا يهتم الفيلسوف الهندى (بنظرية العلم) وكيفية العالم ، فهو يريد أن نحظى بمعرفة أنفسنا لنصل إلى قوة برهما .

ومن ثم فإن العالم يبدو لأى فيلسوف وهمًا أو (Maya) وهو يسعى ألا يقع فى فخ الوهم حتى يصل إلى برهما أو الحقيقة ، وللتخلص من براثن الوهم وهشاشة الوجود يطرح الفيلسوف الهندى كل قواه العقلية جانبًا ، ولاختراق أسرار الوجود وتجاوز ميدان المجهول فإن الفيلسوف الهندى يطوى طرقًا طويلة وبعيدة .

وأول مرحلة يقطعها في هذا الطريق هي ممارسة الرياضة ؛ والمقصود بالطبع هنا الرياضة الروحية ، والخطوة الثانية : الزهد في حطام الدنيا ، والخطوة الثالثة : تجنب الصفات الرذيلة حتى يمكن بهذا الشكل أن يخطو الفيلسوف إلى عمق الظلمات ، فيبصر نور العرش الحقيقي . ولا أصْل لما يقال من أن الفلسفة تسمى باللغة السانسكرتية (درشته) أي الشيء المرئي (Drishta) ويدعي كثير من فلاسفة الهند أن الشخص يمكنه أن يحظى برؤية الحق عن طريق تلك الرياضة . وينبغي على الشخص أن ينقي داخله من كل أنواع الشوائب حتى يسطع ضوء الحق على روحه مثل الشمس وتتضح له الأشياء على حقيقتها وليس كما تبدو له . ولا تقوم فلسفة الهند على ملاحظة العالم المادي ، ويحكى في هذا الشأن حكاية فحواها : إن ملكًا ذهب إلى «شانكارا» حتى يتعلم الحكمة منه ، فقال شانكارا إن العالم المادي مجرد خيال ، وحتى يغير الملك من تفكير الفيلسوف وأن العالم ليس كما يقول - أمر أن يضعوا فيلاً مجنونًا في طريق شانكارا حينما يعود إلى بيته ، وبالفعل فعل رجال شانكارا ما أمروا به ، وبمجرد أن رأى شانكارا الفيل همَّ بسرعة وقفز فوق الشجرة ، فنجا من شر الفيل بهذه الوسيلة . وفي اليوم التالي ناقش الملك واقعة ما حدث بالأمس ، فقال لمعلمه : لو أن العالم المادي ليس سوى خيال إذن لماذا فررت من أمام الفيل الذي هو خيال ؟ فقال الفيلسوف : نعم إن الفيل لا يعدو أن يكون خيالاً ولكن ينبغي أن لا ننسى أننا أنا وأنت غير حقيقيين مثل الفيل ، وأن جهلك يكمن في مشاهدتك لي وأنا أقفز فوق الشجرة وهذا مشهد غير حقيقي !

وإن الاعتقاد بأن الشيء الذي يبدو في هذا العالم الخيالي حقيقة ما هو إلا جهل ! وإن علة العلل هي كل هذه المساوئ أو أڤيديا Avidya التي تبدو في صورة مادية أي محسوسة (سمسكارا) وأن ڤي جيانانا Vijianana هي المصدر الذي تصدر عنه الحياة المستقبلية من خلال حياة الماضي وأن هذه الأشياء - المحسوسة هي باعث على ظهور المصائب المتعددة في الحياة مثل: Namarupa أو الاسم، والصورة ، و Sadayatna أي الجوارح الست وهي الحواس الخمس والعقل ، و Sparsa أي لمس الحواس للمحسوسات، و Vedana أي الإحساس والتجربة ، و Trshna أي التعطش للماديات ، و Upadana أي التعلق والاهتمام ، و Bhava أي الوجود ، ونتيجة لارتباط الوجود بالإنسان والشيخوخة والموت أي Jara- Marana فإنهم يسمون هذه المراحل الاثنى عشر :

الوسائل الاثنا عشرية (Dvadasa- nidana) أو فلك الوجود . الخلاصة : إن الجهل أساس الفساد وسوء الحظ لأنه مادام الجهل موجوداً فإن العمل وليد جديد أيضا موجود وما دام الوليد موجوداً فإن سوء الحظ موجود .

ويهتم الفكر الهندى كثيراً بالفرق الكبير بين المادة والروح ، وأساس مميزات فلسفة الهند أنها تقوم على الروح ، وقد شرح الفرق الكبير بين الروح والمادة فى فلسفة سانكهيه بشكل بديع ، وبهذا المعنى ووفقًا لهذه الفلسفة فإن هذه الدنيا تديرها قوتان : الأولى بورشا Pursha أو الروح ، والثانية بركرتى Prakriti أو القوة التى هى علة العلل فى العالم المادى ، وبين هاتين القوتين يبدو دائمًا الصراع والجدال . وعلى الرغم من أنه فى آخر الأمر تتفوق بورشا على بركرتى – أى علة العلل فى العالم المادى – فإن الخير والشر يدومان بالنسبة للإنسان، ومع هذا ففى النهاية سينتصر أحد هذين العنصرين على الآخر .

ولا يعتبر «سانكهيه» المعلول منفصلاً عن العلة ، ويرى أن العلة قد تبدو فى شكل معلول ، وأن العلة الغائبة قوة محضة ولا تتأثر بالمادة أبدًا ، وبناء على هذا فإن هذه العلة أفضل من المعلول ، وكما أن المعلول جسم محض فإن العلة الأولى هى الروح المحضة ، ولـ بركرتى ثلاثة أوجه (علة العلل أو الجسم) وهى عبارة عن : (ستوه ورحبس وتمس) ورحبس (Rajas) محرك الأشياء وهو دائمًا فى حركة ، أما تمس فيجعل النفس كئيبة ويتسبب فى الغفلة والجهل ، كما أن رحبس وتمس وستوه يكونون دائمًا معًا . الخلاصة أن «تمس» قد يبدو فى فرد أكثر قوة ، وقد يكون رحبس وستوه أقوى فى شخص آخر ، والخير والشر يكمنان معًا فى الشخص ومع هذا يتفوق أحد العناصر الثلاثة المذكورة على العنصرين الآخرين ، وهذه القوى مرتبطة فهى مثل الزيت والفتيل والنور أى كعلاقة اللازم والملزوم، مشتركان معًا ، ومع ذلك فإن هذه القوى دائمًا فى صراع مع بعضها .

وما أسعد الشخص الذى يتغلب «ستوه» على القوى الأخرى فى كيانه؛ لأن مثل هذا الشخص سوف يتمتع بنور العلم ، ومن وجهة نظر سانكهيه أن الآلام ثلاثة أنواع :

١ – الآلام التى تظهر نتيجة لخصائص الجسم والروح .

٢ – الآلام المادية التى تأتى من الخارج .

٣ – الآلام السماوية غير المعلومة التى ليس فى وسع الإنسان تحملها ، وهى التى لا يستطيع الإنسان أن يصبر عليها ، وقد يتحملها شخص ويضطرب وقد يصبر عليها شخص آخر ، ولكن النجاة منها فى تحرر الروح ، فإذا انفصلت الروح عن بركرتى انفصالاً تاما فإن الآلام سوف تنفصل عنها بالطبع .

والأرواح مجردة ومنزهة وليست محدودة بمكان، وهى منقاة من جميع الملوثات ودائمًا يبدو عليها الاستغناء ، وهى لا تطلب شيئًا ولا تهرب من شىء ، وهى العلم الخالص ، وهى تخرج عن حدود المكان والزمان والعلة والمعلول ، وهى محيطة بكل شىء ومتحررة من كل شىء .

وحينًا نبدو سعداء وحينًا آخر نبدو تعساء، وإن الروح لا تطلب الخير ولا تخشى من الشر ولا تتمنى الجنة ولا تخشى النار ، ولا تعرف العظمة ولا تجنح إلى العبودية ولا تَقْتلُ ولا تُقْتَلُ ، ولا تسعى وراء شىء ولا يطاردها شىء ، والانشغال بالدنيا يبدأ من النفس التى تستضىء بنور العقل ، فتبدو فى شكل روح ، وإن الإعجاب بالنفس هو الذى يجعل الدنيا متذبذبة بالنسبة لها . وعندما تخطئ الروح لا تعتبر نفسها مميزة عن النفس ، فهى تتقيد بحدود الزمان وتقع فريسة فخ طلب الخوارق ، وفى هذا الوقت تخطئ الروح ولا تصبح النفس روحًا وتظهر الشخصية ، فهى حينئذ تريد الشهرة وتبحث عن الجاه وتتغير فى كل لحظة ، فتارة معتدى عليها وتارة أخرى معتدية ، وحينًا ظالمة وحينًا مظلومة ، ووقتًا هى كالملك ووقتًا آخر كالمملوك ، وتبدو سجينة أو حرة أو مسرورة أو تعيسة ، وحينًا حزينة وحينًا فى منأى عن الحزن حتى تسقط من عالم الخيال إلى عالم أكثر وضاعة ، وهو الذى يمكن أن نتخيله ، وتبدو حينئذ فريسة الوهم والخرافات وفى النهاية تغرق فى بئر الجهل ، ولكن كل موجة تصل إلى القاع لابد لها من أن ترتفع بعد ذلك ، وتبدأ الروح انطلاقًا من الوضاعة إلى السمو ، أى من الطريق نفسه الذى انحدرت إليه وتبدأ فى السمو بعد ذلك حتى تصبح نقية ومنزهة[١] .

(١) نقلاً عن إيران نامه ، جلد دوم ، تأليف عباس مهرين . (المؤلف)

ولا تؤمن فلسفة سانكهيه بالله ، وتعتبر أن الروح حقيقة ومستقلة وأبدية ومستغنية ومنزهة عن كل تلوث حتى لو كان الله(١) ، وإن الإله ليس إلا مجرد متفرج ، لأن التخلص من بركرتى مرتبط بالروح، وفى هذا الصراع لا تحتاج الروح إلى قوة خارجية بمعنى (الله)، وعلى الرغم من أن الروح ليست متحركة فإنها عند حضور بركرتى تبدو متحركة ، وبالسعى يمكن للروح أن تتخلص من شرور ونفوذ بركرتى (المادة) .

وطبقًا لفلسفة الهند فإن الشخص الذى يريد أن يعيش حكيمًا لابد له من أن يطوى أربع مراحل :

المرحلة **الأولى** : هى مرحلة التلمذة والطاعة (Antevasin) وفى هذه المرحلة يجب على الشخص ألا يتزوج ويعف نفسه(٢) ، وبعد ذلك يصل إلى **مرحلة** : الزواج (Grahasths) وحينئذ يدخل المرحلة **الثالثة** (Vana prashtha) وفى هذه المرحلة يترك البيت ويعيش زاهدًا بعيدًا عن المدينة فى إحدى الغابات ، وفى المرحلة **الرابعة** (Bhiksu) يعيش الشخص كدرويش لا يستقر فى بيت ، وفى هذه المرحلة يتناسى ذاته ويستغرق فى روح «برهما» فينسى قيوده المادية تمامًا .

والهدف من فلسفة الهند أن تصل بالإنسان إلى مرحلة Moksha أى التخلص من القيود المادية والتأثير الطاغى للعالم المادى (Nemuci) وبناء على هذا فإننا سوف نرى كل الاختلافات فى الأنظمة الفلسفية الهندية ، وتلتقى كل هذه الفلسفات الهندية فى نقطة واحدة !

وقد حث بعض فلاسفة الهند أتباعهم على السير فى هذا الطريق لكى يتخلصوا من القيود المادية وذلك بممارسة الرياضة الروحية ، ومن ثم فإنهم يتجاوزون الحياة المؤلمة والمعذبة .

ومن خصائص فلسفة الهند الأخرى طريقة التقائها مع أسرار الوجود ، ولا تبدو فى تاريخ الفكر الإنسانى تلك الأفكار السامية والعظيمة كما وردت فى هذا الشأن فى

(١) هذا تعبير فيه مبالغة شديدة ؛ لأنه ليس فى الوجود من هو أكثر تنزيهًا من الله جل شأنه . (المترجم)
(٢) ليس فى الإسلام رهبنة ، وهذه الفلسفة تخالف الخط الفلسفى الإسلامى تمامًا . (المترجم)

الكتب الفلسفية الهندية ، وجمال الفلسفة الهندية أنها تشير إلى أسرار الوجود بحذر وسرية تامة فيبدو عليها نغمة الحيرة والاضطراب ، فتعترف بجهلها المطلق .

ويقول فى هذا الشأن «أوپانيشادها» أحد كتب فلسفة الهند العظيمة : (إن كل شخص يحاول أن يدرك ما لا نهاية له يغوص فى ظلمة أحلك فى كل خطوة يخطوها) وفى مخطوط آخر عندما يريد الفيلسوف أن يذكر «سر الأسرار» فإنه يذكره كما يلى (تات توام - هاك تو) أى : هذا أنت ، أنت !

الخلاصة أن سر الوجود ليس فقط أنه مجهول ، بل إننا لا يمكن أن نسميه ، ولا يمكن لأى إنسان أن يدرك سر الوجود، وربما هو نفسه الوجود وهو لا يعلم ذلك!

وترى أعيننا الشبح المبهم فى هذه الخليقة ولكن هذه الخليقة لا ترى هذا الشبح ، لأنه لا توجد مرآة ترى فيها خلقتها أو نفسها . وكل مساعى الفلسفة الهندية تبحث عن طريق إلى النور فى الفضاء الخالى وفى هذه الظلمة اللانهائية ، وهى تسير فى مضيق عميق بين المجهول والمعلوم باحثة عن جذور العلاقة بينهما ولكن لا تجد شيئًا سوى الصمت والحيرة إجابةً على هذا السر .

ولو أن فلسفة الهند بكماء أمام سر الوجود فإن الإنسان يتحمل المسئولية فى هذه الدنيا ويمتلك حرية الاختيار، بمعنى آخر : إن الإنسان مسئول عن مصيره . ووفقًا لمذهب «ودا» فإن الروح لا تحتاج إلى برهان لكى تثبت ذاتها ، وسُدى وجود الروح ولحمتها من أعمالها، ويكون وجود الروح من جنس عملها ، وكما نرى فى كل وقت أنفسنا فى المرآة بشكل معين فإن الروح هى الأخرى ترى نفسها دائمًا بشكل معين فى المرآة ، والمرآة التى تظهرنا شيئًا آخر غيرنا وغير مرآة الروح ، أما الروح فهى ليست سوى نفس سعيدة أو نفس حزينة[1] .

والإنسان هو قبطان سفينة ذاته، وهو المسئول عن كل أعماله ، ومن هنا فإن فلسفة الهند تولى أهمية كبرى لتهذيب النفس ، ومن هنا فإنها تطفئ شرارة الرغبات

(١) راز بزرك (ترجمة ذبيح الله منصورى) . (المترجم)

الإنسانية وتأمرها بأن تطفئ نار رغباتنا بمراقبة النفس ومحاسبتها ؛ حتى لا تزيد حدة هذه الرغبات وحتى لا يضل العقل ويقع فى الظلمة وهو قبطان سفينة الذات .

والدور المهم الذى تلعبه أعمالنا فى حياتنا واضح وجلى فى فلسفة «بوذا» ، ووفقًا لهذه الفلسفة فإن الحياة هى ألم آخر من الآلام التى يجب أن نتحرر منها .

والمسئول عن هذا الألم هو العمل ، والنجاة الإنسانية فى قتل بذرة العمل فى ذاته ، والتغلب على الرغبات النفسية هو تغلب على سوء الحظ والشقاء ، وبدلاً من أن نفكر فى شأن الأشياء المجردة وما وراء الطبيعة ينبغى أن نصل إلى حل لقتل الرغبات النفسية ، وإن العزيمة الثابتة والنية الخالصة فى هذا الطريق تساعدنا وليس التضرع والرياضة ، وعبادة بوذا تساعدنا فى التغلب على الرغبات النفسية وكبحها وهى ترشدنا إلى الطريق المعروف بـ «الطرق الثمانية» وهى عبارة عن :

١ - العقيدة الطاهرة	Samyagdisti
٢ - الإرادة المنزهة	Sankalpa Sammyak
٣ - الكلام السامى	Sammavaca
٤ - السلوك الطاهر	Samyak Karmanata
٥ - الرزق الحلال	Sayagajiva
٦ - الجهاد الطاهر	Samyag yijayama
٧ - الاهتمام الطاهر	Samyak smarti
٨ - التصور الطاهر	Samyak samadhi

وتعتبر فلسفة «جين» أن الإنسان هو المسئول عن أعماله ، وترى أن كل شخص يصنع سجنه بنفسه مثل دودة القز ، وأن كل شخص يخلق خصائص ذاته الجسمانية والروحية ، وأن أى تصرف أو عمل بدر من الإنسان فى حياته السابقة يظهر فى حياته الحالية[1] . ووفقًا لهذه الفلسفة فمن بين الصفات غير المستحبة التى تجعل حياة

(١) سبق الحديث عن التناسخ فى غير هذا الموضع . (المترجم)

الإنسان فى المستقبل مظلمة وسيئة : الغضب[١] والغرور[٢] ، والغفلة[٣] ، والطمع[٤] ، وللتخلص من هذا النوع من الصفات الإنسانية الذميمة ، عليه أن يحذو فى أعماله وأقواله حذو تيرتنكريس (Tirthinakras) .

وفلسفة جين – مثل فلسفة بوذا وفلسفة سانكهيه – تقوم من حيث النظرية على التشاؤم ، وهى تعتبر النجاة من آلام الحياة فى التحرر من القيود المادية والجسمانية ، والعالم من وجهة نظر فلسفة جين معقد جداً وينقسم إلى قسمين : موجودات ليست ذات روح ، وموجودات ذات روح ، وليس للأولى حياة شخصية وكل شىء يمكن أن يتغير لديها ، لكن الموجودات ذات الروح – على الرغم من أنها أسيرة القيود المادية – ليست مادية ، ويمكن أن تنقذ نفسها .

وتقوم فلسفة «جين» على عدم الإضرار بالآخرين ، ويجب على تابع هذه الفلسفة أن يقسم على الآتى :

١ – ألا يقتل أحداً .

٢ – ألا يكذب .

٣ – ألا يستفيد من مال الآخرين دون وجه حق .

٤ – أن يكون عفيفًا .

٥ – ألا يكون شرهًا فى جمع المال .

٦ – أن يتجنب الأقوال والأعمال العابثة .

٧ – أن يبتعد عن الفكر المنحرف .

٨ – أن يصوم أياماً محددة .

٩ – أن يُطْلِع الآخرين كل يوم على ثروته وعلمه .

(١) Krodha .
(٢) Mana .
(٣) Maya .
(٤) Lobha .

ووفقًا لفلسفة «جين» فإن العالم مثل الحيوان ، وإن كل كيانه يتألف من ذرات حيوانية ، وإن هذا الحيوان لا يموت أبدًا ، وإن البشر خالدون يمرون بعدة مراحل فى تطورهم ، وحينًا يصبح الإنسان ملاكًا وحينًا يصبح حيوانًا ، وفى الظاهر فقط يموت البشر وجميع الكائنات الأخرى وفى الحقيقة لا وجود للموت ؛ لأن الوجود مثل حلقات السلسلة المتصلة معًا . وبناء على هذا فإن كل هذه الكائنات تموت ثم تعود للحياة مرة أخرى ، وفضل الإنسان على سائر الحيوان أنه بإمكانه أن يتحرر من قيوده الحيوانية ولا يبدو كالحيوان ، وأن الإنسان لا يتحرر من هذه القيود حتى يصارع النفس الأمارة بشجاعة ويتغلب عليها .

وفلسفة "يوج" ليست تشاؤمية مثل فلسفة «جين» وتعتبر تحرر الروح فى التغلب على النفس ، وترى أن تهذيب الفكر أمر لازم للتغلب على النفس ؛ لأن الروح بمنزلة الشمس والأفكار النقية مثل أشعتها التى تنقى الذات الإنسانية من أدرانها ، وبناء على هذا إذا استطاع الشخص أن يسيطر على أفكاره أمكنه أن يسيطر على النفس الأمارة التى هى أساس كل الشرور .

ولا يرى أتباع يوج أن الفكر وحده وسيلة لتهذيب أخلاقهم ، بل يعدونه بمثابة القوة التى يستفيدون منها ، وبهذا المعنى فإنهم يقرأون أفكار الآخرين عن طريق قوة الفكر ، ويحسون بالأحداث قبل وقوعها ، وهم يسيطرون على حياة الآخرين عن طريق الفكر .

وأهم من كل هذا أنهم يدركون العلوم المكنونة عن طريق قوة الفكر ويكشفون بها العوالم غير المرئية، وبهذا الشكل يرون الأشياء بأعينهم الباطنية ، التى لا يمكن للأشخاص العاديين أن يروها وبهذا فهم قادرون على رؤية جميع ذرات العالم فى لمحة بصر واحدة، ومن ثم فإنهم يحطمون الجدران التى فصلت الماضى والحاضر والمستقبل عن بعضها ، ويرون الدنيا كما هى موجودة. ومع أن هذه الفلسفة تتشابه فى شأن تهذيب النفس مع هذه الفلسفات فإنها تختلف كثيرًا فى شأن معرفة الله ، فمثلاً يعتقد يوج ودانيه بوجود الله ومن هنا فقد اعتبروا هذه المذاهب رائدة الفلسفة الإلهية (Isvara) ولكن فلسفة سانكهيه لا تعتقد فى الله ومن هنا اعتبروها فلسفة إلحادية (Nirisvara) وفلسفة جين لا تؤمن بالله مثل فلسفة بوذا ولكن فى «وداها» – أحد كتب الهند المقدسة –

فقد تنزل الوحى وقد نسبوا كتابتها إلى (Snti) أى أنها سمعت ، وبعبارة أخرى فإن الموضوعات التى ذكرت فى (وداها) قد سمعت عن الله . وبناء على هذا فإن الكتاب والكتب الهندية (وداها) ليست سوى رسول وأن «سوتراها» مجرد تفاسير (لوداها) وهى ليست إلهية بل إنسانية تمامًا ، هذه المخطوطات (Smrti) هى بمثابة السُّنة المقررة ، وليس معلومًا متى كتبت (وداها) ومن كتبها ؟ إلا أن المحققين ظنوا أن هذا المخطوط المنظوم قد نظم شعرًا فى الفترة ما بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ ق.م .

وكتاب وداها أربعة أقسام :

١ – Rigveda ٢ – Samaveda

٣ – Yajur veda ٤ – Arthaveda

وأهم هذه الأقسام هو أحد الكتب الدينية :

وإله الخير هو الذى ذكر فى كتاب «ريج ودا» وهو عبارة عن آجنى أو (النار) وبرتبوى أى (الأرض) أو نارونا (المحيط) وأندرا (السماء) وسوريا (الشمس) وسوما (القمر) ، ويعتبر ڤيدا أو (ودا) الإنسان جزءًا من الكل، بل يعتقد فى التوحيد ، وليس للمذهب الڤيدائى معبد أو قسيس أو صنم ولا يعرف سوى اللجوء إلى الله .

وعلاوة على نظرية وحدانية الله ، فهناك نظريات أخرى فى كتب ڤيدا التى أصبحت موضع حيرة العلماء ، وأولى هذه النظريات: نظرية انبساط العالم وانقباضه ، وبعبارة أخرى وفقًا للمخطوطات الڤيدائية فإن العالم يتنفس خلال آلاف السنين ويصبح حجمه أوسع ، وبعد ذلك يحل ليل ڤيدا ويصبح العالم أصغر حجمًا وينقبض مرة ثانية ، وبعد آلاف السنين يقترب نهار ڤيدا ويصبح العالم أكبر حجمًا ، وأخيرًا فقد درس العلماء الأوروبيون هذه النظرية نفسها، وفى النهاية توصلوا إلى أن نظريتهم تقوم على أسس علمية فى حين أن نظريات علماء عصر ڤيدا كانت تخيلية أو شاعرية .

وما توصل إليه الهنود فى عالم الخيال لهو دليل بارز على مقدرتهم الفائقة فى الفكر . وقد قلنا إن كتب وداها تعلم الناس وحدانية الله و براهما اسم هذا الإله والاسم الآخر هذه القوى الثلاث : براهما ، وڤشنو ، وشيڤا .

ومن بين الآلهة الآخرين "اندرا" إله السماء والرعد والبرق والطوفان والمطر ، و"آجنى" إلهة النار ، والثالثة "ياما" إلهة جهنم ، والرابعة "سوريا" إلهة الشمس ، و"براهما" خالق العالم وكل الآلهة تصدر عنه وفى النهاية تعود إليه ، وكما يتحول اللبن إلى زبادى والماء إلى جليد فإن براهما أيضاً يغير شكله ويحل فى صور مختلفة .

ڤشنو[١] :

ويأتى ڤشنو فى الأهمية بعد براهما وهو مظهر البقاء ، ويظهر ڤشنو فى صور مختلفة فوق سطح الأرض لإنقاذ العالم من خطر الفناء ، وتسمى هذه الصور (أوتار) وعدد (أوتاراها) كثير ، ولكن الصورة العاشرة منها ذات أهمية كبرى .

وقد كانت (أوتار) الصورة الأولى فى شكل "ماتسيا" أى سمكة، أما الصورة الثانية منها فقد كانت فى شكل سلحفاة .

وفى هذا الوقت حافظ ڤشنو على الأرض ، بينما كان الآلهة مشغولين بمزج البحار حتى يحصلوا من ذلك "الشراب" على العمر الخالد .

أما أوتار التاسعة فهى أهم صورها حيث ظهرت فى صورة إنسان أو "كرشنا"، وكرشنا هو المحارب الذى لا يهزم وقد طهر العالم من وجود الظُّلْمة .

وآخر صور "أوتار" لم تظهر، ومع ظهورها ينتهى البشر فى هذا العالم .

شيڤا :

وشيڤا هو مظهر الخراب والدمار واسمه الآخر مهاديڤا (Mahadeva) ، ولن تظهر قوة شيڤا ظهوراً كاملاً إلا عندما ينتهى عمر العالم (أى بعد ١٢ مليون عام) .

(١) إله الحب والجمال ، له خواص الشمس وهو فى الڤيدا قزم صغير ، عبر الكون فى ثلاث خطوات عملاقة ففرحت الآلهة وغضبت الشياطين ، وقد يحل فى الإنسان والحيوان . (المترجم)

ويقال إن براهما ابتعد تماماً عن التدخل فى شئون العالم بعد خلقه ولم تعد له فاعلية ومنح عرشه إلى فشنو وشيفا ، والآن فإن كل ما يحط على رأس البشر من بلاء هو من هذين الإلهين وليس من براهما الذى هو الخير المحض وهو لا يأتى بسوء أبداً ، وإن الإنسان ليس مخلوقاً من مادة بل إنه ذات روحانية ، وقد صدر عن نبع روحانى . وهذا الفكر يشاهد فى أغلب فلسفات الهند ، وإن فلاسفة الهند قد اعتبروا العالم مجرد وهم وخيال لا نهاية له أو على حد قول «راماكرشنا» هو لعبة مرسومة ، ولكن من ناحية أخرى حقيقية ثابتة ولا تتغير وأبدية، هذه حقيقة بعيدة عن ألاعيب العالم المادى المختلفة .

جارواكه :

جارواكه مذهب آخر لا يعتقد فى الله. ومن وجهة نظر أتباع هذا المذهب أن وجود العالم فى ذاته وأن أحداً لم يخلقه ! ويجب على الإنسان أن يتقبل خير الدنيا وشرها كما هما موجودان، وعليه أن يسعى بكل ما فى وسعه إلى أن يحيا سعيداً ، والألم والقبح موجودان فى الدنيا ولكن يجب على العاقل أن يتجنب الآلام ويسعى بكل شكل إلى أن يسعد فى هذه الدنيا . وإن ممارسة الرياضة الروحية لا معنى لها ، والتضرع لله والعبادة لا معنى لهما ، والجنة وجهنم هما الفخ الذى نصبه رجال الدين لخداع الناس .

ويجب أن نعيش بشكل جيد ولا نخشى الموت ؛ لأن الموت والحياة هما الشيئان الماديان .

وترى فلسفة نيايه أن الله حقيقة لا يمكن إدراكها ، وتقول أيضاً إنه يمكن رؤية الحق فقط من وراء ستار التصورات الشاعرية ، وإن أى طريق آخر نسلكه لمعرفة الخالق لن يوصلنا إليه .

و«شنكرا تشاريه» زعيم مدرسة وحدة الوجود وشارح فلسفة «فيدانيه» ويرى هذا الفيلسوف أن الله باطن فى كل شىء ، وقد ذكرت حكاية على هذا النحو :

إن فيلسوفًا هنديا كان يقول لطالب مستجد إن الله كل شيء وإن الله في كل شيء حتى فيك أنت ! فثمل هذا الطالب من هذه الفكرة حتى إنه وجد نفسه سحابة خفيفة مثل الريشة ، فعبر شارعًا وهو في هذه الحالة فاصطدم فجأة بفيل عظيم ، فصاح صاحب الفيل : اذهب جانبًا ! ولكن الرجل الذى اعتبر نفسه الله لم يتجنب الفيل وراح يفكر أمامه (لماذا أترك الطريق للفيل ؟ فأنا إله والفيل أيضًا إله فلماذا يخشى الإله من الإله ؟) ولكن عندما ووجه إله بإله فإن الفيل قد رفعه بخرطومه وألقى به على الأرض بقوة ، فجرى (التلميذ) إلى معلمه باكيًا ومنتحبًا ، وحكى له القصة وانتقد فلسفته فقال معلمه له بهدوء وقد ربت على يديه :

لا شك فى أنك إله والفيل أيضًا ، ولكنك نسيت أن صاحب الفيل أيضًا إله ، فلماذا عندما أمرك صاحب الفيل بأن تبتعد لم تبتعد ؟ فى حين أن هذا هو صوت الله وكان يمنعك من ارتكاب عمل أحمق !

ومن خصائص فلسفة الهند أنها تؤكد كثيرًا على وحدة الوجود أو الحقيقة ، وأن كل الأشياء تبدو فى صور مختلفة ولكنها فى المعنى واحد وتنعكس هذه الحقيقة فى المرايا المختلفة، ولو أنك دققت النظر خلف هذه الستائر المختلفة سترى بوضوح هذه الحقيقة على حد قول وحش بافقى[(١)] :

(لو أن وجهًا نظر فى مئة مرآة

فإن الوجه واحد مع أن المرايا مئة) .

ولكن شرط الوصول للحقيقة ورؤية الحق أن نتجاوز الصور التافهة فنتجه إلى الصورة الحقيقية ، أجل سوف نستطيع بهذا الشكل أن نسير فى الطريق الذى نرى فيه رحابة نور الخلود . وفى شأن أسرار الوجود فقد وردت هذه الحكاية

(١) وحش بافقى : شاعر إيرانى معروف ولد عام ٩٣٩ هـ فى بافق ، وهى منطقة تقع بين يزد وكرمان . وتوفى عام ٩٩٩ هـ . (المترجم)

فى "أوبانيشادها[1]" ، إذ طلب معلم من تلميذ أن يأتيه بثمرة تين ، فى ذلك الوقت دار هذا الحوار بينهما :

(المعلم : قسم التينة .

التلميذ : هى نفسها مقسمة .

المعلم : ماذا ترى فيها !

التلميذ : أرى بذورا ممتازة .

المعلم : قسمها !

التلميذ : وهذه أيضًا مقسمة .

المعلم : ماذا ترى فيها !

التلميذ : لا أرى أى شىء .

المعلم : عزيزى .. اعلم أن هذه الشجرة العظيمة من هذا الجوهر الجميل نفسه الذى ظهر ولا تراه أنت ، وصدقنى يا عزيزى أن الروح فى هذه الدنيا عبارة عن نفس هذا الجوهر الجميل الذى لا تراه ، والحقيقة نفس هذا وآتمن نفس هذا) .

والهدف الأساسى للفكر الهندى هو إماطة اللثام عن السر الداخلى أو آتمن هذا ، أو على حد قول العارفين (النفس) وآتمن أو الروح الخالدة لا تتغير وهى خارج المكان والزمان . ووفقًا لفلسفة الهند فإن العلم مرتبط بأشياء متغيرة وفانية وليس معرفة حقيقية ، ولأن ما هو مرتبط بالظهور منفصل عن الوجود على الرغم من أنه قد لا يُرى فرق بين الوجود والظهور فى الظاهر ، ولكن هذا نوع من الإحساس والخيال أيضًا .

ومن أجل الفرار من سحر مثل هذا الوهم يجب على الإنسان أن يستمع إلى صوت السر الداخلى الهادئ حتى يدرك الحقيقة .

(١) الأوبانيشادها ، أو اليوبانشاد ، أى المحاورات السرية ، وهو كتاب يتضمن تأملات لاهوتية سادت ذلك العصر وفيه نزعات صوفية ترمى إلى طهارة القلب وصفاء النفس والتحرر من قيود العالم المادى - القصة فى الأدب الفارسى ص ٢٨ ، ٢٩ . (المترجم)

وهنا تقابلنا كلمة هى من وجهة نظرى من أجمل وأعمق وأعظم كلمات الفلسفة الهندية ، وتلك الكلمة هى : مايا (Maya) ، ومعنى مايا ، التى هى مشتقة من مصدر القياس والصنع والحدوث وقبل أى شىء فإنه يوجد فى العالم قدرة هى الباعث على ظهور المؤثرات الخادعة والباعثة على الوهم وهى تخفى حقيقة الإنسان وراء ستار الوهم ، والشخص الذى يجهل حقيقة الحبل ، فإنه حينما يرى حبلاً فى الشارع فإنه يظنه ثعبانًا ، والشخص الذى يجهل الحقيقة يظن أن العالم هو الذى يراه بعينه من الظاهر .

وللعالَم فى فلسفة الهند صورتان : صورة ظاهرة وصورة باطنة ، وإن الجاهل يرى فقط الصورة الظاهرة والعالِم يرى الصورتين ولكنه يتعلق بالصورة الباطنة ، ويسمى العالم الباطنى ناما (Nama) وصورته الظاهرة روبا (Rupa) وبناء على هذا فإن (Namarupa) أى الصورة الظاهرة والباطنة للعالم، والشىء الذى نجهله هو العالم الباطنى وهذا هو الجهل (Avidya) وهذا الجهل لا يمكن أن نعتبره وجوداً (Sat) وليس وجوداً حقيقيًا (A- Sat) بل إن هذا الجهل أمر لا يمكن توضيحه (A- niryacanta) .

ولا يمكن أن تعتبر أن الجهل وجود، ولأن الجهل متغير فإن الاختلاف والتبدل من خصائص الجهل ، وإن الباحث عن الحقيقة يدرك هذه الحقيقة فى اللحظة نفسها التى يتخلص فيها من سحر الجهل ، وعندما يتخلص الباحث عن الحقيقة من قيود الجهل فإنه مصائب هذا العالم فحسب ، بل سيدرك حقيقة وجوده ؛ أى إنه سيدرك أنه من العالم العلوى ، ولو أسرته الدنيا وكان ذلك نتيجة لجهله فإنه بإمكانه مع التخلص من الجهل أن يفتح له بابًا إلى العالم الحقيقى وأن يستفيد من النور السرمدى . وهناك حكاية تمثيلية تتعلق بالموضوع السابق على هذا النحو :

(قيل إن شبلاً قد تربى وسط الشياه فنسى حياة الأسود ؛ أى أنه تعلم لغة الشياه وأكل كلأها ، وشيئًا فشيئًا تحولت حركاته من أسد إلى شاة . وذات ليلة أغار سبع على الشياه ؛ فهربت كل الشياه إلا الشبل ، ولا شك فى أنه كان متحيراً جداً فلماذا فر رفاقه ؟ ولم يدرك السر الذى جعله لا يخشى الأسد ولكنه كان يحس داخله أن هناك علاقة تربط بينه وبين الأسد وإن لم يعرف السبب، وسكت لحظة وسيطرت عليه الحيرة وراح يطلق صوتًا مثل الشياه وشغل بتناول العلف ، فزأر الأسد الذى رآه وقال : ماذا تفعل هنا بين الشياه ؟ وما صوت الشياه هذا الذى تطلقه ؟ وقبل أن يجيب الشبل

بكلمة أمسكه الأسد بأسنانه وهزه بعنف وبعد ذلك حمله بالقرب من بحيرة وحثه على أن ينظر في الماء ، وكان ضوء القمر قد جعل الماء كالمرآة شفافًا فقال الأسد : انظر إلى هاتين الهيئتين أليستا متشابهتين تمامًا ؟ فلماذا تتخيل نفسك شاة ؟ ولماذا تأكل العلف وتصيح مثلها ؟

فنظر الشبل متحيرًا إلى الشكلين اللذين عكستهما المياه ولم يقل شيئًا . واصطحبه الأسد ثانية إلى عرينه وألقى في حلقه قطعة من اللحم الرقيق وقال له «كُل» فتوقف الشبل برهة ، فلما رأى الأسد تردد الشبل في الأكل حشر قطعة اللحم بالقوة في فمه ، وبعد ذلك وجد الشبل في نفسه قوة جديدة وكأنه كان أسير لغز منذ سنوات طويلة ، فهب من مكانه وراح يزأر مثل الأسد ، فسعد الأسد وقال : الآن أتعلم ماذا تكون ! والآن هيا لنذهب ونصطد في الغابات معًا) .

ويعتبر الفكر الهندي أن أعظم فلسفة تكمن في وحدة الوجود ، ويشير فرمول السانسكريتي الشهير بـ Exam Eba Advitvayam إلى : وجود الوحدانية وعدم وجود الثنائية، وأن الهنود كانوا أول الأقوام التي نشرت عقيدة التوحيد . وهكذا أشار فلاسفة الهند إلى هذا القسم من الفلسفة الساحرة التي يبرز فيها الجانب الخيالي ، وبعبارة أخرى لا تزال تمر السنوات الطوال على عمر كتاباتهم وما زالت أعمالهم المذكورة من أجمل وأعمق الآثار الإنسانية .

وفي مقدمة هذه الأعمال وأكثرها خلودًا : "أوبانيشادها" و "وداها" ، وقد عظم شوبنهاور[1] من قدر "أوبانيشادها" بقوله : ليس هناك شيء مفيد أكثر من الاطلاع على "أوبانيشادها" ، وقد كان هذا الكتاب أساس متعتي خلال حياتي وسيكون أساس متعتي عند مماتي .

ويكشف "أوبانيشادها" النقاب عن أسرار الذات والعالم الباطني .

(١) شوبنهاور (١٧٨٨ - ١٨٦٠ م) ، فيلسوف ألماني صاحب مذهب التشاؤم وتعليله وجود التناقض بين عالم الإرادة وعالم العقل ، أهم كتبه (العالم إرادة وفكرة) . (المترجم)

وفى الكتاب المذكور لا تتضح حقيقة الإنسان ولكنا نسمع فقط أناته الخافتة ، والإنسان وفقًا لهذا المخطوط زاخر بالأفكار الفلسفية العميقة، وهو كائن مفكر وملىء بالإبهام ، والإنسان وفقًا لهذا الكتاب جزء صغير من الكل ليس له أى هدف فى الحياة سوى أن يفنى فى هذا الكل ، وإن هذه الدنيا لم يكن لها بداية وهى منذ الأزل ، وقد نبع من هذا الشىء الجوانب المادية والروحية والإنسانية والإلهية ، وسنقرأ فى كتاب "أوپانيشادها" هذه الجملة : (إن ما يعيش فى الإنسان وما يوجد فى الشمس "واحد" ولكن فى الوقت نفسه فإن العالم هو وجه الله وإن بدا أن الله غير موجود) .

(وكما أن النور منفصل عن الشمس

فإن العالم كله آيات الله وإن غاب الله) .

ويقابلنا كم هائل من المعانى التى كتبت فى عبارات لطيفة وشاعرية ، وقصة الحياة مسطورة فى هذا الكتاب ، وبدلاً من توضيح أسرار الخلق تعبر بنا بحر التخيلات والأسرار الجذابة ، و "الأوپانيشادها" عالم من الحلم والخيال ويفيض هذا العالم اللانهائى بالأسرار والمعانى .

وقد أصبح أوپانيشادها المصدر الأدبى للفلسفة الشائعة فى الهند والمعروفة باسم ڤيدانته (Vedanta) وينتهى كتاب أوپانيشادها بكتاب مقدس آخر يعرف باسم Brahma-nas براهمانا[1] ومصطلح Vedaarta يتألف من (Veda) و (Arta) أى (نهاية ڤيدا) وهو اسم الكتابات المقدسة الأخرى التى لا تقل شهرة عن أوپانيشادها ، "وڤيدا" كما ذكرنا يتألف من أربعة كتب وهى كالآتى :

١ – Rigveda أى معرفة الترانيم .

٢ – Sama Veda أى معرفة الأنغام .

٣ – Vajur Veda [2] أى معرفة الصيغ الخاصة بالقرابين .

(١) أى قواعد الطقوس والدعاء والرقى . (المترجم)
(٢) تكتب الـ V أحيانًا y . (المترجم)

٤ – Atharvaveda أى معرفة الرقى السحرية[1].

والأناشيد التى توجد فى "رك ڤيدا" هى صوت الفلاسفة الذين ربما كانوا يعيشون قبل عصر المسيح بألفى عام ، ويلقى "رك ڤيدا" الضوء على الظلام الذى ساد قرونا ، ويبين وضع الحياة الفكرية فى الهند فى أربعة آلاف سنة مضت .

ولا يوجد فى "رك ڤيدا" أثر للخرافات الموجودة فى دين الهنود ، والأشخاص الذين ألفوا "رك ڤيدا" هم أفراد متفائلون وشجعان ونشطون وسعداء ، وكانوا يعبدون آلهة عظاما ، ولا يوجد فى "رك ڤيدا" أثر لعبادة الأوثان والأصنام وتميز الطبقات وأسر المرأة . وسنقرأ من هذه الأناشيد جملاً متلألئة من قبيل :

(خذنى إلى ذلك المكان الخالد الذى لا يفنى والذى يسود فيه النور السرمدى) .

ومن الكتب الهندية القديمة المقدسة والشهيرة كتاب المهابهاراتا (Mahabharata) وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية فى ٧٥٠٠ صفحة ويشمل حكايات وقصصًا وأمثالاً وموضوعات فلسفية جذابة مرتبطة بالهند ، ويمكن اعتبار حكايات هذا الكتاب كنزًا من كنوز الفولكلور الشعبى للهند ، وعلاوة على هذه الحكايات والأمثال الحكيمة هناك أيضًا الأسرار المرتبطة بالخليقة فى أسلوب قوى وحكيم ، ونقرأ فى هذا الكتاب جملاً من هذا القبيل :

(وفى البداية كان هناك فضاء واسع لا يتحرك، ليس به شمس أو قمر أو نجوم ، ويبدو العالم نائمًا ، وبعد ذلك حل به الظلام ، وأصبح الماء سببًا فى ظهور الحياة) .

وبهذا الشكل بدت هذه القصة العظيمة مثل طوفان اصطحب معه أفكارًا وحكايات وقد أدهشتنا قوة حدوثه ، وهذا الكتاب ذو رؤية مثيرة للعجب ، وهو يحكى حقائق وأفكارًا متنوعة حول فولكلور الأمة الهندية .

وهناك كتاب آخر معروف هو "رامايانا" Ramayana وليس لهذا الكتاب قوة المهابهارتا وعظمته، وأبطال "رامايانا" أبطال محليون ، ولا يشاهد فى هذا الكتاب

(١) رج ڤيدا ، ساما ڤيدا ، يارجور ڤيدا ، أثرا ڤيدا ، انظر : أمين عبد المجيد بدوى : القصة فى الأدب الفارسى ص ٢٨ . (المترجم)

المحاربون وشجعان مهابهارتا ولكن فى المقابل تبدو رامايانا أكثر إحكامًا ونظامًا ، وقد شبهوا رامايانا بالأوديسة لأن هذا الكتاب يشرح قصة تشرد سيتا Sita وراما Rama وما زال يعد "رامايانا" الكتاب المثالى للهنود وتسعى كل امرأة أن تحذو حذو وفاء سيتا وطهارتها .

ومن بين الأعمال الهندية الأخرى التى تحظى بشهرة كتابات "فيدانته" الفلسفية .

ووفقًا لتعاليم فيدانته فإن الوجود الكل أسمى من الجسم والروح ، ومع أنه يفتقر إلى أى نوع من الإحساس فإنه يمنح الكائنات جميعًا الوجود ، وهذه العلاقة العجيبة التى توجد بين الكل والجزء قد شرحت فى كتاب "تايتيريا آرانياكا" على هذا النحو :

ومع أن وجود الكل يوجد فى كل مكان وكل شىء ، ومع هذا فإن الكل ينفصل عن الجزء دائمًا كما تنفصل الشمس عن السحاب ، وليس هناك أى شىء يمكن أن يؤثر فيه ، وليس هناك للكل زمان أو مكان وكل ذرة من ذرات الوجود لديها حياة منفصلة عن المادة الدنيوية .

وهذه الذرات مثل المواد القطنية تطفو دون إرادة فوق أمواج ميلاد الروح وموتها . «وشانكرا» الفيلسوف الهندى المعروف الذى كان يعيش عام ٨٠٠م . وكان عمره قصيرًا جدًا ، كتب تفاسير حول كتب "براهما سوترا" و "بهجوت جيتا" و "أوپانيشادها" ، وقد ترك كتابه الفلسفى (Viveka Cudamani) أثرًا عميقًا فى فلسفة الشرق .

ووفقًا لفلسفة «فيدانته»[1] فإن العمل ثلاثة أنواع :

١ - Karma San Cita أو البذور (الإلهية) التى بقيت فى ذاتنا نتيجة أعمال الحياة السابقة ، ومن الممكن أن تنمو وتثمر بعد ذلك .

٢ - Agami-karma أو البذور التى يمكن أن تكون رصيدًا وذخيرة لنا ، وهى تبدو عندما نسير فى طريق الجهل والضلال .

(١) تنبه البيرونى إلى وجود تشابه بين هذا الذى تقوله الفيدانته وما يقوله بعض الصوفية الإسلاميين ، البيرونى : تحقيق ما للهند من مقولة ... ، ص ٤٤ . (المراجع)

٣ – Karma- Prarahdhu أو البذور التى كانت ذخيرة فى الماضى ونمت وكبرت بعد ذلك ، وبعبارة أخرى فإن العمل (كرما) هو الأعمال نفسها التى صدرت عنا فى حياتنا الفعلية وترافقنا حتى نهاية العمر .

ويشكل العمل (كرما) أحداث حياتنا الفعلية ويكمن فى طريق تهذيب النفس وقطع العلاقة مع المتطلبات الجسمانية للتخلص من "العمل الأول السابق" ، ولكن كرما أو هذا العمل وخاصة النوع الثالث يلتصق بنا حتى نهاية أعمارنا ، ويبدأ "شانكرا" استدلاله الفلسفى فى شأن الوجود بعبارة (أنت ذلك الوجود) وهو يعتبر أن الذات Atman التى هى الحقيقة الواقعية للدنيا محصلة الجهل ، وليس فقط الدنيا بل إن النفس (Ahankara) هى محصلة جهل الوجود فى أعماقنا ، وإن كل شخص يدرك حقيقة الوجود تنقشع عنه غشاوة الجهل وتبتعد عنه الأوهام ، وليس للعالم وجود أو زمان أو مكان .

الخلاصة : إن عالم "الكثرة" ليس إلا مجرد وهم وإن كل شىء يرتبط بالوحدة ، وما هو مهم هو أن يتخلص الإنسان من قيود الجهل حتى يصل إلى مرحلة المعرفة ، ولكن حتى يصل المرء لهذه المعرفة يجب عليه أن يتخلص من القيود الجسمانية من قبيل شهوات النفس والصفات المتعلقة بها ، وبمعنى آخر أن يقوم بتهذيب نفسه فقط عن طريق هذا ويمكن أن يقتلع جذور الجهل من نفسه ، وحينئذ سيصل الشخص إلى الحق .

ويمكن لأى شخص أن يصل إلى الحق فيحظى الجميع بهذا الجوهر ، والخلاصة أن الشخص سيكون لديه جوهر واحد ويعلم أنه يحظى به بينما الآخرون لا يعلمون بوجوده ، فلو أن شخصاً يشير إلى أنه يمتلك هذا الجوهر أو أنه نفسه يدرك أنه لم يزد شيئاً مع امتلاكه هذا الجوهر وأن الفرق الوحيد بينه وبين شخص آخر أن جهل صاحب الجوهر قد زال .

والجاهل يرى الدنيا فى حالة كثرة ولكن هذه الكثرة للعالم ليست سوى سراب ، إذ إنه يرى الدنيا مثل مسرح وأن ما يظهر به مجرد سحر وزخرف ، ويشاهد العالم هذا السحر لكنه لا ينخدع به ولا يصدق سوى الوجود والحقيقى .

وكما أن الشخص الذى لا يعرف الثعبان يتصور الحبل فى الظلام ثعباناً فيخاف منه ، فإنه يرى أيضاً الوحدة فى حالة كثرة بسبب ظلمة الجهل ، وعندما يكون الشخص

جاهلاً فإنه يرى فقط نفسه أما العالِم فإنه يرى نفسه والآخرين ، وهذا هو وجه الاختلاف بين الاثنين . والعالم يرى ذاته مجرد شجرة فى غابة الوجود ومن هنا فلا وجود (للأنا والنحن) فى نظرته الكلية وهو يرى فقط **وحدة الوجود** ، أى الوجود الذى يشتمل على التجليات المختلفة ولكنها فى الأصل واحدة والله بالنسبة له مبدع العالم وحركاته هى التجليات المختلفة فى هذا الوجود السرمدى ، وهذا الشخص يرى إبداع المبدع فى نظـام ثابت لا يتغير ولا يتبدل ، وهو لا ينخدع بالمظاهر الجوفاء الأخرى إذ يعلم أن مثل هذه المظاهر البراقة وقتية وزائلة ووهمية وأن ما هو حقيقى وثابت لا يفنى ولا يتبدل .

وإن العالم الظاهرى ليس سوى مجرد قناع أوجده الله ، وإن الجاهل هو الذى يظن أن القناع حقيقة الوجود فى حين أن العالم يزيل ستار الجهل هذه ويرى الحقيقة ولا ينخدع بالزيف . وعلى الرغم من أنه لا يمكن لأى شخص أن يعرف هذا المجهول العظيم (سر الأسرار) فإنه يمكن لأى شخص لو يريد أن يحس بوجوده داخله ، وكما تلقى الشمس ضوءها على جميع الموجودات لكنها هى نفسها لا تلوث أبداً بأشياء هذا العالم ، وعندما عرفنا الحق فإننا سنستفيد من نوره وسنبتعد عن جهلنا، وإن الحق فى منأى عن أى نوع من التلوث .

وتعلم فلسفة الهند ضرورة التفكير فى وحدة الكون ، إذ إن وجودنا الجزئى يتلاشى تماماً فى وجود الكل كما يتلاشى الملح فى الماء . وإن الشخص الذى أدرك أن الذات المطلقة (Brahman) هى عقل الوجود (Atman) سيتخلص من العالم الظاهر المتمثل فى قيود الجهل ، وإن ظلال الجهل لن تؤثر فى حياته، وحتى لو أنه عاش فى عالم الكثرة وعالم الأحداث المتعددة فإن ذلك لن يؤثر فيه وستظل روحه هادئة ومتحررة دائماً .

وتولى فلسفة ڤيدانته أهمية خاصة بالفكر وتعتبر أن فكر كل شخص هو مصيره ، وأن فكر الشخص وكلماته وأعماله فروع لشجرة وجوده ، وكلما كانت هذه الفروع قوية وثابتة كانت الشجرة صحيحة ومن ثم فإنها ستثمر ، وكلما كان هناك فى كل شخص أفكار طيبة فحتما سوف تثمر شجرة وجوده وتنتج .

وأفضل درس يتعلمه المرء من ڤيدانته هو طريقة التخلص (Moksha) من شرور الدنيا أو وفقًا للمصطلح الهندى (Nmuci) سحر الدنيا ، وإدراك هذه التعاليم أمر سهل ولكن العمل بها أمر صعب جدا ، ويتحتم على الأشخاص الذين يصلون إلى مثل هذا

أن يمارسوا الرياضة الروحية لمدة سنوات ، ووفقًا لتعاليم الفلسفة الهندية فإنه يمكن للإنسان أن يتبع أربعة أهداف وهى عبارة عن : **الأول** : **«أرثا»** أى التعليمات المتعلقة بذلك الهدف وتعرف بـ (Arthashastra) **والثانى** : **«كامه»** أى التعليمات المتعلقة بـ (Kama- Sutra) وأهم كتاب يتعلق بهذا الموضوع هو كتاب (Vatsyayana) الذى كتب تحت عنوان (Kama- Sutra) **والثالث** : **«دهرمه»** أى التعليمات المرتبطة بـ (Dharmi- Sutra) **والرابع** : **«موكشا»**[1] وهذه الكلمة مشتقة من كلمة (Muc) وهى تعنى التحرر والنجاة ومعنى كلمات : Dharma, Kama, Artha بالترتيب على هذا النحو : الثروة ، والعشق ، والوظيفة. ويسعى الرجال أصحاب السير الحسنة والأولياء إلى أن يحظوا بمقام موكشا، ويمكن للشخص أن يعزف عن حطام الدنيا ويحظى بهذا الرمز : (Ihamautrar- thephalabhogaviragah) أى : عدم الاهتمام بالاستمتاع بثمر العمل سواء كان مرتبطًا بهذا العالم أو بأى عالم آخر ، وأى شخص استعان بهذا الرمز جدير بأن يدرك سر الأسرار (Sayasya Satwarn) أى الشخص الذى يحيط بسر الوجود .

وهذه خلاصة نظريات بعض فلاسفة الهند ، ويمكن أن نستنبط من هذه الخلاصة نفسها أن الرؤية الهندية رؤية علوية على خلاف الرؤية اليونانية التى كانت رؤية سفلية ، وأن رؤية الهند مصدر البصيرة ، وأن فلسفة الهند لا تنخدع بالعالم الظاهرى ، بل ترى الحقيقة وراء هذا الستار الخادع .

وتقول فلسفة الهند إنه لكى يرى الإنسان ما وراء هذه الحجب ويطوى مراحل الملكوت العلوى ينبغى عليه أن يشاهد داخله الباطنى، وإن الإنسان فى فلسفة الهند ليس مجرد جسد ، وإن الإنسان ذا الوجود الروحى يمكنه أن يشاهد بتربية الروح ما وراء العالم الظاهرى ، فإذا ألقى هذا الإنسان نظرة على ما وراء الطبيعة أو العالم الظاهرى أدرك أنه ليس هناك زمن ماضٍ ولا مستقبل ولا حاضر ؛ ومن ثم فإنه ينظر إلى العالم من باب الأبدية وسيرى أنه ليس هناك أمس أو غد وأن الروح ستدرك ليس فقط المعنى الخالد للوجود بل ستدرك كل ما فى الوجود .

والآن سنشرح أهم النظم الفلسفية للهند شرحًا مفصلاً كما يلى :

(١) Moksha .

فلسفة وى شه سيكه

وشارح هذه الفلسفة هو "الوكه" والملقب بـ "كنادا" Kanada وقد ألف كتاباً تحت اسم Vsishiska ويشتمل هذا الكتاب على عشرة فصول والجزء الأعظم منه يرتبط بالمنطق ، وفلسفة وى شه سيكه فلسفة مادية ، وهو لا يهتم بالموضوعات المتعلقة بالإلهيات ، ويعد الله شيئًا غير موجود ، ولكن بالنظرة المتفحصة نرى أن العقائد ترتبط بالإلهيات وأن سبب ذلك هو إظهار فلسفة وى شه سيكه المادية فى شكل مثالى وذلك من أجل المحافظة على فلسفة الهند المثالية .

وفى هذه الفلسفة أربعة أنواع من العلوم العظيمة وهى عبارة عن :

١ - الإدراك Prstyaksa
٢ - الاستنباط Laingink
٣ - التذكر Smrti
٤ - الإشراق ArsaJnana

وهناك أربعة علوم غير مهمة وهى :

١ - الهزيمة Samsaya
٢ - تصور الخطأ Viparyaya
٣ - المعرفة غير المعلومة Anashya Vsaya
٤ - الرؤية Svandna

وفلسفة وى شه سيكه مثل فلسفة ديمقريط وفلسفة أبيقور[1] تقوم على أساس نظرية الذرة[2] ، ويقول "كنادا" : إن أشياء هذا العالم لا تنمحى تمامًا على الرغم من أن جسم الأشياء أو العناصر قد يتلاشى ولكن الأحجار أبدية ولا تفنى ، وإن الذرات لا يمكن رؤيتها إذا تناثرت ولكن إذا امتزجت معًا أمكن رؤيتها ووجودها .

وبناء على هذا لا يمكن أن نرى الذرات منفصلة ، ومن وجهة نظر كنادا أنه لا حدود لزمن الأشياء ومكانها وهى التى تحل بها الأحداث ، وقد تصب المادة أو الذرة فى زمان ومكان وأن الخليقة عبارة عن هذا الفيض الدائم للمادة .

(١) دميقريط وأبيقور من فلاسفة اليونان المشاهير . (المترجم)
(٢) سماها المسلمون فيما بعد : نظرية الجوهر الفرد ، أو الجزء الذى لا يتجزأ . (المراجع)

ويرى ديمقريط وأبيقور أن الذرات دائمًا فى حركة ، ولكن كنادا يعتبر الذرات فى الأصل ساكنة وبلا حركة ، ووفقًا لفلسفة وى شه سيكه إن الزمان فعل أبدى وإنه (وعاء) كل نوع من التجربة .

ونحن لا نعلم ما هو الزمان نفسه ولكن تجربتنا تبدو فى صورة زمان وأن الزمان ليس إلا شيئًا واحدًا ، ولكن نظرًا لارتباطه بالتغيرات فإنه يبدو متعددًا .

وفى مجال الأخلاق فإن وى شه سيكه يعتقد – مثل الأنظمة الفلسفية الهندية – أنه بإمكان الإنسان أن يصعد إلى مقام الملائكة وبالمثل يمكن أن ينحدر إلى مرتبة الحيوان .

ويفرق وى شه سيكه بين الأنشطة الاختيارية والجبرية ويقول : إن الامتيازات الأخلاقية ترتبط بالأنشطة الأولى ، وإن ما هو مهم فى الأخلاق هو عدم مسايرة الفرد لعاداته أو للأشياء التى تعود عليها ، وإن المهم أيضًا أن يتجنب الشخص بإرادته كل نوع من الشر وكذلك الشرور التى يقبلها العصر أو يرفضها .

فلسفة نيايه

ومؤسس هذه الفلسفة هو "جوتمه" ، وقد شرح جوتمه أفكاره فى خمس رسائل فى الكتاب المعروف بـ "Nyaya-Sutra" ، وتقوم هذه الفلسفة على المنطق ؛ ولهذا السبب لا يؤمن بالحقيقة من وراء أستار شاعرية أو عرفانية .

ووفقًا لهذه الفلسفة يمكن الوصول إلى الحقيقة من خلال أربعة طرق :

١ – الإحساس بالمحسوسات عن طريق الحواس الخمس Pratyaksha .

٢ – الاستدلال بالقوة المميزة Anumama .

٣ – الموازنة والتطبيق Upemama .

٤ – حديث العلماء Shalaa .

والمحسوسات نوعان : المحسوسات التى تدرك عن طريق العين والأذن ، والمحسوسات التى تدرك عن طريق النفس : وفى فلسفة نيايه تنفصل الروح تمامًا عن الجسم (Jiva- atma) ويكون لها حياة خالدة ، وتدرك الروح النفس عن طريق المحسوسات .

ووفقًا لهذه الفلسفة فإن العالم هو "آتمن" ، "ومنس" هو وسيلة تحصيل العلم ، وعن طريق "منس" يمكن الاهتمام بشيء واحد وهو النفس .

وللإجابة عن تعريف العلم ، يقول جوتمه : إن العلم الحقيقي يرتبط بآتمن أو بالنفس ، وإن المعرفة (مثلاً) مرتبطة بالحواس ، وإن الأشياء موضع اهتمام الحواس ، وإنه حتى في الوقت الذي لا تعمل فيه هذه الحواس فإن العلم يكون موجوداً ، فالعلم هو محصلة آتمن بمنس .

ومنس (Manso) هو الوسيلة التي تكون في يد آتمن ، وآتمن نوعان : Jivatman أي النفس، والفرد : Parsmatman أي النفس العليا .

وفي فلسفة نيايه لا يوجد خير بدون شر لأنه حتى اللذة مليئة بالألم ، وكما أن الظل يعقب النور فإن الألم يعقب اللذة ، ووفقًا لهذه الفلسفة فإنه لا يمكن لأي شخص أن يتحرر من أي نوع من الألم ، أو ما نطلق عليه Apavarga إلا عن طريق إظهار العلم الصحيح بالنسبة لعالم الأشياء .

وفي فلسفة نيايه إن الله هو علة العلل ، ولكن الله أيضًا هو منظم الوجود وليست له صورة وليس خالقًا للعالم ، والله بمثابة روح العالم والدنيا بمنزلة جسم الله ، والعالم يتحرك بواسطته وليس منفصلاً عنه .

وفلسفة نيايه تنتقد بشدة الموضوعات العلمية والنظرية وهي تعارض التشكك المطلق ، وفلسفة نيايه هي أفضل مرشد بالنسبة للفلسفات الهندية العميقة . وتعني كلمة نيايه : التحقيق الدقيق ، ويطلقون عليها اسم علم البحث (T. arakvibya) وعلم المناظرة Ashavibya أيضًا .

ويشير نيايه إلى أنه لا توجد فلسفة ثابتة لا تتغير باستثناء علم المنطق ، ومع هذا فإن نيايه يؤيد كثيراً التحقيقات العلمية والمنطقية ، ومع ذلك تشاهد استدلالات غير علمية في هذه الفلسفة .

وهكذا يبدو أن رجال الدين قد أفسدوا هذه الفلسفات العلمية حتى تبدو الخرافات التي توجد في سائر الفلسفات الهندية مقبولة ؛ لأن رجال الدين الهنود كانوا مثل

بعض رجال الدين فى أرجاء العالم يخدعون الناس البسطاء ويقضون حياتهم على هذا النحو .

وتعد فلسفة نيايه مكملة لفلسفة "وى شه سيكه" ؛ لأن أسلوب كل منهما ينحصر فى التحقيق ودراسة الحقائق العلمية والمنطقية .

مادية الهند

"جارواكه" هو اسم فلسفة الهند المادية ، وتسمى المادية باللغة السانسكريتية "لوكايانا" ، وتعنى "لوكا" الدنيا ويسمى الماديون Lokeyatikas ، وقد عرفت الفلسفة المادية للهند باسم مؤسسها "جارواكه" ، وورد فى إحدى الروايات أن المؤسس الحقيقى لهذه الفلسفة هو "برهسبتى" ابن "لوكه" أو "لوكا" . وقد اشتقت كلمة "جارواكه" من الكلمة التى تعنى الخلود .

ووفقًا لهذه الفلسفة فإن : كل ما هو موجود أو معدوم هو الشىء نفسه الذى نراه فى الدنيا، وإن الروح فى حد ذاتها لا تنفصل فى وجودها عن الجسد بل إنها جزء منه، وإن الجسم هو الذى يرى ويفكر ويعشق ويشعر حتى إن الفكر نفسه ظاهرة مادية ، وعلى حد قول "كابانيس" : (ومثلما ينبع الفكر من العقل فإن الصفراء تنبع من الكبد) ، وليس هناك روح حية لأن الحياة والموت نوعان والحياة تعنى اتصال بعض العناصر والموت يعنى تفرقها ، وإن النذر والتضرع والعبادة والله والجنة وجهنم أشياء لا معنى لها ، وإن الدجالين قد ابتكروا هذه الأحاديث لخداع السذج ، وإن الدين مرض عقلى ، وإن هذه الدنيا لا إله لها ، وإن الطبيعة خالية من الصفات الأخلاقية تمامًا ، وإن الظلم والرحمة والخير والشر من ابتداع البشر ، ولو أن الطبيعة ذات صفات أخلاقية فما الحاجة إذن ليوم البعث والحساب ، وإن الاعتقاد فى هذه الأحاديث ناشئ عن الجُبن والمسكنة والضعف .

فالدنيا خلقت نفسها بنفسها ولا تحتاج إلى خالق[١] ؟! وبناء على هذا ينبغى أن يكون الإنسان عاقلاً فيأكل ويشرب ويسعد ولا يكترث بالقوانين البشرية ؛ لأننا إذا التزمنا بهذه القوانين فسوف نحرم أنفسنا من الاستمتاع بهذه الحياة ، وكل إنسان لديه قوة يمكن أن يحول هذه الدنيا إلى جنة ، وإن من آمن بالعقائد الضعيفة والجوفاء واعتقد فى الجنة ورضى أو استسلم لهذه الحياة فقد خدع نفسه .

فلو أن الجنة والنار كان لهما وجود ، فإن وجودهما فى هذه الدنيا نفسها التى نعيشها ! والعاقل هو من استفاد إلى أقصى حد من هذه الدنيا وألا يهتم بالعقائد الجوفاء التى لا معنى لها والتى ليست سوى فخ نقع فيه . وعلى الرغم من أن لهذه الحياة بعض الآلام فإنه يجب على الإنسان أن يسعى إلى أن يستفيد منها إلى أقصى حد ويستمتع بها ، والإنسان العاقل مثلاً لا يلقى ثمرة البرتقال بل يقوم بتقشيرها ويأكل لب الثمرة . وبالنسبة لـ "جارواكه" فإن أسمى هدف للإنسان هو أن يستخدم حواسه الخمس بأقصى درجة لكى يستمتع بلذائذ الدنيا .

وقد أثرت فلسفة جارواكه كثيراً فى أفكار الهنود ؛ حيث إن فلسفته قد حطمت طلاسم الفلسفة القديمة للهند ، بل شككت الناس فى الأشياء التى كانوا يؤمنون بها والتى قالها القدامى . وهكذا رأى رجال الدين خطراً يهدد الناس فبدأوا يعارضون هذه الفلسفة ؛ ولهذا السبب فإن الكتب التى تتناول هذا الموضوع والمرتبطة بهذا المذهب المادى نراها قليلة جدا .

فلسفة سانكهيه

ومعنى "سانكهيه" الحساب ، ومؤسس هذه الفلسفة شخص يدعى كابيله (Kapila)[٢] وقيل إنه كان يعيش فى القرن السادس قبل الميلاد ، ومن أهم آثاره ، الأول : tattvas-masa ، والثانى : Samkhya-Sutras ، وترى فلسفة سانكهيه أن العلة تتصل بالمعلول اتصالاً كبيراً ، وترى أن علة العلل مجردة ولطيفة .

(١) لو أن الدنيا خلقت نفسها بنفسها فما الدليل والبرهان على ذلك ؟! (المترجم)

(٢) مع أن كابيله لا ينكر وجود الله فإن مذهبه يعرف عنه الإلحاد أو (An- ishvara) . (المترجم)

ويرى دائماً أن العلة تسيطر على المعلول ، وقد وُجد المعلول ناشئًا عن العلة ويعود ويرتبط بها ثانية ، وفى هذه الفلسفة فإن الله لا يلعب دوراً قط ؛ لأن كابيله يرى أن الوجود يقوم على روح عامة وعالم من الأرواح غير المحدودة ، وأن الخليقة فى هذه الفلسفة قد تشكلت عن طريق التحول والتطور ، وبعبارة أخرى هى المحصلة التى نتجت بين (بورشا) الروح (وبركريتى) المادة . ويؤمن سانكهيه بنظرية التحول والتطور (Avirbhava) والعودة إلى الحالة الطبيعية (Tirobhava) ويرفض سانكهيه فكرة أن العالم هو المادة أو (بركريتى) الذى يوجد بشكل دائم ، وينمحى بشكل مؤقت فى مظاهره المختلفة ، أجل إن المادة هى تربة كل الأشياء ولكن المادة لا يمكن لها أن توجد نفسها بنفسها وإن بورشا (الروح) يساعد هذه المادة على أن تظهر ، فالروح كانت دائماً موجودة وستظل موجودة وإن الروح لم تخلق أبداً ولن تفنى أبداً .

والروح هى التى تسيطر على كل شىء وينسحب ذلك على ما وراء الإدراك الإنسانى وما وراء الزمان والمكان ، وإن الروح (بورشا) لا ترتبط كثيراً بالمادة (بركريتى) ، وبورشا هو المشاهد المنزوى وتبدو ألاعيب "العالم" واضحة فى بركريتى (المادة) وبركريتى بمثابة الراقصة وبورشا بمثابة المشاهد وعندما يشاهد بورشا رقص بركريتى ينسى نفسه .

وبورشا فى هذه الحالة مثل الشخص الذى يرى صورته فى المرآة ويظن أن المرآة ذاته ، وما دام الإنسان لم يتخلص من طلسم الشؤم هذا فسوف يظل أسير الجهل وضحية الوهم الدائم ، والمعرفة تأتى من أن بورشا لا ينخدع بألاعيب بركريتى ويدرك ماهيته الحقيقية ويعلم جيداً أنه ليس بركريتى بل إنه نور وبواسطته يدرك بركريتى نفسه .

وبورشا عالم وبركريتى المعلوم ، وبورشا دائماً ساكن ولا يتغير بينما بركريتى فى حالة من التغير وعدم الثبات ، وبركريتى أمر خارجى ذاتى وبورشا أمر داخلى ذاتى . وتعتبر فلسفة سانكهيه الخلق محصلة وحدة بركريتى وبورشا ، وهذه الوحدة هى نتيجة Aviveka أو عدم قوة التشخيص ، ولكن أى شخص يمكنه أن يتخلص من شرور بركريتى بشكل أو بآخر ويبدى قوته المميزة (Viveka) ، وفى شأن المراحل التى يجب قطعها من أجل إدراك القوة المميزة ، ورد فى كتاب (Samkhya- Tattva- Kaumu di)

أنه كما يجمع جامع الضريبة الضرائب من كل بيت ، ويقدمها إلى الخازن ويقدمها الخازن بدوره إلى الحكومة فإن الحواس الخمس للإنسان توصل أى نوع من المعلومات تصل إليها إلى الذهن (منس) وكل شىء يصل إليه يصل إلى النفس (اهنكارا) التى تقوم بدورها بتقديم كل المعلومات إلى العقل الذى يمثل «يد كل الحواس» ، وبهذه الوسيلة يصل الشخص إلى المعرفة(١) .

وفى فلسفة سانكهيه يلعب Dukha أو الألم دوراً مهما ، والألم يتصل بالحياة اتصالاً وثيقًا ، ونحن لا نسأل عن بعض آلام الحياة التى لا نملك تجاهها شيئًا ، ولا يمكن أن نتخلص من مثل هذا النوع من الآلام ، والألم من وجهة نظر هذه الفلسفة ليس حقيقيا ؛ لأن هذا الألم يتعلق بـ بركريتى أو المادة . وبورشا الذى يحوى الحياة الحقيقية يغفل عن الألم .

والسبب فى أننا لا نستطيع أن نتحرر تمامًا من الألم فى الحياة الدنيا أننا لا نستطيع أن نتحرر تماماً من شرور بركريتى ، ومع ذلك يجب أن نأخذ فى الحسبان أن بورشا فى الحياة الفانية يلعب دور المشاهد ، إذ يشاهد بركريتى وهكذا يصبح بورشا منجذبًا إلى رقص بركريتى فيصاب بورشا بالوهم بحيث يظن أنه هو نفسه الذى يقوم بهذا الرقص وليس بركريتى ، ولهذا السبب يظن بورشا خطأ أن الآلام التى تتعلق بـ بركريتى تتعلق به ، ولكن بقوة العلم والبصيرة يمكن التخلص من قيود هذا الوهم وندرك هذه الحقيقة وهى : إن بورشا (الروح) أفضل من هذا الجسم المحدود الفانى ، وإن هذه الآلام واللذات كلها غير حقيقية ، وبمجرد أن تنتهى رقصة بركريتى فإن هذه الآلام واللذات الموهومة تنتهى هى الأخرى ويستمر بورشا فى حياته السرمدية بلا أى ألم . وهذه العلاقة السابقة التى توجد بين بركريتى وبورشا قد وصفت فى تشبيه جميل . وبهذا المعنى فإن بركريتى مثل راقصة ترقص لتجذب الآخرين ولكن رقص بركريتى يستمر إلى بعض الوقت فيجذب بذلك بورشا إليه ، فإذا أنهى بركريتى رقصته فإنه

(١) ومعنى (Budh) أى اليقظة ، وكما يصبح المرء بلا حركة فى العالم الخارجى إذا نام ويدرك حقائق هذا العالم إذا استيقظ ، فإن بركريتى يظل جامداً بلا حركة مادام لم يستيقظ ، فإذا استيقظ استيقظت معه عين البصيرة، وهو ما يطلق عليه مصطلح Budhi. (المترجم)

يتلاشى من نظر بورشا ، ومع هذا فإن بورشا ينجذب كثيراً إلى بركريتي ، كما أن بركريتي محتاج إلى بورشا كثيراً ، وبورشا هو الآخر يحتاج إلى بركريتي بالمثل ؛ لأن ما يثير بركريتي هو موضع أهمية لدى بورشا أي أن انجذاب الاثنين يكون باعثًا على مواصلة بركريتي للرقص .

ولهذا السبب عندما ندرك أن بركريتي يلعب دوراً حقيقيا في الحياة فعلينا أن نعلم أيضًا أن بركريتي يستمد قوته من بورشا ، وقد نتحرر إلى حد ما من خداع بركريتي ، وهذا التحرر يكون مؤقتًا .

وفي النهاية يحل الموت وينفصل الجسم عن الروح، وبهذا الشكل يتحرر بورشا من شرور بركريتي ، ويبدو بورشا في هيئة الجسم اللطيف (Linga- Sarira) . ومع أنه قد تم توضيح التعاون بين بورشا وبركريتي – وقد ذكرت حكايات لشرح هذا الموضوع – فإن هذا الأمر ليس واضحًا وضوحًا تاما ، ومن بين الحكايات هذه : (قابل أعرج ضريراً ولما كان أحدهما لا يستطيع أن يستغني عن الآخر ؛ أي لا يستطيع أن يعيش بمفرده ، فقد عزما على أن يعيشا معًا . ويمكن القول إن الأعمى هو بركريتي والأعرج هو بورشا وأن الاثنين يطويان الطريق بمساعدة أحدهما الآخر) .

ومن التوضيحات الأخرى التي وردت في هذا الشأن ما يتعلق بطريقة مشاهدة بورشا لبركريتي . وقد قيل إن هذه المشاهدة مثل تلك المشاهدة التي يقوم بها الشخص في المرآة ، وكما أن الإنسان متحرك والمرآة بلا حركة ، فهكذا يبدو أن بورشا يقوم في هذه الحياة بكل الحركات والأفعال ، في حين أن الفاعل لكل الأفعال هو بركريتي وليس بورشا ، ولتوضيح هذا الأمر أكثر ينبغي أن نقول إن كل الألعاب في هذه الدنيا يقوم بها بركريتي وأن بورشا لا يعدو أن يكون أكثر من مجرد شاهد (Saksin) ولكن بركريتي يبدو بدون مساعدة بورشا بلا حركة وبلا روح ، ولا يمكن أن يظهر بورشا بدون بركريتي ، وكما يجب أن تكون هناك مرآة لرؤية الوجه ، فإن الوجه الذي يبدو في المرآة ليس سوى ظل وليس حقيقيًا ، كما أن الحركة التي تصدر عن بركريتي تكون عن طريق بورشا في حين لا يوجد بورشا ، إلا إن الجاهل يتصور أن بورشا هذا هو

الذى يقوم بكل أفعال بركريتى ، والعالم هو الذى وصل إلى مقام"Jivan Mukti" وقد تحـرر فى حيـاته ؛ ومن ثم فإنه يزيل ستارة الوهم ويرى الحقيقة ويتخلص من شـر الآلام نتيجة لهذا الأمـر .

ومن الخصائص الأخرى لبركريتى وبورشا هى : إن تأثير بورشا على بركريتى تأثير جدى ، وكما أن اقتراب مشبك معدنى من المغناطيس يكون باعثًا على انجذاب أحدهما للآخر فإن اقتراب بورشا من بركريتى يكون أيضًا بهذا الشكل، كما أن بورشا (الروح) هو نفسه نور ولا يتغير وهو مستغنٍ عن الآخرين ، إلا أن بركريتى يكون دائمًا فى حالة من عدم الثبات وليس لبورشا صفات ولا حركة ، ومن هنا فإنه لا يتأثر بالألم أو اللذة ويفتقر إلى الإحساس ، وبركريتى عاجز ولا حيلة له بدون بورشا ، كما أن بورشا لا يمكنه أن يحظى بحرية بدون بركريتى .

ومن ناحية أخرى فإنه حينما يقع الأسر فإن بركريتى (المادة) يرتبط ببورشا ، وحينما يحدث التحرر فإن بورشا ينفصل عن بركريتى ، وللتخلص من شرور بركريتى يجب على الشخص أن ينأى عن رغباته الدنيوية .

وحينما يلوث الإنسان نفسه بالدنيا كثيرًا فإن روحه تكون أكثر جرمًا وأسرًا وأكثر فسادًا، وعندما يحظى الإنسان بنور المعرفة فإن قواه الفكرية تتخلص من شرور النفس الأمارة تمامًا ، وإن الشخص الذى يصل إلى هذه الحالة لا يكون لبركريتى عليه أى تأثير. كما أن النجاة الكاملة من شر بركريتى فى الحيـاة الدنيا أمر غير ممكن حتى ولو أن الإنسان بذل أقصى ما عنده من أجل تهذيب النفس فالتحرر نسبى ، وإن كان يمكن تحقيقه . وفى فلسفة سانكهيه فإن الجهل (Avidya) لا بداية له ولكن يمكن القضاء عليه ويحدث بالطريقة نفسها التى سبقت الإشـارة إليهـا . وأعمق جزء فى فلسفة سانكهيه هو العلاقة السرية الغامضة التى توجد بين بورشا وبركريتى ، كما أن المسألة الأخرى الجديرة بالاهتمام فى هذه الفلسفة هى مسألة الألم .

وفلسفة سانكهيه أقدم فلسفة فى الهند إذ تعتبر الألم أمرًا عاما والألم فى هذه الفلسفة ثلاثة أنواع :

١ – Adhyatmika أدهيا تيمكا ؛ أى الألم الذى ينتج عن الطبيعة .

٢ – Adhid hautika أدهيد هوتيكا ؛ أى الألم الذى ينتج عن الأحداث فى الدنيا .

٣ – Adhidivika أدهيدى ڤيكا ؛ أى الألم الذى ينتج عن عوامل خارج الطبيعة .

والآلام التى تصدر عن أمراض جسمية وروحية هى نوع الألم نفسه فى القسم الأول ، والآلام التى تحدث فى الحيوانات والطيور هى من بين أنواع الآلام فى القسم الثانى ، ومصدر الآلام فى النوع الثالث هو نتيجة لتأثر الإنسان بالقضاء والقدر متمثلاً فى الأحداث اليومية. وذُكرت قصتان طريفتان فى فلسفة سانكهيه وإن القصتين لجديرتان بالاهتمام ، الأولى تتعلق بالتغيير الكامل الذى يحدث لشخص فى الوقت الذى يدرك فيه حقيقة ذاته ، والقصة الثانية تتعلق بخطورة نسيان العلم الحقيقى نتيجة لعدم الاكتراث ، **والقصة الأولى** على هذا النحو : قيل إن أميراً قد وقع فى يد رجل من رجال الغابة وكان يعيش مثل أهلها ، ولكن أحد الوزراء الذى كان قد أدرك أن الأمير لا يزال على قيد الحياة قد أطلعه على السر وأنه أمير وليس من أهل الغابة فصدق الأمير حديثه ، وراح يتمثل حياة الأمراء وبهذه الطريقة فإن الرجل الذى أخبره بحقيقة أمره وحياته لم يكن ليرضى أن يظل هذا الأمير فى جهله السابق .

وكما أن أحد البراهمة قد يظن أن روحه من الأرواح النجسة نتيجة لسيطرة روح خبيثة عليها ، وعندما يتخلص من شر هذه الروح الخبيثة يمكن أن يدرك حقيقة ذاته ، وهكذا فإن الروح التى هى أسيرة "Maya" قد تتصور أنها ذات جسد ولكن بمجرد أن طلسم "مايا" ينكشف فإن الشخص يدرك ذاته الحقيقية فيقول لنفسه : (أنا براهمى) .

والقصة الثانية وتتعلق بأحد الملوك : ذهب هذا الملك فى رحلة صيد فرأى فتاة جميلة فى إحدى الغابات ، وكانت تلك الفتاة مستعدة أن تتزوج الملك شريطة ألا تقع عين الملك على الماء ، ووعد الملك هذه الفتاة بذلك . ولكن فى إحدى المرات وكانت الملكة قد أصابها التعب والغضب بسبب اللهو وقد طلب منها الملك قدراً من الماء وكان قد نسى الوعد الذى كان قد قطعه على نفسه ، فأحضرت له الماء وبمجرد أن رأت الفتاة الماء تحولت إلى ضفدعة وغاصت فى البحيرة وكلما سعوا فى سبيل استرجاعها فشلوا فى ذلك ، وفقد الملك هذه الفتاة إلى الأبد . وبهذه الطريقة فإن العلم الحقيقى قد يذهب ولا يعود ثانية نتيجة لخطأ صغير وهو الناتج عن التساهل .

فلسفة ممارسة الرياضة

وإحدى عجائب الهند هى حياة ممارسة الرياضة ، وكل سائح يعود إلى بلده من الهند يسأل أولاً عن ممارسة الرياضة فى الهند . وشهرة المرتاضين لا ترتبط بزمان أو مكان ، وقد اشتهرت هذه الطائفة فى جميع العصور وفى جميع أقطار العالم حتى إن الإسكندر المقدونى نفسه حينما استولى على الهند ذهب لرؤية هؤلاء ، وقد ذكر جامى[1] الأشعار الآتية فى هذا الصدد :

(حينما غزا الإسكندر الهند ... سمع عن حكمة البراهمة)

(وهم جماعة من العارفين بالله والحكماء ... وقد انعزلوا عن الدنيا خوفًا ورجاء)

(ولم يتقدم إليه أحد منهم ... فغضب من تصرفهم)

(وحثَّ الجيش على معاقبتهم ، وتوجه مسرعًا نحو مدينتهم)

(وبعد أن طوى الصحارى والهضاب وصل إلى جبل ورأى به كثيرًا من الكهوف)

(ورأى جماعة تسكن فى تلك الكهوف وقد كفت يدها عن سائر الأعمال)

(وقد حاكوا الملابس والإزارات من النباتات كما لبسوا العمائم على رءوسهم ، المغزولة من النبات أيضًا)

(وقد نشأ الأطفال والنساء فى حالة من الفاقة والفقر ، والنبات هو مأكلهم فى هذه الهضبة)

(وكم تحدثوا مع بعضهم وكم دار الحديث بينهم فى كل أمر وتبادلوا الأسئلة والأجوبة)

(وكم من أسرار الحكمة التى صدرت عنهم وكم من معضلات المشاكل قد حلوها)

(١) نور الدين عبد الرحمن جامى : شاعر إيرانى مشهور (٨١٧ هـ . ق - ٨٩٨ هـ . ق) كان مطلعًا على الأدبين الفارسى والعربى ومن أعماله : سلسلة الذهب ، وسلامان وأبسال ، وتحفة الأحرار وسبحة الأبرار ، ويوسف وزليخا ، وليلى والمجنون (وخرد نامه سكندرى) أو منظومة الإسكندر . ويعد الشاعر جامى من شعراء مدرسة السبك العراقى . والأشعار التى وردت فى هذا المقام من منظومة الإسكندر ، انظر : خسرو شافعى : مائة شاعر ، ترجمة محمود علاوى المجلس الأعلى للثقافة . (المترجم)

وعندما جاء الإسكندر إلى مجلس حديثهم ، توجه نحو الحاضرين وقال لهم : اطلبوا منى ما شئتم من الدنيا ستجدون أن طلبكم مجاب وملبى ، قالوا ليس لنا فى هذه الدنيا الفانية سوى الوجود الخالد ، وليس لنا مطلب أسمى من الحياة الخالدة)

(قال هذا ليس فى مقدروى ولا أستطيع تلبية طلبكم)

(إن الشخص الذى لم يأت بشىء فى هذه الدنيا أو ينجز فى عمره

عملاً يقدمه هل يستحق الخلود ؟)

(قالوا بما أنك تعلم هذا السر فلماذا يسفك الإنسان الدماء شهوة وطمعًا من أجل الملك ، ويجرد الجيوش من أجل فتح البلاد)

(ولنفترض أن الدنيا كلها هكذا فإن العالم كله تحت إمرتك)

(لم يعد خافيًا عليك أى كنز ومع ذلك جانبك الصواب فى تحليل الأمور)

(أى نتيجة ستحصل عليها فى النهاية وقد زرعت الألم بدلاً من البذور) .

ويكتب "مجاستين" الذى كان السفير العظيم لـ "سلوكس"[1] فيما يتعلق بهؤلاء الممارسين للرياضة فى الهند ، إن هؤلاء يعيشون حياة بسيطة ويفترشون الحصير أو الجلود ، ويمتنعون عن أكل الحيوان أو مجامعة النساء ، ويقضون أوقاتهم فى المناقشة والبحث وهم يبلغون معلوماتهم فقط للأشخاص النين يكونون مستعدين أن يستمعوا لأحاديثهم .

وليس ممارسو الرياضة هؤلاء موضع اهتمام السياح الأجانب فحسب ؛ بل حتى إن الملوك وأهل الهند ينظرون إلى هذه الطائفة نظرة احترام فوق العادة ، وكان ملوك الهند القدامى يغتبطون لوجود مثل هؤلاء العلماء فى بلاطاتهم أكثر من المحاربين ، والرجل المحارب ليس له فى الهند أى عزة أو احترام حتى أن "أرجن" الذى يعد رستم[2] الهند وبطلها ، يقل مقامه أمام المباحث الفلسفية "لكرشنا" ويفقد شموخه أيضًا ، بل يصبح تلميذًا مبتدئًا وخاشعًا وخاضعًا ليستمع إلى كلمات "كرشنا" .

وتعود رياضة "يوج" أو فلسفة ممارسة الرياضة إلى الزمن القديم ، وهذه الفلسفة شقيقة فلسفة سانكهيه ، وقد انتشرت منذ زمن طويل فى بلاد الهند ولكن لا يمكن تحديد تاريخها .

(١) سلوكس هو من خلف الإسكندر الأكبر المقدونى فى الحكم . (المترجم)
(٢) أى بطل الهند . (المترجم)

تعريف مصطلح اليوجا

ويوج كلمة اشتقت من الكلمة (yuj) أى الاتصال ؛ ويعنى اتصال الجزء بالكل والمقصود من (yuj) الاستعداد لعمل صعب ولكن أحد المفسرين وهو "يوجا سوترا" يقول إن (yuj) تعنى فى الحقيقة (yiyoga) أى الانفصال ؛ أى انفصال بركريتى عن بورشا أو انفصال الجسم عن الروح . وبشكل عام فإن يوج نظام قاسٍ من أجل تربية النفس التربية التى تجعل الجسم مطيعًا للروح ، وإن يوج لا يخلص الروح فقط من شرور النفس الأمارة والذهن من شرور الأفكار السيئة ؛ بل إنه يوصل الإنسان إلى المراحل العليا ويكشف له وجه الحقيقة .

(إذا صفا القلب انكشفت الحقيقة وتتشكل نظراتنا مثل صفاء المرآة) ، وقد ذكروا فيما يتعلق بشيخ فلسفة الإشراق[(١)] : (لقد زال حجاب الظلمات أمام الناظرين وتيسر لهم الاتصال بعالم الملكوت الأعلى) .

والحالة التى حدثت لشيخ الإشراق هى الحالة نفسها التى وقعت لأحد أفراد المرتاضين الهنود .

وفلسفة يوج عدة أقسام :

١ – Raja Yoga ويتعلق بترتيب القوى الذهنية والروحية .

٢ – Karma Yoga ويتعلق بترتيب القوى الجسمانية .

٣ – Hatha Yoga ويتعلق بتحرر الروح عن طريق خدمة الآخرين والاضطلاع بوظيفة ما .

٤ – Bahkti Yoga ويتعلق بالسعى للوصول إلى الكمال عن طريق المحبة .

٥ – Jnana yoga ويتعلق بالسعى للوصول إلى الله عن طريق الحكمة .

(١) هو السهروردى المقتول (٥٨٧هـ) فى عهد صلاح الدين الأيوبى على يد ابن صلاح الدين بسبب آرائه الفلسفية الإشراقية . (المراجع)

و (يوجا – سوترا) أهم أثر يتعلق بالفلسفة المعروفة بـ "يوجيسم" وتشتمل على أربعة أقسام :

١ – Samadhi-pada أي توضيح شكل يوج وطريقة تفكيره وهدفه .

٢ – Sadhana-pada أداة الوصول إلى حالة التفكير والملاحظة .

٣ – Vibhuti-pada أي شرح كيفية قوى ما وراء الطبيعة التي يمكن أن تحدث نتيجة للتفكير والملاحظة .

٤ – Kaivalya-pada كيفاليا أو الوحدة أعظم هدف إلى عالمها لـ "يوجيسم" أو اليوجا ، والكيفاليا كلمة اشتقت من جوالا أي الوحدة ومعناها انفصال الروح عن الدنيا وعودتها أي "برهمن" .

ولطيٍّ هذه المراحل الصعبة الأربعة ذات التعاليم الجديدة في فلسفة (اليوجيسم) اليوجا علاوة على ترك العلاقات الدنيوية يجب قطع المراحل التي هي عبارة عن :

١ – (yama) ياما الجديدة : وتعني الابتعاد عن طلب اللذة ومخادعة هذا وذاك والكذب وقبول الهدية والتسول والزنا والفواحش والكسل وطلب الراحة وأي نوع من أذية الآخرين .

٢ – (niyama) نياما : وفي هذه المرحلة يجب قطع العلاقات الخارجية مع الدنيا والاهتمام فقط بالأمور المعنوية .

٣ – (Asana) آسانا : وفي هذه المرحلة يجب اتباع رياضات بدنية صعبة جداً مع النفس ، ومن بين الرياضات الـ ٨٤ التي يقوم بها المرتاض أن يجلس بطريقة خاصة ؛ لأن طريقة الجلوس لها تأثير خاص على مركزية القوى الدماغية .

٤ – (prana yama) براناياما : وفي هذه المرحلة يجب تنظيم عملية التنفس وضرورة تعلم التنفس بشكل صحيح .

٥ – (pratyahra) براتياهارا : وفي هذه المرحلة يجب ترك الاهتمام بالعالم الخارجي والسيطرة على أفكارنا .

٦ – (Dharana) دهرانه : وفى هذه المرحلة يحظى المرتاض بالهدوء الفكرى ومركزية قواه الدماغية .

٧ – (Dhyana) دهيانه : يجب توجيه الاهتمام إلى عقيدة واحدة (كالخير مثلاً) .

٨ – (Samadhi) سمدهى : وهذه آخر مرحلة ، وفى هذه المرحلة يصل المرتاض إلى مقامه المراد إذ يكون قد محا ذاته وأصبح فريسة للسبات والغيبوبية الروحانيين وقد استطاع أن يخلص بورشا (الروح) من شرور بركريتى (المادة) .

وهدف هذه الفلسفة (اليوجيسم) هو أن يتحرر بورشا – الذى هو أسير وراء حُجُب ضخمة لبركريتى – من ظلمات المادة ، وبتنفيذ هذه الأوامر التى يقوم بها المرتاض فإنه لا يحظى بالسلامة الجسمانية فحسب؛ بل إنه يؤمِّن سلامة الروح، ومع أن السلامة الجسمانية ليست هدف الحياة فهى أحد الشروط اللازمة لسلامة الروح ؛ لأن الجسم هو الأداة التى بواسطتها يمكن للروح أن تصعد إلى المقامات العليا .

وبهذا الشكل يمكن أن نصل إلى غاياتنا، وأن الجسم وهو الأداة لن يصبح بعد ذلك عائقًا أو عقبة فى سبيل سمو الروح . ولكن يجب علينا أن نحرص على ألا يطغى الجسم على الروح ، ومن ثم فإن "اليوجيسم" تعلمنا السيطرة الشديدة على القوى الجسمانية .

وبالسيطرة على النفس الأمارة والقوى الذهنية فإننا لن نستريح – فقط – من شرور القيود الجسمانية والآلام الروحية ، بل إننا سوف نعلم أسرار الوجود أو (حقيقة الذات) أو بالمصطلح الهندى سوف نكشف حقيقة آتمن . ومن وجهة نظر المرتاض فإن الحقيقة تنكشف عن طريق مثل هذه التجربة الداخلية، وإن الحقائق العلمية هى الأخرى ذات قيم نسبية واعتبارية ولكن هذه الحقيقة الداخلية لا تمتزج بالأخطاء الذهنية ، ولما كانت تعد هدية أو هبة من الحق فإنها ذات قيمة مطلقة ولاشك فيها ومثل هذا العلم لا ينتقل من شخص لآخر .

ولكشف الحقيقة الداخلية فإن أول أنواع السيطرة على المؤثرات الخارجية هو إغلاق العين والأذن الظاهرتين وفتح العين والأذن الباطنتين ، ويجب التزام نوع من

الصمت الذى يكون فى منأى عن أى نوع من جلبة العالم الخارجى ، ويجب التخلص من الاضطراب واصطدام العواطف الداخلية ؛ حتى تتحرر النفس من قيود النفس الأمارة وحتى يمكن جلاء مرآة الروح من غبار الشهوات فتُشاهد فيها روح الحقيقة .

ومن عجائب هذا المذهب أنه لا ينكر وجود الله ولكنه مع ذلك لا يَعُدُّ الله خالق العالم ، وإله "يوجيسم" يختلف اختلافًا جذريا عن إله موسى وعيسى ؛ فإله اليوجيسم أسمى من أن يخلق مثل هذا العالم الملىء بالنقص والتضاد .

وإن هذا الإله لا يمكن وصفه ، والشىء الوحيد الذى يمكن أن يقال فى شأنه أنه مبرأ من أى نوع من العيب والنقص وهو وراء قانون السببية ، وفضلاً عن أنه لم يخلق هذه الدنيا فإنه أيضًا لا علاقة له بالموجودات فى هذه الدنيا .

واليوج (Taraka) أى الوسيلة التى تجعلنا نعبر من محيط الدنيا لنقترب من هذا الإله المنزه الخالى من العيوب، وكما يحدث عندما نقرب وردة حمراء من قطعة كريستال ، فنرى لون الكريستال أيضًا أحمر فبالمثل فإن أية فكرة تستقر فى مخيلة الإنسان فإنها تعكس شخصيته .

فلسفة جين

ليس معلومًا من هو مؤسس هذه الفلسفة ، ويقال إن مؤسسها كان "رسبه ديفه" (Rasabha deva) ولكن من المسلَّم به أن المناديَين بهذا المذهب كانا: باراسواناتا (Parsvanatha) ، ومهاويره فردهمانه (Mahavira Vardhamana) ، وكان بارسواناتا يعيش قبل مهاويره بـ ٢٤٦ سنة وقد عمر مئة سنة وكان أميرًا مثل بوذا وقضى بقية عمره فى الزهد والتقوى وإرشاد الناس ، وفى بداية حياته ضاق ذرعًا بحياة القصور والترف لهذا فر من القصر .

أما مهاويره الذى توفى سنة ٥٢٦ ق.م . فقد كان رجلاً عالمًا وتقيا وقضى حياته فى تعليم هذه الشريعة . و"جين" كلمة مشتقة من جينا ومعناها : المنتصر ، أو الانتصار على الهوى والهوس ، ويرى أنصار هذا المذهب أنه لكى يرى الشخص «شمس الحقيقة»

عليه أن يطهر داخله من كل ما يلوثها حتى تشرق شمس الروح مثل شمس رائعة النهار ومن ثم يرى الأشياء كما هى موجودة . ووفقًا لهذه الفلسفة فإن للعالم وجهين : وجه مادى ووجه روحى ، وإن الأول غير ثابت ومتغير والثانى ثابت لا يتغير .

وقد سعى مهاويره[1] أن يهذب نفسه لمدة ١٢ سنة ونشر مذهب السابقين بما يتفق مع عقول العامة ، وقد توفى وهو فى ٢٧ من عمره فى «باوه». والمادة هى التى تحجب النور الباطن وينبغى ترك الرغبات الجسمانية حتى يقوى الجانب المعنوى لدينا وهو الجانب الحقيقى لوجودنا . والأصول الثلاثة لجين التى تشكل أهمية كبرى فى فلسفته على هذا النحو :

١ – التخلص من الجهل والحصول على المعرفة عن طريق النفس (Samyag-Jiana) .

٢ – تعلم الإيمان بعد التأمل ورؤية الحق (Samyag- darshana) .

٣ – السيطرة على النفس (Samyag- charitra) .

وسميت هذه الأصول الثلاثة Triratra أو الجواهر الثلاثة ، وتوجد فى فلسفة جين عدة أصول أخرى وهى فى غاية الأهمية، وهى على هذا النحو :

١ – عدم الأذية Ahimsa

٢ – تجنب الكذب Setyam

٣– تجنب السرقة Aset yam

٤ – عفة الفكر والقول والعمل Brahmacharyam

٥ – قطع أية علاقة بالرغبات المادية Aparigraha

وفى مذهب جين ليس هناك إله أو رسول أو جنة أو نار ، وكل شخص مسئول عن أعماله ، والحياة الحالية هى محصلة أعمال الإنسان ، وبناء على هذا فإن الحظ والإقبال والنصيب أشياء لا معنى لها . ولتوضيح ذلك الشكل أفضل يجب القول إنه

(١) ولد ماهاويره بالقرب من "بانتا" وقد سماه والداه "فاردهمانا" أى (الراشد) ، وفى بداية شبابه تزوج من الفتاة "باسودا" وأنجب منها بنتًا ، وفى سن الثلاثين توفى والداه فتأثرت وفاتهما فيه كثيرًا حتى إنه راح بعد ذلك يتأمل أسرار الوجود ، وأصبح بعد ذلك زاهدًا . (المؤلف)

وفق هذه الفلسفة فإن كل فكر يغرس بذرة عمله ، وإن الحياة تشتمل على الظن والقول والعمل وممارسة النشاط ، وممارسة هذا النشاط تؤدى بطبيعة الحال إلى أعمال أخرى وهذه الأعمال لها ثمار ، وهذه الثمار هى التى تحدد المصدر المؤقت أو الدائم للشخص .

وأفضل فضيلة فى فلسفة جين هى عدم الأذية (أهمسا Ahimsa) وأسوأ جرم لفلسفة جين هو القتل والأذية (همسا Himsa) ويسعى أنصار هذه المذهب (جين) إلى عدم الأذية ويحتل هذا الأمر أهمية كبرى ، حتى إنه حينما يريد زعماء هذا المذهب أن يسيروا إلى مكان ما فإنهم يحرصون على أن يقوم شخص بمكنسة صغيرة بكنس الطريق تحت أقدامهم حتى لا تضار أية حشرة أو تؤذى تحت هذا الرجل الجينى، وحتى لا تدخل الحشرات أفواههم فإن أنصار هذا المذهب يغلقون أفواههم بقطع من القماش .

ولا يشرب أنصار هذا المذهب الماء أبدًا فى الظلام ، إذ إنهم يخشون ألا يروا الحشرة فى الظلمة ومن ثم يبتلعونها ! وهم لا يستخدمون المراوح أبدًا لأنه فى اعتقادهم أنه من الممكن أن تقتل المروحة حشرة من الحشرات ! ولو أن أحد أنصار مذهب جين سقط فى الماء فإنه يسعى لأن يسبح بهدوء لأنه لو سبح بعنف وسرعة فإنه من الممكن أن يؤذى ذرات المياه !

ولما كان أنصار مذهب جين لا يقتلون الحشرات فإنهم يسعون أن يجعلوا منازلهم نظيفة جدًا حتى لا تسكنها الحشرات ، ولا يضطرون لقتلها ، ووفقًا لفلسفة جين فإن العالم يتألف من ستة أجزاء على هذا النحو :

١ – جيڤا (Jiva) أى مجموع الذرات الحية التى تنتشر فى الكائنات، وإن هذه الذرات لا تبلى ، ولديها طاقة أبدية وحياة سرمدية وهى حية فى ذاتها ومتشابهة .

٢ – آجيڤا (Ajiva) وهو الشىء الذى يدخل فى الذرات سابقة الذكر ويجعلها متفرقة وملوثة ، ومعنى (آجيڤا) العدم، وآجيڤا قبل أى شىء آخر كلمة تعنى الخلاء الملىء بـ Akasha وهذا الخلاء ليس فقط يقضى على العالم بل إنه يتعلق بفناء العالم .

وفضلاً عن أن «آجيڤا» هو الخلاء فهو أيضًا أربعة أشياء أخرى فى العالم وهى عبارة عن :

(أ) دهرمه (Dharma) والذى بواسطته أصبحت حركة الموجودات ممكنة .

(ب) أدهرمه (Adharma) وهو الذى يخلق الراحة والسكون (مثل الأرض التى هى ساكنة والمخلوقات الأخرى من العالم التى هى متحركة) .

(جـ) كالا (Kala) أى الزمان الذى يحدث ظهور التغيرات .

(د) بودجالا (Pudgala) أو المادة التى تتألف من الذرات ولها لون ورائحة وطعم .

وقيود الحياة ناشئة عن اتحاد جيفا مع آجيفا ، والنجاة من هذه القيود أن نأتى بالأسباب التى تفرق بين هذين العنصرين . ووفقًا لفلسفة جين فإن الحياة لا تنتهى بالموت ، وإن أى مخلوق مكتوب عليه أن يولد فهو إذن يموت وبناء على هذا فإن الحياة عذاب متصل .

وإن أى شخص لا يمكنه أن يتخلص من شرور الحياة حتى إن الآلهة تقع تحت السيطرة الكاملة لطلسم الحياة .

الخلاصة أن الآلهة لا تعانى من الحياة عندما لا تكون أسيرة القيود المادية .

وأنه يمكن للإنسان أن يصل من مقام الوجود السفلى إلى مقام الوجود العلوى الإلهى شريطة أن يتقبل آلام تهذيب النفس .

وفلسفة جين هى التى جمعت فى كتاب وكتبت على لسان بركريت ويعرف هذا الكتاب بـ (آجاماس Agamas) وتم نقل عدة أسطر من هذا الكتاب كما يلى :

(إن الطيور السجينة لا يمكنها أن تتخلص من الأسر مثل الأشخاص الذين لا يفرقون بين الخبيث والطيب ، وليسوا قادرين على أن ينجوا من التعاسة) .

(كل الموجودات الحية تخشى الألم ومن هنا لا تؤذوا أولئك ولا تقتلوهم ولا يجب قتل أى كائن وهذا لب لباب الحكمة . يجب على العاقل أن يدرك أنه ليس هو الوحيد الذى يتألم فى هذه الدنيا . بل إن جميع الموجودات الأخرى تتألم) .

(لو أن الاغتسال يمكن أن يوصل إلى الكمال لكان واجبا على جميع الموجودات التى تحيا فى الماء أن تكون قد وصلت إلى الكمال) .

(الرجل التقى يأكل قليلاً ويشرب قليلاً وينام قليلاً) .

(إن الجاهل يمكن أن يضل بسهولة) .

(الرجل الجاهل يملأه الغرور كما أنه يسعى ليل نهار إلى جمع الثروة وكأنه سيخلد أو لن يموت !) .

(يجب على الإنسان أن يعامل جميع المخلوقات بالشكل الذى يتوقع من الآخرين أن يعاملوه به) .

(الإنسان الأعمى لن يرى شيئًا ولو حمل مصباحًا معه) .

(العُجب شوكة صغيرة وإخراجها أمر صعب) .

(إن الشخص الذى يشعل النار يقتل الموجودات الحية ، وذلك الشخص الذى يخمد النار يقتل النار نفسها ، ومن هنا فالعاقل دائمًا يراعى القانون والشريعة ولن يشعل نارًا أبدًا) .

(تعشق المرأة رجلاً بالقلب ورجلاً ثانيًا باللسان ورجلاً ثالثًا بالفعل) .

فلسفة ڤيدانتا

إن قراءة فلسفة الهند مثل صعود قلعة شاهقة كلما صعدتم إلى أعلى بدت صعبة الصعود ، ولكن فى المقابل يبدو الأفق أكثر سعة وأكثر وضوحًا فيجعلكم هذا غرقى الوجد والطرب .

وصعود جبل فلسفة الهند مثل صعود أى جبل لا يخلو من مخاطرة، وسوف تقابلنا بعض الصعوبات فى مجال التفسيرات والاستدلالات ، ولكن هذه المشاق لن تكون بلا مقابل ؛ لأننا فى النهاية سوف نصل إلى الأماكن التى تكون مصدر النور والصفاء .

ولعل أعلى قمة فى سلسلة جبال فلسفة الهند هى "ڤيدانتا" ؛ لأنه تقريبًا تنبع جميع الأنظمة الفلسفية الهندية من هذه الفلسفة ، وقد وردت فلسفة ڤيدانتا فى

كتاب (Vedauta- Sutra) وقام "بدرايانا"[١] بتقديم شرح عليه ، وقد ألف شخص يدعى "شنكر اچاريا[٢]" تفسيراً حول الكتاب المذكور الذى يعد من أشهر الكتب . وكتاب "ڤيدانتا سوترا" مذهب فلسفى منظم يتألف من ٥٥٥ قطعة ، وقد قسم بدرايانا كتاب "ڤيدانتا" إلى قسمين : القسم العلمى Jnana- Kanda ، والقسم العملى Karma- Kanda ، وقد بحث القسم العلمى فى كتاب Upanishads والقسم العملى فى كتاب Brahmans .

ووفقًا لأصول فلسفة ڤيدانتا فإن كل أمر يعتمد على الحقيقة لا يفنى أبداً وكل شىء فانٍ مجرد زيف ، وإن مخلوقات هذا العالم لا وجود لها وإنها مرتبطة بالجهل لأنها سريعة الزوال وفانية ، وإن وجودها وقتى إذ إنه بمجرد أن يستيقظ الإنسان– من هذا النوم – يدرك فناءها ، وعندما يتحرر الإنسان من جهله فإنه يدرك غياب حقيقة هذا العالم .

وقد وضح أصول أساس مذهب ڤيدانتا عالم هندى فى هذه الأسطر التالية : (إننى أوجز ما تم تدريسه فى آلاف المجلدات ، إن برهمن حقيقة ، وإن العالم غير حقيقى ، وإن الروح هى برهمن ولا يوجد فى هذا العالم سواها) .

وقيل فى موضع آخر : إنه لا يوجد شىء جدير بالتعلم ، ولا يوجد هناك شىء باعث على اللذة أو جدير بالتحصيل باستثناء برهمن (الروح) ؛ لأن الشخص الذى يعرف برهمن هو نفسه برهمى أيضاً وإن من هو برهمى لديه كل شىء .

ويوجد فى فلسفة ڤيدانتا مصطلح فى غاية الأهمية وهو (Tattvamasi) أى : (أنت ذلك الوجود) والمقصود من (Tat) أى برهمن أو علة العلل ، والمقصود من : (Twam) أى آتمن أو (النفس) وبعبارة أخرى معنى (أنت ذلك الوجود) أنه لا فرق بين الروح البشرية والروح الإلهية التى حلت فى العالم ، ولهذا السبب يقول «ويوكانندا» أحد أتباع هذا المذهب من الهنود العظام :

(إن الشخص الذى لا يؤمن ملحد، والإلحاد فى نظر ڤيدانتا عدم الإيمان بروحه) .

(١) Badarayana .

(٢) Shankara .

وفى نظر ڤيدانتا أن مخلوقات العالم أسيرة المصائب ، ولما أنها أصبحت ضحية للنسيان فإن الحياة الخالدة والسعيدة فى أن الإنسان يخرج من هذا النسيان ويحظى بالمعرفة ؛ أى أنه يدرك هذه الحقيقة ؛ وهى أن روح الفرد تتصل بروح العالم وأنها تبدو خلافًا لما فى الظاهر ليست منفصلة عنها .

ويرى البوذيون أن العالم ظهر من العدم ولهذا السبب يعتقدون فى Sunyaveda أو نظرية عبثية العالم أو العدم ، ولكن أنصار مذهب ڤيدانتا يرون عكس ذلك وأن ظهور العالم يقوم على الوجود أو الشىء الموجود وأن هذا الشىء Sat أو Brahman .

ولهذا السبب فإن فلسفة ڤيدانتا تعتقد أن الأرواح وُجِدت منفردة منذ الأزل وستبقى موجودة إلى الأبد ، وأن الأرواح قد خلقت فى نسق محدد من وجودها وأنها تستمد وجودها وفقًا لأعمالها السابقة .

وبعبارة أخرى : إن كل مخلوق هو محصلة كل أعماله ، وإن أخلاق أى شخص ومصيره حصيلة حياته الماضية ، وإن هذه الأخلاق نفسها سوف تكون ذات تأثير فى حياته المستقبلية ، ووفقًا لهذه الفلسفة فلو أن شخصًا ولد أصم أو أعمى أو أبكم فإن هذا ليس ذنب الخالق ، بل إنه ذنبه هو لما بدر منه فى حياته السابقة .

وقد قُسم العلم فى فلسفة ڤيدانتا إلى قسمين : العلم الأعلى والعلم الأدنى ، والعلم الأعلى هو علم الروح وهو يصدر عن جميع ظروف الذات Upadhis وبالوصول إلى هذا المقام فإن الإنسان يصل إلى التحرر أو Moksha ويتوحد مع الروح وبرهمن ويتخلص من شر الولادة من جديد أو التغير والتحول الدائمين .

فلو أن برهمن هو كل شىء فإنه لا يوجد شىء سواه وأن عالم الخليقة لن يستطيع أن يكون سوى برهمن، وسنلتقى بهذا المصطلح فى فلسفة ڤيدانتا : Tatdanarnyatvam أى العلة والمعلول وأنه لا فرق بينهما ، والمصطلح الآخر الذى يدل على اتصال العلة بالمعلول هو هذا المصطلح : Karya kara nabheda[1] ، وبناء على هذا ووفقًا لهذه

(١) فى فلسفة الهند لا تنفصل Karava أى العلة عن Karya أى المعلول . (المترجم)

الفلسفة فإن المعلول ليس شيئًا جديداً قد خلق ، بل إنه تعبير عن العلة وهى العلة التى لا تنمحى أبدًا ولكنها لن تظهر .

إذًا لا فرق بين العلة والمعلول وإنهما زوايتان لشيء واحد .

المعلول كامن فى العلة : وما ذكرناه يتعلق بالعلم الأعلى أما العلم الأدنى (Karma- Kanda) فإنه لا يدلنا على كيفية التعرف على برهمن ولكنه يدلنا على هذا الموضوع ؛ وهو : كيف يمكننا أن نسأل عن الجانب الظاهر فى برهمن (الله) ؟ ولعل عبادة الأوثان هى ثمرة هذا العلم الأدنى ، ولما كان العوام غير قادرين على أن يدركوا الحقائق المجردة وغير المجردة ، فمن هنا فإن فلاسفة الهند قد وضعوا فلسفة لأنفسهم يمكن أن يتفهموها ، كما أن العوام قادرون على أن يتجنبوا الاحتياجات الداخلية لهم بسبب اتباعهم عبادة الأوثان والقيام بعمل مراسم مذهبية لا معنى لها ، ويحتم هذا المذهب اتخاذ الرمز والإشارة فى التعامل حتى يمكن التفاهم والاستفادة من المذهب ، ولما كان العوام يتبعون الشهوات النفسية ولا يستطيعون أن يرقوا إلى الأمور المعنوية والأصول الأخلاقية فمن هنا بات لزامًا عليهم أن يتقيدوا بتنفيذ الأصول الأخلاقية عن طريق اتباع بعض المراسم الخاصة بهم ، فى حين أن الخواص والعقلاء يكفيهم أن يتعرفوا على برهمن حتى يحفظوا أنفسهم من السقوط الأخلاقى .

وقد كتب مذهب العوام فى كتاب "Purva- Mimamsa" وشرح مذهب الخواص فى كتاب "Brahman- Mimamsa" والفرق الأساسى بين هذين (حتى يعرف كل شخص أن برهمن هو برهمن) أن بروا ميمامسه يولى أهمية كبرى إلى كارما أى العمل حيث إن النجاة فقط تكون بإنجاز العمل الطيب وبدون انتظار جزاء دنيوى أو أخروى .

وفلسفة ڤيدانتا هى الفلسفة المحلية للهند ، وتعد من أقدم الفلسفات الهندية ، كما أن هذه الفلسفة توصلنا إلى عالم نورانى متحرر ، وذلك بعد تجشُّم طيٍّ طريق طويل ملىء بالصعوبات ، كما أنها توجهنا إلى عالم مفعم بنور العرفان . ويتجلى فى فلسفة ڤيدانتا الفكر الإنسانى على حد تعبير ماكس موللر . وسواء ما ذكره كان صحيحًا أو غير ذلك ، فلا شك فى أن هذه الفلسفة توضح بجلاءٍ النور الجديد ؛ أى النور المعبر عن السلام والصفاء اللذين لا نراهما فى أية فلسفة أخرى من فلسفات معظم الدول .

الطريقة الآرية[1]

ذات يوم كان سرب من الإوز البرى يطير فوق حدائق قصر الأمير «كابيلا وستو» فأطلق الصياد السهام نحو هذه الطيور واصطاد أحدها ، وكان هناك طفل مشغول باللعب فى المكان نفسه الذى سقطت فيه الإوزة ، وقد حمل الطفل الطائر الجريح ونزع منه السهم القاتل ، وفى تلك الأثناء جاءه خادم الصياد وقال له : " هل يريد مولاى الإوزة التى اصطادها فؤاتيه بها ؟ "

فأجاب الطفل : "لا فلو كان الطائر قد قُتل فسوف أعطيه لقاتله ولكن الإوزة حية" .

فلما علم الصياد بهذه الحادثة غضب جدا وقال : "وسواء كان هذا الطائر حيا أو ميتًا ، فأنا صاحبه الذى أسقطته على الأرض حينما كان يحلق فى الجو ولم يكن يملكه أحد ، ولكن الآن فقد أسقطته على الأرض وتلك الإوزة ملكى" .

ومع أن الصياد كان ابن عم الطفل لكن الطفل الرقيق الذى كان يسمى "سيدارتا" لم يكن مستعداً أن يتنازل عن تلك الإوزة ، وفى النهاية حدث نزاع شديد انتهى الأمر بوصوله إلى المحكمة وقد أفتى كل قاضٍ بفتوى حتى إنه فى النهاية نهض شيخ حكيم وقال : "لو أخذتم فى الحسبان ما للروح من قيمة فإن المنقذ جدير بأن يمتلك الموجود أكثر من القاتل ، لأن القاتل يدمر ويخرب بينما الرءوف يعمل على المحافظة على الروح ، إذن أعطوا الطائر إلى الشخص الذى أنقذه" . وقد استصوب الجميع رأى هذا العالم السديد وأعطوا الطائر إلى الطفل ، وذات يوم شاهد **سيدارتا "امرا"** الراقصة المعروفة فى كبلاوستو وهى تسير بخطوات مثقلة ومتعبة فتقدم منها عدة خطوات وحينئذ سألها بمودة ولطف قائلاً : "ماذا حدث لك أيتها الفتاة ولماذا تبدين متعبة ومريضة إلى هذا الحد ؟!" ، وفى البداية رفضت امرا أن تجيبه عن السبب ولكن سيدارتا أصرَّ أكثر ، فقالت امرا : فى الحقيقة لا ينبغى أن أقول لك لماذا أبدو متعبة ومرهقة إلى هذا الحد ، واعلم أننى لن أرقص من الغد ثانية ، فقال سيدارتا : لن آمرك أن تخبرينى السبب ،

(١) أى البوذية وقد سميت الطريقة الآرية . (المترجم)

فالتفتت امرا حولها بعينيها الواسعتين حتى تطمئن أن أحداً لا يسمع كلماتها وحينئذ قالت : إننى لا أجرؤ أن أتحدث فى هذا الشأن فقد صدر الأمر لى ألا أتحدث .

فأجاب **سيدارتا** : اعلمى أيتها المرأة أن أمرى أولى بالطاعة من أى أمر آخر ، يا إلهى تحدثى .. فقالت امرا خائفة مرتعدة : مولاى إن مرضى هذا هو الذى أصبح باعثًا على أن تستبعدنى من خدمتك .

فمنذ عامين أصيبت أختى "ويجايا" بمرض السل واستبعدوها من الرقص ثم توفيت بعد ذلك والآن فقد أصبت أنا بهذا المرض وفى الليلة الماضية نزف فمى دمًا وغداً سوف أترك القصر، ولكنى أطلب منك ألا تفشى حديثى هذا لأنه أصبح ممنوعًا أن يلوث الحزن مسامعك .

فقال **سيدارتا** : استريحى بعد ذلك وسوف يقلُّ السعال لديك وحينئذ سوف تستردين عافيتك . لا يا مولاى سأموت لأن هذا المرض لا علاج له . فساد صمت شديد ثم قال سيدارتا : هل تخافين لأنك ستموتين ؟

– مولاى أجل إنى خائفة جدا ولكن لا حيلة لى وما سيحدث سوف يحدث ، وأنا الآن متعبة جداً ولا أستطيع أن أرقص إذن من الأفضل أن أموت حتى يخفَّ الحمل الذى تتحمله أمى الفقيرة .

وغرق سيدارتا[1] فى بحر من التفكير وقال بينه وبين نفسه : إن مثل هذه الأقدام المرتعدة أسعدتنى فى حين أن الآخرين يتعذبون ويبكون حتى أسعد أنا ، وحينئذ خلع عقد اللؤلؤ من عنقه وأعطاه للراقصة، وأرسل لوالده فى صباح اليوم التالى هذه الرسالة : أبى المعظم الآن أدركت جميع الأسرار ولم يعد شيء خافٍ عنى من حزن هذه الدنيا ، ولا أعلم لماذا لا تتركنى أعيش بين الناس بحرية إذ إنه من الممكن عند التجول بين الناس أن يجذب نظرى منظر بهيج ، فينقذنى من الإحساس المؤلم الذى يسلبنى وجودى وراحتى ، علاوة على أنه حينما أقترب أكثر من الناس فسوف أتعرف عليهم والذين سوف أكون حاكمًا عليهم يومًا ما ، لذلك أتمنى أن تحررنى من السجن .

(١) الاسم الحقيقى لبوذا (Siddhartha) أى الشخص الذى حقق هدفه واسم أسرته (Gautama) ومن أسمائه الأخرى (Sakyamuni) أى عالم ساكيا ، والأخير (Buddha) أى المستنير وقد سموا بوذا Tathagata أى الشخص وصل إلى الحقيقة . (المؤلف)

ووافق الأمير العظيم على طلب ابنه ، وحتى يجنب ابنه أى منظر محزن قد يلفت انتباهه أمر أن يضيئوا كل مكان فى المدينة وأن يقيموا حفلاً عاما .

ومرت عدة سنوات على هذا الأمر حتى أصبح ذلك الطفل الودود شاباً وسيماً ذا هندام ، وتعجب الناس جميعاً من وضعه وسلوكه لأنه مع أن أباه كان أحد أمراء الهند العظام وكان هو ولى عهده إلا أن سيدارتا كان دائماً مشغولاً بالاطلاع على كتب الحكمة ودائم التفكير ويغلب عليه الحزن ، واستدعى الأب حكماء البلاد وسألهم كيف يمكن أن يخلص ابنه من هذا الحزن ؟

وقد رد كل حكيم ردا معيناً حتى فى النهاية اقترح أحد العظماء رأياً كان موضع استحسان الأمير وهو تزويج الابن بأسرع ما يمكن، ونتيجة لذلك تجمعت الجميلات فى يوم محدد بالقصر وأخذن يسرن أمام الأمير الشاب حتى يختار إحداهن ، ولم تعجب الأمير أية فتاة منهن باستثناء "**يسودره**" التى خفق لها قلبه .

واقترب يوم الزواج وكان الجميع سعداء وفرحين باستثناء شخص واحد وهو الأمير الشاب ، وفى الوقت الذى سمع فيه سيدارتا صوت الموسيقى يرتفع أحس أن صوت "وينا" يقول له :

نحن أصوات عاصفة ونئن من أجل الراحة وليس هناك أى مكان به راحة ، واحسرتاه ! إن الحياة فانية مثل النسيم والأنين والآهة والبكاء والطوفان والصراع !

وأنتم لا تستطيعون أن تعلموا أين نحن أو إلى أين نذهب ، ولا تستطيعون أن تعلموا من أى شىء تنبع الحياة وإلى أى شىء تنتهى ؟ نحن مثل أشباح فارغة وأية لذة يمكن أن نحصل عليها من آلامنا المتغيرة ؟

وقد نظر سيدارتا بعينه المتدفقة إلى الحياة والدنيا ، ووصل إلى هذه النتيجة : إن الحياة لعنة أبدية ، وأدرك أننا بائسون بلا حمى أو ملجأ ، وأن العالم ملىء بالخدع التى لا حصر لها ، فهذه الدنيا عالم وهمى زاخر بالأشباح والكوابيس المخيفة التى لا يستمتع بها إلا المجانين ، وهو يرى أن الإنسان فى الدنيا أسير مثل الزئبق لا يستقر فى مكان ، ومثل النار مدمرة ، ومثل الحجر لا حس فيه ولا عاطفة ، وهو يرى أنه فى

صحراء الحياة الجميلة فى ظاهرها لا ينمو أى شىء سوى الشوك ، فكان يرى هذه الحقائق الواضحة فيتألم ألمًا شديداً . ومرت عدة سنوات وأصاب سيدارتا هوس فقام بجولة طويلة فى مدينة كابيلا وستو(١) عاصمة موطن أبيه ، ثم امتطى صهوة الجواد وسار برفقة بعض الأصدقاء ، وبالقرب من جدران كابيلا وستو رأى سيدارتا على قارعة طريق مهجور رجلاً مسنا وكان يتوكأ بصعوبة على عصا من الغاب وقد تعثر فى الطريق ، وكان هذا الرجل ذا قامة مقوسة وكانت لحيته طويلة بحيث أنها اقتربت من الأرض ، وكان جسمه منهكًا وعظمه هشًا وكان يبدو عليه من ملابسه الممزقة الرثة أنه مثل رجل ميت ، فاضطرب الأمير عند رؤية هذا الشيخ فجأة ، فأوقف جواده بينما بدا على وجه الأمير العجب والدهشة وسأله : ماذا حدث لك ؟ ولماذا تسير فى خطوات مرتعدة ؟ فلعلك قد ثملت من شراب ما ؟ فقال الشيخ : أيها الأمير إن ثمالتى هذه البادية علىَّ من الشيخوخة ... وأنا كنت فى يوم من الأيام مثلك شابًا وسيمًا .

فخفض سيدارتا رأسًا بشكل حزين وتقدم فى طريقه ... بينما لم يكن يُسمع سوى سنابك الجياد وارتطام الأسلحة، انتبه أحد فرسان "ساكيا" لصمت الأمير .

وبعد قليل وبمجرد أن وصلوا إلى بوابة المدينة الشرقية وصل لمسامعهم فجأة أنَّات حزينة صاحبها نواح حزين ، وكانت هذه الأنَّات قد صدرت عن جماعة كانت تشيع تابوتًا ، وخرجوا من المدينة وتوجهوا نحو أحد التلال التى كانوا يشعلون نار حطب الكاج فوقها لإحراق جسد الميت .

وكانت هذه أول مرة يرى سيدارتا فيها تشييع جثمان ، وكان قد سمع فى خوف شديد هذه الأنات المنظمة والحزينة لطائفة المشيعين الذين كانوا يتصدرون صف الجنازة ، وقد اعتصر قلبه بكاء أقارب الميت ، وكان لحن العزاء الذى كان يردده البراهمة فى صوت مخنوق وحركات غامضة قد أثر فيه كثيراً ، وعندما مرَّ الأمير أمام التابوت رأى داخله جسد الميت وقد لُف بقماش الكتان ، وكان هذا الجثمان لشاب قوى

(١) كابيلا وستو : أى التراب الأحمر .

ووسيم إلا أن حرارة الجو قد ساعدت على سرعة تعفن الجسد ، فقد ظهرت فوقه بقع زرقاء كريهة فبدا الجسد مشوهًا ؛ فحوّل سيدارتا وجهة سير الحصان وعاد مع رفاقه من الطريق نفسه الذى جاء منه ...

وكأن الأمير يهرب من مواجهة خطر فأراد أن يصل بأسرع ما يمكن إلى قصره الساحر الذى لم تر أعتابه الألم أو المعاناة قط ، وكان يسرع فى خطوه حتى إن هذه السرعة كانت سببًا فى أنه لم ير الرجل المسن الذى كان يتغطى برداء واقٍ من المطر ويمر من الطريق القريبة من قصره ، ولم يترك جواد الأمير أثرًا وراءه باستثناء ذلك البخار الذى كان يخرج من أنفه أثناء العدو .

وصاح الأمير من الخوف ووضع يديه المزدانتين بالخواتم فوق عينيه وكان قد رأى وجهًا مخيفًا ومثيرًا للنفور بل يبدو عليه التورم ، كما كان مغطى "بالدمامل" العديدة التى نتج عنها التصاق الذباب بالوجه .

وارتسمت ابتسامة شريرة على شفتيه الذابلتين اللتين بدت أسنانه بينهما ، كما تورمت عيناه بشكل مثير للاشمئزاز، وقد بدا وجهه الذى شوهته الدمامل كأنه أحد الأشباح المخيفة التى يراها الإنسان فى النوم .

وأدرك بفراسةٍ أحدُ الأشخاص الذين كانوا يظلون الأمير بمظلة من حرارة الشمس وكان من خدم البلاط المجربين ، أدرك ذلك السؤال الحائر على شفتى الأمير فقال له :

– أيها الأمير إن هؤلاء الأهالى الهنود مصابون بمرض الجذام . فقال الأمير :

– هل هؤلاء المصابون بهذا المرض من ابتلاء براهما لهم فأصبحوا ضحايا هذا المرض ؟

– لا هذا جزاء قسوة قلوبهم سواء كانوا أخيارًا أم كانوا أشرارًا ، كما أن هذا المرض يصيبهم دون تمييز بينهم ، ويمكن أن نذكر عددًا من الأشخاص الذين أصيبوا بهذا المرض مثل هؤلاء البائسين فى دولتك .

وخفض سيدارتا رأسه يأساً ، ماذا يحدث ؟! وليس فقط أن الشيخوخة والموت من البلاءات التى يمكن تجنبها والتى تحاصر المرء فى نهاية حياته ، بل إن هناك مرضاً وأنواعًا لا حصر لها من البلاءات ، عالم مخيف إذ إنه لا يوجد فى هذه الحياة سوى الألم والمعاناة[1] . وقد ضاق سيدارتا ذرعًا عند مشاهدته هذه المناظر المحزنة ووصل إلى حالة كادت فيها أن تسيطر عليه الهواجس الجنونية ومن ثم راح يبحث عن أمنية القلب متمثلة فى سعيه الدءوب فى كل مكان لكى يجد المرهم الذى يكون فيه شفاء لآلامه الخفية ، وكان وحيداً فى صحراء الحياة المخيفة وقد حزن وأصابه السأم من كرِّ الأيام القاسية ، وفى النهاية عزم ذات ليلة على الهروب ، فنهض من فراشه الوثير الدافئ وامتطى صهوة جواده وراح يبحث عن الحقيقة فى غابات الهند .

وقد قام سيدارتا بممارسة الرياضة الروحية لفترة من الوقت ، إذ كان يتخيل أن الخلاص والنجاة فى الرياضة .

وقد أصابه الإعياء والهزال حتى إنه بعد ست سنوات أصبح – كما يقولون – جلداً على عظم ، ويقول هو نفسه فى هذا الصدد : لقد أصاب الذبول قدمى ويدى وأصبح فخذى مثل "كفى قدم الجمل" وأصبح عمودى الفقرى مثل "الحبل المرتعد وأصبحت أسنانى نتيجة للصيام مثل أخشاب بيت خرب آيل للسقوط" . وذات يوم ومن الإفراط فى الرياضة والجوع سقط على الأرض حتى إن أتباعه ظنوا أنه توفى ، ولكنه بعد فترة عاد إلى وعيه ، ولما رأى أن الصيام لا يعالج الألم ، بل إنه يزيده ، امتنع عن ممارسة الرياضة ، وبدأ فى تناول الطعام ولما رأى أتباعه منه هذا تركوه ورجعوا إلى مدينة بنارس .

ويقال إنه ذات يوم كان سيدارتا قد جلس فى عالم "الوحدة" ، فى المكان الذى يعرف اليوم بـ Budhagaya ، وراح يفكر فى أسرار الوجود ، وبعد قليل اشتد النزاع بين النفس البهيمية ومباهج الحياة من نفوذ وثروة ، وحيناً راح يفكر فى نيل الراحة الداخلية ، فتحير سيدارتا فأى الطريقان يسلك ؟

(١) نقلاً عن عبرة بوذا : تأليف (ب. ايبانز ، ترجمة السيد قائميان) .

أيسعى للحصول على المال وتحيق الآمال أم يسعى لنيل الراحة الداخلية ؟!

وفى النهاية وفى الوقت الذى خبأت الشمس الساطعة وجهها فى هذا الصراع المخيف ، انتصرت النفس القدسية وأدرك سيدارتا حقيقة الحياة ، وهذه الحقيقة فحواها أن الحياة اسم آخر لسلسلة من الآلام التى ينبغى التخلص منها وأن تحرر المرء منها يكون "بإحراق" جذور الرغبات وانتزاع بذرة الأمل حتى يمكن التخلص من كل هذه الآلام ، وقد أدرك فى تلك اللحظة المشرقة أن ألم البشر من البشر وأنهم قادرون على أن يعالجوا أنفسهم بأنفسهم ، وكان عمره آنذاك قد بلغ الخامسة والثلاثين ومنذ ذلك اليوم أصبح سيدارتا يلقب بـ "بوذا" وصمم منذ ذلك اليوم على أن يعلن مذهبه الجديد بين معلميه القدامي ولكن أغلبهم كان قد توفى ؛ ومن ثم نشر تعاليمه بين تلاميذه ، وكان تلاميذه فى تلك الأثناء يعيشون فى مدينة بنارس ، وبمجرد أن وصل بوذا إلى بنارس أحجم تلاميذه عن استقباله وأعلن بوذا مع ذلك أصول تعاليمه الجديدة .

وقد جذب بوذا سامعيه إليه بسهولة، وانجذب إليه كذلك تلاميذه الذين راحوا شيئًا فشيئًا يعتنقون مذهبه ، وفى ذلك الوقت قابل بوذا أحد المرتاضين كان مشغولاً بالرياضة كثيراً فأشفق بوذا عليه وقال له :

(أيها الأخ العزيز هل تعلمت قبل هذا العزف على الصنج [1] ؟ أجابه الشاب : نعم ، قال بوذا : حسن جدا الآن أسوق إليك تشبيهًا مناسبًا فى هذا الموضوع ، حينما تكون أسلاك الصنج محكمة ومشدودة فإن نغماته لن تكون عذبة الصوت ، ولو أصبحت أسلاكه رخوة وضعيفة فأيضًا لن تكون نغماته مطبوعة وموزونة ، ولكن حينما تكون هذه الأسلاك بين اللين والشدة فإنها حينئذ تصبح موزونة . وجسم الإنسان هكذا مثل أسلاك الصنج فلو عاملته بخشونة تعب وأصابه الإعياء ، ولو عاملته برقة ولين أصبح إحساس المرء ضعيفًا وإرادته أيضًا ضعيفة ، إذن ماذا يجب أن نفعل ؟ يجب أن نسير بين هذين الطريقين) .

(١) الصنج : اسم آلة موسيقية . (المترجم)

وقد عاش بوذا ٨٠ عامًا وتوفى فى كوسيناجارا ، وبعد وفاته فإن البراهمة والطبقة القوية فى الهند عارضوا مذهبه معارضة شديدة ؛ وذلك بسبب إصلاحاته التى عارضت مصالحهم ، ومن هنا انقسمت البوذية إلى طائفتين :

١ – فرقة ماهايانا (Mahayna) : وهم أتباعه ومعظمهم يعيشون فى اليابان .

٢ – فرقة هينايانا (Hinayana) : وهم أتباعه الذين يعيشون فى جنوب الهند وشرقها خاصة فى سيلان ، وبرمة ، وسيام .

والفرقة الأولى اشتراكية، ويعتقد أصحاب هذه الفرقة بضرورة أن يخلص الإنسان نفسه من الضلال والتعاسة وكذلك الآخرين ، ولكن الفرقة الثانية تعتقد أنه يجب على كل شخص أن يحرر نفسه فقط ولا شأن له بالآخرين . ومن مؤلفات بوذا كتاب يسمى Tripitaka ويشتمل هذا الكتاب على ثلاث رسائل :

١ – Vinaya Pitaka وقد كتب فى شأن الأخلاق .

٢ – Sutta Pitaka ويحتوى على النصائح والعظات .

٣ – Abhidhamma pitaka ويبحث فى المسائل الفلسفية .

ومن الكتب البوذية المعروفة الأخرى "Dhamma pada" الذى يحتوى على الكلمات القصار .

فلسفة بوذا

قال أحد الكتاب الأوروبيين : (ما أعرفه عن الهند أن الهنود بوذيون ، ولما كان معنى "نرفاناى بوذا" أى الصمت ، فبناء على هذا فإن الهند لم تقدم شيئًا لحضارة العالم) .

وفى الرد على هذا الكاتب يجب القول أولاً : إن الهنود ليسوا بوذيين كلهم ، ثانيًا : إن "نرفاناى بوذا" ليست بالمعنى الذى قصده الكاتب الأوروبى وهى لا تعنى الصمت .

إذ إن فلسفة بوذا ذخيرة عظيمة من التجارب الداخلية ، وهكذا سعى بوذا فى تحليل الأسرار الباطنية للإنسان حتى إنه أطلق على مذهبه "مذهب التجزئة والتحليل" .

وبوذا مثل فرويد قاسٍ فى التحليل والتجزئة وهو يحبُّ الحقيقة العارية حتى لو كانت هذه الحقيقة مريرة أو قبيحة .

وهو لا يولى اهتمامًا كبيرًا بظواهر القلب ، وهو يشرِّح هذا العالم الردىء بمشرط الفكر ، ويؤكد بوذا على شىء واحد وهو أن هذه الحياة تقوم على أساس الألم وأن طريق محاربة الألم فى قتل الرغبات .

وهناك حقائق أربعة لبوذا هى :

١ – Duka (الألم)　　٢ – Samudaya (الشهوات)

٣ – Narga (إخماد نار الشهوات)　　٤ – Marga (طريق الإصلاح)

ولا يولى بوذا اهتمامًا بعبادة الأوثان والنذور وتقديم القرابين ، وهو يعجب من الباحثين الذين يبحثون فى ما وراء الطبيعة الذين حيروا أنفسهم فى الصحراء الجرداء الطبيعية .

وتدور أفكار بوذا حول موضوع واحد وهو العلاقة بين العلة والمعلول (وأن الوجود الحالى لأى فرد هو نتيجة أعماله) . وإن الوجود أيضًا شر ، أى الشىء الذى لا يجب أن يكون ، وبناء على هذا ينبغى على الإنسان أن يسعى كى لا يصبح أسيرًا للوجود ثانية ، وعليه أن يعلم أن الإنسان لا يمكنه أن يعثر على مكان يعصمه من نتيجة أعماله بحيث يفر إليه ويلوذ به سواء فى حضن الفضاء أو فى البحر أو فى كهوف الجبال ولا فى أى مكان من العالم، وأن أعمال الإنسان تتبعه مثل ظله ، وبالهدوء التدريجى نفسه الذى يتحول فيه اللبن إلى زبادى ، فإن أعمال الإنسان السيئة التى ارتكبها سوف يذوق ثمرها . وأن الأعمال السيئة للإنسان مثل النار التى تختفى تحت الرماد وسوف تحرقه .

فأى شىء يدفع الإنسان لكى يسير وراء الشر ؟ إن الشىء الوحيد الذى يدفع الإنسان لكى يسير وراء الشر ليس أكثر من شىء واحد وهو الجهل . ولو أن الإنسان

يرى الأشياء بالشكل نفسه الذى تكون عليه ويصرف النظر عن ظلالها فإنه سوف يفسح الطريق أمامه لكى يرى الحقيقة العظيمة للخير ، والجهل هو الذى يخفى حقيقة الحياة - التى هى الألم - عن نظر الإنسان ، والجهل هو الباعث على أننا تعلقنا بالشيء الوهمى ، والميل إلى استمرار الحياة ليس فقط عملاً أحمق وحقيراً بل نتيجة للجهل والأسر ، والجهل علة العلل لوجودك ووجودى ، والجهل هو الباعث على أن يفصل الشخص نفسه عن سائر المخلوقات ، فيولى أهمية كبرى للـ "الأنا" ، والشخص الجاهل هو الذى يهتم كثيراً بالـ "أنا" ويسعى أن يجعل هذه "الأنا" أبدية .

ووجود الفردية شر ، كما أن آلام الحياة تنبع من وجود هذه الفردية والأفراد البائسين والمتألمين يهتمون فقط بأنفسهم، وأكبر مصيبة هي حب النفس ومن ثم يصبح الشخص متكالبًا على اللذة ومتعطشًا للحياة ، فنحن نتألم لأننا أحياء ونتألم لأننا عطشى الحصول على اللذة ، وآلام الإنسان تتزايد بقدر اهتمامه بهذا الوجود الفانى ، والشخص الذى يستسلم لهذا العطش يعانى أكثر من الآخرين ويبدو أمله هذا مثل قطرات الماء التي تتساقط فوق زهرة النيلوفر الزرقاء .

ومن أجل هذا يجب على الإنسان أن يخطو خطوة للتخلص من آلام الحياة ، وعليه أن يؤمن أولاً بفناء حياة كل الموجودات ، وبأن الفردية التى هى مظهر لعبث الحياة هى علة العلل وسبب جميع الآلام ، وبأن الحياة فى هذا العالم الفانى بمثابة سفر إلى عالم مجهول ، وبأن الإنسان العاقل ليس مستعداً أن يستسلم لمثل هذا السفر. وطوبى لمن أدرك هذه الحقيقة الكبرى لأنه بذلك يكون قد تحرر من هذا السجن الدائم .

ولا تهتم البوذية "بالله" أو بما يوصلنا إلى العناية الإلهية ! وإن كل شخص مسئول عن مصيره وإما أن الشخص يظل مقيداً بقيود هذا العالم المادى أو أن يحرر ذاته من شروره ، وليس بإمكان أى شخص أن يتغلب على رجل انتصر على ذاته ، حتى إن الإله لا يمكنه أن ينتصر على رجل غلب نفسه .

ولا يوجد معجزات أو كرامات فى البوذية ، ولو أن هناك معجزة فهى تعنى التغلب على النفس الأمارة، وهذا الأمر يتحقق لو أن الشخص تغلب على جهله وتغلب على ذاته بإيمان وإرادة راسخين .

وتهذيب النفس فى البوذية بمثابة أعظم عبادة ، وإذا تحرر الشخص من قيود النفس الأمارة فإنه يصل لهدفه ؛ أى أنه أصبح آرهت = Arhat .

وأعظم درس وجهه بوذا للعالم هو أن الإنسان مسئول عن سعادته وتعاسته ولهذا السبب نجد أن "آناندا" - وهو أعظم تلميذ لبوذا - قد اكتسب التكليف من بوذا نفسه بإبلاغ مذهبه وفلسفته فقال على لسان بوذا : (ينبغى أن تكونوا مصابيح لأنفسكم وأن تلجأوا فقط لأنفسكم) .

ولا ينبغى عليكم أن تلجأوا إلى أى أحد آخر ، وعندما تحافظون على الحقيقة كمصباح من المصابيح فإنكم تكونون قد اعتبرتم أن الحقيقة هى الملجأ والملاذ ، فلا تلجأوا إلى أى شىء آخر دون ذواتكم .

وما ذلك الملجأ الداخلى لنا ؟ إنه الفكر ، وما نمثله اليوم هو حصيلة فكرنا ، فالفكر الطاهر هو الجنة والفكر الملوث هو النار (لهذا فإن الشخص العاقل هو مثل الجواهرى الذى ينقى الذهب الخالص من الشوائب الأخرى التى علقت به) .

والنجاة مرتبطة بالعالم الداخلى (الذات) والنجاة فى تغيير مجرى الأفكار ، والفكر هو أساس وجود الإنسان وعلى حد قول جلال الدين الرومى[1] : **"أيها الأخ أنت الفكر"**.

وكما تسير إطارات العربة خلف الحيوان وتتبعه ، فإن الألم يتبع الشخص الذى يتحدث بفكر شرير أو يعمل به .

فإن كانت هناك سعادة فهى داخلنا وإلا فلا وجود لها ولا توجد فى أى مكان آخر ، والفكر الخير سعادة ، إذن ماذا نفعل لكى نتخلص من الأفكار الشريرة ؟ لقد حدد بوذا منها خمسة أنواع فى هذا الصدد :

١ - استبدل الأفكار النبيلة بالأفكار الملوثة .

٢ - واجه الأفكار الملوثة برجولة واعتبرها وخيمة العاقبة وسبباً من أسباب الحزن .

(١) جلال الدين الرومى (٦٠٣ هـ - ٦٧٢ هـ) : من أشهر الشعراء الإيرانيين . ومن أعماله ديوان شمس تبريزى والمثنوى وفيه ما فيه . (المترجم)

٣ – أبعد عن نفسك الأفكار الملوثة .

٤ – حاول أن تفكر بشيء من التحليل في الأفكار الملوثة وحينئذ ستصل إلى حقيقة هذه الأفكار السيئة .

٥ – حارب الأفكار الملوثة بكل قوة .

وإذا استطعنا أن نتغلب على الأفكار السيئة فإن جميع الرغبات السيئة ، التى هى مثل الأفاعى المخيفة سوف تهرب إلى جحورها ، وسوف يدرك الإنسان نور الحقيقة بكل وضوح ، وحينئذ سوف تخمد نار الشهوة وسوف يكون المرء مهيأً لبلوغ (نرڤانا) **Nirvana** .

"ونرڤانا" هى الكلمة التى يصعب تحليلها أو شرحها بسهولة؛ إذ إن لهذه الكلمة أكثر من تفسير، "ونرڤانا" بشكل إجمالى هى حالة الهدوء التى يصل إليها الإنسان بعد التغلب على النفس ، وهناك هدوء أسمى من حالة نرڤانا وهو ما يسمى بـ "بارى نرڤانا" وهذه الحالة تحدث فقط بعد الموت. وقد فسر البعض كلمة نرڤانا بمعنى قتل جميع الرغبات سواء الخيرة أو السيئة ، فى حين أن بوذا لا يقول لنا أن نقتل جميع رغباتنا ، لأنه يعلم أولاً أن مثل هذا الأمر ليس ممكنًا لأن الحياة الآدمية تجنح إلى الرغبات ، وثانيًا لأن الرغبات الحسنة يمكن أن تكون سببًا فى سعادتنا .

وبناء على هذا يجب علينا أن ننمى رغباتنا الحسنة بتهذيب النفس وأن ننأى بأنفسنا عن رغباتنا السيئة .

إذن فالمعنى الحقيقى لـ "نرڤانا" هو إخماد نار الشهوة والنفور من الجهل ، ونرڤانا هى طلب الكمال وليس السعى إلى الفناء ، ونرڤانا حلم عميق يتخلص فيه الإنسان من شر الفردية ويصل إلى (الكل) ، والنرڤانا عودة مياه النهر إلى تيارها المعتدل وأيضًا اختفاء نور الشمع أمام نور الشمس .

ومما ذكرنا نستنتج أن البوذية تعتمد أساسًا على علم النفس والمنطق والأخلاق وشىء من علم ما وراء الطبيعة ولا وجود للإلهيات فيها ، وقد نفر بوذا من الخرافات

وكان ينصح تلاميذه دائمًا بالتمسك بالقوانين الروحية وأن يستبعدوا الأفكار القائمة على العبثية ، وكان يعتبر أن إقامة علم الأخلاق فوق رمال ما وراء الطبيعة غير الثابتة سوف يؤدى به إلى الانهيار ، وقد قضى بوذا على سلطنة الخرافات وأسّس فلسفة تقوم على قواعد العقل المطلق .

ومن الأمور العجيبة فى شأن بوذا أنه كان دائمًا يدعو تلاميذه إلى أن يتباحثوا معه مثل أهل النظر والفكر وألا يقبلوا كلماته على أنها أشياء مسلم بها ، وقد قام مذهب بوذا على أساس (اقبل وانظر) وليس على أساس من التعصب للرأى والديكتاتورية فى الرأى ، وكان أسلوب بوذا فى معالجة الآلام الإنسانية هو أسلوب الاعتدال المتفهم لصالح النفس البشرية ، وكان يساعد أتباعه حتى يدركوا الأفكار والمشاعر الداخلية المخيفة لديهم وأن يحاربوها، وتوجد فى البوذية عشر معاص عظيمة؛ ثلاث منها يتعلق بالجسم وهى عبارة عن : الكذب والسرقة والزنا ، وأربع معاص ترتبط باللسان وهى : الكذب والافتراء والسب والإساءة ، وهناك ثلاث معاص ترتبط بالذهن وهى عبارة عن : الطمع والنفور والخطأ ، وغير هذه المعاصى العشرة السابقة هناك ذنوب أخرى ، وهى عبارة عن : الأنانية والجهل ، وتولى البوذية اهتمامًا كبيرًا بإتقان العمل والصدق .

وفى البوذية لا يعد إنجاز العمل وحده هو كل التكليف الإنسانى ، بل يجب أن ينصلح حالنا كله وأن نتخلص من شر سيطرة النفس الأمارة ، كما أن الأعمال الطيبة لنا يجب أن تكون مثل ثمار الشجرة تأتى منا وتعود إلينا ، والفضيلة فى البوذية هى أن يكون الإنسان مطلعًا على فضيلة الخير ، ليس مطلعًا عليها فحسب، بل يجب عليه أن يعمل بمقتضاها ، ومعرفة فضيلة الخير لا تعنى أن يكون الشخص قد ادخر معلومات كافية فى الأخلاق والإلهيات ، بل يجب عليه أن يثبت حسن نيته فى كل عمل يقوم به .

وفى البوذية لا وجود للترويض وزجر الجسم ، ولا يجب على الشخص أن يتحرر بالصوم والزجر ، ولا يجب عليه أيضًا أن يبالغ فى التنعم بالملذات الجسدية، وقد عُدّت

البوذية مذهب الوسطية والاعتدال، ولما كان بوذا يحذر الإنسان من أى نوع من الإفراط والتفريط ، فقد أوصى أتباعه بأن يستفيدوا من الملابس الجميلة والطعام الكافى والمنازل المريحة والمعالجة بعلم الطب .

ولا ينبغى على الزاهد أن يبالغ فى اللذائذ المادية ، بل يجب عليه أن يقوم بتهذيب نفسه وأن يستبدل بذاته ذخيرة من الأفكار والأعمال الطيبة .

ومع أن بوذا قد ترك لأتباعه حرية الاختيار سواء أن يتزوجوا أو لا يتزوجوا فإنه يذم الحياة الزوجية ، أو على حد قوله : (إن الحياة الزوجية مليئة بالمساوئ وهى الطريق الملوث بالشهوة ، وإن حياة الشخص الذى تحرر من الرغبات الدنيوية بمثابة الهواء الطلق ، وكم هو عسير على رجل أن يعيش فى بيت وتكون له حياة سامية ونقية ومتلألئة) .

وعندما سأله آناندا أعز أصدقائه والذى خدمه ٢٥ سنة : كيف يعامل المرء النساء ؟ قال بوذا : (احذر المرأة تمامًا) ، وعندما سأله آناندا : لو اضطر المرء إلى أن يتعامل مع المرأة ماذا يجب عليه أن يفعل ؟ قال بوذا : (انتبه فى هذه الحالة) ، وقال بوذا فى موضع آخر : (إذا عاشرت النساء اعتبرهن بمثابة الأم لك لو كن عجائز واعتبرهن شقيقات لك إن كن شابات) .

وقد ورد فى أحد كتب بوذا أن المرأة مثل التمساح الذى ينتظر على ضفة نهر الحياة ليلتهم أول سبَّاح يراه ! ومن عقائد بوذا البديعة الأخرى ، أنه يؤمن بعدم ثبات الدنيا . ووفقًا لعقيدته هذه ليس هناك أى شىء ثابت فى الحياة وأن كل شىء فيها مثل البرق غير ثابت ومتغير (إذن كيف يمكن أن نضحك ؟ كيف يمكن أن نسعد فى حين أن الدنيا بمثابة حريق دائم) فكل شىء – على حد قول بوذا – عبث ، وهو ما يطلق عليه اسم آناتا (Anatta) وكل شىء غير ثابت كالجسم والإحساس والإدراك وأى شىء آخر حتى إن ذلك الشىء الذى نسميه (الأنا) و (أنت) ونهتم بهما كثيرًا لا وجود لهما !

ويعتبر بوذا الحياة البشرية لا أساس لها وقصيرة ، ويعتبر أن دوامها مثل لحظة تفكير عابرة .

وكما تسير الإطارات المستديرة للعربة وتصل إلى هدف محدد وعندما تبلغه تتوقف ، هكذا الحياة الإنسانية تستمر مادام هذا الإنسان يفكر ، وبمجرد أن ينتهى هذا الفكر من مخيلة صاحبه يموت هذا الإنسان !

ويعتبر بوذا وجود الإنسان مثل الشعلة التى لا تحترق فقط بل إنها دائمًا فى تغير ، ولهذا السبب فإن أى شخص يختلف فى حياته من لحظة لأخرى ، نعم فإن كل شىء معرض (للحريق) وأى شىء تراه العين معرض للحريق حتى إن العين نفسها معرضة للحريق ، وأين السبيل للهرب من هذا الحريق الدنيوى ؟ والسبيل للفرار هو فى الوصول إلى "نرفانا" أى يجب إخماد نار الشهوات بماء الحكمة ، والعمل على ألا نتعرض لمصائب الوجود . والتناسل هو أكبر جرم يرتكبه الشخص فى حق نفسه ، ومن خلال التناسل فإن الإنسان يحرق ذاته ولهذا السبب فإن التناسل هو أسوأ جرم فى "البوذية" . وهكذا كان بوذا ذا نظرة سامية وليست هناك عقيدة مثل عقيدته جامعة وشاملة .

وذات يوم أمسك بوذا بعضًا من الأوراق الجافة وسأل تلميذه آناندا : (هل هناك أوراق أخرى غير هذه ؟ قال آناندا : نعم تتساقط أوراق الخريف فى كل مكان ويكثر عددها بحيث لا يمكن حصرها . قال بوذا : هكذا أعطيتكم بعضًا من الحقائق ولكن هناك آلاف الحقائق الأخرى التى لا يمكن حصرها) .

ومن كلماته الأخرى :

(لا ينبغى لأى شخص أن يقبل قانونًا لمجرد الاحترام ، بل يجب أن يختبره أولاً كما نختبر الذهب عن طريق النار) .

وقد مزج بوذا فى مذهبه بين عدة عقائد أخرى ومن بينها الأولى وهى عقيدة التناسخ والثانية عقيدة العمل (كرما) وهى العقيدة التى ترى أن العالم بيت الأحزان ، وأن الشخص العاقل هو الذى لا ينخدع بهذا العالم ، ومن ناحية أخرى فقد ثار بوذا ضد امتياز بعض الطبقات فى الهند وسعى أن يقضى على طبقة رجال الدين الذين هم أساس الفساد .

ويعد مذهب بوذا مذهبًا راقيًا لعدة أسباب : الأول الجانب الإيجابى فى مذهبه ؛ حيث إن مذهبه لا يعتمد على ما وراء الطبيعة ، والجانب الإيجابى الثانى أنه لا يتقيد بالآداب والقواعد الدينية .

وعظمة بوذا أنه لم يدَّعِ النبوة قط ، وأقرَّ بأنه من الممكن أن تحدث أخطاء فى مذهبه ؛ لهذا طلب من تلاميذه ألا يقبلوا آراءه دون مناقشة ، بل حثهم على أن يتحروا الحقيقة وأن يسعوا لكى يتجنبوا أخطاءه المذكورة .

ومن كلماته : (أيها الرهبان لا تصدقوا أى شىء لمجرد أنكم سمعتموه ولأنه جزء من أحاديث أو سنة أو لأنكم تخيلتموه وذلك إرضاءً لمعلمكم ، ولا تصدقوا كل ما يقوله المعلم ولكن صدقوا الحقائق التى اكتشفتموها وحللتموها تحليلاً كافيًا وأدركتم أن تلك الحقائق مفيدة لكم ولجميع الناس.. عندئذ ضعوها نصب أعينكم) .

والعظمة الأخرى لبوذا هى صراحته فى شأن الأمور الغيبية ، إذ إنه فى مثل هذه الأمور لا يبدى نظراً . وذات يوم سأله أحد تلاميذه : هل العالم أبدىٌّ أم له نهاية ؟ أجاب بوذا : (لا قيمة للبحث فى أبدية العالم أو فى نهايته فأنا لم آت إلى هذه الدنيا لكى أشرح هذه المسائل ، بل جئت إليها لكى أبين السبيل إلى النجاة من آلام هذه الحياة ، وبناء على هذا لا علاقة لى بهذا السؤال المذكور ، ومن ثم فإننى أعتبره لا قيمة له) .

ومن مزايا فلسفة بوذا عمقها إذا قورنت بالفلسفات الأخرى وعلم النفس .

وقد أدرك بوذا أن جميع المصائب الإنسانية تنبع من أنانية الإنسان التى لا يقبلها الآخرون ، وهناك عدة رغبات تكمن فى الإنسان وتظهر بقوة وتسيطر عليه ، وهذه الرغبات هى :

١ - ميل الإنسان إلى الشهوة .

٢ - ميل الإنسان إلى إدراك النجاح .

٣ - ميل الإنسان إلى الخلود .

وقد أسس بوذا مذهبه على أساس مسألة الألم الذى يشكل الوجود ، والأركان الأربعة الأساسية لمذهبه هى :

١ - إن هذا العالم مليء بالألم .

٢ - إن هذا العالم له مصدر يجب كشفه .

٣ - إن هذا الكشف يقودنا إلى الوسيلة التى نقضى بها على الألم .

٤ - وللتخلص من هذا الألم يجب أن نتبع أسلوبًا صحيحًا. فما مصدر الألم ؟ إن مصدر جميع آلام الحياة هو الهوى والهوس ، وبإخماد نار الهوى والهوس يمكن التقليل من شدة هذا الألم .

وما السبيل للقضاء على الهوى والهوس ؟ هل فى ممارسة الرياضة ؟ لا .. إن بوذا لا يفهم كيف يمكن أن يعثر الإنسان على علاج لآلامه بتعذيب ذاته ، وإن الطريق الوحيد لمحاربة الهوى والهوس - فى نظر بوذا - هو أن نتجنب مغريات الحياة وأن نمتنع عن التناسل الذى يكون باعثًا على الحياة . والحياة والموت فى نظر بوذا لونان من ألوان الوجود لذا فكلاهما شر ، وما هو خير هو العدم المطلق .

ولإدراك هذا السبب لماذا نبتعد عن التناسل ، يطرح بوذا الأسئلة الآتية ويجيب هو عنها :

س : لماذا يوجد الموت ؟

ج : لأننا وُلدنا وكل شخص يولد يجب أن يموت .

س : ولماذا وُلدنا ؟

ج : لأننا أردنا أن نستمتع بالوجود[1] .

ولأن الولادة والموت أمران فإن الموت يهدينا إلى الحياة والحياة تهدينا إلى الموت ، ولذلك يجب التخلص من جذور الحياة والموت المتمثلين فى التناسل حتى نتخلص من مصائبهما .

(١) مع الاحترام لفلسفة بوذا فإن هذه الإجابة قاصرة وغير مقنعة ؛ لأننا لم يؤخذ رأينا عندما جئنا إلى هذه الحياة . (المترجم)

من أقوال بوذا

- كما أن المطر ينفذ إلى السقف الضعيف فإن الشهوة تتسلل إلى العقل الضعيف الساذج .

- إن كان الفكر يُخلِّد عمر الإنسان فإن الافتقار إليه يؤدى إلى الفناء .

- إن الأشخاص المفكرين لا يموتون ، والذين لا يفكرون هم الذين يموتون .

- التفكير بين الأفراد الغافلين والاستيقاظ بين الأفراد النائمين العقلاء كالمتسابق الذى يسعى إلى التقدم .

- يجب على الإنسان الذى يكون جسده ضعيفًا أن يعمل حتى يجعل أفكاره مثل القلعة المحكمة الحصينة .

- ولما كان العمل السيئ لا يثمر إلا ثمارًا سيئة فإن الجاهل يتصور أن العمل السيئ الذى أنجزه مثل العسل الحلو ، وبمجرد أن عمله السيئ قد نضج فإن صاحبه يتعرض للعذاب ، والعمل السيئ يصبح مثل اللبن الطازج الذى يحمض ولا يحلو أبدًا .

- إن الشخص الذى يخمد نار الشهوة هادئ فى أفكاره وأقواله وأعماله .

- كيف يمكن أن توجد سعادة أو ضحكة فى هذه الدنيا التى تشتعل دومًا ؟

- الانتصار يسوق إلى الغرور ، والشخص القنوع والسعيد هو وحده الذى يستوى لديه الانتصار والهزيمة .

- النار مثل الشهوة ، ولا يوجد شر أسوأ من الكراهية ، وليس هناك سعادة أسمى من الراحة الفكرية .

- الجوع أسوأ الأمراض ، والجسد مصدر الألم والحزن .

- من الشهوة يتولد الحزن والخوف ، والشخص الذى تخلَّص من شر الشهوة[(١)] لا يعرف الحزن ولا الخوف .

(١) الشهوة هنا أى ما يشتهيه الإنسان من أفعال سيئة . (المؤلف)

– الوصمة التى تعد أسوأ الوصمات هى وصمة الجهل .

– وكما أن معدن الحديد يفلُّ الحديد فإن الأعمال السيئة تجعل المذنبين أكثر سوءًا .

– اقتلع جميع غابات الرغبات[1] وليس فقط شجرة واحدة .

– إن المحسنين مثل جبال الهيمالايا يتلألأون من بُعد .

– الرجل المحسن يتصور إحسانه ذنبًا إلا إن هذا الإحسان يثمر خيرًا .

– اللعنة على سهم العشق الذى يتسبب فى الألم ، واللعنة على الدولة التى تحكمها النساء ، واللعنة على الأحمق الذى يسلم زمامه إلى امرأة .

– ليس هناك شىء يمكن مقارنته بالإحسان .

– ليس هناك أفضل من الجليس الطيب ، وليس هناك أسوأ من الجليس السوء .

– ليس صوابًا أن يغضب . ولا يجب البكاء على حىٍّ أو ميت .

– العاقل يحسب خطواته جيدًا مثل الجواهرى الذى يستخلص الفضة وينقيها من كل ما يشوبها .

– فى القضاء على الشهوة انتصار على كل ألم .

– كل العالم مشتعل ، بل إن سحب الدخان تحاصر كل العالم ومن ثم فإنه يرتعد .

– الدموع التى تتساقط أكثر من المياه فى المحيطات ، ومادام هناك حزن فى هذه الدنيا فإن الدموع سوف يتوالى سقوطها .

(١) الرغبات هنا بمعنى الشهوات . (المترجم)

النشيد السماوى

يُعد "بهجوت جيتا" أو النشيد السماوى واحداً من أكثر الكتب الهندية تقديساً ، وهو كتاب منظوم ممتاز فى تهذيب النفس ، ويقع فى ٧٠٠ بيت ، و "بهجوت جيتا" يدور حول موضوع واحد Anasakti ؛ أى النشاط أو العمل النبيل .

وقد صُبَّ فى هذا الكتاب حكمة الهند بحيث إن جميع الأنظمة الفلسفية الهندية الكبرى مثل (يوج ، ودانته ، وسانكهيه ، ومى ماسه ، وابانى) قد شرحت فيه كأفكار مقتبسة فى أسلوب محبب وصوفى ، والمسألة الأساسية المطروحة فى كتاب بهجوت جيتا هى مسألة كيف نهتدى إلى أعمالنا . وفى الحقيقة إن هذا الكتاب قد ذكرت فيه إجابة على هذا السؤال : "ماذا يجب أن نعمل ؟" ، ويوجه كرشنا بطل هذا الكتاب قائلاً لا ينبغى على الناس أن يتحولوا إلى مجرد أسرى لقيود العمل ، ولا ينبغى أيضًا أن نعتزل العمل لأن البطالة (Akarma) هى العمل (Karma) نفسه المبالغ فيه والذى يسوق إلى أسر الإنسان ، وبعبارة أخرى فإن البطالة لا يمكن قبولها ويجب على الإنسان أن يعمل فى حدود متطلبات الحياة .

وفى هذا المقام يعلمنا كرشنا شيئًا مثل imperative categor أو "الحقيقة المطلقة" وقد سمى هذا النوع فى فلسفة الهند Nishkama karma .

وننقل هنا خلاصة موضوعات هذا الكتاب :

يبدأ الفصل الأول من كتاب "بهجوت جيتا" بوصف جيش "باندو وكورو" واستعداد كرشنا وأرجن للحديث فى شأن المسائل الأساسية للحياة ، ويطلب أرجن من كرشنا أن يأخذه إلى المكان الذى يطل على ميدان المعركة .

وحينما يصلان إلى ذلك المكان يلقى أرجن نظرة على الجنود ويستغرق فى التفكير ، ويبدو على أرجن اليأس والضيق وهو ينظر إلى كرشنا ويقول : "أيها الصديق العزيز عندما أتذكر أننى جئت إلى هنا فإننى أغرق إخوتى فى بحر من الدماء ، كما أن ركبتى ترتعدان ، ولسانى يصبح جافًا فى فمى ، وجسدى يرتعد ، وشعر رأسى يقف من الخوف ؛ حتى إننى من شدة الضعف لا أقوى على الوقوف على قدمى وكأن روحى تفارق

جسدى من الضعف، ولن أرى فى هذه الحرب سوى الحزن والألم، لا يا صديقى العزيز ليست هناك أية فائدة من هذه المجزرة ! كما أننى أكره الانتصار والثروة والراحة التى تأتى من وراء هذه الحرب . لا ... إننى أفضل أن يهاجمنى إخوتى وأن أواجههم دون أى سلاح وأن أعرض صدرى لسهامهم وأسلحتهم حتى أحميهم من أية ضربة قد تلحق بهم" .

ويسمع كرشنا هذه الكلمات ويأسف أن أرجن يبدو ضعيفًا وتتغلب عليه روح اليأس هذه ، ولإيقاظه من هذا السبات يبين كرشنا لأرجن قائلاً : "توجد فى الدنيا أعمال وإن إنجازها جزء من المسئوليات ، ووضع الفرد أمام هذه المسئوليات مثل وضع الجندى أمام قائد الجيش ، والجندى فى وظيفته مأمور وهو غير مسئول عن الأعمال التى يقوم بها ، وفى ميدان الحرب فإن وظيفة الجندى هى الطاعة ، وليس إبراز الفلسفة ، وينبغى على الجندى أن يفكر فى الموت والحياة لأن وظيفته هى الحرب . ومن ناحية أخرى فلو أنه يخشى أن يقتل أحداً أو يقتل هو نفسه فإن خوفه هذا لا محل له لأن الموت لا وجود له أساسًا ! وفى الحقيقة إن الحياة الدنيا ليست إلا سراباً ، وإن الحياة الحقيقية تكمن وراء الحجاب المظلم للموت ، ولماذا هذه الأجساد الترابية كالقوالب ليست ثابتة ، وحقيقة الإنسان ليست قالباً وقالب الإنسان ينمو مثل الأجساد الأخرى وبعد ذلك يتلاشى ، إذن ما يتلاشى دعه يتلاشى ، فاقبل قواعدى هذه واستعد لمعركتك واعلم يقيناً أن روح الإنسان لا تبلى فى هذه الدنيا"[1] .

وبيَّن كرشنا لأرجن أنه ليس فقط يجب عليه أن ينجز مهمته بل لا ينتظر أجراً ، ويشير كرشنا إلى ضرورة التحكم فى النفس فيقول : "إن الشخص الذى يحرر نفسه من قيود الرغبات لا يخشى من الأحداث الحياتية ولا يسعد أيضاً من الأحداث الطيبة ؛ إذ إن روح مثل هذا الشخص أسمى من أى نوع من الألم واللذة ، ولأن مثل هذه الراحة تسيطر على كيانه فإنه يستطيع أن يحصِّل العلم الحقيقى أفضل من الآخرين" .

(١) صورت النفس الإنسانية وكأنها ميدان الحرب ، والرغبات الحسنة والسيئة تتصارعان فيها ويلعب كرشنا دور العقل الكلى وأرض الإنسان نفسه وعلى أرجن أن ينفذ أوامر العقل الكل بدون مناقشة . (المؤلف)

وبعد ذلك يشير كرشنا قائلاً: للانتصار والتخلص من قيود العمل ينبغى أن نفهم أولاً "ماهية العمل" أى يجب أن تعلم أن العمل ثلاثة أنواع :

١ - العمل ٢ - البطالة ٣ - العمل الباطل (السيئ)

وأعلمُ شخصٍ بين الناس هو الذى يبحث عن العمل ويبحث عن جوهر الحقيقة داخله ، ومثل هذا الشخص هو المتحرر من قيود الرغبات، وقد طهرت النار التى ليس لها دخان عمله من أى شىء يشوبه ، وكل حادثة تقع لمثل هذا الشخص يتقبلها والسبب فى ذلك أنه ليس أسيراً لقيود الأعمال ، ولما أنه ليس له أية رغبة فإنه بذلك قد تخلص من أسر الشهوات ، وأى شخص مثل هذا سوف يبحر بسفينة الحقيقة من بحر هادئ الأمواج ويصل إلى شط الأمان (نرڤانا) .

ويضيف أرجن ويقول : يا كرشنا إنه أحيانًا تمدح ترك العمل وأحيانًا أخرى تعتبر طريق العمل خدمة للخالق ، وضح لى هذين الطريقين أيهما أفضل ؟ يجيب كرشنا : كلا الطريقين حسن ، فترك العمل حسن ، وإنجاز الأعمال الروحية أيضًا حسن ، ولكن الأفضل من هذين الطريقين ألا نترك العمل عند إنجاز المهام الروحية ، وأسمى مرتبة فى الزهد هى ألا يتكالب الإنسان على الدنيا وألا يهرب منها . وبعبارة أخرى يجب على الإنسان أن يتجنب هذين الضدين وأن ينجز الأعمال الدنيوية فى الوقت نفسه الذى يكون فيه مستغرقًا فى الزهد والورع .

الخلاصة : يجب على الإنسان أن يتحرر من قيود العمل عند إنجاز مهامه ، أى يجب عليه ألا يفكر فى النفع أو الخسارة أملاً فى الحصول على نتيجة العمل ، وعندما يصل الإنسان إلى مثل هذه المرتبة فإن داخله يصبح فى حالة من السكون حتى لو بدا فى الظاهر أنه مشغول فى هذه الدنيا ولن يلوث لديه عالم الروح مثل زهرة النيلوفر التى تعيش فوق الماء ولا تفسد ، وسوف تستقر روح هذا الشخص فوق عباب بحر الأحداث ولن تتأثر به ، وهذه الروح مثل المصباح الذى لا يطفئه الطوفان كما أنها سوف تسلم من شر عاصفة الحواس الخمس .

ونتيجة للوصول لمثل هذا الوضع وهذه الحالة فسوف يصل إلى الوجد والطرب الذى يكون فى مرتبة أسمى من دائرة الحواس الخمس ، وسوف تتحرر شمس روحه من غيوم الجهل .

وهنا يشير كرشنا إلى أهمية معرفة النفس وتربيتها فيقول : "إن النفس هى ذلك الجوهر المضطرب وغير الهادئ الذى يبدو عليها التمرد دومًا" .

كما أنها لجوج وقوية فى تمردها ، وهى لا تستسلم لإرادة الروح بسهولة ، ولو سلمت فإنها لا تثبت على حالة التسليم هذه ، ويمكن القول إن النفس أقوى عدو للروح وأصعب أمر عليها فى الانصياع للإنسان ، وخضوع هذه النفس للإنسان يعنى أن يدفع الشخص هذه العاصفة العاتية بيده عند هبوبها ويحبسها فى مكان ما ومن ثم يحول دون تأثيرها عليه . وهذه النفس تكون حينًا مثل النسيم العليل وتكون فى حين آخر مثل ريح صرصر عاتية فتفسد العالم ولهذا فإن النفس متقلبة المزاج .

ويقول أرجن : حقًا ما تقول وقد أثبت ذلك جيداً ، ولاشك فى أن النفس مضطربة ، ومع وجود هذا فإن الاستقامة وإخضاع الحواس يجعل النفس أكثر طاعة .

وغاية فلسفة علم يوج هى السيطرة على النفس، والوصول إلى ذلك أمر شاق ، لكن مع العزيمة الصادقة تذلل هذه الصعاب ويمكن الوصول إلى الهدف[1]، وهذا خلاصة الموضوعات الأساسية للكتاب المعروف بـ "بهجوت جيتا" أو النشيد السماوى الذى طبقت شهرته الآفاق .

وكتاب "بهجوت جيتا" يشتمل على (١٨) فصلاً ويعد جزءاً مصغراً من «المهابهاراتا» ، وقد عنونت الفصول الثمانية العشرة كما يلى :

١ – الفصل الأول : (Arjun- vishad) رسالة اضطراب أرجن .

٢ – الفصل الثانى : (Sankya-yog) رسالة الشرائع .

٣ – الفصل الثالث : (Karma-yog) رسالة الفضيلة .

٤ – الفصل الرابع : (Jnana-yog) رسالة فلسفة العلم .

٥ – الفصل الخامس : (Karma sanyamas-yog) رسالة التغاضى عن ثمرة الأعمال .

(١) عن قصة كرشنا . ترجمة الأستاذ عباس شوشترى . (المؤلف)

٦ – الفصل السادس : (Atmasanyamayog) رسالة السيطرة على النفس .

٧ – الفصل السابع : (vijnanayog) رسالة فلسفة التمييز .

٨ – الفصل الثامن : (Akshara paralrahmayog) رسالة التوحيد .

٩ – الفصل التاسع : (Rajavigyarajaguhya yog) رسالة العلم (السلطانى) والسر (السلطانى) .

١٠ – الفصل العاشر : (Vibhuti-yog) رسالة الكمال السماوية .

١١ – الفصل الحادى عشر : (viswarupad arsanam) رسالة تجلى الوحدة فى الكثرة .

١٢ – الفصل الثانى عشر : (Bhakti-yog) رسالة فلسفة الإيمان .

١٣ – الفصل الثالث عشر : (kshetra kshetra jnavibhga yog) رسالة انفصال الروح عن المادة .

١٤ – الفصل الرابع عشر : (Gunatrayavibhaga yog) رسالة انفصال الفلسفة عن الصفات .

١٥– الفصل الخامس عشر : (purushottama prayti yog) رسالة الوصول إلى الله تعالى .

١٦ – الفصل السادس عشر : (Daivasara saupad wibhaga yog) رسالة انفصال الوجود الإلهى عن الوجود غير الإلهى .

١٧ – الفصل السابع عشر : (Sraddhatraya vibhaga yog) رسالة الفلسفة ، وهى ذات ثلاثة أنواع من الإيمان .

١٨ – الفصل الثامن عشر : (Mokhasanyasa yog) رسالة التحرر والابتعاد عن الدنيا .

شرى أوروبيندو[1]

(اسأل المعربدين السكارى عن أسرار الحجب لأن الزاهد عالى المقام لا يعرفها!) .

"حافظ الشيرازى"

"شرى أوروبيندو" الذى لا يعرف فى إيران للأسف ، يعد أعظم فيلسوف وعارف هندى معاصر ، وقد كان مصوراً ولم يكن يصور شيئًا سوى السماء أو الأبدية ، وقد رسم ذات مرة "وجه الحقيقة" على لوحة كنافاه واسعة وبديعة فى ألوان الطيف ، وقد ترك فى حياته أعمالاً وأقوالاً ونصائح قيمة ويبدو عليها الرقة ، وعندما توفى فى عام ١٩٥٠م أصبح كوردة حمراء فاح عطرها فى كل مكان بعد موته ، كما أن أعماله القيمة التى تركها خلفه يتضح فيها أن كل سطر منها هو هالة من الأنوار وكل حكمة عبارة عن كنز من الأسرار .

وقد ولد شرى أوروبيندو فى عام ١٨٧٢م بكلكتا ، وذهب فى السابعة من عمره لتحصيل العلم فى إنجلترا وقد بقى فيها ١٤ عاماً ، وكان أوروبيندو فى غاية الذكاء فى تحصيل العلم ، وكان يتعلم اللغة بسرعة فائقة ، وفى فترة وجيزة تعلم اللغات : اللاتينية واليونانية والألمانية والإيطالية والفرنسية هذا فضلاً عن الإنجليزية ، وبهذا الشكل أطل على آداب عديد من اللغات ، وأثبت أنه سباح ماهر للسباحة فى هذه البحار متلاطمة الأمواج ، ونتيجة لحدة ذكائه واستعداده فقد أخذ يقرض الشعر وهو فى الرابعة عشرة من عمره وكان شعره صوفيا عميقًا .

ولم يهتم أوروبيندو مثل سائر الأطفال الآخرين العاديين بجمع اللعب وتكديسها ، بل كان دائمًا فى عزلة عن هذا العالم الصبيانى وفى اتصال واستغراق فى عالم من الرؤى والأخيلة .

ولما كان أوروبيندو فى إنجلترا فقد انخرط فى عالم السياسة نتيجة لاطلاعاته الواسعة فى مجال التاريخ ، وكان يكنُّ عداوة شديدة للإنجليز الذين كانوا يسيطرون على مواطنيه ويستنزفونهم وما زالوا يعتدون عليهم .

(١) أوروبيندو : فى اللغة البنغالية بمعنى وردة النيلوفر .

ونتيجة لهذه المشاعر المعادية للإنجليز فقد عرف أوروبيندو فى النادى الهندى بـ "النيلوفر والخنجر" لمعاداته للإنجليز ، وقد أقسم أعضاء هذا النادى أن يهبوا حياتهم لخدمة الوطن ورقيه وألا يضنوا بجهد أو تضحية فى هذا الشأن وألا يخشوا الموت ، ولكن سرعان ما اندست الأيدى الخفية فى هذا الحزب وقضت عليه .

[illegible] أوروبيندو يفكر فى وطنه لمدة أربعة عشر عامًا ، أو على حد قوله إن الثلوج الأبدية بجبال الهيمالايا كانت تدعوه دائمًا للعودة لوطنه ، ونتيجة لهذا لم يعد يحتمل هذا الفراق وعاد إلى الهند ، ولم يتعلم أوروبيندو فى إنجلترا غير اللغة والأدب وتاريخ أوروبا وفلسفة الألمان واليونان ، ولما أنه كان يجهل أى جوهر نفيس مدفون فى فلسفة الهند وأدبها لذلك فحينما عاد إلى الهند شغل بتحصيل فلسفة الهند حتى إن هذه الفلسفة قد سيطرت عليه تمامًا ؛ لهذا صمم على أن يسخِّر كل وقته فى تحصيل الفلسفة الهندية .

وهكذا كان عطشًا لاكتساب الحكمة لدرجة أن ذلك أنساه كل شيء فى حياته ، ولم تكن اطلاعاته قاصرة على أوقات النهار ، بل إنه كان يقضى الليل فى الاطلاع وكان يظل حتى وقت متأخر مستغرقًا فى الاطلاع على الفلسفة الهندية .

ولم تكن الحكمة لديه وسيلة لاكتساب الشهرة أو الثروة أو الجاه ، بل كانت طريقًا للتحرر ولإدراك نور الخلود .

ونتيجة لاطلاعه العميق على الفلسفة والأدب الهنديين فقد زاد اهتمامه بوطنه أكثر من ذى قبل ، كما أنه أدرك آنذاك روح الهند ولن يستطيع أن يفرط فيها ، ليس فقط باعتبارها المنطقة التى يحبها لأسباب اقتصادية وسياسية ، بل إن مقام الهند بالنسبة له أسمى من هذا ، كما أنه كان يقدس الهند فهى مثل أمه ومثل إلهه ، وأصبح عشقه لتحريرها موضع اهتمامه ، ولما أنه كان يعلم أن الحرية تخالف القيود ، فقد أدرك أن الهند لن تحصل على هذه الحرية ما دامت تدار بيد الإنجليز ، لهذا فضل أن يحط رحاله فى المنطقة الهندية التابعة لفرنسا أى "بوند يشرى" ، ولكن الأمر الذى لا يخفى على أحد أنه لن يكون حرًا أيضًا فى تلك المنطقة ؛ لأن الجواسيس الإنجليز كانوا يراقبون

أعماله دائماً . وكانت حياة أوروبيندو فى "بوند يشرى" بسيطة جداً ومتقشفة ؛ فكان ينام فوق فراش غير مريح ولم يكن يهتم أبداً بتوفير وسائل الحياة المادية المناسبة ، حتى فى مسألة الطعام كان يسعى أن يتناول أبسط الأطعمة .

وبعد الذهاب إلى بوند يشرى استغرق أوروبيندو فى ممارسة الرياضة ، حتى إنه لم يعد يشعر أنه بحاجة إلى زوجته "مرينا لينى" التى بقيت فى كلكتا ، وقد ابتلى ذلك المسكين بمرض الأنفلونزا وتوفى فجأة . ويتحدث أحد أصدقاء أوروبيندو فى هذه الفترة فيقول : "لم يكن مخلوقاً بشريا ، وهكذا يبدو أنه إله قد ضل طريقه بين البشر !".

وقد أوقف أوروبيندو فى هذا الوقت طاقته على تربية الإرادة ؛ لأن متصوفة الهند ربما ذكروا أن سمو الروح فى تقوية الإرادة وليست فى تحصيل العلم ، وربما لم يذكر فقط فى كتب "أوپانيشادها" أن سمو الروح هو الطريق الذى يوصل الشخص إلى غايته وهى الإرادة .

وبالنظر إلى هذه التعاليم اعتبر أوروبيندو نفسه مكلفاً أن يقوى إرادته فى أفضل صورة حتى يستطيع أن يجد الطريق فى العالم الباطنى الذى يوصله إلى مكنون الجواهر ، وبعد نجاح أوروبيندو فى تقوية الإرادة عاد ثانية إلى عالم العلم فكتب كتباً قيمة فى شأن الفلسفة وعرفان الهند وسنذكر قسماً منها فيما يلى :

1 - Savitri	2 - life divine	3 - synthesis of yoga
4 - lights on yoga	5 - Basis of yog	6 - the yoga and its object
7 - the human cycle	8 - Evolution	9 - the riddle of this world

وهذه عدة مجلدات من عشرات المجلدات التى ألفها أوروبيندو فى شأن الفلسفة والعرفان فى الهند .

والموضوع الجدير بالذكر هو أن أوروبيندو لم يشرح العرفان القديم للهند بطرق مبتكرة فحسب ، بل إنه أحدث ابتكارات جديدة وتوصل إلى طرق مستحدثة فى عالم العرفان ، والحديث الذى نعتبره مناسباً لهذا المقام ونراه صادقاً فى شأنه هو : "إننا لا نهتم بأوقات الفجر السابقة بل نهتم بأوقات المستقبل الآتية" .

إقبال اللاهورى[1]

ولد إقبال لاهورى فى ٢٢ فبراير عام ١٨٧٧م فى سيالكوت بالبنجاب وكان أجداده من براهمة كشمير الذين اعتنقوا الإسلام منذ مئتى عام ، وقد أنهى إقبال تعليمه فى مرحلة الماجستير فى كلية لاهور الحكومية وبعد ذلك توجه إلى أوروبا لنيل درجة الدكتوراه فى الفلسفة ، وقد عاش ثلاث سنوات فى أوروبا ، وهناك ألف كتابه فى الفلسفة والعرفان "فلسفة ما وراء الطبيعة فى إيران"[2] باللغة الإنجليزية وبعد ذلك قام بترجمته إلى الألمانية والأردية .

وأعمال إقبال باللغة الفارسية هى كما يلى :

"زبور عجم" ، و"جاويد نامه" أى رسالة الخلود[3] ، و "مسافر" أو المسافر ، "ارمغان" أو هدية الحجاز ، و "بيام مشرق" أو رسالة المشرق ، و "يسمى جه بايدكرد" أو ماذا يجب عمله ، و "أى أقوام شرق" أو "يا أقوام الشرق" ... وغير ذلك .

وفلسفة إقبال مزيج عجيب من تعاليم الإسلام وفلسفة نيتشه وتعاليم فيخته وعرفان جلال الدين الرومى والسهروردى ، ويتبع إقبال فى بعض أفكاره "فيخته" وقد فسر مصطلح "الأنا" (Ego) بمعنى الذات متأثراً بفلسفة فيخته ، ويقول إقبال فى هذا الصدد :

(إن صور الوجود من آثار الذات الإلهية
وكل ما تراه فى الكون هو من أسرارها

(١) ولد محمد إقبال بالهند عام ١٨٧٧ م ، حصل على ليسانس الآداب من (كلية الحكومة) فى لاهور ، وحصل على الدكتوراه فى الفلسفة من ألمانيا عام ١٩٠٧ م ومن أهم كتبه (تجديد التفكير الدينى فى الإسلام) ، وتوفى عام ١٩٣٨ . (المترجم)

(٢) ترجمها إلى اللغة العربية أ . د / حسن الشافعى ، و د . / محمد السعيد جمال الدين بعنوان : تطور الفكر الفلسفى فى إيران . (المترجم)

(٣) لمزيد من المعلومات انظر : رسالة الخلود (جاويد نامه) تأليف الشاعر محمد إقبال ، دراسة تحليلية نقدية (أ . د محمد السعيد جمال الدين ١٩٧٤) . (المترجم)

ولما أيقظت الذات الإلهية الذات البشرية

فقد تخيلت العالم بوضوح

وكم من العوالم بادية فى ذاته

وغيره بادٍ من إثباته

وتخلق هذه الذات الإلهية الأغيار من ذاتها

حتى تزيد من لذة التنافس بينهم

وكر الأيام فيض من هذه الذات

والسماء موج فى بحر هذه الذات) .

ويكتب الأستاذ عباس شوشترى فى كتاب "Outlines of islamic culture" :

(والدكتور إقبال وليد الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية للمسلمين فى الهند والدول المجاورة خاصة أفغانستان ، وهو يعتبر مواطنيه ضعافًا وجبناء وفاقدى العزة والتنشئة الصحيحة ولما أنه يعد من المتصوفين ويؤثر التصوف فإنه يحس أن طريقة "الفناء فى الذات" – وهو المصطلح الذى عرف لدى أغلب الصوفية – هى شىء مثل "نرفانا بوذا" ولو أخذ الفناء بهذا المعنى فإن مفهومه سيكون فناء الجزء فى الكل ، وهذا فى رأيه يخالف تعاليم الإسلام الحقيقية وضد عظمته وضد الرقى والتقدم المادى ، وللتخلص من هذا العيب وسوء الفهم فإنه يشرح نظرية "الحفاظ على الذات" ، وبعبارة أخرى إن بعض المتصوفة لا يعتقدون بفناء النفس بل يعتقدون بوجودها .

والنفس لا تكتمل عن طريق فناء النفس بل عن طريق تهذيب النفس ، كما أنها تمر بعدة مراحل لتطورها من أجل فكرة الكمال وتقوية فكرة "الأنا" فى النفس ، ويقول الرسول ﷺ : " تخلقوا بأخلاق الله اجعلوا أخلاقكم شبيهة بصفات الله" ، والصفات الأساسية لله هى : القدرة والعلم والإرادة والمحبة والحياة ، وليس الجهل والعجز والكراهية وما إلى ذلك . لذلك من وجهة نظر إقبال أن نظرية الفناء فى الذات نظرية مسمومة وتورث الضعف والعجز والتحرر واللامبالاة ، والمصطلح الصوفى لـ "ذات"

نعنى به "الأنا" والتى سميت فى لغة الأڤستا "Hva" وفى السنسكريتية "Sn" ويمكن أن تفسر هذه الكلمة على وجهين : الأول من حيث مفهومها وهى تساوى المصطلح السنسكرتيي : أهنارا (Ahankra) أو الحفاظ على الذات ، والثانى يقصد به "الأنا" وقد استخدم إقبال الكلمة بمعنى الاثنين ، ففى حين أن بعض الصوفية فسَّر لفظة "الأنا" واتخذها بمعنى الحفاظ على الذات فإن التصوف الإيرانى لا يقوم على فكرة ترك الدنيا والتغاضى عن لذة الجسد الذى يخالف الروح والأصل الإيرانى) .

إن التصوف الذى عرف فى إيران لا يعد الدنيا عبثًا أو وهمًا ، كما أن التصوف الإيرانى لا ينكر النفس ولا يسعى إلى قطع الصلات بين الإله والإنسان ، ولا يقول بفناء الجزء فى الكل ، والتصوف الإيرانى تصوف إيجابى؛ فهو يؤمن بضرورة السعادة فى الدنيا أيضًا ويرى أن الحياة المثلى تتحقق فى الصلة بين الإله والإنسان .

والشخص الذى يقترب من الله يخطو خطوات أسمى نحو الكمال ؛ لأنه يجذب نور الله لذاته أكثر من ذى قبل ، أو كما قال السهروردى[١] : إنه يستنير بالنور الإلهى أكثر من ذى قبل ، ويقول البروفيسور نيكلسون فى المقدمة التى كتبها حول الترجمة الإنجليزية لـ "أسرار الذات" : إن الإنسان لا ينجذب إلى الله "بل يجذب" الله إليه . وقال أيضًا فى هذا الموضع أحد الصوفية الإيرانيين : إن الإنسان لا ينير الله بل إنه يستنير بواسطة الله ، ويضيف نيكلسون : (إن الإنسان الحقيقى لا يجذب العالم المادى إليه فحسب ، بل إنه بالسيطرة عليه يجذب الله إلى "الأنا" أى إليه ، وفى أثناء المسيرة التكاملية يذلل العقبات بجذبها إليه، وأكبر عقبة فى طريق حياة المادة هى "الطبيعة" ولكن الطبيعة ليست شرا لأنها تمنح الفرصة للقوى الداخلية فى الحياة لكى ترشده والحياة محاولة للتحرر وغاية العمل الإنسانى هى الحياة) .

ويمكن أن نجد الأفكار السابقة فى التصوف الإسلامى كما يراها الصوفية الكبار من أمثال : الشبسترى والسهروردى والرومى وغيرهم ، وقد قال هؤلاء إن الوجود المادى مصدر السمو والكمال الروحى[٢] ، وإن المادة ليست شرًا ، وإن سوء

(١) هو أبو حفص يحيى السهروردى المقتول (٥٨٧هـ) . (المراجع)
(٢) لم يقولوا إنها مصدر لكن يمكن أن يقولوا إنها مقدمة ضرورية أو شرط أولى . (المراجع)

الاستفادة منها أو الإفراط فيها فى اللهو والعبث هو الشر، ومفهوم ترك الدنيا لا يعنى قتل الذات، وليس المقصود من الفناء القضاء على هذه الذات فى ظلمات الفناء ، بل إن المقصود من هذه الكلمة هو التحكم فيها وإنارة النفس عن طريق العلم وتنقية الذات من كل ما يشوبها ، ومن الممكن أن يكون قد حدث نوع من سوء الفهم لدى بعض مرشدى الصوفية والشعراء الإيرانيين والهنود وأن أولئك قد اختاروا الشق الأول ، لكن هذا الأمر يخالف روح التعاليم الحقيقية للتصوف والإسلام .

وقد لخص السيد "جُلتشين" معانى فلسفة إقبال كما يلى :

(يقول كان العشق لك دليل الوجود، والعلم الطريق والدرب الممهد

وكان كمال الروح فى فناء الذات وفى أمتنا هذه هو محو لطريقة الأبرار

وكان السعى والعمل والحركة والأمل والتوكل أموراً تخالف البقاء تماماً

لا تتخاذل مرة واحدة أمام القدرة الإلهية فإنك جدير بهذه القدرة

كن فى ميدان صراع عالم الوجود كأسد العرين وليس كشاة ترعى الكلأ

انظر إلى ذاتك بعمق ولاحظها بدقة حتى ترى عالم الرؤية فى العين الخفية) .

انتقاد أوروبّا

ينتقد إقبالُ الحضارةَ الأوروبية انتقاداً شديداً ، ومن بين ذلك يقول : يوجد فى أوروبا نور علم وفضل مدهش ولكن هذا فى الواقع الظلام الذى لا يصدر عن حيوان .

(إن علم الغرب سيف مسلط على الرقاب للقضاء على النوع الإنسانى

ولا عجب أن لديك إعجاز المسيح أما العجب فهو أنك أكثر مرضاً من المريض

أيها القلب ألق من يدك هذا العلم المدخر .. آه من ذلك الدر النفيس الذى خسرته) .

دُرر ثمينة من حكمة إقبال

(عندما يصبح فكر طائفة مدمراً فإن الفضة الخالصة تغدو فى يده معدناً رديئاً
ويموت فى صدره القلب السليم ويبدو فى نظره الأعوج مستقيماً
إذن ينبغى تطهير القلب أولاً وبعد ذلك يسهل إصلاح الفكر) .

(أشعل ناراً وأنر بها احتفال العالم وأحرق الآخرين بنارها) .

(ذلك الفنان الذى جاد على الخليقة أنار لنا الطريق بأسراره
وحوره أفضل من حور أهل الجنة حتى ولو لم يكفر باللات ومناة) .

(قال العقل لأفلاطون قد يعقب النفع خسارة ، فقالت الحكمة له : وقد يعقب العدم وجود) .

(إن نامت الفطنة بدا الإدراك سراباً) .

(تحدث مع الزمان حديث الغافلين ولن يضيق الزمان بك لأنك معه) .

(إن مسايرة العالم أمر غير مناسب يعنى إلقاء الدرع فى ميدان الحرب) .

(إن لم يتيسر للرجال العيش فى العالم فخير لهم التضحية بحياتهم) .

(عشق المصاعب خير وهو مثل قطف العاشق للورود من وجنة المعشوق) .

(العشق بلا قهر سحر ، والعشق مع القهر نبوة) .

(نفسك مثل فرس جموح فهى معجبة بذاتها ومتمردة وعنيدة
فكن رجلاً وأمسك بزمامها فى يدك حتى تصبح جوهراً ولو كنت خزفاً) .

(كل من لا يستطيع أن يملك نفسه فإن الآخرين يملكونه) .

(الاحتفاء بالشيطان وبال على الإنسان ، ومحاربته جلال له) .

(كما أن حياة العالم نابعة من قدرة الذات إذن فالحياة مرتبطة باستقرارها) .

(وأى نفع للحيوان أن يأكل ويستريح، وأى نفع للإنسان إن لم يتحكم فى الذات) .

(تحرر من الذات لو أردت الفناء وأصلح الذات إن أردت البقاء) .

(أى رجولة فى الغفلة عن الذات ، وماذا تظن بفراق الروح للجسد ؟!) .

(فكر فى الذات واعمل عمل الرجال وكن رجلاً حقًا واحمل الأسرار) .

(دعك من المخاوف والحزن والوساوس ، وكن جلداً مثل الحجر وكن كالماس) .

(كل من يسعى جيداً ويلاحظ جيداً يستنير منه عالمان) .

(لو ترى حقا العدو كالصديق يصبح وجوده ذا فائدة لك) .

(حتام تعيش كالفراشة تطوف حول الشمع ، وحتام تعيش غريبًا عن ذاتك إلى هذا الحد ؟) .

(أصبح الدم قلبًا وكبداً للروس وتوارى حرف "لا" من القاموس) .

(وقد وجه سهماً ماضيًا إلى جسد العالم فأفسد ذلك النظام العريق) .

(ونظرت إلى مقاماته فلم أجد سلاطين أو كنيسة أو إلهًا وانحصرت أفكاره فى سياسة الرفض ولم يعد يقود سفينة سياسته إلا نحو العزلة[١]) .

(تعال فإن آلة الغرب "الموسيقية" لم يعد لها لحن ولم يعد لأوتارها نغم سوى الضجيج) .

(إلى متى تصبح خيمة الحياة ممزقة .. إلى متى يصبح العش فى التراب مثل جحور النمل ؟) .

(طر وكن صقراً ، واسعَ ألا تكون مثل حبة فى كومة قش) .

(إن العالم قبضة من الطين والقلب جزء منه ومشكلته هذه القطرة من الدم) .

(إن شوك الصحراء يطول به العمر بينما الورد يموت فى الشباب) .

(أحرق الحياة ثم أعد بناءها هذا أفضل من استمرار الركود) .

(تصبح الحمامة صقراً تحت وطأة المصيدة) .

(كن قطرة ماء حرة أو جوهراً لألاء ، وليكن مقامك الفلك أو البحر) .

(١) إشارة إلى العالم الإسلامى المتمزق . (المترجم)

(إن قوة الغرب ليست بسبب آله الصنج أو الرباب ، وليست بسبب رقص الفتيات السافرات

وقوته ليست بسبب العلمانية وليست بسبب نور الخط اللاتينى

قوة الغرب من العلم والفن ومصباحه المنير من نفس هذه النار) .

(إن القوانين الأوروبية تستغلنا جميعًا) .

(يجب أن تقوم بدورك فى هذا العالم، وأى نفع يعود علينا من وراء كفن اللصوص؟) .

(ماذا يوجد فى جنيف غير المكر والاحتيال فهم يصيدونك ويصيدونني مثل الخراف) .

(إن وادى العشق بعيد جداً وطويل ولكن الطريق ذا المئة العام يطوى بخطوة واحدة أحيانًا) .

(اجتهد ولا تيأس فإنك قد تجد الحظ أحيانًا على قارعة الطريق) .

توضيحات فى شأن الموضوعات الفلسفية الهندية

إن "كرما" فى فلسفة الهند فكرة أساسية ، وهى كلمة هندية آرية مشتقة من kr وتعنى العمل ، كما أن الأسماء التى هى من قبيل (charles, karl, carol) كلمات مشتقة من الكلمة نفسها ، وربما أن الكلمات الفارسية : كار ، وكرنا ، وكردن من الجذر نفسه .

وليس هناك أى وجه للتشابه بين كلمة "كرما" و "قسمة" الإسلامية ؛ لأنه إن كانت كلمة "قسمة" الإسلامية قد كلفنا بها منذ الأزل، فإن كلمة "كرما" تنتج عن أفعالنا وأعمالنا ، وقد لا نشعر بأية مسئولية أمام كلمة "قسمة" ، إلا أننا نرى مسئوليتنا كاملة فى مقابل كلمة "كرما" ، كما أن كلمة "كرما" تشجعنا على أن نغير وجه الحياة فى مصائرنا .

كما أن "القسمة" تمنعنا من أن نقوم بأية محاولة لتحسين أوضاعنا ، وكرما هو نشاط دائم للروح وهى لا تنتهى بمجرد انتهاء الجسد ، ووفقًا لنظرية كرما لا الميلاد بداية للحياة ولا الموت نهاية لها ، إذ إن الميلاد ليس الفصل الأول من الكتاب الجديد

بل بداية فصل فى كتاب سطر فيه قبل ذلك عدة فصول وسوف يكتب فيه عدة فصول أخرى بعد ذلك . وتنبع عقيدة التناسخ من هذه العقيدة نفسها، ولهذا السبب يحاول الهنود أن يتحرروا من شرور التناسخ ويتجهوا إلى ممارسة الرياضة الروحية التى من خلالها يكون لهم سيطرة كاملة على الجسم ويحررون روحهم من قيود الجسم إلى الأبد .

أجل ، للسيطرة على الجسم يجب السيطرة على الرغبات النفسية ، ويقول أحد المخطوطات المقدسة فى الهند فى هذا الشأن : (عندما تفهم كل رغبات القلب يصبح الإنسان غير فانٍ على الإطلاق ويصل إلى "برهمن" ، وعندما يغضُّ المرء النظر عن جميع الرغبات المادية يصبح الإنسان غير فانٍ على الإطلاق) .

ماذا تعنى كلمة أتمن[1] ؟

سأل طالب هندى مرشده عن معنى "أتمن" أو (روح العالم) ، ولكى يوضح المرشد معنى هذه الكلمة بالضبط لتلميذه حبسه فى غرفة وغاب عنه يوماً كاملاً ، وفى صبيحة اليوم الثانى سأل تلميذه سؤالاً : بماذا تشعر ؟ فأجاب الطالب : أشعر بالجوع ، فأغلق المرشد عليه الباب ثانية وذهب ، وفى صباح اليوم التالى كرر سؤاله ، فأجاب التلميذ الإجابة السابقة ، وفى هذه المرة أطعم المرشد الطالب ، ولما شبع الطالب قال المرشد : الآن أعلم بماذا تشعر .. أنت تشعر بالجوع ، فهز الطالب رأسه فى سعادة مجيباً بالنفى وقال : لا أنا لست جائعاً أنا الآن شبعان وسعيد ، قال المرشد : هل من الممكن أن يعوضك عن تلك الحالة قدر قليل من الطعام ؟ لا ، أنت أخطأت فأنت لم تكن جائعاً والآن لم تشبع ، فأنت لديك داخلك نفس حالة Atman وهى لا تموت ولا تتغير أو تتبدل .

ولكنك تصرُّ أن تقرن حالتك بحالات غير ثابتة ومؤقتة ، فى حين أن هذه الحالات لا تشكل وجوداً حقيقياً لها ، وأنها أمور سريعة الزوال وعارضة .

إذاً ، فضلاً عن الجسم المادى هناك الروح وهى الكائن الخالد الحى ، وفضلاً عن الأعين التى تبصر العالم هناك عين باطنية أخرى نستطيع بواسطتها أن نبصر العالم ،

(١) أتمن : إن براهما وشيفا وفشنو أقانيم ثلاثة لإله واحد فى زعمهم ، الإله الواحد هو الروح الأعظم واسمه أتمن ، أو أتمان . كامل سعفان : معتقدات أسيوية ص : ١٧٠ . (المترجم)

إذًا هناك ذات أسمى من ذاتنا التى لا ترى شيئًا ولا تُرى وتستغنى هى عن سائر الحواس الخمس .

فأى شىء يمكن للنفس أن تنكره غير وجودها ، وكما قال شانكارا جاريه : إن أتمن هو الذى لا يمكن لأى شخص أن ينكره ؛ لأن أى شخص لا يستطيع أن يقول : ليس لى وجود .

إذ إن أتمن يلعب دومًا دور المتفرج وينظر فقط نحو مسرح الحياة ولكنه لا يظهر على هذا المسرح ، ولو أننا أردنا أن ننجو من فخ التناسخ(١) الدائم فعلينا أن نبتعد عن مسرح الحياة "المادية" ونتجه نحو "أتمن" .

والفيلسوف الهندى لا يعتبر الحياة أكثر من "رؤيا" ، والأحداث التى نراها فى حياتنا ونحس بها ليست حقيقية وهى مثل خيالنا الذى نراه عندما ننظر فى حوض ماء . وترى الفلسفة الهندية أن العشق والكراهية والحسد وسائر الأحاسيس والعواطف مثل الصور التى نراها فى عالم الرؤيا وعندما ننام نرى بعض الأشياء وبمجرد أن نستيقظ ندرك أن ما رأيناه لا يعدو أن يكون حلمًا ، وأحداث الحياة ليست أكثر من رؤيا وعندما ندرك هذه الحقيقة فإننا نصحو من حلم ثقيل ، وسعى المرتاض أساسه الاستيقاظ من حلم الحياة ورؤية العالم الموجود وليس الذى يبدو له ، ولتحقيق مثل هذا الهدف فإنه يسعى لكى يهدئ من أحاسيسه حتى يبدو له أتمن (الروح) فى بحيرة ذاته كما هو موجود .

أثر الصراع الطبقى فى فلسفة الهند

وكما يعلم القراء أن المجتمع الهندى يتكون من أربع طبقات ، وهى عبارة عن :

١ – الطبقة الأرستقراطية أو البراهمة أو رجال الدين .

٢ – طبقة المحاربين .

٣ – طبقة الأحرار والفلاحين والمتكسبين .

٤ – طبقة العبيد .

(١) التناسخ : حلول روح فى جسد شخص آخر بعد موت الجسد الأول أو السابق . (المترجم)

ويتضح من هذا التقسيم أن طبقة العبيد تقع فى أسفل الطبقات كلها ، والأمل الوحيد لهذه الطبقة فى حياتها مرتبط بـ "كرما" أى الأعمال الطيبة ، وبعبارة أخرى الطاعة الخالصة للطبقة الممتازة أى طبقة البراهمة ، على أن تعيش بصورة أفضل فى الحياة الأخرى . ومن الواضح أن طبقة رجال الدين قد استخدموا هذه الحيلة من أجل خداع الطبقات الفقيرة .

وفى البوذية والجينية يقابلنا المذهب الذى يرمى إلى تحرير الطبقات الأخرى ، إذ إن هذا المذهب يحاول أن يخلص الناس من النظام الطبقى ، بل أن ينهى تماماً امتيازات طبقة رجال الدين ، وقد قضى بوذا وماهاويرا إلى حد ما على نفوذ رجال الدين وسيطرتهم، فخلصا بذلك السواد الأعظم من الطبقات الفقيرة من الفخ الذى نصبته لهم الطبقات الممتازة ، مما ألحق ضربة قاصمة بالنظام الطبقى كما سبق شرحه بالتفصيل فى الفصول السابقة . وقد وجَّه أتباع جارواكه ضربة قاضية للطبقات الممتازة - يدخل فيها رجال الدين - وذلك بالسخرية من القدرة الدينية وتقديس العقل والاعتماد فقط على المعلومات الحسية والتجريبية ، ولكن للأسف نتيجة لجهل الأغلبية من المجتمع فإن مساعى أتباع جارواكه لم تُنجِ سوى عدد محدود من شرور بعض رجال الدين وقد بقى الآخرون أسرى الجهل والخرافات .

وعلى الرغم من أن المادية فى الهند قد فشلت فشلاً ذريعًا أمام رجال الدين والطبقة الثرية ، فإن آثارًا عميقة قد تركتها فى الأدب والفلسفة الهنديين ، كما لعبت المادية دورًا بارزًا فى طريقة تفكير المفكرين الهنود .

كانت هذه نبذة مختصرة عن مراحل تطور التيارات الفكرية للأمة الهندية .

القسم الرابع

فلسفتا الصين واليابان

فلسفة الصين

إن نطاق فلسفة الصين ممتد وواسع ، فلو أردنا أن نتحدث على سبيل الإجمال ، فلابد من أن نكتب عدة صفحات عن هذا الغرض ، وهنا سوف نكتفى بذكر بعض خصائص فلسفة الصين .

وإذا أردنا أن نبدأ بفلسفة الصين فسوف تقابلنا بعض الموضوعات ، وأكثرها صعوبة سواء فى الماضى أو الحاضر هو هذا السؤال : هل يخلق الإنسان شريراً ، أم يكون شره نتيجة للبيئة المحيطة به ومن ثم يتحول إلى مذنب ؟ وبعبارة أخرى: هل الشر مخلوق مع الإنسان أم مكتسب ؟ ويقول كنفوشيوس : يولد الإنسان خيِّراً لكنه يميل إلى الشر والفساد نظراً لاتصاله بالبيئة من حوله . فى حين أن فيلسوفًا آخر وهو "كاو" يبدى رأيًا مغايراً فيقول : إن الإنسان لا يولد شريراً ولا خيراً وليس لديه صفة واضحة وإن قلبه يكون مثل المرآة الصافية وتكون طبيعته مثل الشمع الطيع .

أى إننا من خلال التربية يمكن أن نغير طبيعة هذا الإنسان بالشكل الذى نريده ، وينتقد منسيوس رأى كاو ويدافع عن رأى كنفوشيوس قائلاً : إذا أردنا أن نصنع من قطعة خشب طبقًا أو إناء ، فإن شكل الخشب سوف يضيع مع تشكيله ، وهكذا طبيعة الإنسان عندما يتلقى التربية والتعليم فإنه يتحول إلى إنسان آخر حتى تظهر فيه الفضيلة والصدق .

إلا أن كاو له رأى آخر ، إذ يرى أن طبيعة الإنسان لا تميل بحال من الأحوال إلى الشر أو الخير ، فهو – أى الإنسان – مثل الماء لا يميل إلى الشرق أو الغرب ، والماء مثلاً يتجه نحو الشرق عندما يجد الحركة أسهل له ولا يتجه إلى الناحية الأخرى أبداً ، وهذه حال طبيعة الإنسان ؛ أى كل طريق يكون أسهل فى الحركة يتجه نحوه سواء كان ذلك الطريق خيراً أو شرا .

في حين يقول منسيوس في الرد على ذلك : حقا إن الماء لا يعمد أن يسير إلى ناحية الشرق أو الغرب ولكن هل يتبع الأسلوب نفسه في أثناء الحركة نحو "الاتجاه الأعلى أو الأسفل" ؟

ولا يقنع منسيوس بهذا النقد فيقول : إن رغبة الطبيعة البشرية في الخير والشر هي رغبة الماء نفسها في الاتجاه نحو الأسفل وليس الأعلى ، وأنت تستطيع أن تجعل الماء يتجه نحو الاتجاه الأعلى (وذلك بدفعه عنوة) إذ إن طبيعة الماء تميل إلى أسفل عمومًا ، وليس إلى الاتجاه الأعلى أي بالقوة تضطره أن يتحرك نحو الأعلى ، وهذا الأمر يشبه تربية الإنسان ، إذ إن الطريق الذي تختاره طبيعته هو الطريق المعوج وأنت تريد أن تحثه بالقوة لكي يختار الطريق الصحيح .

ويقول كاو : إن الطبائع البشرية هي التي تعلم أو تلقن أصحابها في أثناء ميلادها ، وبهذا الشكل يقول كاو: إن جميع الطبائع بدون استثناء نمط واحد مثل الثلج الأبيض ، وينتقد منسيوس هذا الأمر ويقول : لو أخذنا بهذا الرأي فإن طبيعة الكلب تكون مثل طبيعة الثور ، وأنه لا يوجد فرق بين طبيعة الحيوان وطبيعة الإنسان .

ويقول منسيوس : ينبغي أن لا نجعل الطبائع مسئولة عن هذا الأمر حتى ولو أن شخصًا ما قد ارتكب أكبر المعاصي والذنوب ، وبدون شك فإن الإنسان في أوقات السعة واليسر لا يميل إلى الشر ولكنه في أثناء القحط والشدة يختلف الأمر عنده .

وإن هاتين الحالتين نتيجة للطبيعة التي منحها الله للإنسان ، وإن الإنسان لا يولد بخير أو بشر بل إن ظهور ذلك سببه الأحداث الجارية حوله والبيئة التي يعيش فيها ، وبعد عدة سنين بحث هذه المسألة فيلسوف صيني آخر يُدعى چوانك دزا وقال : إن الطبيعة البشرية ليست خيرة كما قال كنفوشيوس ، وليست بين الخير والشر، بل إنها سيئة - كما قال كاو - منذ الولادة ، وإن الإنسان منذ ولادته محب لذاته وتسيطر عليه الأنانية ، وهو يريد كل شيء طيب لنفسه ويريد السوء للآخرين .

ولكن ضوابط القانون وتأثير التعليم عليه يحدان من أنانيته وطمعه ، وكما تُهذَّب العصا لكي تصبح مستقيمة فإن الإنسان يحتاج إلى التربية حتى يكتسب الفضيلة .

والخطوة الثانية التى خطاها «يانك شى يونك» فى هذا الطريق هى : إن الإنسان ليس شريراً تماماً ولا خيراً تماماً ، وإنه مزيج من الخير والشر ، وإن الخير والشر يتوقفان على مدى التنشئة التى يتلقَّاها الشخص .

فلو أن تربيته مالت نحو الشر فإن جانب الشر يقوى فى طبيعته ويضعف فى المقابل جانب الخير . فى حين يرى فيلسوف صينى آخر وهو «هان شو» أن طبيعة البشر ليست واحدة بل ثلاث درجات : درجة عليا ، وأخرى وسطى ، وثالثة دُنيا .

والطبائع التى تنتمى إلى النوع الأول هى الخيرة تماماً ، والطبائع التى تنتمى إلى النوع الثانى يمكن أن تصل إلى الدرجة العليا لو أنها وجدت الإرشاد ، وما عدا ذلك يندرج تحت الطبائع التى هى من النوع الثالث .

وقد بحث فيلسوف صينى آخر يدعى «مايوتسو» هذه المسألة فقال : للقضاء على جميع المساوئ فى الفرد والحكومة ينبغى أن تسود سياسة التعاون والمحبة بين الجميع، وقال لو إن جميع ملوك الطوائف كفوا عن التنازع فيما بينهم فسوف تنتهى الحروب الأهلية إلى الأبد ، ولن يكون هناك لصوص يزاولون أعمالاً تخالف القانون ، وسوف يعيش الملك والرعية فى رفاهية .

ولكن هذا الفيلسوف لم يقل لنا كيف يمكن أن ننشر المحبة والتعاون بين الناس ، وقد قال يمكن عن طريق نصائح المعلمين فقط أن تسود هذه المحبة وهذا التعاون .

ويعتقد مايوتسو أن الهيئة الاجتماعية لو توفرت لها فضيلة الصدق فإن النظام سوف يسودها ، ولو فقدت هذه الفضيلة فإن الاضطراب سوف يسود المجتمع .

ويرى مايوتسو أيضاً أن الإصلاحات الاجتماعية تأتى من أعلى إلى أسفل وليس العكس ، ويشير إلى ضرورة وجود القانون ، فيقول : إن بناء حياة الشعوب يقوم على القوة ، وإن الأقوياء يسيطرون على الضعفاء ، وإن الأغلبية سوف تكون ضحية للأقلية (القوية) لأن الضعفاء السذج دائماً يُخدعون ، وإن الأثرياء هم الذين يستفيدون بكل شىء على حساب الفقراء .

ويقول "مايوتسو" إن الحاكم الذى يسيطر على الشئون أو الأمور الاجتماعية ينبغى عليه أن يدرك سبب الفوضى ، ومع معرفة الحاكم لهذا السر يستطيع أن يحكم المجتمع بطريقة صحيحة .

ويولى «مايوتسو» أهمية كبرى للمحبة ويقول : لو أن أحداً أحب شخصاً وأفاده فإن مثل هذا الشخص سوف يتبعك (أى يحبك بالمثل) وسوف يسعى لنفعك أيضاً ، وعلى النقيض لو أنك عاديت شخصاً وسببت له خسارة فسوف يسعى هذا الشخص لكى يضرك أيضاً .

ويكره مايوتسو الحرب كثيراً ويعتبرها عملاً وحشيا وغير إنسانى ، وهذا يخالف رأى كنفوشيوس الذى يسخر من الآداب والسنن القديمة ، خاصة العادات التى يتبعها الصينيون فى أداء العزاء ويعارض ذلك كثيراً ، ويعتقد أن تلك الأموال التى تنفق على هذه العادات التى لا قيمة لها ، لو أنفقت على إطعام المحتاجين وتحسين وضعهم الحياتى فإن هذا العمل يكون أكثر جدوى .

وهو يعارض أى نوع من المظاهر حتى إنه يرى أن الموسيقى والفنون الجميلة مضرة ؛ إذ يعتقد بأن هذه الفنون الجميلة تضيِّع الوقت والمال ولا تنفع الناس ؟! ويهتم مايوتسو فقط بتحسين الوضع المادى والروحى للبشر ، حتى إن مايوتسو قد بحث موضوع الملابس التى يرتديها أتباعه فقال مثلاً أى نوع من الملابس يرتديها أتباعه فيرى أن الحرير الأحمر مناسب لهم فى فصل الشتاء ! وهو يدفئ من يلبسه ، وفى الصيف يرى أن الملابس الكتانية تناسب أتباعه أكثر ، والملاحظ أن وسائل النقل التى يحددها لأتباعه وكذلك أثاث المنزل يجب أن تكون مفيدة بغض النظر إن كانت جميلة أم لا !

فمثلاً فى أثناء اختيار وسائل النقل يهتم بقوة هذه الأشياء وسرعة حركتها وليس جمالها . ويولى مايوتسو أهمية كبرى إلى الرجال الأكفاء فيقول إن سبب هزيمة بعض الحكام أن أولئك ليسوا جديرين بالمناصب التى تولوها ولو كانوا غير ذلك لكان بالإمكان إصلاح أمور الدولة .

ويرى مايوتسو أن الدولة لو أديرت بيد رجال أكفاء فإن أية قوة لن تستطيع أن تنال منها .

ويجعل مايوتسو المحبة للجميع محور تعاليمه فخالف بذلك كنفوشيوس، إذ يقول : إن تعاليم كنفوشيوس قد غضَّت الطرف عن وجود الله ، ويقول أيضًا : نحن يمكن أن نعرف الله ، ويجب أن تقام قواعد سلوكنا على أساس المبادئ الأخلاقية . وفى نظره أن إرادة الله هى المحبة ، والمحبة للجميع ولا يجوز أن نعادى ما خلقه الله ، وبدون المحبة فإن أية قوة لن يكتب لها النجاح .

ولكن «يانك هو» يقول : يجب أن يفكر كل شخص فى نفسه ، (كل شخص لنفسه) هذا هو شعاره . سأله شخص ألا تفيد الآخرين بما قدره شعرة من رأسك ؟ فأجاب يانك هو : لن أفرط فى شعرة من رأسى فى سبيل الآخرين ، ولما أصر سائلوه على أن يجيب عليهم إجابة شافية تجاهل (يانك هو) الرد عليهم !

ويقول "كيوتسو" وهو فيلسوف صينى آخر : إن الطبيعة الإنسانية مثل شجرة صفصاف ، والأمانة بمثابة الوعاء ، وتميل الطبيعة الإنسانية إلى طلب الخير والأمانة .

ويسأل منسيوس إزاء هذا المنطق : هل يمكن لك أن تصنع ذلك الإناء أو الوعاء الخشبى بدون أن يكون لديك شجرة الصفصاف ؟ كما أنه يجب عليك أن تهذب غصن الصفصاف حتى تصنع منه الوعاء ، كذلك الحال بالنسبة للبشر ؛ إذ لابد من أن يهذب الإنسان بالتعليم والتربية حتى ترغم طبيعة الإنسان على طلب الخير ، ولكن للأسف يظن الناس أن الخير والأمانة جزء من مصائب الدهر .

ويرى "هسون چينك" أن الطبيعة الإنسانية تميل إلى الشر وليس إلى الخير ، والخير أمر مكتسب ، وأن الإنسان منذ ولادته نفعى ومحب لذاته ، ولو أن الناس يتبعون الغريزة الفطرية لديهم فإنهم يضيقون من بعضهم ، والأفراد بطبيعتهم حسودون ويكرهون بعضهم ، والتربية هى الوسيلة الوحيدة لإضعاف مثل هذه الصفات السيئة .

وكما يمكن أن نجعل من الغصن المعوج غصنًا مستقيمًا بالحرارة والبخار ، فكذلك يمكن أن نجعل طبيعة الإنسان المعوجة مستقيمة عن طريق التربية ، ويمكن للإنسان أن يصل إلى الخير إذا تخلص من الأنانية .

ولو أن الإنسان بفطرته سيئ إذن كيف يحدث الخير ؟ ويجيب عن هذا السؤال الفيلسوف السابق الذكر قائلاً : إن عمل الخير وجميع مكارم الأخلاق أمور مكتسبة ، ولتوضيح أكثر : إن الخزاف يمزج الطين بالماء أول الأمر وبعد ذلك يصنع الإناء ولكن صناعة الإناء عمل فنى مكتسب وليس فطريًا ، ومن هنا لا يستطيع أى شخص أن يصنع إناء من الطين والماء ، والأخلاق شيء مكتسب وعلم الأخلاق ثمرة الفكر وممارسة الرياضة الروحية، ووجود علم الأخلاق أفضل دليل على أن الإنسان سيئ الخلق بالفطرة ، أجل إن الإنسان سيئ بطبعه وهو لذلك يسعى إلى أن يكون خيراً بالعلم والأخلاق . ويقول هسون تسو : إن أى سوء حظ يواجهه الإنسان له أسباب مادية، وإن السلوك الإنسانى لا يتدخل بأى حال من الأحوال فى ظهور سوء الحظ هذا ، وهو يعد السعادة ثمرة الجهد والعمل . وهو يعارض بذلك عرفان لايوتسه ، وهو يقول إن السلام خير ليس لأنه يريده (تايو) ولكن لأنه ينفع الإنسان نفسه .

ويعتقد الصينيون أن العالم تتنازعه قوتان : وهما بمثابة السماء والأرض ، الروح والمادة ، القوة الإيجابية والقوة السلبية ، النور والظلمة ، وسموا هاتين القوتين yang و yin ، وهاتان القوتان متضادتان ، وهما منسجمتان فى هذا الوضع ، وإن اضطراب هاتين القوتين ينتج عن خلل بينهما .

ويرى الصينيون أن نظام الكون يتوقف على الانسجام بين هاتين القوتين ، ولو أن الإنسان يريد أن يستريح من شرور الألم والمعاناة فعليه أن يحدث تصالحًا بين القوتين المتضادتين اللتين تشكلان كيانه .

وتعنى كلمة "يانك" النور ، وتعنى كلمة "يين" الظلمة، و "يانك" هو النشط و "يين" هو الانفعال الصادر عن يانك ، والأول هو الحركة والثانى هو السكون ، ويشيرون إلى "يانك" فى الكتابات على أنه على هيئة دائرة مضيئة ، ويشيرون إلى «يين» على أنه النقطة السوداء مع يانك ، وبهذا أصبح رمز يانك ويين فى صورة أكثر اختصاراً : يانك (–) ويين (– –) .

وكل الأشياء فى العالم حتى الإنسان نفسه مزيج من هاتين القوتين : يانك ويين ! وقد كان لليونانيين هذه العقيدة نفسها ، فعندما ينسجم النور مع الظلمة فإن الأمور تسير فى مجرياتها الطبيعية ، ولكن عندما يحدث اختلاف بين النور والظلمة يقع الاضطراب والفتنة .

وقد اهتم "هوئى تسو" – مثل السوفسطائيين – بالسفسطة ، كما كانت أعماله عديدة[1] والأصول الفلسفية لـ "هوئى تسو" تعارض تماماً الرأى العام ، وهى فلسفة مليئة بالمصطلحات الفلسفية الغامضة فيقول مثلاً : إن النار ليست حارة بل إننا نشعر فقط بالحرارة[2] ، ويرى أن العين لا تبصر بل إننا نحن الذين نبصر ، كما أن الفرجار لا يرسم الدائرة بل نحن من يرسم الدائرة ، كما أننا لو نظرنا إلى الحصان والثور بشكل منفصل فإن كليهما واحد ولكن لو نظرنا إلى الاثنين معاً فهما زوج ؟!

ويقول أيضاً إن المهر الذى ليس له أم ! لا يعد يتيماً !

ويقول "جوانك درا" – وهو فيلسوف صينى آخر – فى شأن أفكار هوئى تسو : أى نفع لفكر هوئى تسو فى هذه الدنيا ؟ إن مجاهدته مثل مجاهدة البعوضة والذبابة ، وإن فكره يكاد يخنق صوت الآخرين ! وهو مثل شجرة سرو تجرى وراء ظلها لكى تسابقه .

وعندما نطّلع على فلسفة الصين نرى أنها تختلف اختلافاً جذرياً مع فلسفة الغرب ؛ سواء من حيث الأسلوب أو من حيث الهدف والمقصود ، فما هى فلسفة الصين ؟ هل فلسفة الصين تقوم على المنطق والاستدلال مثل فلسفة كانت وديكارت ؟ إن الإجابة على هذا السؤال تكون بالطبع بالنفى .

وقد اقتبست الصين فلسفة ما وراء الطبيعة من الهند ، وتعارض طبيعة الصينيين الفلسفة المنظمة التى تقوم على قواعد خاصة ، ومع أن الصينيين يبدون بعيدى النظر فإنهم عجزوا عن تنظيم عقائدهم وآرائهم ولم يستطيعوا أن يقيموا فلسفتهم على أسس ثابتة، ولا يمكن للصينى أن يعيش بشكل منظم فى ظل اضطراب هذه الفلسفة ، وكما أن الصينى أدرك مدى جهله فقد راح ينظر إلى آراء أهل المنطق بعين التحقير ، إذ إن كل واحد منهم – من أهل المنطق – يعتبر فلسفته أو مذهبه هو الأصح .

والاختلاف البين بين الغربيين والصينيين هو الاصطدام بحقائق الحياة ، ويعجب السائح الأوُروبى عندما يرى أن الصينيين لا يدققون النظر فى أعمالهم ولا يهتمون بالأرقام والحقائق ؛ فمثلاً لا يعنيهم فى أى جانب من الصدر يكون القلب، ولو سألت

(١) فى ذلك الوقت كان الكتاب يكتبون أعمالهم فوق ألواح خشبية وكانت هذه الأخشاب توضع فوق بعضها ويربطونها بسلك .

(٢) هذه الأفكار تذكرنا بـ بركلى لأن ذلك المرحوم كان له هذا الفكر نفسه . (المؤلف)

أحد الصينيين فى هذا الشأن فإنه يجيبك دون اكتراث وقد هز كتفيه قائلاً: أى فرق أن يكون القلب فى الجهة اليسرى أو اليمنى من الصدر ؟ لو أنك شققت الصدر فسوف تراه ولن تستطيع أن تفعل شيئًا معه أو إزاءه حتى لو شققته . ولو قلت إننا نريد أن نحل هذه المسألة عن طريق البحث ، فسوف يجيبك قائلاً : حيثما تجد القلب فلا أهمية لذلك وما هو مهم أن يكون هذا القلب فى مكانه .

وتختلف عقائد فلاسفة الصين كثيراً عن بعضها ، ومن الواضح أن الحضارة التى امتدت لآلاف السنين كانت فلسفة مختلفة عن فلسفات الآخرين اختلافًا بينًا ، وفى كل مرة تتعرض فلسفة الصين للنقد أو الاختلاف عن الفلسفات الأخرى فإن أفكاراً جديدة تظهر فيها .

لذلك فإن فلسفة الصين زاخرة بالمذاهب المختلفة والغريبة ، ويمكن القول إن هذه الفلسفة اقتبست من أفكار بوذا ومع ذلك فإنها تختلف عن أفكاره .

وكان بوذا داعياً للسلام والأمن ، وقد اتبعه الفيلسوف الصينى المعروف لائوتسو وكان بعض فلاسفة الصين يحب الحرب والصراع ، وكان هؤلاء الفلاسفة يشجعون الملوك على إقامة حكومة ديكتاتورية قوية ! وهؤلاء مثل أنصار الحركة الفاشية[1] الذين يرون أن الشعب خادم الحكومة وللحكومة الحق فى أن تضحى بالشعب من أجل الوصول إلى أهدافها بالشكل الذى تراه مناسبًا . وقد قال أنصار هذا المذاهب بأنه يجب على الشعب أن يشتغل بالفلاحة والأمور العسكرية ، ويجب على كل فرد من أفراد المجتمع أن يمسك فى يدٍ فيلاً وفى اليد الأخرى سيفًا ، ولا صوت يعلو فوق صوت الحرب ، ولا حديث لهؤلاء الأفراد إلا عن الفلاحة والحرب فهم عبيد للحكومة ولرئيس الحكومة ، وهم يعتقدون أنه يجب على الجميع - بدون أى نقاش - أن يضطلعوا بمثل هذه الوظيفة الخاصة بهم ، فلا مكان للآمال عند هؤلاء فقد هدموا قصر الأخلاق وأنزلوا ملاك الفضيلة من على عرشه (وأقالوه) وجعلوا ذلك الحاكم القاسى الذى يدعى القانون بديلاً لملاك الفضيلة .

(١) الفاشية : فلسفة سياسية تمجد الدولة والعرق وتدعو إلى إقامة حكم ديكتاتورى يرأسه زعيم ديكتاتورى ، ومثال هذه الحركة تلك الحركة التى نشأت فى إيطاليا بزعامة موسولينى (١٩٢٢ - ١٩٤٥) . (المترجم)

ونتيجة لهذه الفلسفة سرعان ما جعل محاربو الصين العالم ميدانًا للصراع والحرب ، وأسسوا إمبراطورية عظيمة . واعتقد الفلاسفة المعاصرون أنه يجب التغير وفقًا لمقتضيات الزمان ، ورأوا أن أسلوب الفلاسفة القدامى أسلوب خاطئ ، وقد أورد فى هذا الشأن "هان فيتسو" قصة على سبيل التمثيل فحواها : إن رجلاً أمسك أرنبًا بجوار شجرة وأملاً فى صيد أرنب آخر ظل جالسًا ينتظر الأرنب الثانى ، والآن لو أن أحدًا أراد أن يتبع سياسة الملوك السابقين فى حكم عالم اليوم فإنه سوف يكون مثل ذلك الرجل الأحمق ؛ لأن الأمور تتغير من حال إلى حال ويجب أن يكون لكل عصر فكره وسياسته .

وينبغى أن نعلم أن فلسفة الصين كان لها أثر عميق فى نفوس الصينيين أكثر من فلسفات الأمم الأخرى ؛ لأن الفلسفة والدين والأخلاق والعادات قد شكلت معًا مزيجًا واحدًا ظل الغذاء الروحى لكل صينى لسنوات طوال .

وقلما بحث الفلاسفة الصينيون هذه المشكلة المصيرية الأبدية : إلى أين سنذهب ، وماذا سيكون حالنا ، وكيف ستكون الدار الآخرة ؟ وإن أولئك يفكرون فقط فى السبيل التى من خلالها يسعد الناس أكثر ، ويحرصون فقط على تعليم الأفراد كيف يصلون إلى هذه السعادة الدنيوية فيعيشون فى هذه الدنيا سعداء هانئين ، ومن ثم يمكن تقليل المصائب والآلام الدنيوية .

والفلاسفة الصينيون قسمان :

١ - الفلاسفة **المحافظون** : وهم الذين يعتقدون فى العادات والآداب والعقائد القديمة ويريدون إحياءها .

٢ - الفلاسفة **المجدِّدون** : وهم الذين يسعون إلى التخلص من العقائد القديمة ؛ وذلك لإيجاد أنظمة جديدة بديلة عن الأنظمة العتيقة .

ولما كان تأثير فلسفة كنفوشيوس فى حياة الصينيين أكثر عمقًا من الفلاسفة الآخرين ، فسوف نتحدث أولاً عن تعاليمه باعتباره أحد فلاسفة الصين العظام .

فلسفة اللاأدرية لكنفوشيوس

وقبل أن نتحدث عن فلسفة كنفوشيوس سوف يدور الحديث بشكل إجمالى حول المعتقدات الدينية للصينيين منذ بداية حضارة الصين .

وأول ملمح دينى نراه فى فلسفة الصين هو: عبادة الله . ويرى الصينيون القدامى أن هناك قوة غير مرئية تسكن السماء وهى التى تحكم العالم ، ولا تعتبر هذه الفئة من فلاسفة الصين ولا يعتبر الصينيون أن هذه القوة هى التى خلقت العالم والبشر ؛ بل إن الله فى نظرهم هو القوة غير المرئية التى تكره الظلم وتحبِّذ العمل الخيِّر والسلوك الحسن ، وأن هذه القوة غير المرئية لا يصدر عنها أى خطأ ، وأنها تكافئ المحسنين وتعاقب المفسدين ، وأن هذه القوة لا تريد من الإنسان أى مقابل أو شكر أو عبادة، ولو أن أحداً أدى ما عليه من حسن الجوار لجاره وفعل هذا الأمر دون أن يجهر به فإنه يقضى أيامه فى سعادة ولا يترك الفرصة لأهريمن لكى يضلل الإنسان ومن ثم يعيش الإنسان فى سعادة . ويسمى الصينيون هذه القوة باسم "تاين" ، وشيئًا فشيئًا نجم عن هذه القوة كلمتان هما "شانك تى" و "تاين" .

ومع أن هاتين الكلمتين تأتيان مترادفتين إلا أنه يوجد بينهما فرق كبير ، ويتجسم الإله "شانك تى" حتى أنه يسير مثل الإنسان ، فيأكل ويتحدث ويتذوق طعم القرابين التى يقدمها له الإنسان ويسعد بالرقص والصوت الجميل، حتى إنه يتدخل فى الحرب . ولكن الإله "تاين" غير مرئى وليس له شكل أو صورة خاصة ويعيش فى أبعد منطقة فى السماء ، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً راح الصينيون يعبدون النجوم والقمر والشمس حتى إنهم يعبدون الريح والمطر والحرارة والبرودة والعاصفة والبرق والرعد ، وهم يظنون أن بعض أجزاء البيت (مثل الباب والفناء والمطبخ) مساكن الأرواح ، وأنها قد تؤذى الأحياء أو تفيدهم .

وقد ظلت أحوال عباداتهم على هذا النحو مستمرة حتى شتاء عام ٦٥٠ ق.م . ويعد كنفوشيوس أعظم معلم صينى ، وكان اسم أسرته "خونك" وكان كنفوشيوس اسماً محرفاً عن خونك فوتزه (Kung-Futsc) أى (الأستاذ فونج) ويذكر الصينيون اسم الأسرة أولاً وبعد ذلك الاسم الأصلى فمثلاً بدلاً من أن نقول : أبو القاسم الفردوسى

نقول الفردوسي أبو القاسم ، ومن هنا قدم خونك (اسم الأسرة لكنفوشيوس) عن الاسم الأصلي .

ووالد كنفوشيوس هو "هيه" (Heih) كان له من زوجته الأولى ٩ بنات ومن الزوجة الثانية ين جيج تساى (yen-ching-tsai) ابن واحد هو كنفوشيوس ، ويقول الصينيون إن كنفوشيوس حينما ولد كان شكله عجيباً : فمه مثل البحر ! وشفتاه مثل شفتى الثور وظهره ظهر أفعي والجزء الأعلى من رأسه مثل القبة !

وكانت أذنا كنفوشيوس كبيرتين جدا ، وكان الصينيون يتصورون أن كبر أذنه دليل على حكمته ، وكان كنفوشيوس أكثر ضخامة من الأشخاص العاديين ، وكانت له قدرة فائقة على الأسفار الطويلة والجوع ، حتى إنه كان يرافق تلاميذه فى الأسفار التى يقومون بها سيراً على الأقدام .

وكان هذا يدل على قوة جَلَده وتحمله ، ولما توفى والد كنفوشيوس - وكان صغيراً - اضطر إلى أن يترك المدرسة وهو فى السابعة من عمره وانشغل بالعمل، وفى البداية اختار أن يعمل خازنًا وبعد ذلك عمل فى الحراسة والمحافظة على الأملاك نظراً لكفاءته وجديته ، ولكن كنفوشيوس لم يكن راضيًا عن العمل فى الأمور التجارية ، ولما قويت عزيمته بعد ١٥ سنة من عمره فضل العلم ، وقضى أوقاته فى التحصيل وأصبح فى الثانية والعشرين من عمره معلمًا ، وقضى أوقات فراغه فى الاطلاع والكتابة .

ولم تكن مدرسته تعلم المواد العلمية ، بل كانت تهتم بالآداب والأخلاق فاهتم كنفوشيوس بالتاريخ والشعر والموسيقى ، وكان يقول : إن الشعر يشكل طبيعة الإنسان ، وإن الأدب والفضل يهذبانه ، وإن الموسيقى تسمو به .

ولم يكن كنفوشيوس معلمًا يتهاون فى التعليم ، ومن ناحية أخرى لو أن تلميذاً لم يكن يستطيع أن يدفع الرسوم المدرسية لعجزه وفقره ، كان لا يرفضه بل لا يأخذ منه مقابلاً قط .

ويقول كنفوشيوس : عندما أشرح جزءاً من الدرس ولا يستطيع التلميذ أن يفهم الباقى منه فإننى لا أكرره ثانية .

وبهذا الشكل كان كنفوشيوس مشغولاً بالتعليم والتربية فترة من الوقت حتى إن "سلطان لو" (Lu) قد نصبه وزيراً للعدل ، وفى ذلك الوقت فإن كنفوشيوس كان متشدداً فى تنفيذ القانون ؛ حتى إن أحداً لم يجرؤ على أن يرتكب أدنى جرم ، وكان يعاقب الظلمة بقدر فسادهم ، كما كان يتخلص من المفسدين الكبار بقسوة شديدة ، ولذلك فقد عم الأمن والهدوء كل أرجاء "لو" حيث تقلصت الجرائم وكأنها لن تحدث ثانية .

وقد تغير سلوك الناس بشكل ملحوظ ، فكان الوفاء والإيمان الصادق من طبع الرجال والعفة والطاعة من طبع النساء ، ولكن سلطان "تسى" الذى كان يحكم المدينة المجاورة خشى من هذا الأمن والهدوء فى منطقة "لو" لهذا سعى أن يبدد هذا الأمن المذكور ، ولهذا الغرض أرسل للحاكم المذكور – سلطان لو – ثمانى جميلات من الحسان اللائى كن ماهرات فى الموسيقى والرقص والصوت العذب وبصحبتهن ١٢٠ جواداً من الجياد الأصيلة وذلك حتى يشغل (سلطان لو) باللهو .

فانشغل الحاكم ورجال البلاط فى ولاية "لو" بهؤلاء الجميلات وقضاء الوقت معهن وذلك وفقًا لما خطط له حاكم تسى ، ولم يعد حاكم "لو" ورجاله يهتمون بكنفوشيوس ، وفى بداية الأمر حاول كنفوشيوس أن ينصح السلطان بما دبره سلطان تسى له من المكائد وأطلعه عليها ، ولما وجد أن حديثه لم يؤثر فى السلطان استقال من منصبه لعل الحاكم يعود إلى رشده ويندم فيعيده ثانية إلى الوزارة ، فخرج من ولاية "لو" ، وشغل بالسياحة والسفر فى الولايات المختلفة لعله ينفذ برامج إصلاحاته بمساعدة حاكم آخر ، وقد كانت الصين آنذاك فى عصر أشبه بعصر ملوك الطوائف، وقد قسمت الصين إلى ١٣ إمارة مستقلة وكان مجموع عدد سكان الصين جميعًا آنذاك لا يتجاوز ١٥ مليون نسمة .

وفى سنة ٥٠١ كلف حاكم "تينك" كنفوشيوس بحكم "جونك تو" وفى عام واحد استطاع كنفوشيوس أن يصلح من أوضاع جونك تو بشكل لا يمكن تصديقه .

وقد قال كنفوشيوس منذ سنوات لو أن أميراً استخدمه فى وظيفة ما : فإننى فى غضون ١٢ شهراً سوف أصلح شئون الإمارة المكلف بها ، وفى غضون ثلاثة أعوام سوف أؤسس حكومة كاملة . وقد نفذ كنفوشيوس ما قطعه على نفسه ، وكان سر تفوقه أنه كان يستعين بالأشخاص المناسبين والأكفاء ؛ لأنه عندما يتوفر الموظفون الأكفاء

فإن المسئولين عن الأمور سـوف يضطلعون بمهامـهم ، والمسئـولون الأكفاء هم الذين لا يضنون بالجهد فى سبيل أداء العمل .

ذات يوم قال كنفوشيوس لحاكم : إذا أردت أن تحظى بحكومة جيدة ، فلابد من أن يكون فيها الحاكم حاكمًا والوزير وزيرًا والأب أبًا والابن ابنًا ؛ أى يجب على كل شخص أن يقوم بعمله كما ينبغى وعلى أكمل وجه .

ولم يستطع كنفوشيوس أن يثنى سلطان "لو" عن رأيه ، ولما كان هذا الحاكم لاهيًا فلم يكن يحسن أداء وظيفته وقد رووا حكاية جديرة بأن تسمع فى شأنه :

ذات يوم أجلس حاكم "لو" صديقته إلى جواره ، وجال بها فى المدينة ، وقد اضطر كنفوشيوس إلى أن يذهب وراء الحاكم فى عربته التى كانت خلف الحاكم ، وعندما رأى المشاة هذا المنظر قالوا لبعضهم : انظروا لقد جلست الرذيلة فى المقدمة والفضيلة فى المؤخرة .

وكان كنفوشيوس يقول : لكى يتحلى الشعب بحسن الأخلاق يجب على رئيس الدولة أن يتحلى بالأخلاق والصفات الحميدة ، ويجب على الشعب أن يستسلم لإرادة الحكام استسلامًا تامًا كما تميل أوراق القش إلى الجهة التى تهب عليها الريح .

وسأل الحاكمُ كنفوشيوس : ألا يجب أن نقضى على المذنبين من أجل استقرار الأمن والنظام ؟ أجاب كنفوشيوس : لو كنت طيبًا حقيقة وتهتم بالطيبة والتسامح فإن الشعب سيكون طيبًا؛ لأن الملك بمنزلة الريح والشعب بمنزلة القش، إذ إن القش يميل إلى كل ناحية تهب عليها الريح .

وسئل كنفوشيوس : ماذا يجب على الإنسان لكى يكون ممتازًا؟ فسأل كنفوشيوس : ماذا تقصدون بكلمة ممتاز ؟ أجابوا أى الشخص الذى يكون فى المدينة مشهورًا ، فأجاب كنفوشيوس : هذا ليس امتيازًا ، فالشخص الممتاز حقا هو البسيط والأمين والصدوق والعادل والمؤدى للمهام الموكلة إليه .

وذات يوم قال تلاميذ كنفوشيوس له : ليتنا نستطيع أن ننقل فلسفتكم للآخرين .

أجاب كنفوشيوس : هل تتحدث السماء ؟ تتوالى الفصول الأربعة .. وتستمتع كل الموجودات بالحياة وهى دائمًا فى ازدهار وتطور ، ومع هذا قولوا لى هل تتحدث السماء ؟

ولم يدَّعِ كنفوشيوس أنه جاء برسالة جديدة، بل على العكس كان يصر دائمًا على أن يكون مفسرًا ومترجمًا لأفكار السابقين ، وكان يقول إن عمله هو جمع النصائح والقوانين المختارة فى عصرى "تايو" و "شون" حتى يستطيع أن ينفذ هذه القوانين الأمنية فى البلاد .

وكان ثمرة جهود كنفوشيوس جمع حكمة الصين القديمة فى خمسة كتب وهى :

1 - yih king **2 - shoo- king** **3 - shiking**

4 - le- ke- king **5 - ch'un ts, eu**

وقد نشر تلاميذ كنفوشيوس تعاليمه فى ثلاثة كتب هى عبارة عن :

1 - lun yu **2 - chun- yung** **3 - ta- hio**

وعلاوة على هذا فقد كان كنفوشيوس يقرأ العديد من الكتب ويكتب المقالات والكتب الأخرى ويقوم بالتدريس وقد اهتم كثيرًا بفن الموسيقى ، وكان يعزف على آلة "الفلوت" ، وقد ذهب كنفوشيوس وهو فى التاسعة والعشرين إلى أستاذ الموسيقى سيانك وتتلمذ على يده فترة من الوقت ، ولما سمع أنهم يعزفون الموسيقى فى عهد الإمبراطور شون فى بلاط تسى أسرع إلى هناك ، ويقال إنه عندما سمع كنفوشيوس هذه الموسيقى والألحان فى بلاط تسى أثر هذا فيه كثيرًا حتى إنه تجنب أكل اللحم لمدة عدة أشهر . وقد عاش كنفوشيوس أكثر من سبعين عامًا ، وسأله ذات مرة أحد تلامذته قبل أن تدركه الشيخوخة : ما الموت ؟ أجاب كنفوشيوس : نحن لا نعلم ما الحياة فكيف يمكن أن نعرف أسرار الموت ؟

وأخيرًا عندما أحس بدنو أجله ذات يوم ، استيقظ وقت السحر وكان يتوكأ بيديه على أحد المقاعد ممسكًا عصاه وتوجه نحو بيته وراح يتمتم بهذه الكلمات :

(إن الجبال العظيمة يجب أن تتهاوى

وإن الشعاع الساطع يجب أن يخفت

وإن الرجل العالم يجب أن يذبل كغصن الشجرة ويموت) .

قال هذه الكلمات ووضع رأسه فوق الوسادة ، وبعد عدة لحظات خلد إلى النوم الأبديّ .

حكمة كنفوشيوس

وفلسفة كنفوشيوس بسيطة للغاية وقد أرسى كل فلسفته على أساس (إنجاز الوظيفة) فيقول يجب أن يعتبر كل شخص نفسه موظفًا وعليه أن ينجز وظائفه على أكمل وجه، ومن أقواله : "ليس هناك شيء أسهل وأبسط من هذا الدرس الأخلاقى الذى أعلمه لك وما أقوله لك ، هو عبارة عن ثلاثة قوانين أساسية أى علاقة الحاكم بالشعب والأب بالابن والزوجة بالزوج ، والعمل بالأصول الخمسة للتقوى ، وهى :

١ – الإنسانية عبارة عن الرحمة والعدل بين جميع الأفراد دون تمييز .

٢ – العدالة إعطاء كل ذى حق حقه دون تمييز أحد عن الآخر .

٣ – طاعة القوانين الدينية المقررة حتى تستقيم حياة الشعب فى نظام واحد .

٤ – الصدق والأمانة؛ أى أن يحب الإنسان للآخرين ما يحبه لنفسه .

٥ – الصدق والنية الحسنة أساس الثقة ، وتجنب الاحتيال والتزوير سواء فى السلوك أو فى القول" .

وكلمات (لى – شو – تشنتر) خلاصة تعاليم كنفوشيوس .

و"لى" : أى كتاب شريعة الأعمال الحسنة ، ويقول إنه يجب على الإنسان أن يقوم بأداء وظيفته فى الوقت المناسب ، ويقول شو : إن الشيء الذى لا تحبه لنفسك لا تحبه للآخرين .

وتعنى كلمة تشنتر : الرجل الكامل الذى يصون نفسه عن كل عمل يتصف بصفات غير محببة ، فلا يحتقر الضعيف لضعفه ولا يرضى القوى بأساليب غير مشروعة ، ولا يتجاهل عيوبه وينشغل بعيوب الآخرين .

ولما كانت كتابات كنفوشيوس مليئة بالنصائح فإن أحد الكتاب الغربيين يقول فى هذا الصدد : ابتدع كنفوشيوس الحكمة ، ولا توجد فى كتابات كنفوشيوس الصور الشاعرية الغامضة ؛ إذ يقوم حديثه على أساس العقل والمنطق ، وتخلو أحاديثه من الأحاسيس الشاعرية الثورية ، وقد ألبس كنفوشيوس عروس المعانى ثياباً من الألفاظ البسيطة ولم يعتمد على الزينة والصنعة قط . ومجموعة أفكار كنفوشيوس التى تسمى "لون يو" يمكن تسميتها بالفارسية "المنتخبات"، وترجمت إلى الإنجليزية بهذا الاسم المنتخبات أو Analects ، وقد كتبها تلاميذه ، ويحتــوى هذا الكتاب على ٢٠ رسالة ، كل رسالة عدة فصول قصيرة وكل فصل يضم عــدة كلمات موجــزة لكنفوشيوس ، وقد ورد بهذا الكتاب أيضاً عاداته وردوده على أسئلة تلامذته .

ولم يتحدث كنفوشيوس عن الجنة والنار ولم يعد أتباعه بشىء فى هذه الدنيا كمقابل كبير سوى راحة الضمير ، حتى إنه لم يدَّعِ أنه أرسل بعقائد جديدة وكان يقول بمنتهى التواضع : إن عملى معظمه نقل أكثر من كونه إبداعاً ، والأهم من هــذا أننى لا أدعى العقل والحكمة السماوية والتقوى الكاملة ، والشىء الوحيد الذى يجب أن تعرفوه عنى أننى لم أنحرف عن الطريق التى سلكتها .

وتقوم تعاليم كنفوشيوس الأخلاقية على أساس كلمة "جن"، ومعنى "جن" : المحبة تصدر عن طريق الشفقة من القلب وتصل بعد ذلك إلى ذروتها . ولا نستطيع أن نقول إن كلمة واحدة يمكن أن تكون مرادفة لهذه الكلمة ســواء كانت الإحسان أو الإنسانية أو طلب الخير أو التقوى إذ إن كل تلك الكلمات تجتمع فى كلمة (جن) .

وبناء على هذا فإن فضيلة جن تحوى معان مختلفة، وبشكل عام تعنى الإنسانية ، ويعتبرها كنفوشيوس من أسمى الفضائل، وقد وردت فضيلة (جن) فى القواعد الخمس لكنفوشيوس وهى عبارة عن : عــلاقة الأب بالابن ، والأخ الأكبر بالأخ الأصغر ، والزوج بالزوجة ، والملك بالشعب ، والصديق بالصديق .

وقد طلب تزوجانك من كنفوشيوس أن يفسر له معنى كلمة "جن" فأجاب : تشتمل كلمة جن على خمس قواعد أو أصول يجب مراعاتها فى كل زمان ومكان ، وهى عبارة عن : الاحترام والإخلاص والحماس والمودة وسمو الطبع، فأنت عن طريق الاحترام

الذى تبديه للآخرين تحترم نفسك ، وعن طريق سمو الطبع الذى تبديه للجميع ستجعل الآخرين يثقون بك عن طريق الإخلاص ، وعن طريق الحماس الذى تبديه فى العمل سوف يجعلك هذا تسود الجميع وذلك عن طريق المودة .

ووفقًا لنظام كنفوشيوس قسمت حياة المرأة إلى سبع مراحل وقسمت مراحل الحياة بالنسبة للرجل إلى ثماني مراحل ، وبهذا المعنى فإن الأسنان فى البنت تبدأ فى الظهور بعد الشهر السابع وفى سن السبعين يجب أن تستعد المرأة للرحيل ، ولكن الأسنان تبدأ فى الظهور بالنسبة للولد من الشهر الثامن ويكون البلوغ فى السنة السادسة عشرة وينتهى عمره فى سن الثمانين .

وكما يتضح من مذهب كنفوشيوس أن هذا المصلح[1] لا يولى أهمية لمسألة الإلهام، بل إنه يكره كثيراً الشعوذات والأوهام والخرافات ، ويقوم مذهبه على الأصول الأخلاقية المذكورة وكفى .

ويساوى أحد العلماء الأوروبيين بين مذهب كنفوشيوس فى مسألة الحكم وبين أفضل قوانين العصر المعاصرة ، ويقول كنفوشيوس يجب أن تكون شئون الحكومة مثل أنغام السيمفونية الواحدة ، أى منظمة وموزونة ، والموسيقى فى نظر كنفوشيوس هى فناء الروح ، ولتفسير تناغم عالم الخليقة كان كنفوشيوس يريد أن يوضح هذا التناغم فى نظام الحكومة كما هو موجود فى الموسيقى والخليقة .

ويرى كنفوشيوس - مثل سقراط - أن الموضوع الوحيد الجدير بالذكر للإنسان هو الإنسان نفسه ، وكان يؤمن بأن البشر لديهم طاقة كبيرة ، وأن سعادة الأفراد تقوم على العدالة الاجتماعية .. وكان يسعى طيلة عمره من أجل هذا الأمر . والموضوع العجيب أن كنفوشيوس لا يقلل من قدرة الإنسان فى التغلب على الغرائز وكان يدرك أن قوته الداخلية خيرة ، ولهذا فإنه لم يقل لأصحابه أن يضحوا بأكثر من طاقتهم وأن يكونوا منزهين عن الذنوب ، بل كان يسعى إلى أن يقوى فيهم روح الأمانة والعدل حتى يمتنعوا عن الاعتداء على حقوق الآخرين . ومن بين تلامذة كنفوشيوس "منسيوس" الذى كانت له شهرة عالمية ، وكان منسيوس يقول : إننى أحب الحياة وأحب أيضًا الأمانة ،

(١) أورد المؤلف كلمة : الرسول ، وآثرت أن أترجمها (المصلح) . (المترجم)

فإذا فشلت فى أن أمتلك الصفتين معًا فسـوف أختار الأمـانة . وكان يقـول أيضـًا : إن الأشجار الجبلية كانت ذات يوم جميلة ولكن عندما اقترب منها العمران قطعت أغصانها وذهب جمالها ، ومع ذلك فبعد مرور عدة أيام تنمو هذه الأشجار ولكن الأبقار والشياه تأكلها ، لهذا فإن الجبال تخلو أحيانًا من هذه الأشجار ، وقد تصور الناس أنه لم تنبت فى هذا المكان أية شجرة من قبل ، لكن هذا الأمر يتعارض مع طبيعة الجبال .

[illegible] ـيعة الإنسانية زاخرة بالخير ولكن كما اجتثت هذه الأشجار من جذورها فإن الأخلاق النقيـة قد تفسد أحيانًا ، إذ إن الناس فى كل لحظة وفى كل يوم يحاربون الخير ويسعون إلى أن يقضوا عليه ، فكيف يمكن لجمال العقل أن يدوم ويستمر ؟!

أفكار كنفوشيوس

(١)

تصدر الثورة عن أصول إلهية .

(٢)

قلما تجمع التملق مع كرامة الخلق فى مكان واحد .

(٣)

شخصان لا يتغيران : الأحمق جدا والعاقل جدا .

(٤)

إن الشخص الذى يهتم حقيقة بتحصيل العلم هو الذى يسعى فى سبيل إخماد نار غريزته ، ولا يحاول أن يعيش فى بيت مرفه ، والطالب الحقيقى هو الذى يسعى كثيرًا فى سبيل العمل ويمسك لسانه عند الحديث ويختلط بالأشخاص الذين يبدون اهتمامًا بالمبادئ السامية ، وبهذا الشكل يخطو فى الطريق الصحيح .

(٥)

لو أن الناس لا يعرفونك فلن تحزن ، ولكن لو أنك لا تعرف الناس فسوف تحزن .

(٦)

فى سن الخامسة والعشرين عزمت على أن أحصِّل الحكمة ، وفى سن الثلاثين عزمت على أن أعلِّم الحكمة ، وفى سن الأربعين تخلصت من كل شبهة وشك ، وفى سن الخمسين فهمت القوانين السماوية ، وفى سن الستين أصبحت أتحكم فى زمام عقلى ، وفى سن السبعين أصبحت قادراً على أن ألبى رغبات قلبى دون معصية .

(٧)

إن الرجل الحق هو الذى يعمل بما يقول أولاً وبعد ذلك ينصح الآخرين .

(٨)

تعلُّم العلم بدون إعمال العقل عبث ، والتفكير بدون تعلم أمر خطير !

(٩)

سأل كنفوشيوس "يو": أتريد أن أعرفك معنى المعرفة ؟ المعرفة هى إذا علمت شيئاً فإنك تعلم أنك تعلمه وإذا جهلت شيئاً فإنك تعلم أنك تجهله .

(١٠)

الزهاد هم وحدهم الذين يعرفون أى الأشخاص يحبون وأى الأشخاص يكرهون .

(١١)

إن الأشخاص الذين يهتمون بالفضيلة هم وحدهم الذين لا يسعون إلى الشر .

(١٢)

الإنسان النبيل هو القلِق من مغبة ألا يصل إلى الحقيقة ، وهو لا يخشى الفقر ، وصادق ، وليس مغرضاً ، ويعلم جيداً أن ما يقوله هو الشىء الصحيح .

(١٣)

إن الشرفاء هم الذين يفكرون فى شأن الأخلاق والسِّفلة هم الذين يفكرون فى أنفسهم ، والشرفاء هم الذين يريدون العدل والسفلة هم الذين يريدون أن يكونوا موضع الحظوة والعناية دون غيرهم .

(١٤)

إن الطالب الذى يسعى لتحصيل الحكمة ومع ذلك يخجل من أن يرتدى ثيابًا قديمة على جسده أو يأكل طعامًا بسيطًا ما زال غير جدير بأن يتعامل معه الناس .

(١٥)

إذا رأيت رجلاً ذا كفاءة ففكر كيف يمكنك أن تصل إلى مقامه .

(١٦)

إن الفضيلة لا تعيش أبدًا وحدها ، بل لابد لها من جيران .

(١٧)

قال تزوكنك : إن الشىء الذى لا أرتضيه لنفسى يجيزه الآخرون فى حقى وأنا لا أجيزه فى حقهم . قال كنفوشيوس : وهل تعلم أنك لم تصل إلى هذه المرحلة التى تتحدث عنها ؟

(١٨)

واحسرتاه ! إننى لم أر رجلاً يرى عيوبه ويذمها بنفسه .

(١٩)

إن الشخص الذى يعلم الحقيقة لا يتساوى مع الشخص الذى يحبها ، وإن الشخص الذى يحب الحقيقة لا يتساوى مع الشخص الذى يحظى بها .

(٢٠)

إن الوظيفة هى الشىء الجدير بالمعرفة ، وإن قانون الوظيفة يشبه بحرًا بلا حدود ، وإن انسجام أعمالنا وأفعالنا مع الطبيعة يشبه النظرية نفسها .

(٢١)

إن الأذكياء يحبون الماء والزهاد يحبون الجبل ، والأذكياء غير مستقرين والزهاد والأذكياء يجدون فى الحياة لذة ، والزهاد ينعمون بطول العمر .

(٢٢)

إن التهاون فى الأخذ بمكارم الأخلاق والتقصير عن الاطلاع والعجز عن أداء الوظيفة والعجز عن تجنب عيوبها .

(٢٣)

سأل تسه كونك كنفوشيوس قائلاً : هل هناك كلمة واحدة يمكن أن تكون طيلة العمر قانونًا يُعمل به ؟ قال كنفوشيوس : إن أية كلمة ترتبط بالمعاملة .

(٢٤)

إن الرجل الشريف والأمين دائمًا هادئ ، والسِّفلة دائمًا مضطربون ومشوشون .

(٢٥)

يمكن أن نحث الناس على أن يسلكوا طريقًا ما ، ولكن لا يمكن إفهامهم لماذا يجب أن يسلكوا هذا الطريق .

(٢٦)

اتخذوا ضمائركم أدلة لكم ؛ فالأصدقاء غير المخلصين لن يساعدوكم ، فإذا صدر عنكم هفوة فلا تتهاونوا فى إصلاحها

(٢٧)

حينما نوصل أنفسنا إلى الكمال فإننا سوف نعلم حينئذ معنى الكمال ، وهذا قانون سماوى وأساس القوانين الأخرى .

(٢٨)

إن العاقل هو الذى لا يتعصب فى سلوكه تجاه الدنيا، ولا ينحاز إلى شىء يفضله عن شىء آخر، وهو دائمًا موالٍ للحق .

(٢٩)

وعندما سأله "جى تو" سؤالاً فى شأن الأموات ، قال كنفوشيوس : إن كنت لا تستطيع أن تدرك حتى الآن حياة الأحياء فكيف لك أن تعرف حياة الأموات ؟!

(٣٠)

وسأل "ين يوان" عن معنى الفضيلة فقال كنفوشيوس : معنى الفضيلة إنكار الذات واتباع الحق والصدق . وسأله مرة أخرى "فان چيه" عن معنى الفضيلة ، فأجاب كنفوشيوس : أحب مواطنيك ، وعندما سأله عن معنى العلم قال : اعرف مواطنيك .

(٣١)

وسأل "تزوكنك" : ماذا تقول فى شأن الشخص الذى يحبه كل المواطنين ؟ قال كنفوشيوس : هذا ليس كافيًا ، فسأل تزوكنك : وماذا تقول فى شأن الشخص الذى ينفر منه الجميع ؟ أجاب كنفوشيوس : هذا ليس كافيًا ، والأفضل من كليهما من يحبه الأخيار ويبغضه الأشرار .

(٣٢)

وعندما سأل شخص كنفوشيوس : ماذا ترى فى مجازاة العدو بالمودة ؟ أجاب كنفوشيوس : إذن وكيف تجازى الودود ؟ ... كن عادلاً عند معاملة العدو وودوداً مع الودود .

(٣٣)

إن الشريف هو الذى ينتقد نفسه ، والشرير هو الذى ينتقد الآخرين .

(٣٤)

وسأل "تزوكنك" : هل توجد كلمة يمكن أن تكون طيلة العمر دستوراً يمكن اتباعه ؟ أجاب كنفوشيوس : ليس هناك كلمة بهذا المعنى فما لا ترتضيه لنفسك لا ترتضه لغيرك .

(٣٥)

وقال كنفوشيوس ذات يوم : يمكن ألا أتناول الطعام طوال اليوم وأن أقضى الليل دون نوم حتى يمكن أن أفكر ، ولكن التفكير وحده لا فائدة من ورائه ، المهم أن أسعى للتعلم .

(٣٦)

ليس العاقل من يجعل الوظيفة مجرد وسيلة لقضاء حياته ، بل من يجعلها هدفًا للحياة .

(٣٧)

خلق البشر متساوين ولكن العمل والتجربة يجعلان البشر مختلفين عن بعضهم .

(٣٨)

للأصدقاء المفيدين ثلاث خصائص ، وللأصدقاء المضرين ثلاث خصائص:

وصداقة الأشخاص الأمناء الأوفياء والعلماء مفيدة ، بينما صداقة الأشخاص الأشرار والمتملقين والمنافقين ضارة .

(٣٩)

ثلاثة أنواع من اللذة مفيدة وثلاثة أنواع من اللذة مضرة : والمفيد منها فى حسن السلوك والموسيقى والحديث عن مكارم الأخلاق والأصدقاء ذوى الكفاءة ، والمضر منها اللذة المرتبطة بالتحرر والعبث واللهو .

(٤٠)

إن الأشخاص الذين يعدون أفضل من الجميع هم أصحاب العلم الذاتى ، ويأتى بعدهم فى المرتبة الثانية الأشخاص الذين يكتسبون العلم بالاطلاع ، أما الأشخاص الذين يكتسبون العلم بقليل من الاستعداد فيأتون فى المرتبة الثالثة ، أما الأشخاص الذين يكون استعدادهم محدوداً ومع ذلك لا يتعلمون شيئًا فهم يأتون فى أدنى المراتب .

(٤١)

يقول كنفوشيوس : ليتنى أستطيع أن أستغنى عن الحديث ، فقال تزوكنك : لو صمتُم فماذا يمكن أن تقولوا للآخرين ؟! أجاب كنفوشيوس : هل تتحدث الطبيعة ؟ إن الفصول تأتى وتذهب فى صمت ، وينمو كل شىء .. ومع ذلك هل تتحدث الطبيعة ؟

(٤٢)

والحقيقة غير المكتسبة هى قانون الله والحقيقة المكتسبة هى قانون الإنسان ، ومعنى الحقيقة تحقيق وجودنا والقانون الأخلاقى أى قانون وجودنا ، والحقيقة بداية الوجود ونهايته ، وبدون الحقيقة أيمكن أن يكون للوجود وجود ! ولهذا السبب فإن رجل الأخلاق مدرك لقيمة الحقيقة .

والحقيقة ليست فقط مجرد تحقيق وجودنا ، بل إنها عبارة عن تلك القوة التى بواسطتها تبرز أشياء خارج وجودنا ، ويتصل حسن الأخلاق فى هاتين القوتين بالقوى الداخلية والخارجية ، ومن هنا فإن وجود الحقيقة فى كل أمر يتم هو أمر صحيح ، وبهذا الشكل فإن الحقيقة المطلقة ليست فانية ؛ فهى أبدية وتوجد فى ذاتها ، ولما أنها توجد فى ذاتها فهى غير محدودة ، ولما أنها غير محدودة فهى قدرة واسعة وعميقة .

(٤٣)

إن العلم الذى ادخر بدون أن يُهضم فكريا هو مجرد معاناة وقد ذهبت هباءً .

(٤٤)

خمسة ذنوب يجب معاقبة الشخص عليها :

١ - الذنب الذى لا يمكن أن يغفر ، مثل ذنب الشخص الذى يتظاهر بالتقوى ويرتكب الذنب خفية .

٢ - ذنب الشخص الذى كذب وأفسد أكثر من مرة .

٣ - الكذب الذى ارتدى ثياب الصدق .

٤ - ذنب الشخص الذى أخفى فى قلبه الحقد لفترة طويلة ، ويتظاهر مع ذلك بالصداقة ويسعى بكل جهده للانتقام .

٥ - ذنب الشخص الذى يحكم فى أمر واحد بصحة الأمر أو بعدم صحته ، وذلك من أجل أهواء شخصية فى حين أنه يغض الطرف عن الحقيقة .

(٤٥)

وقد صرح كنفوشيوس ذات مرة لو أن أحداً يسأل نفسه : ماذا يجب أن أفعل ؟ فأنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعل مع مثل هذا الشخص .

(٤٦)

جدد ذاتك كل يوم ، جددها مرتين، واحرص على أن تكون متجدداً وجديداً دائمًا .

(٤٧)

يجب أن تعتبر الوظيفة أول اهتماماتك ، وثمرتها التى تجنيها ثانى الاهتمامات .

(٤٨)

إن الشخص غير الواضح مثل سفينة بلا قبطان وفرس بلا لجام .

(٤٩)

يجب على قلب الإنسان أن يميل إلى الحق والحقيقة ، ولو أن أحداً كان هدفه عمل الخير فإن الظلم والفساد لن يصدرا عنه .

إن الشخص الذى يكون راسخ الإرادة وثابتًا لا يمكن لأية قوة أن تعوقه عن طريقه ، فيمكن لحاكم أن يسرق دولة كاملة ولكن لا يمكن لأى شخص أن يسرق إرادة شخص بسيط .

(٥٠)

إن الوفاء أساس حسن السلوك ، والوفاء أمر لازم لحسن السلوك مثل المجداف للقارب .

(٥١)

إن الخصال الحسنة نفسها التى يجب توافرها لحاكم الدولة يجب توافرها أيضًا لرب الأسرة .

(٥٢)

إن السيطرة على النساء والخدم من أصعب الأمور بين الناس .

(٥٣)

إن الشهوات الحقيرة مثل الطين الذى يترسب داخل "طشت" ، ومع أن ماء سطح الطشت قد يبدو نقيًا لكن بمجرد أن تهزه يتعكر الماء بالطين ، وشهواتنا هذه كامنة فى أعماقنا فعندما يقوم الإغراء لدينا بدوره فإن هذه الشهوات تلوث وجودنا كله .

(٥٤)

يجب على كل شخص أن يراعى ما يقوله وما يفعله جيداً ، وعليه أن يبتعد عن أى شيء سيئ وغير مريح، ويجب أن يكون طلب الخير لديه أساس حياته والأمانة طريقه ورعاية الأدب لباسه والحكمة مصباحه الذى يهتدى به .

(٥٥)

ليس فخراً أن الشخص لم يسقط أبداً ، بل الفخر فى أن ينهض ثانية بعد أى سقوط .

(٥٦)

البحث المتعمق فى ما وراء الطبيعة مضر .

(٥٧)

على الرجل أن يحترم الأرواح ولكن لا يبتعد عنها .

(٥٨)

البساطة أفضل من المبالغة فى جميع العادات والآداب ، والحزن الحقيقى فى العزاء أفضل من التظاهر بالمظاهر .

(٥٩)

الرجل العظيم يستعين بالتقوى والرجل العاجز يستعين بالرفاهية المادية ، والعظيم هو من ينشر العدل والعاجز من يسعى لمصلحته الشخصية، والعظيم مستريح البال والعاجز قلق .

(٦٠)

حكوا لكنفوشيوس عن شخص وقالوا عن كفاءته : إن هذا الشخص يفكر ثلاث مرات قبل إنجاز أى عمل ، فأجاب كنفوشيوس : إن التفكير مرتين كاف !

(٦١)

عبر أحد التلاميذ عن حزن يعانى منه لكنفوشيوس قائلاً : للجميع إخوة وليس لى أخ واحد ، فأجاب كنفوشيوس : يجب أن تعتبر الجميع إخوتك .

(٦٢)

وعندما سئل ما فضيلة الإنسان ؟ قال : فى محبة الناس ، ويجب على كل شخص أن يحب الناس حبا حقيقيا ، وأفضل إنسان هو الشخص الذى يغبط الجميع بالخير .

(٦٣)

بدلاً من أن تلعن الظلام أشعل شمعة .

(٦٤)

لم أر أى شخص يعشق الفضيلة كما يعشق الرجال النساء .

(٦٥)

ليس عجيبًا لماذا لا يسير العقلاء فى طريق الرذيلة لأنه حينما تقل شهواتنا باستمرار فإن الحكمة هى التى ستكون دليلنا .

(٦٦)

إن مخالطة الظَّلَمة والاستماع إلى أحاديثهم بداية الظُّلم .

(٦٧)

يجب أن يكون قلب الإنسان مثل المرآة فيعكس صورة كل شىء دون أن تتأثر بأى شىء .

(٦٨)

قبل أن تبدأ العمل هيئ مقدمات ذلك حتى لا تصبح فريسة للاضطراب .

(٦٩)

إن جزاء الحياة مرتبط بما تبديه من ثبات ، والحرفى الذى يريد أن يكمل عمله يجب عليه أن يجعل أدواته حادة .

(٧٠)

إن الثروة والفخر اللذين يأتيان عن طريق غير مشروع يمران مثل السحاب .

(٧١)

لو أننا منعنا الناس عن طريق تنفيذ القوانين ومعاقبتهم على ارتكاب عمل ما ، فإن حالهم لن ينصلح بهذه العقوبة بل إنهم بهذا الشكل سوف يفتقرون إلى الإحساس بالخجل، فى حين لو أننا علمناهم فوائد الفضيلة وحثثناهم عليها فسوف يجعلون من الفضيلة نبراساً لهم ولن يكونوا فقط محسنين بل أصحاب إحساس وشعور وحياء، وبهذا الشكل نكون قد أنصفناهم وأبعدناهم عن ارتكاب أعمال غير لائقة وأبعدنا الشر عنهم .

(٧٢)

إن الشخص الذى يحكم عن طريق الفضائل والمبادئ الأخلاقية هو مثل النجم القطبى الذى يستقر وسط النجوم دائماً وتعظمه كل النجوم الأخرى .

(٧٣)

عندما أراد القدماء أن تعم الفضيلة الكبرى جميع الناس راحوا أولاً ينظمون دولهم ، ولكى تصبح دولتهم منظمة أصلحوا أولاً أسرهم ، ولكى ينصلح حال أسرهم ، راحوا أولاً يهذبون شخصياتهم وأخلاقهم، ولكى يتم هذا طهروا قلوبهم من كل شائبة ، ولكى تصبح قلوبهم نقية سعوا أولاً أن يكونوا صادقين فى أفكارهم وعقائدهم (أى أنهم يرون الأشياء بالفعل كما هى موجودة) ، ولكى يكونوا صادقين فى أفكارهم زادوا أولاً من معلوماتهم إلى أقصى حد .

ولما أصبحت قلوبهم نقية ، تهذبوا فانصلح حال أسرهم وأصبحت هذه الأسر دولاً تحكم ، وهذه الدول التى راحت تحكم رفرف عليها طائر السعادة فى كل مكان ، وحظيت بالنعم والأمن والسعادة .

(٧٤)

ولما سأل تزوكنك كنفوشيوس عن متطلبات الحكومة أجاب كنفوشيوس : طعام كاف وقوة عسكرية وشعب مؤمن ، فقال تزوكنك : افترض أننا اضطررنا إلى أن نصرف النظر عن أحد هذه الثلاثة فأيها يمكن أن نصرف النظر عنه ؟ قال كنفوشيوس : عن القوة العسكرية ، فقال تزوكنك : ولو اضطررنا إلى أن نصرف النظر عن الاثنين الباقيين فأيهما يمكن أن نصرف عنه النظر ؟ قال كنفوشيوس : عن الغذاء ، لأنه منذ القدم كان الموت مقدراً على الجميع ولكن الشعب الذى يفقد الإيمان لن يستطيع أن يواصل حياته !

(٧٥)

يمكن أن أكون أسعد حالاً بطعام بسيط غير مرفه فى الأكل وبماء للشرب مع استعمال اليد بدلاً من الوسادة في أثناء النوم ، لأن الثروة والفخر بدون فضيلة الأمانة بالنسبة لى مجرد سحابة غير ثابتة .

(٧٦)

أفضل وسيلة لإصلاح الآداب والعادات والتقاليد هى مراعاة الفن – كالموسيقى – فى المملكة .

(٧٧)

لا يجدى مذهب فى شعب يُفرِط فى اتباع أعمال شيطانية .

(٧٨)

اختر الطريق المستقيم وابتعد عن الطريق المعوج وبهذا الأسلوب يمكن إصلاح المعوج .

(٧٩)

إن الشخص الذى يحكم بالتقوى مثل النجم القطبى ؛ ثابت فى مكانه وكل النجوم تدور حوله .

عدة حكايات عن حياة كنفوشيوس

١ - فى أحد أسفار كنفوشيوس التى قام بها بصحبة تلامذته رأى عدداً من الأفراد وقد جلسوا بعيداً وأحدثوا جلبة ؛ فأرسل كنفوشيوس أحد تلامذته إلى هذه المجموعة حتى يستطلع الأمر .

فرأى رسول كنفوشيوس عدداً من الأفراد وقد تحلقوا جسد ميت، وراحوا يبكون ! وكان يعتقد هؤلاء الأشخاص أن الحياة حلم وأن الموت يقظة ، وكانوا يقولون إن الروح الإنسانية الطاهرة تصعد بعد الموت إلى السماء وتجول بين السحب فإذا نسيت وجودها فإنها تتجول فى حدود المكان .

ولما حكى لكنفوشيوس تصرف هؤلاء الأفراد تجاه الميت قال كنفوشيوس : إن هؤلاء يعيشون خارج ناموس الحياة ، وقد أخطأت أننى أرسلتك لهم ، فهؤلاء يعتبرون الحياة جرحًا عظيمًا وأن الموت هو الوحيد الذى ينقذهم من هذا الجرح ، وهؤلاء لا يعلمون أين كانوا قبل ميلادهم أو إلى أين سيذهبون بعد موتهم ، فهؤلاء يعيشون فيما وراء "غبار" الموت وهم حيرى فى منطقة السكون .

٢ - وعندما جاء كنفوشيوس إلى ولاية چيناك لم يتحرك حارس البوابة حتى دخل حكيم الصين المدينة. فسأل أحد تلامذة كنفوشيوس الحارس : ألا تعلم من هذا الشخص؟ قال : لا .. لا أعلم وما أعلمه أن هذا الرجل مثل كلب ضال .

٣ - وذات يوم رأى كنفوشيوس صبيين يتباحثان ، فسأل كنفوشيوس أحدهما فيم تتباحثان ؟ فأجاب الصبى أعتقد أنه عندما تسطع الشمس من الشرق تكون قريبة منا وكأنها طبق فوق رءوسنا وتبدو فى حجم سقف عربة ، وقال الابن الثانى : أعتقد أنه عندما تشرق الشمس تكون حرارة أشعتها رطبة ومناسبة بينما فى أثناء الظهر تزيد الحرارة لأن الشمس تكون قريبة منا وقت الظهر أكثر من فترة الصباح .

وكلما حاول كنفوشيوس أن يحل هذه المشكلة فشل فى أن يجد لها حلاً .

٤ - قابل كنفوشيوس فى أحد أسفاره عدداً من المعتكفين الذين ابتعدوا عن التدخل فى شئون الحياة وقضوا حياتهم فى عزلة ؛ فحزن كنفوشيوس عليهم ،

وقال : يجب على الإنسان أن يسعى إلى تخليص نفسه من أى بلاء وليس أن يعيش فى عزلة عن الناس مثل الحيوانات المفترسة !

٥ – وعندما توجه كنفوشيوس إلى ولاية تسى كان يمر من جبل تايى فرأى امرأة بجوار قبر تنتحب ، فأرسل كنفوشيوس أحد تلامذته إلى المرأة المذكورة حتى يسألها عن سبب بكائها ، فأجابت المرأة عن سؤاله قائلة : لقد لقى والد زوجى مصيره بين مخالب أسد ، وفى هذا المكان نفسه يلقى زوجى المصير نفسه ، والآن فإن ابنى قد أصبح ضحية للحيوانات المفترسة .

فسأل كنفوشيوس : ولماذا لا تذهب تلك المرأة لمكان آخر حتى تتخلص من شر وحوش الغابة ؟ فأجابت المرأة : إننى أجد العدل فى هذه الحكومة ، فهذا المكان أفضل كثيراً من المدن التى يحكم فيها حكام ظلمة .

فنظر كنفوشيوس إلى تلامذته وقال : اعلموا أن الحكومة الظالمة أكثر ضراوة من الفهد والنمر !

٦ – جاء إلى كنفوشيوس رجل وشكا من ابنه ؛ فأمر كنفوشيوس أن يسجنوا الأب والابن ، وبعد ثلاثة أشهر أطلق سراح الاثنين وقال كنفوشيوس إلى الأب : لا حق فى شكواك من ابنك لأنه لو صدر سوء من ابنك فهذا ذنبك أنت لأنك لم تربه .

حكمة لايوتزه(١)

هو الفيلسوف الصينى الذى تأثر بأفكار فلاسفة الهند، ويُرى ذلك واضحاً فى أعماله ، وقد أسس لايوتزه مذهب (الطريق المستقيم) أو ما يسمى بالـ : تايوييزم = (Taoism) وتعنى "تايو" الطريق أو سالك الطريق ، وقد تكرر هذا المصطلح كثيراً فى أحاديثه .

ومذهب تايو يشتمل على مسائل الحياة وشئون الحكومة والسلوك الإنسانى ويتصل اتصالاً وثيقاً بأصل الحقيقة النهائية ، وقد ذكر تايو فى كتاب (تايوته كينج = Tao-teh-king) أى الحقيقة أو القاعدة الأساسية التى تنفذ فى كل الأشياء وتحكم كل الأشياء .

(١) لايوتزه : تعنى (الأستاذ المسن) واسمه الحقيقى (لى) . (المؤلف)

وتوجد أفكار عجيبة تتعلق بالبشر فى مذهب لايوتزه ، كما أورد أحاديث غريبة فى طريقة الحياة ، وكتاباته مليئة بالمصطلحات العرفانية الغامضة ، ولاحظوا كيف يفسر كلمة تايو : إن تايو مثل طبق فارغ ومع أنه فارغ يمكن أن نصب منه الماء ، وتايو مثل الإناء الذى لا تنتهى محتوياته وعمقه لا نهاية له .

وفى تايو فإن كل شىء سريع يصبح بطيئًا ، وكل شىء مشرق يفقد إشراقه ، وتايو مثل حوض ماء عميق لا ينضب أبدًا ، وهدف الإنسان الحقيقى التوحد مع تايو ولكن هذا الهدف لا يعنى أن نتبعه أو أن نعاني للوصول إليه ، بل يجب أن نستفيد من كل شىء بصورة حسنة مما يكون فى متناول أيدينا فى الطبيعة . الخلاصة : يجب أن نكون مثل تايو (فارغين) ! حتى نمتلئ بالحقيقة !

يقول لايوتزه : إن تايو طريق بسيط ومباشر وواضح جداً ، ولكن الناس يحبون أن يسيروا بغير هدف .

وتايو طريق أبدى ويمر به جميع المخلوقات ولا يعلم أحد بوجوده ، لأنه هو ذاته الوجود ، وتايو هو الكل وكل شىء سواه عدم !

وتايو هو العلة وهو المعلول ، وتصدر عنه كل الأشياء وتعيش معه ثم تعود إليه .

ويرى لايوتزه أن الشخص الوحيد الذى يدرك حقيقة روح تايو هو الشخص الذى تحرر من الرغبات الدنيوية والشهوات ، فمن يكون أسير الشهوات يرى فقط الظاهر للأشياء وأنه ليس قادراً على أن يدرك حقيقتها .

وبناء على هذا فإن لتايو جانبين ، وهذان الجانبان فى الأصل جانب واحد ووحدتهما هى عظمة الأسرار ، وإذا أدركنا هذا السر فسوف تفتح أمامنا أبواب الروحانية[١] .

ويعد كتاب "تايوته كينج" لـ لايوتزه من أعظم كتب العالم ، وهذا الكتاب الذى يعد من أهم كتب الفلسفة فى العالم ، كتبه فى لغة شاعرية ، يشتمل على تعبيرات عرفانية رمزية .

ويتحدث لايوتزه بالرمز والإشارة ويستخدم الاستعارات العجيبة والغريبة ، ويوجز فى إبراز أفكاره الفلسفية إلى حد الإعجاز لدرجة أنه من الصعب على الصينيين

(١) تايو فى الأساس طريقة للتفكير ! لأنه من وجهة نظر أنصار مذهب تايو أن التفكير أمر سطحى وهو مفيد فقط فى المناقشات وأن أغلب أمور الحياة ضررها أكثر من نفعها .
نقلاً عن كتاب "مشرق زمين كاهواره تمدن" أو بلاد الشرق مهد الحضارة . (المؤلف)

أنفسهم أن يفهموا كتابه . ومن وجهة نظر لايوتزه أن الحياة البشرية تهبط من السماء إلى الأرض ، وأنه يجب على الإنسان الذى يعيش فوق سطح الكرة الأرضية أن يعود إلى أصله ثانية ، وأن طريق العودة إلى ذلك المكان مرتبط بممارسة الرياضة الروحية وتهذيب النفس .

ويدعو لايوتزه أتباعه مراراً إلى الزهد وممارسة الرياضة ، وهذه مقولته العجيبة الشهيرة : عدم عمل أى شىء ينجز كل الأمور؟ !

وقد كان لايوتزه عارفاً وأحد مصطلحاته الفلسفية : Wu- Wei معناه : (لا تفعل شيئاً) .

ولا يقصد لايوتزه بذلك أن يكف الشخص يده عن العمل وأن يتكاسل عن العمل، ويرى أنه يجب على الإنسان أن ينسجم مع روح العالم كأنه لا ينفصل عنه ، وأن ينجز وظائفه بدون أى اعتبار للنتيجة أو المقابل . وبعبارة أخرى يجب على الشخص ألا يكون له مصلحة أو غرض شخصى فى أداء وظائفه . ويشير لايوتزه بهذا الشكل لا تفعل أى شىء من باب المصلحة الشخصية واتحد مع الإرادة السرمدية حتى تنجز كل أمورك ، ويقول أيضاً: دع كل الأشياء تسير فى طريقها الطبيعى ولا تتدخل فى شئنها ، وهو يرى أنه حينما تترك الأشياء فى أمورها الطبيعية فى الحركة والسكون فإن الإنسان ينجز مهامه دون ثرثرة أو تباهٍ وأنه يجب على الإنسان أن يتولى أموره بنفسه ولا يترك للأغراض والمصالح الشخصية فرصة لكى تتمكن من قلبه .

ويرى لايوتزه : أن الحكومة وحدها هى التى يمكن أن تنفذ مثل هذه الفلسفة فى المجتمع ، وأن الحكومة يجب أن تدار بأيدى العقلاء ، وأن العقلاء وحدهم هم القادرون على أن يخلصوا الإنسان من طموحاته غير المحدودة ، ومن ثم تفتح أبواب التحرر أمام الناس جميعاً .

ويشكو لايوتزه من أن الناس يغضون الطرف عن "الأصل" وينظرون فقط إلى الفرع أو الظل ، أو يبحثون عن الفضائل التى يكون ظاهرها جميلاً، بينما يولى لايوتزه أهمية كبرى إلى ثلاث فضائل قيمة وهى : الشفقة والاقتصاد والتواضع، ويقول فى هذا الصدد : بالرحمة يمكن أن أكون سخياً ، وبالتواضع يمكن أن أكون زعيم الناس .

ويرى لايوتزه أنه لا يجب السعى فى الحياة من أجل النجاح ! لأن الحياة عندما تمر بسرعة تنتهى بسرعة وأن ذلك الذى يسعى كثيراً فى الحياة يهلك سريعاً ، إذ إن

الرياح العاتية لا تستمر طويلاً حتى الفجر وهى مثل المطر الذى يشبه السيل سرعان ما ينقطع عن التواصل . ومن نصائح لايوتزه الأخرى : بدلاً من أن تبحث عن عيوب الآخرين يجب على كل شخص أن يسعى إلى أن يتخلص من عيوبه هو ويدع الآخرين لحالهم .

ويقول لايوتزه : لمنع المنافسات الشريرة لا ينبغى إعطاء المناصب الكبرى للأشخاص البارزين ، وللحد من شيوع السرقة بين الناس لا ينبغى رفع قيمة أية سلعة حتى لا تصبح نادرة . ويوصى أيضاً بالتقليل من رغبات القلب فيقول : إن الشخص الذى يريد أن يكون ملبى الرغبات بحيث أنه يريد أن يحقق كل ما يشتهى هو شخص طماع وغير محبوب .

ويرى لايوتزه أن أسمى أنواع الخير مثل الماء الذى تنتفع به كل المخلوقات دون صراع ، ويجعلنا إما أذلاء أو أعزة فى كل مكان .

ويرى لايوتزه أن الاطلاع الزائد غير مهم ، بل ضار ! إذ إن الشخص الذى يحصل العلم كثيراً يتسبب فى اضطراب حياته[1] ! وتصبح أنشطته مضرة وغير سالمة وإن تحصيل العلم الزائد قد يتسبب فى حيرة الإنسان وشقائه .

وإن الحياة السعيدة ليست فى تهذيب العقل ، بل فى التأمل فى الطبيعة وفى ما وراء الطبيعة .

وأسمى أنواع العلم فى نظر لايوتزه يوجد فى أقرب مكان من الإنسان وهو القلب، وكل من عرفه أصبح يمتلك أسمى العلوم ، وكلما ابتعد الشخص عن معرفته زاد جهله حتى ولو كانت اطلاعاته كاملة فى جميع الأشياء .

وأفضل حكومة فى نظر لايوتزه هى الحكومة التى تطغى فى الحكم ، وأفضل حاكم هو من تحرر من قيود الشهوات المختلفة .

(١) لاشك فى أن فكر هذا الفيلسوف يخالف فى كثير من جوانبه المنطق والعقل وفلسفات كبار الفلاسفة المعروفين فى العالم ، هذا فضلاً عن أن استنتاجاته غير دقيقة . (المترجم)

ويرى لايوتزه أن الضعف هو القوة وأن القوة هى الضعف ، ولإثبات هذا الرأى يقول : إن الإنسان عندما يولد يكون رقيقًا ولطيفًا إلى حد كبير ولكن فى أثناء الموت يصبح جافا وغير لطيف .

وكل الأشياء - حتى الأشجار مثلاً - تبدو فى بدايتها لطيفة وبعد ذلك تصبح خشنة وصلبة ، وأوضح دليل على ما يحدث فى الأشجار من تغيرات فتكون عرضة للسقوط والانتهاء عندما تصبح الشجرة قوية جدًا فهى معرضة لأمرين : الأول إما أن ريحًا تقضى عليها ، أو أن يقوم الإنسان بقطعها بإحدى الأدوات المخصصة لذلك .

ومن كلماته

إن الثقل أساس الخفة ، والسكون أساس الحركة ، والسكون بداية التعقل ، فإذا أردنا أن نضعف شيئًا فعلينا أن نقويه أولاً ، فإذا أردنا أن نلقى شيئًا على الأرض فيجب أن نرفعه أولاً ، والشىء الذى نريد أن نأخذه من أحد يجب أن نعطيه إياه أولاً .

ومن أفكاره الأخرى

دعوا الزهد والعبادة جانبًا وتحرروا من قيود العقل ، وحينئذ سوف يستفيد الناس أضعاف المرات من وراء ذلك ، وإن الناس أيضًا سوف يهتمون بتوثيق العلاقات الطيبة بين الأبناء والآباء والعكس ، وتحرروا من فكرة استخدام الحيلة والتدبير، ودعوا المنفعة جانبًا وسوف يزول اللصوص وقطاع الطرق من المجتمع .

كنفوشيوس ولايوتزه

ويقال إن كنفوشيوس قابل لايوتزه ذات يوم ودار بينهما حديث حول الحكمة ، فقال لايوتزه : إن الناس الذين تتحدث فى شأنهم ماتوا جميعًا وتعفنت عظامهم وأصبحوا ترابًا ، وبقيت فقط كلماتهم ، ودع السلوك المليء بالغرور وتحكم فى إرادتك

ورغباتك المتعددة ، ولا تتعب نفسك كثيراً فى سبيل الآخرين إذ إنهم لن يتألموا لآلامك ، وهذا ما يجب أن أقوله لك .

وآثر كنفوشيوس الصمت وبعد أن عاد إلى بيته أثنى على لايوتزه قائلاً : اعلم كيف تتحدث الطيور وكيف تسبح الأسماك وكيف تسقط الحيوانات فى الفخاخ ، ولكن العدّاء يمكن أن يتعثر، والسباح يمكن أن يصاد بخطاف ، ومن الممكن أن يسقط الطائر بسهم ، ولا أدرى ماذا أقول فى شأن الأفعى التى تمر بين السحب وتمتطى صهوة الريح وتصعد إلى السماء ، اليوم رأيت لايوتزه ولا يمكن أن أشبهه بشىء غير الأفعى .

وتعارض أفكار لايوتزه أفكار كنفوشيوس تمامًا ؛ فقد كان لايوتزه عارفًا وكان يحب العزلة ولكن كنفوشيوس كان رجلاً اجتماعيًا وسياسيًا ، ويعارض لايوتزه تأسيس الحكومة ويقول إن الشعب يمكن أن يكون أسعد حالاً بدون الحكومة ، لأن الظلم عندما يزيد تزيد ديكتاتورية الحكومة ويزيد تعسفها بالشعب .

وكان لايوتزه يعارض العلم ويمدح الجهل ! وكان يظن أنه كلما قل تحصيل العلم قلت الجرائم ! ويرى أن مصدر الفساد فى التربية وأن التحرر من ذلك يجعل الناس مستنيرى القلوب وليس العقول .

والاختلاف الجوهرى بين لايوتزه وكنفوشيوس أن الأخير لا يحمل أتباعه فوق طاقاتهم ، ولكن لايوتزه يولى أهمية كبيرة بحب النفس ويعتقد أنه يجب على الشخص أن يتغلب على نفسه . وقد رويت حكاية على سبيل المثال فى هذا الشأن ، إذ قال شخص لصديقه : كيف أصبحت بدينًا إلى هذا الحد ؟ قال الصديق : أجل أصبحت بدينًا لأننى أخيراً انتصرت فى "حرب" ، فسأل الصديق : ماذا تعنى ؟ فقال : كنت إذا جلست فى البيت شُغلت بمطالعة أحوال الملوك والقدامى ولم أكن أمدح شيئًا غير الخير ، وبعد ذلك خرجت من البيت ورحت أتأمل الدنيا ورأيت أننى خدعت بحطام الدنيا وقد حدث نوع من الصراع داخلى ، ومن هنا أصبحت أكثر نحافة يومًا فيومًا حتى إننى أخيراً عشقت العزلة أكثر من تحصيل الثروة والنفوذ ، ونتيجة لذلك أصبحت يومًا فيومًا بدينًا وسبب بدانتى هو أننى تغلبت على نفسى . ولـ "لايوتزه" نظرية خاصة فى شأن طول العمر ، ويرى أن أى شخص يريد أن يطول عمره يجب عليه أن يتنفس أنفاسًا منظمة وعميقة ،

وأن يبتلع ريقه كل ساعتين ثلاث مرات ويثبت نظراته وأن يجلس بلا حركة وأن يركز قواه الدماغية نحو نقطة محددة . وقد وردت أفكار لايوتزه فى شكل كلمات قصار ، وقد كُتبت فلسفة لايوتزه بهذا الشكل وسوف ننقل فى هذا المقام هذه الأفكار من كتابه .

أفكار لايوتزه

(١)

افعل كل الأشياء فى الطبيعة فى هدوء وصمت ، وعلى الناس أن يعلموا أنهم لا يملكون شيئًا وأن يؤدوا مهامهم فى صمت ، واطوِ الطريق الذى فى قلبك ولا تتباه بعملك فى الدنيا ، وتقهقهر حتى يقدموك ولو تظاهرت فلن تتقدم الآخرين .

(٢)

لو أن الحكومة تُحسن معاملة الولايات التابعة لها فسوف تخضع لها تلك الولايات مثل الأنهار التى تجتاح السدود الجبلية ، إذ إن تلك الولايات تدرك أن زمام أمورها بيدها وأن الحكومة بمثابة من يلى زمام أمور الناس .

(٣)

من كان فقيراً نجح ومن كان غنيا ضل .

(٤)

إن العالِم لا ينتظر الثناء على أعماله ليدرك القيمة والجدارة ، بل عليه أن يقوم بها فى صمت .

(٤)

هناك ثلاثة أشياء نفيسة اهتم بها لقيمتها :

الشىء الأول : المودة ، والثانى : الاقتصاد ، والثالث : التواضع ، وهو الذى يكون باعثًا على أن تحقق مقام الزعامة . كن رحيمًا تكن شجاعًا ، وكن مقتصداً تكن حراً ، ولا تقدم نفسك حتى يمكن أن تحقق مقام الزعامة .

(٦)

المودة بالنسبة للمهاجم تحقق الانتصار وبالنسبة للمدافع تحقق التحرر .

(٧)

إن المحاربين ليسوا أفضل الجنود بل أفضلهم الذين لا يغضبون ، أعظم الفاتحين في العالم هم الذين يتغلبون على خصومهم بلا حرب .

(٨)

يشغل العالِم نفسه بعدم جدوى عمله في حين تنتقل تعليماته في صمت إلى مسامع الآخرين .

(٩)

كونوا آملين أو لا تكونوا، تعلمون أو لا تعلموا حتى تصلوا إلى الهدف الذى افتقده الإنسان ، ولا تثرثروا ودعوا الأمور تسير فى أعنتها .

(١٠)

الفشل أساس النجاح وعن طريق الفشل نحقق النجاح(١) .

(١١)

نكون ضعافًا ولطافًا فى أثناء الولادة ، ونكون أقوياء وشدادًا فى أثناء الموت ، وهذه حال الأشجار ؛ وبناء على هذا فالشدة والقوة موت ! والرقة والضعف حياة !

لا يوجد شىء فى الدنيا ألطف من الماء ومع هذا فإن الماء أقوى من جميع الأشياء ، ويمكن أن تُفتت الصخور قطعة قطعة بالماء .

(١٢)

إن الفضاء الخالى كالصحن المفيد ويقام فيه البيت ذو النوافذ ، والفضاء الخالى من حجرات البيت هو الجزء المفيد من البيت ؛ وبناء على هذا فإن الفائدة تحدث عن طريق الأشياء التى ليس لها وجود خارجى .

(١) يقصد الكاتب هنا أن التجربة التى يمر بها الفرد عند إخفاقه وفشله تجعله قويًا فيحقق النجاح بعد ذلك. (المترجم)

(١٣)

إن الشخص الغنى هو الذى يدرك متى يكون مستغنيًا .

(١٤)

إن الشخص الذى يعرف الآخرين شخص ذكى ، ولكن الذى يعرف نفسه شخص مستنير القلب .

(١٥)

يمكن القول إن الشخص الذى لا يعمل لذاته يدرك جيداً قيمة حياته .

(١٦)

الرجل الطيب معلم الرجل السيئ ، والرجل السيئ مادة خام يهذبها الرجل الطيب ، ولو أن رجلاً سيئًا جهل قدر معلمه أو أن رجلاً طيبًا كره الرجل السيئ ، فإن كليهما ضال حتى ولو كانا ذكيين .

(١٧)

إن الحديث الذى يقوم على الحقيقة يفتقر إلى الجمال، والحديث الجميل يفتقر إلى الحقيقة. الأخيار لا يسيرون وراء المنطق الجدلى إذ إن أهل الجدل ليسوا أخياراً ! والعلم الحقيقى لا يعنى معرفة أسرار كل الأشياء وأولئك الذين لا يعرفون كل شيء ليس لديهم علم حقيقى .

(١٨)

لا يوجد ذنب أكبر من طلب الحياة ، سوء الحظ ليس أعظم من عدم الرضا ، ولا توجد صفة أسوأ من الطمع ، والشخص القانع هو دائمًا فى غنى .

(١٩)

سأكون طيبًا مع الإنسان الطيب ، وسأكون أيضًا طيبًا مع الإنسان السيئ .. ولن أعتبره نصف طيب .

(٢٠)

يمكن القول إن الشخص الغني هو الذى يعتبر نفسه دائمًا في غنى وعدم احتياج .

(٢١)

إن العاقل ليس فقط من لا يميل إلى الشهرة ، بل يهرب منها .

(٢٢)

إن الزاهد ليس بائعًا للزهد والعاقل لا يقول إنه عاقل .

(٢٣)

إن مزج الماء بالطين يجعل الماء ملوثًا أكثر ، ولكن لو تركت الماء لحال سبيله فسيظل نقيًا وصافيًا حتى ولو ترسب الطين داخله ، ولو تركت العالم الإنسانى لحال سبيله فإنك تخلصه من كل ما يشوبه .

(٢٤)

الحكيم لا يفهم ما هو العشق فى الحياة ، وبالنسبة للحكيم الموتُ والحياة وجهان لعملة واحدة .. ومن هنا فإن الحكيم لا يخشى الموت ولا الحياة .

(٢٥)

إن من يعرف نفسه مستنير القلب ومن يعرف الآخرين ذكى ، ومن يتفوق على الآخرين قوى ومن يتفوق على نفسه أقوى .

(٢٦)

إن العالم الذى يحاصر الشرور البسيطة بمجرد ظهورها ؛ سواء كانت هذه الشرور نابعة من داخله أم من خارجه ، يجتث بذرة الشر ويستأصل غابة (من الشر) من الممكن أن تتكاثر بعد ذلك .

(٢٧)

على الرغم من أن الأسماك تعيش فى عمق المياه فإنه يمكن اصطيادها بالخطاف ، وعلى الرغم من أن الطيور تطير فى الجو فإنه يمكن إسقاطها بالسهم ، والشيء الوحيد البعيد عن متناول الأيدى هو قلب الإنسان ، إذ يمكن أن نقيس أو نحسب الأرض والسماء ، إلا إن قلب الإنسان هو الشيء المجهول .

(٢٨)

لا تسعَ أبداً إلى أن تصبح الرجل الأول فى المملكة .

(٢٩)

قال "لايوتزه" لـ "يانك تسه" تلميذ كنفوشيوس : إن النقطة الملونة فى جلد النمر والفهد والقرد الذكى قد تكون سبباً فى صيده .

(٣٠)

إن الأخلاق الكريمة مثل المياه الجارية تفيض خيراً عما حولها من إنتاج وخيرات .

(٣١)

إن الشخص الذى يستسهل الأمور سوف يجدها صعبة بعد ذلك ، بينما العالم يقدِّر الصعوبات وفى النهاية لا تقابله أية صعوبة .

(٣٢)

لو كنتم تعرفون ولا تشعرون بمعرفتكم فسوف تصلون إلى أسمى المقامات .

(٣٣)

ليس الميلاد بداية وليس الموت نهاية .

(٣٤)

كلما تزيد القوانين يزيد عدد اللصوص وقطاع الطريق !

(٣٥)

سنكون أوفياء مع الأوفياء وسنكون أيضًا أوفياء مع الخونة حتى يصبحوا أوفياء .

(٣٦)

الروح والمادة شيء واحد ، وفى هذه الوحدة تكمن الأسرار .

(٣٧)

إن السماء والأرض أبديتهما مستمرة ، وإن الشيء الذى يكمن وراء ديمومتهما هو الذى يمنحهما الحياة .

(٣٨)

حينما يوجد الجنود يوجد (السيف) والعتاد .

(٣٩)

عندما نستطيع أن نتجنب الخطر فإننا نعلم أى وقت يجب أن نتوقف فيه .

(٤٠)

كلما زاد السلاح فى أيدى الناس انتشر الظلم والشر فى الحكومة والأسرة ، وكلما زادت الفنون زادت الاختراعات ، وكلما زاد انتشار القوانين زاد عدد اللصوص وقطاع الطرق .

(٤١)

الغفلة عن العلم الحقيقى مرض .

(٤٢)

يمكن رؤية المرض بالمرض ومن ثم يسهل التخلص منه .

(٣٤)

كل شيء فى الطبيعة يعمل فى صمت ولا يملك شيئًا ولا يدَّعى أنه يعمل ، وكل شيء فيها على هذا النحو يقوم بعمله ونراه فى راحة ، وعندما يصل شيء إلى الكمال

فإنه يعود إلى أصله ؛ ومعنى العودة إلى الأصل الراحة أو تحقيق المصير ، وهذه العودة هى قانون المخلوقات ، وإدراك هذا القانون حكمة .

(٤٤)

لو كنت مسالمًا فسوف يكون جميع الناس فى الدنيا مسالمين معك ، عامل المسيء برحمة فأنا أحسن للأشخاص المحسنين بالقدر نفسه الذى يحسن به الآخرون ، وأخلص لهم وفقًا لإخلاصهم وأخلص لهم أيضًا على الرغم من عدم إخلاصهم لى ، وبهذا الأسلوب يسود الإخلاص .

(٤٥)

إن أولئك الأشخاص المهرة لا يبحثون[١] والأشخاص الذين يجادلون ليسوا مهرة ! وعندما نغض الطرف عن التعليم لا نضار فى شيء ، وإن العارف يبعد دائمًا الناس عن الجدل والهوس ، والعارف يمنع أهل العلم عن اتباع العقل وحده كوسيلة للعمل والعلم ! إن السابقين اتبعوا "تايا" جيداً وهم لا يقصدون أن يجعلوا الناس مستنيرين بل يريدوا أن يحفظوا لهم بساطتهم وجهلهم، وتعثر أمر الحكومة بسبب زيادة العلم[٢] .

چوانك تزه

چوانك تزه تلميذ لايوتزه، ومن أفكاره :

(تأتى الحياة ولا يمكن ردها، وتذهب الحياة ولا يمكن استبقاؤها، ولكن وأسفاه ! فإن العالم يظن أن تغذية الجسم ليست كافية للحفاظ على الحياة ، وعلى الرغم من أن تغذية الجسم ليست كافية للحفاظ على الحياة ولكن لابد منها) .

(لو أن أحداً لا يريد أن يعتنى بجسده فمن الأفضل له أن يهجر الدنيا وينعزل ؛ لأن الإنسان بالعزلة وترك الدنيا يتخلص من متاعب الحياة) .

(١) يقصد الكاتب بكلمة (البحث) الجدل العقيم . (المترجم)
(٢) لاشك فى أن بعض هذه الأفكار يعارض طبيعة الأشياء والعقل السليم حتى وإن حاول صاحبه أن يؤوله . (المترجم)

(إن قوة الحياة تمنح الجسد الروح وللاهتمام بهذه القوة يجب المعاناة ، وإن الإنسان يرحل عن هذا العالم مثل شعاع شمس يمر من إحدى الثغرات ؛ أى أن الإنسان لا يعيش أكثر من مجرد لحظة فى هذا العالم ، ولا يوجد أى إنسان أتى من عدم ولا يعود إليه) .

وكان "چوانك تزه" نموذجًا للأشخاص الذين يُفْرِطـون فى ممارسة الرياضة ، وفى شأن التأثير العظيم لممارسة الرياضة وضبط النفس رووا عنه هذه القصة : قيل إنه ظهر على أنف رجل "بقعة" لم تتعد جناح ذبابة فى شكل جرح ؛ فاستدعوا جراحًا لإزالة هذا الجرح ، وقد لاحظ المريض فى أثناء ذلك أن روحه المعنوية قد سهلت الأمر على الجراح فى أن يزيل تلك "اللحمية" بدون أن يؤذى المريض ، وذاع صيت هذا الجراح فى المدن بعد نجاحه فى الأمر المذكور ، حتى إن أحد الأمراء قد استدعاه حتى يزيل له قطعة جلد زائدة فى أنفه ، فرفض الجرّاح طلبه وتعلل بهذا السبب قائلاً : إن العملية الناجحة ترتبط أكثر بالروح المعنوية والسيطرة النفسية للمريض أكثر من مهارة الجراح ، وأخشى ألا تكون للأمير نفس الروح المعنوية عند إزالة الجراح .

عندما حان أجل "چوانك تزه" رأى تلامذته أن يشيعوا جثمانه فى موكب عظيم ولكن "چوانك تزه" قال : سواء كان جثمانى فى السماء أم الأرض وسواء كان مع الشمس والقمر والنجوم وسواء حمله المشيعون إلى مثواه الأخير فإن هذا الأمر ليس مهما ، فقال تلامذته : نخشى أن تأكلك النسور ! فأجاب چوانك تزه : لو ألقيتم جسدى على الأرض فسوف تأكله النسور ، ولو دفنتموه فى الأرض فسوف يأكله نمل الأرض ، فلماذا تريدون أن تأخذوا جثمانى من فم واحد وتعطوه لآخر ؟

وقد رويت حكايات كثيرة فى شأن چوانك تزه ومن بينها : ذات يوم كان چوانك تزه بجوار نهر "بيو" مشغولاً بصيد الأسماك وإذا بموظفى الحكومة يخبرونه بأن جلالة الملك يستدعيه حتى يتولى شئون الدولة . وبينما كان "چوانك" يمسك بخطاف صيد الأسماك فى يده استغرق فى التفكير وهو ينظر إلى الماء وقال : يقال إن فى "شى" سلحفاة مقدسة ماتت منذ ثلاثة أعوام وأن الشاه يحتفظ بهذه السلحفاة فى قصره فى صندوق ذهبى، والآن افترضوا أنه قبل أن تموت السلحفاة اقترحوا عليها إما أن تموت وتعرض عظامها على الملأ من باب التقديس أو أن تواصل حياتها القذرة وسط الطين والاحتكاك بالأحجار والصخور ... فى رأيكم أى الاقتراحين سوف تفضل هذه السلحفاة ؟

قال الموظفون : من المعلوم أن السلحفاة سوف تختار حياتها المتواضعة بين الأحجار عن الموت وعرضها للتقديس ! فقال چوانك تزه : وأنا أيضًا أفضل الاعتكاف والعزلة عن الحضور إلى القصور(١) .

الأهداف العملية للفلسفات الصينية

إن الفلاسفة الصينيين قد أولوا الإلهيات أهمية كبرى إلا أن هذه الإلهيات كانت تقوم عندهم على أساس ضعيف وهش ، وقد قضوا حياتهم فى سبيل إبراز الطريق العملى للصراع مع مشكلات الحياة .

حتى إن چوانك تزه - الذى كان مثاليا - كان يرى أن الاستدلال دليل غير واضح للرؤية ، وهو مثل أستاذه "لايوتزه" كان يعتقد أنه يجب على الشخص ألا يبالى بالعلم وأن يتحدث عن الحكمة العملية دائمًا .

وقد تقدم الصينيون فى الحكمة العملية إلى حد أن رجلاً مثل شوشينج (Hsu- Hsing) ظهر بينهم وكان يعيش فى عهد منسيوس، وكان يرى أنه يجب أن تترك رئاسة الحكومة للحرفيين ، ويعتقد شوشينج أن من حق الشعب قانونًا أن يثور ضد الحكومات الفاسدة وأن يطيح بها .

وكان يعتبر القادة الذين يشعلون الحروب (مجرمين كبارًا) ويعد الحرب جرمًا ، وكان "شون تزه" Hsun tze يعتقد أن علاج آلام البشر فى محو الغرائز العمياء الحيوانية ويقول : (لما كان الملوك العقلاء القدامى يدركون أن الذات الإنسانية سيئة فقد وضعوا قواعد الخير والإنسانية ووضعوا كذلك القوانين والخطط لتهذيب العواطف وتصحيح مسارها حتى يمكن لها أن تنسجم مع الأخلاق) .

وكان منسيوس يرى أن البشر ذوو طبيعة خيِّرة وأن فسادها يأتى من الخارج ، وهو مثل أفلاطون يرى أن الحكومة الديمقراطية غير مفيدة للناس وأن ما يلزم الناس فقط هو حكام عقلاء وأمناء .

(١) من أقوال چوانك تزه : صحح أخطاء الأمير ، وعندما يحسن الأمير الحكم يستقر العرش . (المؤلف)

ويعتبر منسيوس الفقر والجهل والبطالة هى العوامل الثلاثة الأصيلة للاضطراب ، ويعتقد أن الحكومة هى المسئولة عن تعاسة الناس لأن الأمور الاقتصادية هى أساس حياة الشعب وهى فى يد الحكومة ، وعندما تحسن الحكومة تقسيم المال وتوزيعه بشكل صحيح فإن حياة الشعب لا تسوء؛ إذ إن عوامل الفساد والشقاء من فقر وبطالة وجرائم وعدم استقرار كلها ترتبط بالعوامل الاقتصادية وهى التى قد تسوق الشعب إلى الفساد والشقاء .

وقد لعب كنفوشيوس فى الشرق الأقصى دور أرسطو ، حتى إنه يمكن أن يقال بجرأة إن حكمة كنفوشيوس ظلت ما يقرب من ألفى عام مسيطرة على العقل الصينى، كما قام كنفوشيوس أيضًا بدور ميرابو ؛ أى أنه سعى إلى تهذيب وإصلاح الهيئة الحاكمة بحثٍّ الشعب على طاعتها وألا يثور الشعب ضد الحكومة .

وقد كانت فترة كنفوشيوس فترة اضطراب وصراع فى الصين ، وهذه الفترة يمكن تسميتها بـ (فترة أزمة إقطاع الشرق الأقصى) .

وقد تعرضت الصين لنزاعات داخلية شديدة ، فمن جانب كان كل أمير فى إمارته يسعى إلى أن يزيد ممتلكاته وذلك بالسيطرة على إمارة أخرى ، ومن جانب آخر كان يسعى الناس إلى أن يتخلصوا من القيود التى كبلتهم بها الهيئات الحاكمة ، وذلك حتى يحرروا أنفسهم .

وبناء على هذا ظهر فى هذه الفترة نوعان من الصراعات ، وهما كما يلى :

١ – النزاع بين الإقطاع لزيادة القدرة الشخصية فى السيطرة على إقطاعات أخرى .

٢ – الحروب والصراعات التى حدثت بين الإقطاع وملاك الأراضى ، الذين كانوا يسعون إلى أن يتخلصوا من دفع الضرائب والإتاوات حتى يهيئوا لأنفسهم حياة مرفهة وناعمة .

ولا يمكن أن ننسى أنه ظهر فى ذلك الوقت بعض المستنيرين الذين طرحوا أفكارًا جديدة حتى يحثوا الناس ويدعوهم للثورة .

وفى تلك الأثناء دخل كنفوشيوس معركة مثل غاندى وسعى بإحياء العادات القديمة والمراسم الدينية إلى أن يمنع الشعب من الثورة وقد جعله أسير الهيئات الحاكمة المتسلطة لمدة ألفى عام .

وكان يسعى حكيم صينى آخر عن طريق آخر إلى مواجهة الهيئات الحاكمة بالقوة فى عصر كنفوشيوس ، وهذا الفيلسوف مثالى ١٠٠٪ وهو لايوتزه الذى تذكرنا أفكاره بجان جاك روسو ، وكان يقول : لا ينبغى للحكومة أن تتدخل فى شئون الناس ولا أن يشعر الناس بوجودها . وكان يعارض التمدين والحياة المدنية ، وهو مثل روسو الذى كان يعارض العلم والفن ويؤازر حياة البداوة والقرية .

وعلى عكس كنفوشيوس ولايوتزه فإن مايوتسو الذى كان يدعى "موتى" كان رجلاً ثوريا يعيش فى القرن الخامس قبل الميلاد وكان يعلم الاشتراكية المسيحية وكان يقول : يجب أن لا يكون هناك (أنا ونحن)، ويجب أن يعيش الجميع كإخوة . وقد أرسى أفكاره على أساس الأخوة والمحبة العالمية .

وكان مايوتسو يعارض الإقطاع معارضة شديدة وينتقد الحياة اللاهوتية انتقاداً لاذعًا ، وهو على عكس كنفوشيوس لم يكن يولى أدنى اهتمام بالعادات والتقاليد والقوانين القديمة ، كما حارب الإقطاع ، ولكن نظراً لضعف الناس وقوة الهيئات الحاكمة فإن فكره الثورى لم يُجدِ نفعًا وظل مذهب كنفوشيوس هو السائد والحاكم .

طريق الآلهة

الشيء الغريب أن اليابان على الرغم من أن حضارتها موغلة فى القدم (ثلاثة آلاف سنة) إلا أنه ليس لديها فلاسفة عظام مثل لايوتزه وبوذا ومانى ، وطيلة تاريخ هذا الشعب لا يشاهد لديه فلاسفة حتى ولو من الدرجة الثانية ، وكل فلسفة اليابان تنحصر فى مذهب غريب يدعى "شينتو" أو "طريق الإله أو الآلهة"[1] ولهذا المذهب ثلاثة أشكال : عبادة أجداد الأسرة ، وعبادة أجداد العشيرة ، وعبادة السلاطين وآلهة القوم .

(١) شين توويا = shentao أو (kami-michi) .

وليس غريبًا إن وجد فى اليابان ملك يصل إلى مقام (نيجى) أى (ابن الله) وسلطان السماء ويسمى ميكادو الباب العظيم، وقد كان اليابانيون يعبدون الشاه عبادة حقيقية وما زالوا ، وكلمة شاه فى اليابان لها معنى ومفهوم خاص ربما لا يوجد فى أى لغة أخرى ، فالملك بالنسبة لهم ليس فقط الشخص الأول فى المملكة بل هو (ظل الله) ومظهر إرادة الشعب ، والحكم الذى يصدره هو فرمان من الله والخروج على ذلك [illegible] جرم عظيم .

ويأتى فى اليابان بعد عبادة الملك عبادة الأجداد ، ويحظى لديهم الشهداء – خاصة الشهداء الأبطال الذين استشهدوا فى سبيل الوطن – باحترام زائد ، ولما أن الآلهة مقدسون لديهم فليس هناك فخر بالنسبة لليابانيين أكثر من فخر الاستشهاد فى سبيل الوطن ، فهذا يحشرهم فى زمرة الأبطال ، لأن الشهيد بهذا الشكل سوف يصل إلى مقام الألوهية بعد ذلك ، ويمكن فهم سر تقديس الوطن ونضج اليابانى غير العادى فى ضوء هذه العقيدة السابقة نفسها .

ومذهب شين تو أو (شينتو) من أبسط المذاهب وأجملها، ويعلم هذا المذهب تقديس أنواع الجمال فى الطبيعة ، ولا يتضمن هذا المذهب أى نوع من المراسم المعقدة ، ولا يُعنى بقضية الجنة والنار ، وليس فيه طبقة رجال الدين ويخلو من العبادة والمراسم المذهبية ، وليس لهذا المذهب كتاب مقدّس ، وشعاره هو : اتبع ما فى الطبيعة وكن وفيا للحكومة والشاه . ولا يؤمن أتباع هذا المذهب من اليابانيين بالله أو بالمعاد ، وهم لا يعبدون الأوثان ، ومذهب شينتو مزيج من عبادة الحيوان (Zlatory) وعبادة الأشجار (Dentrolatory) وتقديس الروح (Animism) ، وعبادة الأرواح موجودة فى هذا المذهب إلى حد أن أحد النصوص الدينية القديمة يذكر أن الأشجار والأعشاب وحتى الصخور لديها قوة بيان (قدرة على الحديث) ويمكن أن تحدث الإنسان ! وفى الأساطير اليابانية القديمة تشكل الشمس والقمر والطوفان (أسطورة التثليث الإلهى) ، ويقال إن هؤلاء الآلهة هم أبناء إلهين آخرين هما : إيزاناگى (Izanagi) وإيزانامى (Izanami) وأما قصة ظهور هذين الإلهين فهى على هذا النحو : وفقًا للكتابات المقدسة اليابانية أن نيهونجى (Nihongi) فى بداية الخليقة قد خلق الآلهة والأرواح المتعددة فى الدنيا .

وحين اقترب الجيل السابع من الآلهة فإن الإلهين المذكورين ؛ الأول : إيزانامى وهو الذكر ، والثانى ايزاناگى وهو الأنثى قد تقابلا فوق جسر للسباحة فى السماء وقد شغلا بالحديث معًا ، وفى أثناء الحديث نظر الإلهان إلى أسفل فقال إيزاناگى : ليتنى كنت أعلم ماذا يوجد أسفل منا ، فأجاب إيزانامى وأنا أيضًا كنت أفكر فى هذا .

وقد رفع إيزاناگى حربته المرصعة بالجواهر وألقى بها دون تحديد هدفها ، فسقطت فى المحيط العظيم ، ولما رفع إيزاناگى الحربة ثانية شاهد فى عجب من أمره قطرة ماء قد تساقطت من الحربة ثم تحولت إلى ريح عاصفة هدأت بعد ذلك وتحولت إلى جزيرة[١] فقال إيزاناگى فى سعادة : تعال نذهب الآن ونعيش معًا فوق هذه الجزيرة .

وهناك أعدوا ثمانى جزر أخرى وأصبح لهما ثلاثة أبناء هم : ربة نوع الشمس وشقيقاها ؛ رب نوع القمر ، ورب نوع الطوفان .

وتسمى ربة نوع الشمس بـ "آماترا سو - أومى - كامى" (Amatrsu-omi-kami) وأصبح لها أبناء ، وحفيدها "جيموتنو" حيث أصبح أول إمبراطور لليابان ، ولم تنقطع ذريته حتى الآن منذ بداية حكمه ؛ لذلك فإن اليابانيين يعتقدون أن هيروهيتو الإمبراطور الفعلى لليابان أيضًا من أبناء الله !

(١) تسمى هذه الجزيرة اليوم (أونوجورد) onogoro .

القسم الخامس

فلسفة إيران القديمة

زرادشت[1]

ولد زرادشت سبنتمان بين يوروشسب ودغدو فى مكان يقع شرقى إيران بالقرب من ونجهرتى دارتيا[2] ، وفى العام السابع من عمره راح يحصل العلم والمعرفة واستمرت فترة تحصيله ٨ أعوام .

وفى تلك الفترة تعرضت إيران لحملة التورانيين ، وقام زرادشت فى هذه الحملة برعاية الجرحى وتقديم المساعدة للمحتاجين ، وكان فخوراً بأداء هذا العمل . وقد شغل لمدة خمسة أعوام بأداء هذه الأمور ، وبعد خمسة أعوام من الخدمة المذكورة عاد زرادشت إلى أبيه الذى كان مزارعًا ، وتزوج من فتاة تدعى هووى ، ومع أن زرادشت كان مرفهًا فى حياته فإنه كان غير راضٍ عن الظلم وعدم الاستقرار فى المجتمعات الإنسانية .

وقد شغل فى أغلب أوقاته بالتفكير فى شأن مسألة الشر وسر الوجود ، وفى النهاية أدرك مهمته السامية والتاريخية التى تقوم على إيجاد نوع من البعث فى إيران ، فذهب فى سن الثلاثين إلى جبل "سبلان" وهناك عاش فى عزلة حتى حصل فى النهاية على الجوهر الذى كان يبحث عنه .

فى بلاط الشاه

إن زرادشت الذى كان متحمسًا حماسًا زائدًا لتعليم الناس وتوجيههم قد ترك جبل سبلان وعاد إلى المدينة ، ولما كان الناس يعبدون الآلهة الآرية القديمة فإنهم

(١) كتبت كلمة زرادشت فى أكثر من شكل باللغة الفارسية مثل : زرادشت – زرتشت – زردشت – زارهوشت – زردهشت – زارهشت – زارتشت – زره دشت – وقد سمى زرادشت نفسه فى كتابه : (زرين شتر) ؛ أى الجمل الذهبى ! (المؤلف)

(٢) لقد ذكر أن التاسع عشر من سبتمبر يوم ميلاد زرادشت وأن عام مولده غير معروف ويظن أغلب الباحثين أنه كان يعيش ما بين القرنين العاشر والسادس ق.م . (المترجم)

لم يعبأوا بتعاليمه ، ولكن إرادة زرادشت القوية لم تضعف ، فتوجه إلى "بلخ" وهو يتسلح بعزم وإرادة قويتين إلا أن رجال الدين الذين رأوا أن زرادشت أصبح موضع اهتمام الشاه عارضوه ، بل أجبروه على أن يناقشهم لإثبات حقيقة مذهبه ، فتباحث زرادشت لمدة ثلاثة أيام معهم ، وفى النهاية تفوق عليهم ببراهين قوية وحثهم على أن يكفوا عن عبادة الأصنام وأن ينشروا تعاليمه التى كانت تقوم على عبادة التوحيد .

الحروب المقدسة

إن الانتشار المتزايد لمذهب زرادشت فى إيران أخاف التورانيين الذين كانوا يعبدون الأصنام .

وقد شن التورانيون حملة للقضاء على هذا المذهب الجديد ، وقد حاولوا لمدة ١٧ عامًا أن يقتلوا زرادشت وكانوا يفشلون فى كل مرة ، وذات مرة دخل أحد التورانيين على زرادشت وهو يتعبد فى المعبد وقتله[١] ، ولكن وفقًا لقول عدد من المستشرقين فإن مقتل زرادشت على يد التورانيين لم يكن له سند تاريخى .

مزايا تعاليم زرادشت

وقبل التحدث فى شأن تعاليم زرادشت نورد نبذة عن مزايا مذهبه ، وأعظم ميزة لمذهبه أنه يختلف عن أصول المسيحية ؛ فهو عملى ، فمثلاً لا يقول زرادشت : "أحسن للمسيئين" و "اغفر الإساءة" ، بل على العكس يأمر هذا المذهب أتباعه قائلاً حارب الإساءة بلا رحمة واقهر أعداءك ، فمذهب زرادشت مذهب جرىء وغير متسامح .

ويحث مذهب زرادشت أتباعه على أن يكونوا شجعانًا وأقوياء وهو المذهب الذى يمكن أن يكون هاديًا للإنسان طيلة مراحل حياته ومبعدًا له عن الوقوع فى الأخطاء .

(١) قتل زرادشت عن عمر يناهز الـ٧٧ عامًا . (المؤلف)

ويمتاز مذهب زرادشت من الناحية الأخلاقية بمنزلة سامية ، ويمكن القول بجرأة إن هذا المذهب يقوم على أسس أخلاقية قلما وجدت فى أى مذهب آخر .

ويعتبر "جيجر" مذهب زرادشت من أسمى وأعظم الأديان التى ظهرت حتى الآن. وقال "ماكدونالد" : إن مذهب زرادشت لا نظير له ، وهو مذهب يقوم على الأخلاق . ويكتب "مولتون" : إن زرادشت أول المفكرين الذين أقاموا مذهبهم على الأسس الأخلاقية ؛ إذ إنه سعى للبحث عن سماء جديدة وأرض جديدة تسود فيها الأمانة .

ويقول "كارساتلى" : "إن الرهبنة تفخر بذاتها بأن لديها أسلم وأعلى وأعقل أنظمة أخلاقية". وتعاليم زرادشت الأخلاقية جديرة بالاهتمام بسبب بساطتها وقوتها الخاصة، وقد شيد زرادشت قصر أخلاقه فوق ثلاث دعامات قوية ومحكمة هى: (هوخت ، هورشت ، وهومت) . والشيء المسلم به أنه حتى الآن لم يبسط أى فيلسوف أو مصلح اجتماعى علم الأخلاق مثل زرادشت ، وقد أوجز زرادشت فى هذه الأصول الثلاثة البسيطة أسمى التعاليم الأخلاقية التى شرحها الفلاسفة فى كتب ضخمة .

ويمكن القول بجرأة إن أى شخص يحافظ على هذه الأصول الثلاثة لن يكون ذا أخلاق طيبة فحسب ، بل سوف تتحقق له السعادة فى حياته .

والخدمة الجليلة لزرادشت فى شأن الأخلاق هى وصفه الذى ذكره عن الوجدان ، ويمكن القول إن زرادشت يعد أول معلم بين معلمى الأخلاق ؛ حيث استطاع أن يصف الوجدان وصفًا جميلاً[(١)]، ووفقًا لرأى بعض المستشرقين ، فإن تعاليم زرادشت هى أسمى وأنضج ثمرة للثقافة الأخلاقية الآرية ، وتتجلى فى مذهبه الروح الآرية المناضلة والرائدة فى أجمل صورة لها .

وليس من فراغ أن الفيلسوف "نيتشه" يؤلف كتابًا تحت اسم : "هكذا تكلم زرادشت" ويعتبره بطل كتابه الفلسفى العظيم ، كما أطلق على زرادشت اسم "نبى الفرس" ، ومع أن زرادشت الذى يعرفه "نيتشه" يختلف عن زرادشت الإيرانى كثيراً ، لكنهما يشتركان

(١) هكذا يتحدث المؤلف عن زرادشت دون أن يذكر لنا فى هذه الفقرة خاصة كيف وصف زرادشت الوجدان . (المترجم)

في صـفة واحدة وهى الروح الوثابة المناضلة . وعـلاوة على هذا فـإن لزرادشت مقـامًا شامخًا من حيث تنوين الأصول الأخلاقية الرفيعة ، كما أنه لا نظير له فى شأن إيجاد حل فلسفى لقضية الشر ، وقد شرح زرادشت موضوع "الشر" كما هو موجود فى الدنيا شرحًا وافيًا ، وهو يرشد إلى الطرق العملية لمحاربته ، وهو يرشد أتباعه لأول مرة عن وجود قـوتين ، الأولى : Ceutrifugal ، والثانية : Cenripetal ؛ أو قوتا الخيـر والشـر ، وهو يحث أتباعه على أن يحاربوا قوة الشر المتمثلة فى أودية الظلمة حتى تشرق شمس الغد المتلألئة ، ومن ثم يقضى نورها على ظلمة أهريمن فوق جبل الأرض .

ونرى أن رسـالة زرادشت المتفـائلة تبشـرنا فى كل مكان بشروق شـمس الغـد المتلألئة ، فنجد أن حكمتها القائمة على السعادة تبعث فينا الأمل والقوة القلبية حتى أصبحنا مثله أصدقـاء للعواطف ولكل ابتسامات الشفق وضحكات الصيف وبسمة السماء ، وأن كل شىء يبعث فينا الأمل فنعيش حياتنا فى سعادة وأمل غامرين .

كتاب گاتها(١)

وفضلاً عن أن زرادشت كان أعظم مصلح اجتماعى فى إيران فهو يعد أول شاعر إيرانى عظيم، ألف "كتاب گاتها" بقلمه ويحتوى على أسمى الأشعار العالمية ، وهذا الميراث الآرى العظيم هو الذى صمد كصخرة صماء أمام حوادث الزمان ، وهو بحر من الجوهر الذى تضم أصدافه أرق الإلهامات الشعرية الحكيمة وأنقاها .

وكتاب گاتها يشتمل على موضوعات فلسفية دقيقة ، وقد كان أعظم ذخيرة لمحاربة الكاذبين وأتباع أهريمن(٢) وما زال .

ويعد هذا الكتاب أعلى (قمة) للفكر الآرى الذى تسطع دائمًا فوق قمته البيضاء هذه الشمس الذهبية لأهورا(٣) فيزيد جماله على هذا النحو مئات المرات .

(١) بمعنى نشيد أو لحن أو شعر أو غناء ، وهذا الكتاب يشتمل على خمسة أقسام . (المترجم)
(٢) أهريمن : إله الشر والظلمة وقوة الشر .
(٣) أهورا مزدا : إله الخير ويمثل قوة الخير والنور .

ويقول "جلدنر" فى شأن هذا الكتاب :

يتحدث زرادشت فى كتابه "كاتها" بأسلوب خاص وخيال عميق ، وكل قطعة من هذا الكتاب تشتمل على فكرة وتتناول موضوعات، وهو فى كل لحظة يبرز فكره وكلماته بعيدة عن الزينة والصنعة ، ولا يوجد أى شىء فى كتابه غامض أو مضطرب ، وليس به حديث زائد ، وكل أحاديثه مقدرة ومحسوبة ، مفعمة بالروح والقوة، ولا تجد فيها حشواً أو مبالغة ، وكل ما يقوله زرادشت شىء أساسى ، والنزاع بين جوهرىْ : الخير والشر عبارة عن صراع هذه الدنيا نفسها ، والأجر فى هذه الدنيا مؤقت والجزاء الخالد فى الآخرة والعدالة يوم الحساب والأمل معقود على عفو الله ، ونعمة الجنة بعينها ، وكل هذه الموضوعات والأخيلة أفكار أساسية لزرادشت ، وهو دائمًا يتحدث عن هذه الأمور ، ولا يبتعد عنها . وفى النهاية فإن كل محتوى "كاتها" مجموعة من الأخلاق(١) .

ويقول البروفيسور "هرتل" : ترى فى كتاب "كاتها" رجلاً ذكيا غيوراً ، وهو دائمًا فى صراع من أجل الخير ، ويحدثنا بأسلوب مؤثر وودود ، وهو الشخص الذى ثار من أجل تقعيد الأخلاق ، ويعتبر الزراعة وتربية الدواب من أجل راحة الإنسان وإسعاده وهو يعارض خرافات قومه ، وهو لا يعد القوى الطبيعية من النعم .

ويمكن فهم قيمة الأخلاق جيداً عند زرادشت وكذلك الجدية وعلو مقام البشرية وفكره الفلسفى من كتابه "كاتها" ، حيث عبر عنها بقوة وجرأة كأسمى غاية .

وهو الرجل الذى سبق عصره ، فوضع فى هذا العصر القديم مذهبًا للتوحيد من أجل شعبه ، كما ترك وراءه فكرًا فلسفيًا بالنسبة للذات الإلهية وبالنسبة لمحاربة قوة الشر ، وأصول مذهبه ليست فى القرابين والرسومات الظاهرة ، بل إن أساس تعاليمه هو الخيال الآرى الطاهر الذى يمكن للناس أن يجعلوه دستوراً لحياتهم .

ويكتب "بول هورن" : "نحن نمدح فى كتاب "كاتها" المشاعر الشريفة وجرأة الإيمان وعلو المقام الأخلاقى لزرادشت" .

(١) ترجمة الأفستا ، ابن داود حول مقدمة (كاتها) .

ويكتب البروفيسور "رميه" : كانت حرية الخيال والغيرة والحمية المذهبية والذكاء الحاد والذوق الخاص دائمًا من خصائص الإيرانيين(١) ، وقد عبر زرادشت عن ذلك وعن الأخلاق تعبيرًا جيدًا في كتابه "گاتها". وهذه نبذة مختصرة عما ذكره المستشرقون فى شأن محتويات "گاتها" وسنلقى نظرة على أسلوبه :

كُتب گاتها على هيئة حديث بين أهورامزدا(٢) وزرادشت ، وهو يختلف فى صرفه ونحوه وسبكه عن سائر أقسام كتاب "الأفستا" ؛ فبعض كلماته قديمة جداً وهى تشبه الكلمات السانسكريتية فى كتاب "وداها" وبعض الكتب الهندية المقدسة ، ولأن زرادشت أورد معانيه بشكل خاص فقد استخدم كثيرًا من كلماته بمفهوم فلسفى خاص ولا يعد تفسيره صعبًا بالنسبة لجميع الأفراد .

وقد غدا كتاب "گاتها" ليس فقط موضع اهتمام العظماء من حيث المعنى بل من حيث اللفظ أيضًا ، ولكتاب گاتها مقام سام فى الأدب العالمى فى شأن وضوح البيان ووحدة الأفكار وجزالة الجمل وعذوبة الكلمات .

ولعل التفوق الحقيقى لـ "گاتها" على جميع الكتب هو فى الدفاع المستميت الذى يبديه هذا الكتاب عن الصدق ، والصدق فى نظر زرادشت كلمة مرادفة للحياة ، وكما أن الموت ليس قادرًا على أن يقضى على الحياة ، فإن الكذب مع حيازته لقدرات مهيبة تتمثل فى (أهريمن) إلا أنه ليس قادرًا على أن يمحو الصدق ، فإن هذا الصدق ينتصر فى النهاية على الرغم من انتصارات الكذب المؤقتة .

وحيث إن الانتصار النهائى يكون للصدق وإن (انتصارات) الكذب مؤقتة وكاذبة ، لذلك كان أعقل الناس هو من يتبع الصدق ، وعلى الرغم مما للكذب من فوائد لكننا يجب أن نتبع دائمًا الصدق وأن نضحى فى سبيله . ويرى زرادشت أن معنى موت الروح أى قتل العشق داخلنا ، والكاذب هو فى الواقع الشخص الذى يقطع صلته بالحياة ويرتبط بأهريمن أى الموت .

(١) لا يخلو هذا الوصف من عصبية قومية . (المراجع)
(٢) أهورا مزدا : كلمة تعنى (أهو – رد – مزدا) أو : أنا خالق الوجود . (المترجم)

وگاتها كتاب ناقص وغير كامل وكتب فى هيئة أناشيد قديمة لم تكتمل ، وقد فُقدت أغلب أجزاء گاتها نتيجة لحملات القبائل الغازية ، وقد فُقد بعض أجزاء القسم المنظوم من هذا الكتاب كما أن القسم المنثور منه لم يسلم أيضاً من الضياع .

والگاتها : أى النشيد يشتمل على خمسة أجزاء :

١ – اهنو وايتى ٢ – اشتاوايتى ٣ – اسپنتا مينو

٤ – هوكشترا ٥ – وهشتا استى

وگاتها قسم من كتاب "يسنا" ويسنا قسم من كتاب "الأفستا" وهذه عدة كلمات منه :

الأفستا – نور الخلود

رسالة زرادشت رسالة أمل وقد كتبت فى أفضل صورة فى شأن الرسالة السماوية (الأفستا) ذلك الكتاب الزاخر بالإلهام والثورة الروحية ، ويعرض علينا زرادشت فى هذا الكتاب خير الثمار من شواطئ المجهول ببيان مشوق ومفعم بالسعادة ، ويبشرنا زرادشت باليوم الذى تكون فيه الكلمة المسموعة للقدرة السماوية فى هذه الدنيا ، وهذا الكتاب هو المعرفة الخالصة والماء الزلال للعطشى، وهو بمثابة النبع المنعش للروح والذى يمد من يطلع عليه بالقوة المتجددة .

(انهض من بحر الجوهر فليس هناك يأس أو قنوط

وكل من فتح فمه هنا أصبح غنياً مثل الصدف) .

ونحن لا نبالغ لو قلنا إن هذا الكتاب إحدى مفاخر إيران ، وهو كنز لأفكار سامية ونبع لفيض السعادة ، وهو بمثابة الشمس التى لا تغرب أبداً .

ولهذا لم يكن صدفة أن أثر هذا الكتاب قد بلغ عنان السماء ، فكلماته مليئة بالحكمة ؛ لهذا فقد فتن به العدو قبل الصديق .

وقد اشتمل الأفستا على ألف فصل وبلغ ٢١ مجلداً ، ويقول "بلينى" : إن زرادشت قد نظم ٢ مليون بيت .

وقد كانت الأفستا في العصر الهخامنشي ٨١٥ فصلاً، وفي العصر الساساني جمع منها ٣٤٧ فصلاً، واليوم ليس لدينا ربع الأفتسا في العصر الساساني ، وقد قرئ اسم الأفتسا في أشكال متعددة منها : أوستا ، أستا ، وستا ، أفستا ، بستاك ، وأوستاك[1] .

وقد اعتبره البعض كتابًا ، واعتبره البعض الآخر شعرًا ، واعتبرته جماعة علمًا ، واعتبرته جماعة أخرى دستورًا .

والأفستا[2] الفعلية عبارة عن خمس رسائل :

١ – يسنا . ٢ – يسپرد . ٣ – ونديداد .

٤ – يشت . ٥ – خورده أفستا[3] .

والقسم الأساسي من الأفستا هو يسنا ، وأما يسپرد فهي ملحقات ليسنا ، أما ونديداد (قانون عكس الديوان) فتتضمن القوانين الدينية والصحية ، ويشت في مدح الله والملائكة ، ويشتمل كتاب الأفستا الصغير على أدعية وصلوات .

وفي كل موضع من كتاب الأفستا يوصي زرادشت أتباعه بطهارة الروح والجسم وطهارة الماء والريح والتراب والنار ، وطهارة المساكن وكل شيء يرتبط بالحياة .

كما أن كلمات هذا الكتاب المحببة تسطع بآلاف من الشموس وتميط اللثام عن العديد من الأسرار ، وكتاب الأفستا هو أحد أسمى القمم الفكرية الإنسانية ، كما أنه بمثابة دليل للبشرية ؛ وذلك لأن قواعده العملية يمكن الاستفادة منها في جميع شئون الحياة فهي ترشد الإنسان إلى السعادة والكمال .

(١) هذه العصور حسب التسلسل التاريخي : العصر الهخامنشي ، فالساساني ، فالإسلامي .

(٢) وتم تدوين كتاب الأفستا أو الأبستاق قبل القرن الخامس الميلادي وإن كانت مادته تمتد إلى ما قبل غزو الإسكندر لفارس عام ٣٣٠ ق . م – كامل سعفان : معتقدات آسيوية ، دار الندى ، ط أولى ، القاهرة ، ١٩٩٩م . (المترجم)

(٣) يسنا : أهم أجزاء الأفستا ومعنى يسنا العبادة والتسبيح والصلاة ، يسپرد : ومعناه كل السراة وهو من ملحقات اليسنا ولا يتلى في المراسم المذهبية ، نديداد : معناه قانون ضد الشياطين وهو لا يتلى في المراسم الدينية ، يشتها : تعني العبادة والزمزمة على الطعام والتسبيح ، خرده أفستا : أي الأفستا الصغرى أو مختصر الأفستا وهو كتاب للصلاة والأدعية الخاصة . انظر : أمين عبد المجيد : القصة في الأدب الفارسي ص ٢٣ – ٣٨ نقلاً عن : كامل سعفان : معتقدات آسيوية ص ١١٩ . (المترجم)

ويكتب البروفيسور "جاكسون" في معرض الحديث عن كتاب الأفستا : يعد هذا الكتاب المقدس من الكتب النادرة التي لديها مثل هذا الإدراك والرؤية عما هو صحيح ومغلوط من الأفكار ، وقلما يوجد كتاب مقدس لديه مثل هذا التصور عن (الوظيفة) بالشكل الذي ورد في الكتاب المقدس لزرادشت ، وقلما يوجد مذهب بهذه القوة حيث يحث على طهارة الجسم والروح .

ويكتب "دارمس ته تر" عند معرض الحديث عن الأثر الكبير لكتاب الأفستا في الحضارتين الهخامنشية والساسانية : إن كتاب الأفستا يلقى الضوء على بقايا آثار العصرين الهخامنشي والساساني كما أنه يبرز معلومات دقيقة وردت في شأن إيران القديمة وعن الكتاب اليونانيين واليهود والصينيين .

وبدون مبالغة يمكن القول إن زرادشت هو أساس الحضارتين العظيمتين الهخامنشية والساسانية ، وإن الإيرانيين نتيجة لنسيان زرادشت قد عاشوا في ظلمات غافلين عن أن هذا الجوهر المضيء هو الذي أنقذهم من سجن أهريمن ليدلهم على نور أهورا مزدا .

قمة السمو

ويعد كتاب الأفستا إحدى مفاخر إيران القديمة ؛ إذ بفضله لم تعبد إيران الأصنام طيلة تاريخها الطويل الذي يصل إلى ستة آلاف سنة ، وعلى الرغم من أنه قيل إن كلمة (مزدا) ليست من ابتكار زرادشت بل إنها اسم آشوري لأن الآشوريين كانوا يسمون إلههم (Assara-Mazas) وقد شوهد هذا الاسم في بعض المخطوطات المتعلقة بالفترة الآشورية – فإن الآشوريين لم يستخدموا هذه الكلمة بالمعنى الذي استخدمه زرادشت .

وقبل زرادشت فإن إله شعب آريا كان اسمه ديفا (Daeva) وهو نفس كلمة (Divas) في اللغة السانسكريتية وزيوس (Zeus) في اللغة اليونانية و (Devs) أو جوبتير (Jupiter) في اللغة اللاتينية وديو (Dio) في اللغة الإيطالية و ديو (Dieu) في اللغة الفرنسية و the Diety في اللغة الإنجليزية ، ولكن الصورة التي رسمها الآريون للإله مثل الصورة التي يرسمها الأطفال ،

فى حين أن الصورة التى رسمها زرادشت مثل الصورة التى رسمت بقلم أستاذ مثل ليوناردو داڤنشى أو رڤائللو ، ولهذا السبب فإن هذه الكلمة نفسها التى وردت فى جميع اللغات الآرية بمعنى الله وردت فى لغة الآريين فى إيران بمعنى أهورا مزدا !

والحق إن إله جميع الأقوام الآرية الذين عبدوا الأصنام لم يكن أكثر من مجرد "شيطان" . وإذ أخذنا هذه الحقيقة فى الاعتبار كان زرادشت أول موحد فى العالم ، وكان يحارب عبادة الأصنام وأية عبادة أخرى من الخرافات .

ويجب أن نتفق مع جوزيف مك كاب حين قال : عرفت إيران "أهورا مزدا" كإله واحد قبل أن يعرف اليهود "يهوه" الإله الواحد .

ولكن مع أن موسى كان ثانى الموحدين فإن هناك فرقًا كبيرًا بين صورة الإله التى رسمها موسى وصورة الإله التى رسمها زرادشت ! فإله اليهود مستبد وقهار وجبار وهى صورة فرعون يعبد هواه ويفعل ما يحلو له ، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء[1] !! ولكن إله زرادشت يختلف تمامًا عن الصفات الإنسانية ولا يمكن وصفه ولا توجد علاقة مباشرة بينه وبين الإنسان .

وإن علاقة إله زرادشت بالناس مرتبطة بـ (أنجره مينو) أو الظلمة و(سنتامينو) أى النور وإن كليهما ليسا أكثر من مخلوقين ، وقد حلَّ زرادشت مسألة (الشر) من وجهة نظر فلسفية وذلك بتعريف (سنتامينو) النور ، كما أنه بحث مسألة الخليقة من خلال تعريفه بـ (أهورا مزدا) إله الخير .

ونتيجة لعدم التفريق بين هذين الموضوعين المنفصلين ، اعتبر البعض أن مذهب زرادشت يقوم على الثنائية ، فقالوا إن زرادشت عبد إلهين فى وقت واحد ؛ إله الخير وإله الشر . (ويزعم) الدكتور "وست" قائلاً: لو افترضنا أن دين زرادشت يقوم على

(١) لم يذكر المؤلف بالتحديد من أين جاء بصور هذا الإله المستبد التى ذكرها؛ فمثل هذا الإله هو أقرب للآلهة التى كانت الشعوب تعبدها قبل ظهور التوراة والمسيحية والإسلام فى الأزمنة القديمة . (المترجم)

الثنائية ويعتبر الشيطان عاملاً للفساد والشر فى الدين المسيحى ودين الإسلام ، فلماذا لا نصف هذين الدينين بالثنائية(١) (٢) .

ويبدو أن الشيطان فى المسيحية والإسلام قد اقتبس من مذهب زرادشت(٣) ، وبدون أن تكون هناك ثنائية فى بعض المذاهب الأخرى يلعب الشيطان دوره الشيطانى بدون أن يصاب أهورا مزدا بأى أذى .

وكما قال البروفيسور "جاكسون" : إن العلاقة الموجودة بين "أهورا مزدا" و "سپنتا مينو" مثل العلاقة الموجودة بين الروح القدس والأب فى الدين المسيحى .

وللتوضيح أكثر فى شأن "أنجره مينو" و "سپنتا مينو" و "أهورا مزدا" بينما أهورا مزدا نور على نور ولا يوجد للظلمة طريق فى قصره النورانى .

الجوهران التوأمان

لقد ورد فى يسنا ٤٥ بكتاب الأفستا إن فى الدنيا قوتين تتصارعان وتقع الأحداث فى هذه الدنيا بسبب هذا الصراع ، وإحدى هاتين القوتين هى سپنتامينو (Spenta Mainu) وهى الروح الإيجابية ، والقوة الثانية : أنجره مينو (Angra Mainu) الروح السلبية ، وهما يشكلان لُحمة الحياة وسداها .

وسپنتا مينو ، مشتقة من كلمة پاك أو الطاهر والمقدس ، ومينو (العقل والجنة والفكر والجوهر) وهى روح الخير ، أما "أنجره مينو" فهى تعنى الفكر السيئ والروح الشريرة(٤)

(١) يمكن الرد على المؤلف بأن الخير والشر فى الإسلام مثلاً لا يعتبران إلهين متناقضين كما هو موجود عند زرادشت ولعل هذا هو السبب الرئيسى الذى يبعد الإسلام تماماً عن أية ازدواجية أو وثنية فى المذهب والدين .

(٢) يقول جل شأنه فى سورة الإخلاص : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ ، فالدين الإسلامى يؤكد على التوحيد قبل أى شىء آخر . (المترجم)

(٣) الإسلام ليس اقتباساً من أى مذهب وضعى حتى إن جاءت فكرة الشيطان مثل آهريمن فى الديانات الأخرى . (المترجم)

(٤) الاسم الآخر لـ "أنجره مينو" هو آهريمن وتتكون من (أ) وهى كلمة نفى تعنى (بدون) وتعنى كلمة هرى (الضياء والنور) و (من) وهى الضمير (أنا) فتعنى كلمة (آهريمن) إذن (أنا بلا ضياء) .

وتتصارع هاتان القوتان داخل الإنسان ، وقد عبر مولوى عن هذا المعنى : "إن الإنسان نصفان ؛ نصف يميل إلى العالم العلوى ، ونصف يميل إلى النصف السفلى" ، وحتام يتصارع هذان التوأمان داخله فى هذه الحرب ، وبفضل الأفكار الطيبة يمكن للإنسان أن يقوى روح الخير داخله لأن الأفكار الطيبة هى أساس تكامل الروح .

ومن المزايا لمذهب "المزديسنية"[1] أنه يرفض قوة الشر ، وهو يبين أن التعايش بين روح الشر وروح الخير أمر لا يمكن قبوله ، ويحث على محاربة قوة الشر بكل قوة .

والصراع مع "أنجره مينو" مفيد جداً لأن روح الشر فى الحقيقة لا وجود لها وهى مثل الظل سريعة الزوال ، كما أن "أنجره مينو" وكل جيشه الجرار محكوم عليهم بالزوال والفناء ؛ لأن روح الشر مرتبطة بالزمان والمكان وزائلة ، بينما تجد أن سپنتامينو أى روح الخير مثل أهورا مزدا أبدية خالدة، كما أن زرادشت دائمًا فى ثورة من أجل أن تغلب قوة الخير دائمًا ، وهو يحارب قوى الشر بكل ما أوتى من قوة .

ولهذا السبب فإن تعاليمه أساسها محاربة الشر، وقد تركت أثرًا عميقًا فى أتباعه (أتباع زرادشت) وقد حثهم على أن يكونوا أعداء ألداء للكذب والشر .

أمشاسبندان أو (المقدس الذى لا يزول)

وقد شبه مذهب زرادشت بحديقة بها ستة طرق ، كل هذه الطرق تنتهى بنقطة واحدة ، وهذه الطرق هى أمشاسبندان وغايتها أهورا مزدا .

وأمشاسبندان عبارة عن :

١ - (وهو منه) (بهمن) أى العقل السليم أو الأصل الطاهر .

٢ - أشاوهيشتا (أرديبهشت) المنزه الطاهر .

٣ - خشتر أويريه (شهريور) المحب للسلطة والجاه .

(١) مزده يسنى : كلمة مشتقة من مزديسنا (Mazda-yasna) وهو المذهب نفسه الذى اتبعه زرادشت وأتباع مذهب مزديسنا يسمون (مزديسنان) . (المترجم)

٤ – سبنتا أرمييتى (اسبندارمذ) الإحساس بالتواضع .

٥ – هيورتات (خرداد) الكمال والعافية .

٦ – أمرتات (أمرداد ، مرداد) الحياة الخالدة[١] .

وقد كلف كل واحد من هؤلاء الملائكة بعمل ، إذ إن بهمن أصبح يرعى الدواب ، واسبندارمذ يرعى الأرض ، وتكفل خرداد بحراسة الماء ، وتكفل أمرداد بحراسة النباتات .

وكما أن لأهورا مزدا أنصاراً فإن لآهريمن أيضًا أنصاراً وأتباعًا ، وهم يعرفون (بالنخبة) كما يلى :

١ – (أكمنه) : القائم على الأفكار الحقيرة والشريرة .

٢ – (أندرا) : الروح المخادعة .

٣ – (سورو) : نصير الفوضى والاضطراب .

٤ – (نا أونك هيى ثيا) : نصير التمرد .

٥ ، ٦ – (تيور و دجى ريشى) المسئولان عن الإسراف والجوع والعطش .

وقد ورد شرح لطيف فى شأن (أمشاسبندان) بقلم السيد "جرد اورنك" وسوف ننقل خلاصة هذا الشرح فى هذا المقام : إن الديك الذى يطرد بصوته شيطان الظلمة وقت السحر ، يخص الملاك بهمن وزيه المفضل الثياب البيضاء ، ويرتبط الياسمين الأبيض من بين الورود ببهمن . والشهر الثامن فصل الشتاء يعرف ببهمن كما كان يقام فى اليوم الثانى من هذا الشهر حفل فى إيران القديمة باسم هذا الشهر .

أما الملاك أرديبهشت فأحد مظاهر التقوى والنظام الكامل ، وكان الإيرانيون القدامى يقيمون احتفالاً فى اليوم الثالث من شهر أرديبهشت وكان هذا اليوم المعروف بـ "أردنى بهشتكان" ، ويخص هذا الشهر أو الملاك ريحان داود من بين الورود .

(١) الجدير بالذكر أن كل هذه الأسماء قد دخلت اللغة الفارسية وأطلقت على الأشهر الشمسية فى التقويم الشمسى الإيرانى . (المترجم)

وقد ترجمت كلمة (شهريور) بمعنى السلطة المطلوبة أو الدولة (المرتجاة) ، وسادس شهر من السنة ورابع يوم منها يعرف بـ (شهريور) وكان الإيرانيون يحتفلون بهذا اليوم . وكان هذا اليوم يعرف بـ "شهريور كان" ، وورد الريحان رمز هذا الملاك .

وأسبندارمذ رمز العشق والمحبة والتواضع والصبر ، وآخر شهر من السنة وخامس يوم منها هو "مزد جيران" وهو يرتبط باسم هذا الملاك .

وهه اروتات مشتقة من كلمة هه أورو (أى الكامل وغير الناقص) وهى تتعلق بثالث شهر من السنة واليوم السادس منها ، وكان الإيرانيون فى إيران القديمة يحتفلون بهذا اليوم ويسمى هذا اليوم (خورداد كان) أو خرداد .

ومعنى أمرتات : الخلود ، ويسمى الشهر الخامس من السنة واليوم السابع منها بـ "أمرداد" وكان الإيرانيون يحتفلون بهذا اليوم تحت اسم "أمرداد كان" وأيضًا فإن أمرداد يرمز له ببعض الورود . ومن أنصار هذا الملاك : الإله درشن والإله أشتاد والإله أمياد .

دينا[1]

إن أول قوة معنوية فى الأفستا هى (آهو) التى وردت بمعنى جوهر الوجود ، وقد اشتقت (أهورا مزدا) من هذه الكلمة نفسها .

وثانى قوة معنوية هى (دينا) والتى تطلق على الدين ، وتستعمل اليوم بمعنى المذهب بينما تعنى فى الحقيقة (الوجدان) أو الضمير ، وكل من يتبع الضمير أو (دينا) يصبح فكره وقوله وعمله مستحبًا ، ومن ثم يصل الخير إلى الناس ، ولكن حينما يسير فى الطريق الخاطئ فكرًا وقولاً وعملاً فإن نتيجة ذلك الأمر السيئ تعود على صاحبه بالسوء .

(١) وردت كلمة دينا (Dena) فى الأفستا بمعنى القانون أو "النور الإلهى فى القلب الإنسانى" ودينا هى بمعنى الوجدان . (المؤلف)

وقد رسم زرادشت أجمل صورة للضمير ، ويمكن القول بجرأة إنه أول شخص استطاع أن يصف هذا السر العظيم الداخلي كما يجب .

ويكتب مترلينك فى هذا الشأن: إن الضمير يوجد لدى كل فرد وهو القوة الممنوحة التى لا تزول أبداً بل تعصى الجسد ، ولذلك فإنه حتى حينما يرتكب الإنسان أعظم الذنوب فإن الضمير لا يكون طرفًا فى هذا الذنب بل إنه يحافظ على طهارته وبراءته دومًا ، فإذا توفى الإنسان فإن هذا الضمير يتبع الروح الإنسانية حتى يصل إلى جسر "جنوات" .

وهذا الجسر مرحلة صعبة يجب على الروح أن تعبر منها ، فإذا كانت الروح محسنة رأت فى أثناء وصولها لهذا الجسر فتاة جميلة وضاحكة فى استقبالها ، هذا الضمير نفسه الذى يتبع الروح يود أن يساعد الروح فى العبور من جسر "جنوات"[١] .

وعندما ترى الروح هذه الفتاة الجميلة الجذابة[٢] فإنها تندهش من هذا الجمال والجاذبية ، فتقول الروح : أيتها الفتاة الجميلة إننى لم أر جميلة مثلك ... فماذا تفعلين أنت هنا ؟ فيرد الضمير : أنا عملك الطيب وحديثك الطيب وفكرك الطيب ... تعال حتى أساعدك فى المرور بأمان من هذا الجسر .

وفى حالة ما إذا كانت الروح مذنبة فإن الضمير يظهر فى شكل حيوان أو شيطان مخيف ؛ فتفزع الروح ، ولاشك فى أن الضمير لا يتغير إذ إن الضمير يظل كما كان ... الخلاصة أن الإنسان المذنب يرى هذه الصورة المخيفة .

محاربة الشر

قال روبسبيير زعيم الثورة الفرنسية العظيم ذات مرة : إن تحرير المظلومين من جور الظلمة والدفاع عن حقوق الضعفاء الذى أصبح موضع عناية البعض ، هو قضية كل قلب لم يلوث بالفساد .

(١) جسر جنوات : أقرب إلى كلمة الصراط فى الدين الإسلامى . (المترجم)
(٢) هذه الفتاة الجميلة تشبه الحور العين فى القرآن الكريم . (المترجم)

وقد يكون هذا الشخص لم يحصل على هذا المطلب ولكنه يشعر به ، وبدون أن يعلم روبسبيير فإنه عبر عن مذهب زرادشت فى الجمل السابقة ، وكم كان زرادشت قويا حينما كان يوصى بمحاربة الشر ، وليس هناك عار أكثر من هذا العار بالنسبة للشخص الزرادشتى فى أن يتعاون مع الأشرار وأنصار أهريمن ؛ لأن الشخص الذى يتعاون مع الأشرار هو نفسه شرير ومن أتباع أهريمن ، ومحاربة الأشرار والظلمة أساس إعمار هذا الكون ، لأن الظالم يحول دون إعمار هذا الكون وتطوره وذلك بالاستعانة بقواه المخربة والمدمرة ، ويسعى جاهداً أن يقف ضد انتشار الخير ، ويجب استئصال شأفة الظلم لأنه مثل مرض الطاعون ، ويجب أيضًا القضاء على هذا العنصر المدمر فى المجتمع .

وفى مذهب زرادشت أن مهادنة المذنبين جرم عظيم ولا يمكن أن يُغتفر ، والقانون يحضنا على أن نحارب المفسدين والظلمة بيد من حديد ، وألا نكف عن هذه الحرب حتى نتغلب عليهم .

وبهذا الشكل فإن زرادشت يثير قضية الشر ، فالشر بالنسبة له شر ، والشر ليس خيراً لم يكتمل أو أنه خير فى حالة التكوين ، إنما الشر ينفصل تماماً عن الخير وحياته حياة منحوسة خاصة به ، والشر بالنسبة لزرادشت حادثة مريرة (وسمجة) .

وللقضاء عليه يجب السعى دومًا فى هذا الصراع ، ومذهب زرادشت مذهب نشط وعملى ومناضل ، كما أن الضعف والوهن لم يعرفا طريقًا لمذهبه ، وهو يجابه الشر بروح قوية ، وللقضاء على الشر فإنه مثل الجندى يسعى دائمًا للقضاء على هذا الخصم اللدود، وهذه خاصةٌ أخرى من الخصائص العظيمة لهذا المذهب ولا يرى مثيل لها فى أى مذهب آخر .

(هومت - هوخت - هورشت)

إن مذهب زرادشت لا يتفوق على المذاهب الأخرى لحقيقة موجودة فيه ؛ بل لأنه يشتمل على أرقى الأفكار وأسلمها ؛ ولأنه يشتمل على القواعد الأخلاقية الجامعة والقوية ، ومن ثم فهو يتفوق على معظم المذاهب الآرية وغير الآرية ، كما أن تعاليم

زرادشت الأخلاقية مهمة فى عالم الأخلاق بحيث يمكن القول إنها تشكل إحدى دعاماته الأساسية .

وكان علماء العالم يبحثون دومًا عن قانون يكون بالنسبة لحياة الناس دستوراً ، وقد ترك زرادشت بالنسبة للعالم دستوراً يتكون من ثلاث قواعد : (الفكر الحسن ، والعمل الحسن ، والقول الحسن) . وقد صب زرادشت فى هذا الدستور عصارة فكره الشامل لجميع القواعد الأخلاقية بمهارة كاملة ، كما أنه لا تُشاهَد أية ثغـرة ولو طفيفة فى مذهبه .

فكم هو دستور أخلاقى جميل وعظيم (فكر حسن ، وعمل حسن ، وقول حسن) فأى شخص يستطيع أن يضع مثل هذا الدستور العملى الأخلاقى الكامل والشامل ؟! فهل هذه الكلمات الست فى حد ذاتها ليست نظامًا كاملاً لعلم الأخلاق ؟ وهل هذه الكلمات الست ليست أساس جميع الأنظمة الأخلاقية ؟

إذًا ليس عجيبًا لو أن مترلينج يقول : "تعد القوانين الأخلاقية لمذهب زرادشت أعظم وأنقى القواعد الأخلاقية فى العالم" ، إن زرداشت أرسى دستوره القوى والجميل فوق دعامات ثلاث (فكر حسن وقول حسن وعمل حسن) فشيد قصراً - على حد قول البروفيسور "ويتنى" - لن يهدم أبداً .

ولكن لماذا أعطى زرادشت الأولوية الأولى فى هذا الشعار للفكر الحسن ؟ لقد فعل زرادشت هذا لأن جميع أعمالنا وأقوالنا تنبع من أفكارنا ، وعلى حد قول "جون لوك[1]" الفيلسوف الإنجليزى : إن عمل الناس هو أفضل ترجمان لأفكارهم ، والعمل والقول مثل المرآة التى يظهر فيها وجه الفكر ، وعلى حد قول ويليام جيمس[2] : "إن الفكر العملى الذى لم يصل إلى حيز التنفيذ هو بذرة العمل كما أن مصائرنا مرتبطة

(١) جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) : فيلسوف إنجليزى عرف بتحرره وآرائه التقدمية ومن كتبه الشهيرة كتاب محاولة فى الفهم البشرى . (المترجم)

(٢) ويليام جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) : فيلسوف أمريكى، ولد فى نيويورك، أحد مؤسسى مذهب (البراجماتية) القائل بأن الحقيقة لا قيمة لها ما لم تؤثر فى الواقع . (المترجم)

ارتباطًا وثيقًا بالأفكار التى تشغل عقولنا . وليس مبالغة لو قلنا إنه يمكن أن نغير مصائرنا بتغيير الأفكار" .

وكم أصاب جلال الدين الرومى حين قال : "أيها الأخ أنت هذا الفكر نفسه وما بقى منك مجرد عظام أو جسد ، فلو كان فكرك وردًا فأنت روض ، ولو كان شوكًا فأنت "مزبلة" والأفكار الطيبة أعمالها وأقوالها طيبة كما أن الأفكار السيئة أعمالها وأقوالها سيئة" .

وليس غريبًا أن الهنود الذين يمارسون الرياضة الروحية لهم ممارسات طويلة وذلك من أجل السيطرة على أفكارهم ؛ لأن الفكر أساس وجودنا وهو الباعث على أعمالنا ، وبالفكر الصحيح يمكن بلوغ أية عظمة ومنزلة رفيعة .

وفى الوقت الحاضر فإن سوء الأخلاق وعدم الالتزام بالقيم الأخلاقية واهتزاز العلاقات الاجتماعية يسود كل العالم ، كما أن سوء النية فى كل مكان أكثر انتشارًا من العلاقات السياسية والاجتماعية ، ويجب أن نولى اهتمامًا خاصا بهذا النوع من تعاليم زرادشت حتى نخلص العالم من هذا التدهور الأخلاقى .

التكاسل

لقد ورد فى المذهب الزرادشتى أن الرجل الكسول من أتباع أهريمن ؛ لأن التكاسل يؤدى إلى الخراب، وكل شىء يكون باعثًا على الخراب هو من أنصار أهريمن ، وقد ورد فى مذهب زرادشت أن الإنسان الكسول هو أحقر فرد بين الناس .

وفى مذهب زرادشت العمل عبادة وأساس التحرر ، كما أن أذان الديك فى السحر هو بمثابة دعوة الإنسان للقيام بمهامه ، وقد ورد أيضًا فى مذهب زرادشت : (احذر التكاسل حتى يمكنك أن تضطلع بمهامك ، ولا تقصر عن أداء أعمالك المناسبة) .

لماذا يجب أن نعمل ؟ إن فى العمل سعادة وفرصة للترقى إلى الأفضل ، وقد ولد الإنسان فى هذه الدنيا حتى ينجز الأعمال المفيدة المثمرة وحتى يعمر الكون .

النـور

يحظى العلم فى مـذهب زرادشت بأهـمـيـة كـبـرى بحيث عين له مـلاكًا خـاصـا به ويسمى "جيستا" ، ويمدح زرادشت العلم قـائلاً: يا أصدق علم مقدس (لأهورا مزدا) لو كنت أمامنا فانتظِرنا ولو كنت خلفنا فصِلنا .

وكان زرادشت نفسه – فضلاً عن كـونه مصلحًا اجتماعيا عظيمًا – معلمًا للأخلاق ، وكان متخصصًا فى علم الطب والفلك وكان يسعى دائمًا لتحصيل العلم ، ولهذا السبب فإنه يولى أهمية كبرى للتعليم والتربية ولا يعتبر أن هناك فرقًا بين الذكر والأنثى ؛ ولهذا السبب فقليلاً ما يشاهد أفراد أميون بين أتباع زرادشت، والزرادشتى الحق هو الذى يسعى دومًا حتى آخر لحظة من عمره لتحصيل العلم ، وفى مذهب زرادشت ليس الفقر المادى وحده سيئًا ، بل إن الفقر المعنوى أسوأ مئات المرات ؛ لذلك فإن الزرادشتى يسعى دائمًا لكى يغنى نفسه بعلمه وأخلاقه .

طريق الصدق[1]

(ليس هناك فى الدنيا أفضل من فضيلة الصدق وليس هناك أسوأ من رذيلة الكذب) .

الفردوسى

ومن الخصائص العظيمة لمذهب زرادشت الأهمية غير العادية التى يوليها للصدق ، ولم يعط أى شخص قبل زرادشت أو بعده مثل هذه الأهمية للصدق[2] ، والزرادشتية نبع لا ينضب من الصدق ، ويكتسب مذهب الزرادشتية قوته العميقة والكاملة من الصدق[3] ، ومن ثم يصبح دائمًا متلألئًا ومشرقًا .

(١) أورد المؤلف هذه العبارة (ايوه پنتر يوا شاهه) أو : ذلك طريق الصدق . (المترجم)
(٢) هذا كلام مبالغ فيه من قبل المؤلف لأن الرسول محمد ﷺ قد تغاضى عن أن يكون المسلم بخيلاً أو جبانًا فى بعض المواقف لكنه أكد على ضرورة أن يكون المسلم صادقًا ولا يكون كاذبًا أبدًا . (المترجم)
(٣) يسمى طريق الصدق فى مذهب الزرادشتية (ايوه پنتر يواشاهه) . (المؤلف)

وباتخاذ زرادشت الصدق أساسًا لمذهبه فقد أرساه على أساس ثابت ؛ لأن الصدق نبع كل خير ، والصدق بإمكانياته العجيبة يمنح الإنسان القدرة التى من خلالها يستطيع أن يحقق التقدم ، وبناء على هذا فإن الشخص يحيا وفقًا لقانون دائم من الصدق ، مثل هذا الشخص لا يصل إلى مقام أهورا مزدا فحسب ، بل إنه يقترب أكثر من الكمال بالأخلاق ، وقانون الصدق هو الميزان الذى يزن به الشخص أعماله حتى يمكنه بواسطته أن يبلغ أسمى مقام وهو الفكر الحسن والقول الحسن والعمل الحسن .

إن الصدق هو النار التى تحرق كل خبيث وقبيح وبواسطته يجعل نوره السرمدى الضمير متلألئًا ونقيًا .

ولا نجاوز الحقيقة لو قلنا إن الصدق هو الطريق الأساسى للأخلاق الطيبة وفى عالم الأخلاق يمكن معرفة (أهورا مزدا) لا .. إن الصدق وأهورامزدا قرينان وإن هذا الصدق هو نور أهورا مزدا ، والصدق ثمرة الحياة الحسنة وثمرة الحياة الحسنة الصدق .

إن غاية الحياة هى تحقيق الخلود الكامل والعروج إلى قمة الإنسانية ، وإن هذا الهدف لا يتحقق إلا باتباع الصدق ، وإن من يتبع الصدق يساعد بأعماله المحمودة على نشر الخير والسعادة فى المجتمع والدنيا. ولهذا السبب فإن زرادشت ينصح قائلاً: "لا تفكر فى شىء إلا فى الصدق، ولا تتحدث إلا حديثًا صادقًا ، ولا تعمل إلا عملاً يقوم على الصدق" ، وبالسير فى هذا الطريق فإننا سوف نخطو دومًا فى طريق الخير ، لأن شمس الخير لا تغرب أبدًا فى سماء الصدق .

ويمكن لحكومة الصدق أن تعمر الدنيا ، وهى القادرة على أن تنقذ العالم ، وإن الصدق هو الذى يقضى على الفتن والاختلافات ، وتقضى على هوى أهريمن فيصبح الصدق مذهبًا مقدسًا فى العالم ويقوى قانون أهورا مزدا ، والصدق أساس نبع الخير والصفات النبيلة .

والإنسان الصادق قوى ولا يضعف أبدًا وقت الشدة ، والصدق حكومة خالدة يضىء نورها جنبات العالم ويمنع الظلام من أن يسود فلا يكون هناك فساد .

ويتحدث زرادشت عن الصدق في كلمات حلوة وجذابة وهي كلها تمثل أناشيد من عشقه الذي يملك كيانه، وننقل بعض الكلمات التي قالها زرادشت في موضوع الصدق:

– يا إلهي حبب الصدق إلينا حتى تصبح ضمائرنا طاهرة وفطرتنا خيِّرة .

– يا أهورا مزدا – أي يا الله – إن الشخص الذي يحارب الكذب وأعوانه بالفكر والقول والعمل والشخص الذي يرشد الناس إلى الصدق يتضرع إليك بأفضل هدية من عشقك الطاهر .

– حتى تكون لدي قوة فسوف أعلم حتى يسير الناس إلى الصدق .

– أيها الصدق اغرس فيَّ الفطرة العظيمة النقية .

– أيها الصدق متى أصل إليك ؟ ومتى أحظى برؤية الفطرة الطاهرة كأحد العارفين ؟

– نحن مطالبون كأشخاص بأن نعيش لكي نرشد الناس إلى الصدق ، فيقصدنا ملائكة الخير ، يمنحوننا الصدق والمساعدة حتى يدرك فكرنا موضع نبع المعرفة .

– إن أفضل نفع لدولة زرادشت أنها تقوم على فكرة النور الخالص ومن ثم تتوافر فيها السعادة والخلود .

– متى تأتي يا "مزدا" أيها الصبح الصادق وتهدي البشر إلى الصدق !

– يا إله الخير لقد أسس مذهبنا على الصدق ولهذا فهو مذهب نافع ، وقد أسس المذهب الخاطئ على الكذب ولهذا فهو مذهب ضار ، ومن ثم نريد أن نلحق بركب الناس ذوي الفطرة الطاهرة ، ونقطع علاقتنا بالكاذبين .

– أيها الصدق تعال إلينا وكن حصننا الحصين .

– إن الصدق فضيلة متفردة والصدق سعادة ، وإن الشخص السعيد هو من يكون دائماً صادق القول والعمل .

– إن الحياة الخالدة لشخص ما هي أن يحارب في حياته الكذب ويسد طريقه ويتمسك بالصدق .

– إن طريق الكذب يضر الكاذب .

– نحن مطالبون بأن نكون فى زمرة الأشخاص الذين يرشدون البشر إلى طريق الصدق .

– أريد أن أوقظ الغافلين وأرشدهم إلى الصدق .

– كان زرادشت معلم الصدق فنشر فى العالم فكرة الصدق ومن هنا عرف عنه القول المحبب .

– فليتغلب الصدق على الكذب فى العالم .

– نحن نثنى على كلمات الصدق إذ إنها دائمًا هى المنتصرة وهى التى تقضى على نفوذ الكذب . (ويسبرد ٢٠ – ٢) .

– وسأل "هو من" زرادشت ما هى آمالك ؟ ولأى شىء تسعى ؟ أجاب زرادشت : أملى الوحيد الصدق والحقيقة ، وسعيى وعملى من أجل الصدق والحقيقة ، وأملى المنشود انتشار الصدق والحقيقة . (نيكريات) .

– نحن نمدح النساء اللائى يتميزن بالصدق .

– أيهما أعظم : الشخص الذى يتبع الصدق أم الشخص الذى يتبع الكذب ؟ يجب على العالم أن يعرف بعلمه الآخرين ولا ينبغى أن يظل الجاهل غارقًا فى جهله ، كن أنت يا مزدا معلمنا بالفطرة الطاهرة .

هذه أناشيد أهورا مزدا الذى غايته الصدق .

– عندما يتغلب الإنسان على الكذب بمساعدة الصدق ، وعندما تزال أستار القبح والجهل والكذب التى ساد فيها آلهة الفترة من الوقت ، حينئذ يحين موسم ربيع إلهى وحينئذ تثمر فواكهه الحلوة اللذيذة .

– يجب على أنصار الصدق أن يبتعدوا عن الكاذبين .

مصباح الكذب لا يضيء

وكما أن قوة الصدق أبدية وسرمدية ، فإن الكذب قوة ضعيفة وفانية .

وفي عبارة أخرى فإن الصدق مرتبط بالسرمدية والكذب مرتبط بالزمان ، ومصداقًا للقول المعروف : (لا ينبغي الاهتمام بشيء غير جدير بالاهتمام)، ويجب على الإنسان أن يختار الصدق دليلاً له ولا يجب التردد في اختياره مرشدًا ودليلاً ؛ لأن الحيرة في اتباع الكذب مضيعة للوقت ، وطريق الكذب من أطول الطرق ، لأن الشخص الذي يكذب مضطر لإثبات أنه لا يكذب أن تصدر منه أكاذيب أخرى ، ولما أن الفوز النهائي يكون دائمًا حليف الصدق فإن الكذاب في النهاية يقع في مأزق فيصدر عنه الحديث الصادق دون أن يشعر ، ولهذا السبب فإن أعقل الناس من يختار أقصر الطرق ويقول الصدق .

وفي نظر زرادشت أن الكذب دليل على الجبن ، فمذهب زرادشت لهذا مذهب قوي وهو يدين الجبن بشدة ويدعو أتباعه إلى الشجاعة والجرأة والصدق .

ويقول نيتشه : "قل الصدق ومت" ، ولو أن زرادشت كان حيًا لأيد مقولة العالم الألماني الرائعة ، لأن زرادشت يفضل أن يقول الإنسان الحديث الصادق ويموت عن أن يكذب ويعيش .

والزرادشتي الحقيقي عدو الكذب وهو عدو لا يعرف المهادنة معه ؛ لأن الكذب هو الوجه القبيح لأهريمن صاحب الفكر الشرير وتصدر جميع المساوئ عن هذه الصفة ، والكذب يزلزل الهدوء العظيم للضمير ويتسبب في الاضطراب ، والكذب مبعث الحرب ومصدر الجرائم والشقاء .

ولهذا السبب فإن الأشخاص الذين يتبعون الكذب لا يحققون آمالهم ومحكوم عليهم بالفناء ، ولكن الشخص الذي يتبع الصدق يجعل سوق الكذب في كساد ويلحق ضربة ماحقة بأهريمن صاحب المذهب السيئ .

وفي هذا العصر الذي يمكن أن نسميه عصر الكذب بدلاً من عصر الذرة ، في هذا القرن الذي ينتشر فيه الكذب في كل مكان أكثر من انتشار الصحف ودور السينما وأجهزة الراديو ، وهو يسفر عن وجهه الكريه ، في هذا العصر الذي يبدو فيه

حتى الهواء الذى نستنشقه ملوثًا بالكذب (لأن الموجات اللاسلكية تنقل الأخبار الكاذبة من دولة إلى دولة أخرى مما جعل العالم تحت وطأة ظلمات كثيفة من الأكاذيب) ، فى ظل ما سبق كله تحتل رسالة زرادشت الثورية اهتمامًا خاصًا .

وكأن زرادشت قد خاطب حكام العالم المعاصر الذين امتزجت حياتهم كلها بظلام الكذب ، فيقول فى أحد المواضع : (أنتم أيها المفسدون من جنس قبيح ، من جنس الكبر والفساد ، وإن الأشخاص الذين مدحوكم هم أمثالكم ، كما أن أعمالكم السيئة قد فاحت رائحتها فى جميع دول العالم منذ زمن طويل) . ويصرخ زرادشت فى حماس زائد : (إن الشكوى من معلم الكذب[1] الذى ضرب هدف الحياة وجعل قلوب الناس مهزوزة بمواعظه وتعاليمه السيئة والمخزية فمنع الناس من القيام بأعمالهم الطيبة وحال دون وجود حكومة مستنيرة نقية الضمير) .

ويشن زرادشت حملة شديدة على الأشخاص الذين يحمون الكاذبين فيقول : (يا إلهى إن الشخص الذى يسىء إلى نور الشمس ، والشخص الذى يمدح المفسدين ويحترمهم ، والشخص الذى يعيث فسادًا فى الحدائق والمراعى ، والشخص الذى يرفع سلاحه ضد الأبرياء والعزل أنصار الصدق – إن هذا الشخص عدوى ، عدو مذهبى ، وهو هادم لقواعد مذهبى) .

ويصدر زرادشت أمرًا قاطعًا إلى أنصاره بأن يعارضوا الكاذبين بشدة وأن يتمردوا على أوامر أهريمن .

لا ينبغى على أى شخص أن يسمع أكاذيب المفسد أو أن يطيع أوامره ؛ لأن مثل هذا الشخص يخرب البيت والولاية والبلاد ويجعلها دائمًا فى حاجة ، لهذا حاربوا مثل هذا الشخص بالسلاح وأبعدوه عنكم .

إن هؤلاء الحكام الكاذبين الذين يدَّعون أنهم يديرون العالم ويتزعمون البشرية هم الأشقياء المفسدون الملوثون بالجرائم والفساد ، وينبغى عليهم الاهتمام بكلمات

(١) يقصد بمعلم الكذب أهريمن إله الشر . (المترجم)

زرادشت المضيئة ، وليعلموا أن الكذب محكوم عليه بالفناء وفى النهاية فإن هذا الصدق سوف ينتصر مع ضعفه فى ظاهر الأمر .

وكم أحسن زرادشت حينما قال : (يا أهورا مزدا ليُهزم أنصار الكذب أمام عقلك المقدس وليس أنصار الصدق ، حتى إن كان أنصار الصدق ضعافًا وأنصار الكذب أقوياء وأثرياء) .

حرية الإرادة

وإحدى الخصائص السامية التى لا حصر لها فى مذهب زرادشت هى أنه لا يعتبر الإنسان مجرد ترس فى آلة من بين آلات النظام الصناعى العظيم ، بل يعتبر أن كل الأفراد مسئولون عن أفعالهم ، وفى نظر زرادشت فإن أى شخص مسئول عن مصيره وكل إنسان ينسج خيوط حياته بالشكل الذى يروق له ؛ فهذا يرتدى حريراً ناعماً جميلاً وهذا يرتدى قماش الكتان الرخيص البسيط .

وعلى حد قول پروين اعتصامى[1] : (إن أردت أن يكون محصولك طيبًا فلا تزرع فى أرضك إلا البذر الطيب ، وما غرسته فى أثناء الزراعة سوف تجنيه وقت الحصاد) .

إن الإنسان الذى يكون فكره وعمله وقوله سيئًا سوف يعد متكأً لنفسه وللآخرين فى جهنم ، وبالمثل فإن الإنسان الذى يكون فكره وعمله وقوله حسنًا فسوف يعد لذاته متكأً فى الفردوس الأعلى .

الخلاصة : إن هذا الإنسان، الذى بيده أن يكون حبيس المصائب والنوائب، بيده أيضًا أن يخلص نفسه بعقله من هذا السجن . وللخلاص من هذه المصائب يأمر

(١) پروين اعتصامى (١٩٠٦ - ١٩٤١) : شاعرة مشهورة فى العصر الدستورى ، يقوم شعرها على أسلوب المناظرة فى الغالب وشعرها كذلك ذو طابع إنسانى واجتماعى . خسرو ، شافعى : مائة شاعر ، ترجمة محمود علاوى (المجلس الأعلى للثقافة) . (المترجم)

زرادشت العظيم أن نهذب إرادتنا بحيث تسعى فقط للخير وتبتعد عن السوء والفساد لأن إرادتنا هذه هى التى توجه دفة سفينة حياتنا ؛ إذًا مصيرنا مرتبط بإرادتنا .

إن المصائر المتدنية هى حصيلة إرادات متدنية ، والمصائر السامية المتألقة نتيجة إرادات مهذبة ، وعلى حد قول صائب[1] : (ما ذنب الفَلَك إن كان ليلنا بلا سَحَر ؟)

والمقصود بهذا أن نجاة الشخص وتحرره فى يده هو ، ويجب على كل شخص أن يتجنب المساوئ عن طريق مساعيه الشخصية ، ويمكن له أن يدرك مصيره عن طريق الفكر والقول والعمل الحسن بناء على عظمة المصير .

مفهوم الذنب من وجهة نظر زرادشت

وفى مذهب زرادشت على الرغم من أن الشر يعد حادثة سيئة ، لكن لا يمكن تجنبه أو علاجه ، ولهذا السبب فإن مفهوم الذنب يختلف كثيرًا فى مذهب زرادشت عن مفهوم الذنب فى المسيحية والأديان الأخرى ؛ وبمعنى آخر فإنه وفقًا لقواعد الدين المسيحى فإن الذنب قوة شريرة تكمن فى الإنسان وهى دائمًا تسوقه إلى طريق الضلال ، ولكن فى مذهب زرادشت فإن إرادة الإنسان أقوى من القوى الظالمة للذنب وإن بإمكان الإنسان أن يتجنب الذنب أو يستسلم له وذلك متعلق بإرادته ، علاوة على أنه فى دين المسيحية يعتبر الذنب جرحًا لا يمكن أن يلتئم ، وفى مذهب زرادشت فإن الذنب يمكن علاجه[2] .

وإذا ما نظرنا إلى الحقائق السابقة سندرك أنه ليس فقط السعادة والشقاء بل حتى الإجرام والبراءة فى يد الإنسان، وأن الإنسان يمكنه أن يستفيد من حرية الإرادة

(١) صائب : شاعر إيرانى شهير ، ولد فى أصفهان عام ١٠١٦ هـ ، وتوفى عام ١٠٨١ هـ ، واشتهر كواحد من أساتذة السبك الهندى . (المترجم)

(٢) هنا يقابلنا نوع من التناقض فى حديث المؤلف ؛ إذ ذكر فى أول الأمر أن الشر فى مذهب زرادشت لا يمكن علاجه ثم قال إنه يمكن علاجه ؟! (المترجم)

فإما أن يجعل حياته برداً وسلاماً أو مأساة حزينة ، ولو أن الإنسان فى صراعه مع الشر لم يتبع أسلوب المهادنة فإنه سوف يسعد، وأما إذا ترك نفسه ألعوبة فى يد الشر ولم يحاربه فإنه سوف يغرق فى الذنب ويصبح شقيا تعساً .

أو على حد قول "روندياد" : (أنتم أيها المذنبون تذهبون من تلك الدنيا إلى جهنم بسبب عملكم وضميركم) .

وقد ورد فى مخطوطات زرادشت أن الخير والشر أصل بمرور الأيام يكون له فرع ، وبهذا المعنى فإن أعمالنا الخيرة والشريرة تتزايد بمرور الأيام .

أى أننا لو فعلنا فى الشباب خيراً فإن رصيدنا المعنوى من الخير يتزايد عدة مرات ، لكن لو ارتكبنا اليوم ذنباً فإن هذا الذنب سوف يتزايد غداً دائماً ، إذاً علينا أن نسعى لزيادة رصيدنا فى بنك أعمال الخير يوماً فيوماً ولا نساعد على زيادة "فاتورة" حساب ذنوبنا .

ما هى الذنوب ؟

الذنوب العظيمة كما وردت فى كتاب الأفستا : عدم العفة، والخسة، وحب النفس ، والطمع ، والربا ، وعدم الاعتراف بالحق ، والغرور ، والأنانية ، والكذب (وهو أعظم الذنوب) ، والتمرد، والمخادعة، والسحر، والاعتقاد فى الخرافات، وعدم الوفاء بالعهد (ذنب يماثل الكذب) ، والحنث باليمين ، والظلم ، والسرقة ، والدناءة ، وسوء النية ، والحقد ، والغضب ، والافتراء ، والمداهنة ، والتكاسل ، وعدم الاكتراث بالأمور الأسرية والاجتماعية ، والخيانة ، وعبادة الأصنام ، وظلم الحيوانات ، وممارسة الرياضة الروحية ، والتسول ، والإسراف ، وتعدد الزوجات ، والفحشاء، والزنا، واللواط ، وعدم مراعاة الوصايا الصحية ، وعدم الطهارة ، والانتحار ، والقتل ، والمبالغة فى البكاء من أجل فقيد ، والبقاء فى الجهل عمداً .

فروهر : (Fravahar)(١)

يكتب السير جيرد اورنك فى كتاب "عبادة التوحيد فى إيران القديمة" فى هذا الشأن :

فروهر هو فهرست الأدب والقواعد الأخلاقية لكتاب الأفستا ، وقد رسم فروهر على شكل طائر له جناحان ، وهذه الأجنحة دليل على أن الإنسان يجب أن يسعى للتقدم دائماً ، وقسمت هذه الأجنحة إلى ثلاثة أقسام أو ثلاث درجات ، وذلك الشكل يعنى الفكر الحسن والقول الحسن والعمل الحسن ، ويوجد وسط هذا الشكل حلقة أو دائرة ، والحلقة تدل على دائرة الأيام الطويلة غير المحدودة التى يعيش فيها الإنسان ، ويجب على الإنسان وسط دائرة الأيام هذه أن يفكر فى التحرر والطيران .

ووسط هذه الدائرة يوجد فرعان ظاهران ومعلقان ، وهذان الفرعان يشيران إلى الخير والشر أو (سبنت مينو) و (انجره مينو) وداخل هذه الحلقة فرعان آخران ينقسمان إلى ثلاثة أقسام ، وهذا الشكل يشير إلى الفكر السيئ والقول السيئ والعمل السيئ ، والمقصود من وراء هذا أنه يجب على الإنسان أن يستعين بقوة الخير لكى يتخلص من الصفات الذميمة فيجعلها عاجزة تماماً .

اهنوور :

تشكل (اهنوور) بالنسبة للمسيحيين والهنود الأهمية نفسها التى تشكلها للزرادشتيين ، فاهنوور بداية كل شيء ونهايته ، (واهنوور) هو حلقة الاتصال بين السرمدية والعدم .

وقد نظم البروفيسور عباس مهرين معنى (اهنوور) شعراً كدعاء مقدس كما يلى :

(كانت الحياة فى ذلك الوقت بدون أهورا مزدا مجرد ظل للإله العظيم

وهكذا قال زرادشت اتبع أهورا مزدا بروحك

(١) فروهر : هى القوة التى تنزل إله الخير أهورا مزدا من السماء لكى يقوم برعاية الخير فى الأرض وهو طائر وسطه رأس إنسان ذى جناحين . (المترجم)

وعندما يرعى أهورا مزدا الجسد فإن فى ذلك رعاية للروح

وانظر إن الروح من الجسد والجسد من الروح وهما مثل جوهر به فص جميل

واتخذهما دليلاً لك كما قال الإله الأعظم أو النفس الكل

إذًا إن "اشا" هو سر الحياة والنفس الكل فاعبده بروحك) .

ولما أن الأعمال وفقًا لمذهب الطبيعة يمكن تحديدها، فإن العطاء الذى هو الضمير الطاهر والعقل السليم يصل فى النهاية إلى صاحبه أى إن كان خيرًا فخيراً وإن كان شراً فشراً .

(اعلم أن تلك القدرة من "إله الخير" .. واعلم جيداً أن العقل الكل من إله الخير أيضاً

صل بين النفس وإله الخير .. واجعل عملك قائمًا على هاتين القاعدتين

وإذا أصبحت أعمالنا لوجه الله فإن الله يمنحنا القوة

إن تلك القوة لأهورا مزدا تصبح حياة بعد ذلك لك مثل الله

ولو كانت حياتك لوجه الله فإن الحق يمنحك القوة

وكما أن لكل جسد روحاً فإن لكل ظاهر باطنًا

اللفظ صغير ولكن المعنى عالم مثل القدرة بحر لا حدود له

فإذا وجد الإنسان السعادة السرمدية واستمتع بالهبة الربانية فإن إله الخير يمنحه القوة الروحية

اعلم أن مثل هذه القدرة ، هى قدرة أهورا مزدا

إذا منحت قدرة الحق لعبد صار محرم سر الحق

إن قدرة الله لا تمنح لشخص وضيع تستوى عنده الدنيا والدين

إذا اتصل ماء النهر بالمنبع ، ترى قوة آلاف المنابع فيه

وإذا اتصل جزء منك بالكل ، ترى الشوك بجوار الورد

وإذا أصبحت قدرتك بصيرة فإنك تعرف أسرار الروح والجسد معًا) .

وكل من وجد القوة الإلهية وتجاوز الجسد واتصل بعالم الروح فإنه يتخلص من أسر العالم المادى ويصبح مرشداً :

(كل من أصبح درويشاً فى نهاية حياته وختم حياته بالصدق والخير

نصبح خالصاً وكاملاً فى نظرنا وهو ليس الحق لكنه دليلنا إليه

وكلمة "دركوبيو" فى اللغة القديمة تعنى درويشاً لكنه درويش من أجل الروح

وهو الفقير وفخره أنه حيثما وجد الحق اتجه إليه

وأمام الحق يصبح الملجأ إليه فقط ويكون الجسد والروح مثل كفتى ميزان

ولاشك فى أن هذين البابين العذب والمالح هما الروح والجسد

واعلم أن "الروح والجسد" موجودان لديك "وبينهما برزخ لا يبغيان"(١)

إن الله هو مانح الروح .. وكل من طلب الروح أصبح عاشقاً

إن معنى الروح سر الحياة ويمكن أن تبلغ ذلك عن طريق العبودية

وتلك الروح هى التى يقول فى شأنها سبحانه "ونفخت فيه من روحى"

وقد شرحت "كلمة اهنوور"(٢) هكذا فانظر إلى عالم الروح فيه.

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى(٣)

أيجوز أن أهورا مزدا المستغنى يدلنا على السبيل إلى التضرع

وعندما أصلى لك أيها العقل الكل

(١) { بينهما برزخ لا يبغيان } الرحمن : آية ٢٠ . (المترجم)
(٢) اهنوور تعنى نفس معنى الكلمة لدى المسيحيين وهى بداية كل شىء ونهايته .
(٣) هذه القطعة وردت فى كتاب زرادشت ونظمها البروفسور عباس مهرين وتشمل معظم تعاليم زرادشت ، ولا نبالغ لو قلنا إن كل رسالة من رسائل زرادشت بمثابة سيمفونية ويمكن أن نعتبر أن هذه السيمفونية رقم ٤٤ لزرادشت . (المؤلف)

فإنك إن تساعد النفس الودود تأت بالخير إلينا .

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

كيف كان العدم ، ومن أى شىء كان هذا الوجود ،

وكيف نستريح ، وما حقيقة هذه الحياة ؟

وكيف يتجه الناس إلى إله الشر (أهريمن) ويبتعدون عن أهورا مزدا (أو إله الخير) والنفس ؟

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

من خلق الجوهر أولاً وخلق النفس وكان الخالق

وخلق الشمس والنجوم وأظهر القمر فى السماء ؟

أريد أن تخبرنى يا أهورا مزدا بمثل هذه الأسرار والأسرار الأخرى .

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

من خلق السماء فى هذا العالم ، ومنعها من السقوط على الأرض ؟

ومن خلق العشب والماء ؟ وخلق الهواء والسحب ؟

وساق الغيث إلى كل مكان، .. قل لى حتى يعمَّ الخير .

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

من المسئول عن النور والظلام .. والنوم واليقظة ؟

فحيناً يخلق الصبح وحيناً يخلق الظهر فيجعل النهار ليلاً والليل نهاراً

حتى إن العالم يتوجه إليك عند الصلاة متضرعاً

هل حقًا ما أردده عن الدين والروح ؟

ومتى تمد النفس الكلية يد المساعدة للنفس الإنسانية فنسعد ؟

ومتى يرفق بنا العقل السليم بأمرك فتصبح الروح خالدة ؟

لقد خلقت كل الموجودات فقل لى أى شىء منها يسعدنا ؟

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

من يجعل النفس سامية ومن يجعل النفس ذات قيمة ؟

يجعل الابن فى عين الأب محبوباً ومعشوقاً ؟

يا من أنت نور أجب عن سؤال عبدك .

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

إن الإرادة أصبحت عندك مثل الرسم (لا قيمة لها) وأطلب منك

أن أعرف دينك جيداً أهو روح أم جسد ، أقديم أم جديد ؟

إننى أفكر وأسير فى ذلك الطريق ولن أحيد عن طريقك

فقل لى أيها الخالق ما هو أفضل الجزاء فى العمل يمكن أن تمنحه لنا ؟

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

كيف أعرف أن ذلك الدين صحيح وأنك أهورا مزدا إله الخير

الخالد إلى الأبد فى كل مكان ؟ ولتمنح المكان المناسب للأطهار

وسأبقى فى المكان الروحانى سواء مع النفس الإنسانية أو النفس الكلية

وليعلمنى أهورا مزدا الطريق الطاهر حتى تنشأ النفس نقية وساطعة .

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

أين ذلك الدين الذى يجعل من تلك الروح فردوساً لى ؟

فيبتعد "أهريمن" إله الشر عنا ذلك الذى يأتى بالظلام لنا

قل لى كيف يصبح هذا التراب الأسود نوراً ؟ فاجعل هذا القلب الملوث لنا قلباً طاهراً .

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

قل لى من يعبد أهورا مزدا كيف يساعده ؟

فقد اخترتك أنت منذ بداية الأمر وإنى لأقدسك كثيراً أيها الإله

وليس سواك إلا أهريمن وهو فى نظرى العدو اللدود .

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

قل لى من هم أخيار الدنيا ومن هم الأشرار ؟

من يميل إلى أهريمن ومن يميل إليك ومن يعلمنى هو رسول منك

وعندما أؤازر نصير الكذب فإننى أنصر الكذب على الحق

ولا يعلم شيخ الطريقة شراً لنفسه ، فكيف أعلم أنا خيرى من شرى !

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

هل يمكن أن أفرط فى مقام رفيع إلا لو كنت وحيداً من الأشخاص المتمردين

فمن لا يسعى إلى النفس الكلية لا يتذوق حلاوة عالم الفطرة الحقيقية

وإنى لأبتعد عن مثل هؤلاء الأخساء وأخشى أن أفقد مقام الأخيار .

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

هل يمكن أن أكذب وأقول إن العالم بلا نور ؟

إذن سأفقد النفس الكلية الودود التى يبدو اسمها مفقوداً من العالم

يا أهورا مزدا امنحنى القوة الخالدة وامنحنى الهمة وأيدنى .

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

إن أهريمن (الشيطان) يبتعد عنى ولن يتجه نحوى ثانية بخداعه

وإذا التقى جيشا الخير والشر فسوف أدخل الصراع

ويستوى عندى من يفوز أو من يخسر مادام بينهما أهورا مزدا الرحيم .

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

من سيتغلب بين الحكام علانية وخفية ويسود الجميع ؟

أنر قلبى بالعلم الساطع يصبح راعياً وقائداً للجيش

وتصبح الفطرة النقية دليلاً لنا وحارساً مثل العين والأذن

إن ذلك الشعاع الذى يأتى إلينا منك هو لاشك أفضل دليل لنا .

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

حيثما أذهب معك أصبح سعيداً ومسروراً بهذه الصحبة

أيها الغنى أتوجه إليك بقلب زاخر بالحب ووجه يعلوه التضرع

وأثنى عليك وأسألك عن الأسرار بهذه الصحبة

ولو تساعدنى النفس الكلية الودود فإنها تمنحنا هذين الطاهرين

أى الصحة والخلود ، والصحة من ذلك والسرور من هذا .

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

يستوى عندى جمل أو جواد أو عشرة آلاف من الجياد

أيتها النفس إن الشيء الأفضل من كل هذا أن يحل قلبى مكان الشيئين الطاهرين

فالصحة والخلود فيهما، والعافية والسعادة فى هذين الشيئين الضئيلين .

أسألك يا أهورا مزدا فقل لى

إن من ينقض العهد هو من لا يعطى الأجير حقه

إذاً ما جزاء مثل هذا الناقض للعهد ؟ بصرنى يا أهورا مزدا

وعلى الرغم من أننى لا أعلم منذ البداية ماذا كان .. وماذا حدث ؟

فإننى أعلم بما سيحدث وهو أنه سوف يموت ويذهب إلى جهنم مباشرة

هل يمكن أن يأتى من الشياطين خير ؟

وسؤالى المهم : كيف يصبح عمل الله عمل الشيطان ؟

وكيف يصبح جميع الشياطين الصعاليك ملوكًا وأولئك القطيع ؟

وحتام الذى سمى نفسه الذكى ويزيد الشر فى عالم الخير

ذلك الطريق الذى يسلكه الأشرار لا يسلكه الرب الودود

فهذا يأتى بالخير للناس وذاك يأتى بالشر الكثير) .

تأثير زرادشت فى حافظ

قيل إنه عندما حفظ حافظ الشيرازى القرآن سموه حافظًا ، ولكن مما نستنبطه أن حافظ الشيرازى قد حفظ "الأفستا" .

ولما كان البحث فى هذا الموضوع يخرج عن مضمون هذا الكتاب لذا فإننا نكتفى بالإشارة ، وسيشعر القراء الأعزاء من خلال الأبيات التالية تأثر حافظ الشديد بزرادشت :

(هات الخمر المعتقة لأحكى هذه الحكاية الشهيرة وأبحث فى الإسلام

فلم أجلس قط لدى زاهد ظاهرى العبادة لا يرتدى تحت الخرقة زنارًا خفيًا "حزام الزرادشتيين"

أنا مريد كبير الزرادشتيين فلا تتبعنى أيها الشيخ ، فلماذا وعدت أنت بينما هو أوفى بوعده

ما الفرق إن كان كبير الزرادشتيين مرشدى فمادام السر ليس من الله فليس هناك سر

الصدر نار معبد فارس والعين ماء نهر دجلة ببغداد

يغنى البلبل على غصن السروة اللحن البلهوى وبالأمس يغنى درس المقامات المعنوى

جدد بالروض المذهب الزرادشتى .. إن الشقائق الآن أضاءت نار نمرود

لماذا أتحمل عن السماء سر كبير الزرادشتيين والحظ فى هذا السر والسعادة فى هذا السر

لو فتح لى باب حانات الزرادشتيين لتيسر لى الإيمان

لأن الزرادشتى يحبنا فإن ناره لا تنطفئ من قلوبنا أبداً) .

التقليل من أذية الحيوانات

يؤكد زرادشت على عدم أذية الحيوانات غير المؤذية والمفيدة (مثل الثور والحصان والكلب وغير ذلك)، ويوصى كذلك بأن نقتل الحيوانات والحشرات المؤذية (من قبيل الضفدعة والحية والعقرب والذئب والذبابة والبعوضة) .

وكما أن فى أذية الحيوانات المفيدة ذنبًا فأيضًا فإن فى أذية الحيوانات المضرة ثوابًا .

والكلب هو أفضل صديق للإنسان ، وقد كان الكلب فى إيران القديمة عزيزاً ، حتى إن قتل الكلب الواحد كان بمثابة قتل إنسان ، وهناك احتمال قوى أن الكلب الصديق الذى ينتشر فى أوروبا قد ذهب من إيران إلى أوروبا عن طريق (روما) ويقوى هذا الاحتمال أكثر عندما أتذكر أن كثيراً من الأعياد والمراسم الأوروبية ومن بينها (الكريسماس) كان فى الأصل إيرانيا وعن طريق روما انتشر فى أوروبا .

مقام المرأة فى المذهب الزرادشتى

ويمكن أن نقيس عظمة كل حضارة بدرجة الاحترام الذى تبديه تلك الحضارة تجاه المرأة ، ولاشك فى أن المقصود من هذا الاحترام ليس الاحترام الذى انتشر فى أوروبا فى عصر الفروسية ، بل الاحترام الذى يعترف للمرأة بالحقوق الاجتماعية والسياسية التى يحظى بها الرجل .

وقد منحت المرأة فى المذهب الزرادشتى مكانة محترمة ، بمعنى أن المرأة متساوية مع الرجل فى جميع المجالات ، كما أنها ليست موضع تحقير أو إهانة بأى شكل من الأشكال .

وكما أن الزوج يعد سيد البيت فإن الزوجة هى الأخرى تعد سيدة البيت ، وكما أن الرجل مشغول بالحرب فى الجبهة الخارجية فإن المرأة هى الأخرى مشغولة بجبهة الحياة .

والمكانة التى منحها زرادشت للمرأة فى غاية الأهمية ، وفى العالم القديم كان ينظر إلى المرأة باعتبارها أَمَة ، حتى فى روما التى كانت أرقى دول أوروبا ، كانوا يعتبرون المرأة ملِكًا للرجل ؛ أى كانوا يعطونها للرجل ، وكان الرجل يفعل بالمرأة ما يحلو له ، ولكن زرادشت أدرك بنظرته الثاقبة أن التقليل من شأن المرأة أمر ظالم ومتعسف بل أحمق وينبغى التخلص من هذه الطريقة فى التفكير .

وفى المذهب الزرادشتى فإن مسألة اختيار الزوج أو الزوجة أمر مطروح ، وبعبارة أخرى ليس للمرأة الحق فى أن يكون لها أكثر من زوج وليس للزوج أن يكون له أكثر من زوجة ، والطلاق فى هذا المذهب جائز ولكن تحت شروط صعبة للغاية ، وقد اعتبرت "جهيكا" أو المرأة ذات العمل السيئ فى المذهب الزرادشتى من أنصار أهريمن . وقد أدرك زرادشت أهمية دور الأم فى تعليم الأبناء وتربيتهم ؛ لهذا أكد على أنه يجب على الفتيات أن يتعلمن العلم والفن أكثر من الفتيان ، وللأسف منذ سقوط الدولة الساسانية(١) فقد ساء حال المرأة الإيرانية بشكل ملحوظ(٢) وإن تردى حال المرأة لا يزال قائمًا بعد مرور ١٣ قرنًا ، هذا الأمر لم ينصلح بعد !

(١) سقطت الدولة الساسانية على أيدى المسلمين عام ٦٥١ م . (المترجم)

(٢) هذه مبالغة من المؤلف فالمرأة الإيرانية الآن - أى فى الوقت الحالى - تحظى بجميع الحقوق السياسية والاجتماعية ، ولا أظن أن الدولة الساسانية قد أعطت للمرأة الحقوق التى تتمتع بها الآن . (المترجم)

فلسفة النار

إن جوهر مذهب زرادشت هو الطهارة والنقاء ، ولما كانت النار هى أعظم مطهر فهى لذلك أبرز عنصر، ومن هنا صارت النار رمزًا لهذا المذهب، وعلى النقيض مما يتصور البعض ، إن الزرادشتيين لا يعبدون النار بل إنهم يتخذونها رمزًا لأهورا مزدا[1] .

ويقول الفردوسى رحمه الله فى هذا الصدد : (لا تقل إن عبدة النار أشرار بل إنهم عبدة أطهار لله) .

لقد أحسن زرادشت باختياره النار رمزًا لمذهبه وبهذا الشكل طلب من أتباعه :

١ - أن يكونوا مثل النار الطاهرة الساطعة .

٢ - كما أن النار دائمًا تصعد إلى أعلى عند اشتعالها فيجب عليهم أيضًا أن يتوجهوا إلى أعلى نحو الروحانيات .

٣ - وكما أن شعلة النار لا تنجذب أبدًا إلى أسفل فيجب على أتباعه ألا ينحدروا إلى الغرائز الجسمانية الرذيلة ، ودائمًا يجب عليهم أن يضعوا نصب أعينهم الآمال المعنوية العظيمة .

٤ - وكما أن النار تطهر الأشياء الملوثة ولا يدنسها أى شىء فيجب على أتباعه أن يحاربوا الشر دون أن يلوثوا أنفسهم به .

٥ - وكما يمكن إشعال النار من الشرر فأيضًا يمكن إضاءة الروح الإنسانية بنور الإله الأعظم .

٦ - وكما أن النار تجعل أى شىء مثلها ساطعًا لذا يجب على كل زرادشتى بعد أن يحظى بنور الإله الأعظم أن ينير الآخرين من فيض هذا النور .

٧ - إن النار مصدر الجمال وأساس الحياة ، والنار نشطة لا تهدأ وهى عدوة الركود والخمول ، لذا يجب على كل زرادشتى أن يكون نشطًا مثل النار وألا يكف لحظة عن العمل والسعى حتى نهاية عمره . ولكن ما هى تلك النار التى تطهر الإنسان من الدنس داخله ؟ إن تلك النار ليست سوى النفس الكلية التى يمكن الحصول عليها عن

(١) دخلت العقيدة الزرادشتية الدين المسيحى فى القرون الوسطى وقد عبر أحد القساوسة عن هذه العقيدة فى جملة واحدة : (lux umbra Dei) أى : نور ظل الله . (المؤلف)

طريق القول الحسن والفكر الحسن والعمل الحسن ، كما أن الروح الخيرة بعد أن تقطع المراحل الثلاثة المذكورة تدخل فى فضاء النور السرمدى ، فتحظى بنور الله .

لم يكن احترام النار معمولاً به فقط بين الزرادشتيين ، بل إن كثيراً من الشعوب مثل الرومان واليونانيين والألمان واليهود ومنطقة البلقان والمسيحيين والهنود قد قدسوا النار بشكل أو بآخر .

حتى فى القرآن قد ذكرت النار والنور بالخير[1] ولكن خلافًا لسائر المذاهب التى اهتمت بالنار المادية فإن زرادشت قد اهتم بالنار المعنوية ؛ أى أنه كان يعتقد أنه مثلما أن النار تطهر أنواع الدنس المادية فإن النار الإلهية تحرق أنواع الدنس الباطنية ، وتمحق أبناء الظُّلمة أى التكاسل والجهل والإباحية .

والنار مصدر النشاط ، بل هى مصدر نشاط لا ينتهى ! وهى رمز لسمو الروح داخل المادة ، والروح دائمًا نشطة خلافًا للمادة ، والنار مثل المادة دائمًا فى حالة من النشاط ، ولما كانت النار مثل الروح لذلك فإنها لا تستسلم لقانون الجاذبية على النقيض من معظم المظاهر المادية ، ولهذا السبب فإن شعلة النار تميل دائمًا إلى أعلى وليس إلى أسفل، والنار فى المعابد الزرادشتية دائمًا مشتعلة كرمز لروح الإله ، حتى إن شُعَلَها قد تصل إلى عنان السماء ، ويمكن اعتبار أن هذه الشعلة التى تصعد إلى أعلى رمزًا لسعى الإنسان فى سبيل التطور .

ويجب احترام النار لأنها رمز للنور السرمدى الذى تكمن شرارته داخل قلب الإنسان وهو دائمًا يهديه إلى الفكر الحسن والعمل الحسن والقول الحسن .

(١) "الله نور السموات والأرض" وردت هذه الآية أكثر من مرة فى القرآن . (المترجم)

رأى رابندراناته طاغور[1]

لقد قال طـاغور ضمن مقـالة قيمة له بعنوان "شعاع فلسفة إيران القـديمة" وهى تتعلق بمذهب إيران فى شأن زرادشت وتعاليمه :

(إن زرادشت أول شـخص فى تاريخ العـالم أتى بدين فى شكل أخـلاقى ، وزرادشت أعظم نبى ظهر فى تاريخ البشرية[2] ، وقد حرر البشرية من وطأة العادات والتقاليد الجوفاء عن طريق فلسفته)[3] .

(لم يكن زرادشت الشخص الذى صادف حقيقة وأعلنها فى فلسفته كشخص أشعل مصباحًا نتيجة لمجرد احتكاك عشوائى وسمح لأتباعه المقربين بأن يستفيدوا من هذا النور ، بل إن زرادشت كان بمثابة حارس وقف وحده على قمة جبل حاد الارتفاع منتظرًا طلوع الشمس، وعندما رأى أول بزغة من نور الشمس لاحت فى الأفق أيقظ العالم النائم من نوم الغفلة بتراتيل من النور) .

أثر أفكار زرادشت

فضلاً عن الأدب الإيرانى[4] فإن أفكار زرادشت كان لها تأثير قوى وخاص فى جميع أنحاء العالم بدءًا من الصين وانتهاء بإنجلترا ، وقد وصل تأثيره فى الأيام الأخيرة حتى أمريكا ، وقد افتتحت فى هذه الدولة المذكورة النوادى والمدارس الزرادشتية كما انتشرت الكتب والمجلات العديدة المتعلقة بأفكار زرادشت .

(١) طاغور (١٨٦١ - ١٩٤١) شاعر هندى من أعلام الأدب العالمى ، ولد فى كلكتا ١٨٦١ وتوفى عام ١٩٤١، امتاز شعره بروح التدين والوطنية . (المترجم)

(٢) قد يكون زرادشت ذا فكر طيب وبناء ، لكن الحكم عليه بأنه أعظم نبى ظهر فى تاريخ البشرية ، قول مرسل من المؤلف يحتاج إلى كثير من الأدلة والبراهين . (المترجم)

(٣) يعد زرادشت مصلحًا اجتماعيًا وصاحب مذهب وضعى ولا يعد مذهبه رسالة سماوية . (المترجم)

(٤) يقول الدقيقى : يحب الدقيقى (شاعر إيرانى) أربع خصال فى الدنيا من كل خيرها وشرها : (شفة ياقوتية ونغمة الصنج وشفة حمراء ، والمذهب الزرادشتى) . (المؤلف)

ويُرى أن التـأثيـر المباشـر لزرادشت كان أكثـر وضـوحـًا فى الفلسـفـات الهندية والألمـانيـة والمذاهب السـامـيـة ، وعلى سـبـيل المثـال فـقـد انعكس أثر القـواعـد الثـلاثة الزرادشتية (القول الحسن والفكر الحسن والعمل الحسن) فى أحـاديث زرادشت على كثير من الحكم : (كن منضـبطًا فى أعمالك وفى أحاديثك وفى فكرك ، كن منضـبطًا فى كل شىء) .

ويعتقد بعض الباحثين أن مصدر فلسفة سانكهيه (أى المذهب الفلسفى المعروف فى الهند) أسـاسـه أفكار زرادشت لأنه كـمـا يؤمن زرادشت بقـوتى الخيـر والشر فـإن فلسـفـة سـانكهيـه تؤمن بالمثل بقـوتين ، القوة المـادية (الشـر) والمعنوية (الخيـر) ويشـيـر إليهما سـانكهيه بـ : بورشا ، و بركريتى ، فبورشا يساوى اسپنتا مينو (قوة الخير) وبركريتى انجره مينو (قوة الشر) .

وتأثيـر أفكار زرادشت فى الحكم السـامـيـة واضح بحـيث أنه لا يحـتـاج إلى أن نذكره ؛ لأنه بقليل من الاطلاع نشـاهد موضـوعـات جـهنم والجنة والشيـطان والصراط المستقيم ، التى توجد فى الإسـلام وهى أفكـار مقـتبسـة من المذهب الزرادشتى[١] ، كمـا اقتـبس موسى وعيسى اقتباسـات مـهـمـة من الزرادشتية ، وقد كان هذا التـأثيـر واضحـًا مما دفع "مترلنيك" إلى القول : (إن الاطلاع على مذهب الإيرانيين القدامى مهم جدا بالنسـبة للمسيحيين ؛ لأن ثلاثة أربا ع أو حتى أربعة أخماس الدين المسيحى قد اقتبس من الإيرانيين)[٢] .

وقـد أثرت حكمـة زرادشت فى أفكـار أفـلاطـون وفـيـثـاغـورث وهيـراقليطس[٣] تأثيرًا كبيرًا ، وقد بلغ هذا التـأثير إلى الحد الذى يمكن أن نقول معه إن أساس فلسـفة أفلاطون وهيراقليطس المذهب الزرادشتى[٤]، وإن فلسفة أفلاطون مثل المذهب الزرادشتى كما أن فلسفة هيراقليطس تقوم على أن النار هى أصل كل شىء فى العالم .

(١) هذا حكم مرسل لا يؤخذ به لأن أغلب الرسائل السمـاوية نرى فيها الخير والشر والشيطان والجنة والنار ، ولا يعنى بالضرورة أن الديانات السماوية أخذت عن الزرادشتية . (المترجم)

(٢) هذا كلام مرسل يحتاج إلى برهان . (المترجم)

(٣) هيراقليطس (٥٤٠ – ٤٨٠ ق.م) قال هذا الفيلسوف : "بأن النار أساس كل شىء فى العالم" . محمد معين : فرهنك فارسى قاموس الأعلام حرف غ : ص ٥٦٢٢ . (المترجم)

(٤) فيثاغورس : فيلسوف ورياضى يونانى (القرن السادس ق . م) . (المترجم)

وقد انتقل التأثير الزرادشتى إلى إنجلترا عن طريق المسيحية ويتضح هذا التأثير فى وجود بعض الألفاظ الإنجليزية التى اشتقت فى الأصل من كلمات (الأڤستا) مثال ذلك كلمة Best بمعنى الأفضل وهى مشتقة من كلمة (بهشت) الجنة ، وكلمة (اشاوهيشتا) أصلها كلمة (Right) التى تعنى فى الإنجليزية (الحق) ، وكذلك كلمة (Rta)[1] أو (Asha) .

ويرى كذلك تأثير أفكار زرادشت فى فلسفة الألمان بشكل واضح فى أعمال كانت وهيجل ونيتشه ، حتى إن البعض قد بالغ وقال إن فلسفة هيجل تقوم على أفكار زرادشت .

وقد كان تأثير زرادشت قويا أو على حد قول "ماكس موللر"[2] : حدث فى بعض العهود أن الزرادشتية أوشكت أن تسود أطلال المعابد الخاصة بالآلهة وتغزوها ، حتى إن بعض أقسام التصوف السامى قد نبع من الزرادشتية . وكما يكتب العارف الهندى الشهير (جاتيندرا جترجى) : فى الحقيقة أنه بمجرد أن وصل الإسلام إلى أرض إيران تحول إلى عرفان ، كما تتحول دودة القز إلى فراشة ، وهذا التغير قد حدث مع ظهور مذهب الشيعة وبعد ذلك ظهر مذهب الإسماعيلية وانتهى بالعرفان الذى يعتبر الاسم الثانى للزرادشتية فى "زى عربى" .

ولا يخفى على أحد تأثير الزرادشتية فى المسيحية ، وقد استقت المسيحية تقديس "مهر" أى الشمس أو المحبة بعد أن نشأ فى هذا المذهب تحت رعاية الزرادشتية ، وتشبه المسيحية إلى حد كبير مذهب تقديس مهر (أو الشمس) ؛ إذ تصور البعض أن المسيحية قد نشأت عن المذهب المذكور .

وميثرا[3] (أى مهر) والذى كان من آلهة الإيرانيين المحبوبين قد مدح كثيراً فى كتاب الأڤستا (فى القسمين السادس والعاشر منها) وميثرا هو المدافع عن الحق ، ولهذا السبب فقد قيل إن له ألف عين وألف أذن ، ويعرف "ميثرا" جميع الأسرار وهو يراقب دوماً أحداث العالم ؛ ولهذا السبب لا يمكن لأحد أن يخدعه ، وميثرا حاكم

(١) Rta كلمة سانسكريتية تساوى كلمة Asha . (المؤلف)
(٢) انظر Max Muller : six syslems of Indian philosophy . (المترجم)
(٣) ميثرا Mithras : أكبر الآلهة فى الدين السابق على الدين الزرادشتى ، إنه إله الشمس ، ومع هذا فكل المعالم الخاصة بولادة السيد المسيح حتى تاريخ ميلاده فى ٢٥ ديسمبر نسبت إلى ميثرا ثم أعاد التاريخ نسبتها إلى زرادشت ، مع قدر من الاجتهاد فى التطور الفكرى . كامل سعفان : معتقدات آسيوية ص ٩٤ . (المترجم)

الأراضى المنتجة وعدو الغادرين وحامى الصادقين ، وميثرا هو السبب فى قوة أنصاره وهو الذى يجعلهم منتشين من سعادة الانتصار .

وليس سرا لو قيل إن زرادشت كان السبب وراء تأليف "الكوميديا الإلهية" لدانتى و"فاوست" لجوته و "الفردوس المفقود" لميلتون ، أو إن تلك الأعمال كتبت بطريقة متشابهة لأن أفكار زرادشت قد ألقت بظلالها العميقة على هذه الأعمال(١) .

الأفكار المهمة فى الزرادشتية

يوجد فى الزرادشتية بعض القواعد المهمة للغاية والقيمة التى جذبت أنظار الفلاسفة والعلماء فى جميع أنحاء العالم .

ونظراً لاتباع هذه القواعد فإن الزرادشتيين قد أصبحوا ذوى مقامات إنسانية سامية وفضائل أخلاقية عالية ، فلفت هذا المدح والثناء شعوب العالم المتحضرة إلى الزرادشتيين ، ولم يبالغ "ول ديورانت"(٢) حينما يقول : (إن للزرادشتيين أخلاقًا عالية وسجايا حسنة وهذا دليل فى حد ذاته على بقائهم ، ولهذا فقد كان للدين الزرادشتى أثر كبير فى تطور الحضارة البشرية) .

وإن كان الزرادشتيون على أخلاق عالية وجديرين بالمحبة فذلك مرده إلى المبادئ السامية التى يتبعونها ، وسنذكر بعضًا من هذه المبادئ كما يلى :

(أ) وفقًا لكتاب الأفستا فإن للزرادشتى ثلاث وظائف :

١ – يجب عليه أن يحب عدوه .

٢ – أن يطهر الإنسان الملوث .

٣ – أن يعلم الجاهل ، ولكن فى الوقت نفسه لا يجب أن ينسى ألا يطيل أمر الصداقة مع الخبثاء والأشرار . وقد ورد فى (يسنا) الباب ٤٦ الفقرة ٦ : (إن من يحسن على الخبثاء فهو نفس خبيثة) .

(١) هذا الرأى فيه مبالغة شديدة ويحتاج إلى إثبات . (المترجم)
(٢) انظر : Will Duront: Story of Civilization . (المترجم)

ويقول لبيبى[١] : (يقولون إن أول حديث فى كتاب زرادشت هو الذى يدور حول الإنسان الشرير) .

(ب) إن الإنسان وفقًا لتعاليم زرادشت ليس مثل عسكرى الشطرنج الذى يتحرك فى حرب متواصلة بدون إرادته، بل إن له حرية الإرادة إذ إن أهورا مزدا قد طلب أن يكون للأفراد شخصيات مستقلة وفكر خاص وأن يسيروا فى طريق النور بمنتهى الحرية[٢] .

وبناء على مذهب زرادشت فإن التسليم بالمقدورات هو طبع الحيوانات المتدنية ، وليس الإنسان السامى .

(جـ) إن مذهب زرادشت لا يخالف فقط (بعض) تعاليم الأنبياء الذين هم من أصل سامى ، بل إنه[٣] لا يلقى بالاً إلى الأمور المبهمة والمجردة ويركز اهتمامه على المبادئ الأخلاقية ويبتعد عن المظاهر الجوفاء والعادات والتقاليد الجافة .

وعلاوة على أن زرادشت يهتم دائمًا بالحقيقة على النقيض من الأنبياء الساميين[٤] ويضيق بالمبالغة فى الأخيلة التى تهرب من الحقيقة . ومن مزايا الزرادشتية العظيمة أنها تجعل الحقيقة على رأس جميع الفضائل ؛ لأن اتباع هذه الفضيلة أصعب من جميع الفضائل الأخرى ، ولا نبالغ لو قلنا إن اتصاف الفرد بالحقيقة هو المقياس الذى يمكن أن نقيس به أيضًا أخلاقه وشخصيته .

وباب الزرادشتية هو طريق الصدق والفضيلة والتقوى ، وطريق الصدق يساوى التعبير المعروف بـ Categorical imperative[٥] عند "كانت" أى أن طريق الصدق ليس محدوداً بمكان أو زمان وأنه فى كل مكان وزمان يمكن اتخاذه مقياسًا وميزانًا لتقويم

(١) لبيبى : شاعر فارسى شهير (فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس) وهو معاصر لفرخى الشاعر . (المترجم)
(٢) الشرق مهد الحضارة ، ول ديورانت ، القسم الأول ، ترجمة أحمد آرام .
(٣) كلام شديد عن الرسالات الدينية وهو غير حقيقى بالنسبة لبعضها على الأقل . (المراجع)
(٤) إن الحقيقة فى الرسائل السماوية شىء مقدس بل إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يرى أن المؤمن قد يرتكب كثيراً من المعاصى إلا الكذب . (المترجم)
(٥) يعنى هذا المصطلح الأمر المطلق أو المقولات المطلقة ، أى الصيغ العامة التى لا ترتبط بزمان أو مكان . (المراجع)

الأمور ، وطريق الصدق هو الصراط المستقيم ، وليس من فراغ أن "رتا" كلمة مرادفة في السانسكريتية للصدق وهي تعني الصادق والمستقيم أو المباشر .

والصدق شمس عالم الأخلاق وكما تشرق الشمس في كل مكان فيشاهد نورها ، أيضًا حينما يكون الصدق تكون الفضيلة والتقوى ، ولهذا ليس غريبًا أن النور في الزرادشتية هو رمز للحقيقة .

وبالنظر إلى النكات السابقة فلن نتعجب إذا رأينا "ويلهلم جايجر" و "ويتني" و "استا رميه" و "رضا توفيق" يعظمون قدر زرادشت على النحو التالي :

(إن زرادشت أقدم معلم وهو الذي بلغ النظريات والقواعد التي هي اليوم في عالم الحضارة الغربية باعثة على الرفاهية المادية والمعنوية للإنسان) . ويلهلم جايجر

وحرية الخيال والغيرة والحمية الدينية والذكاء الحاد والذوق الخاص بالنسبة للأشياء المستحدثة الأخلاقية والتي كانت دائمًا من خصائص الإيرانيين تشاهد بجلاء في كتاب زرادشت : "جاتها" . (استارميه)

ويمكن أن نستخلص الفضائل العملية والأخلاقية التي يوصي بها دين إيران القديم كما يلي :

(يجب زيادة الخير والعطاء في الحياة ، ويجب الأخذ في الاعتبار القوة الإيمانية للصراع الدائم "الجهاد المقدس" ضد الشر) .

(إن الإنسان يكون قويا دائمًا وصحيح البدن مع تطهير البدن والروح) .

(يجب مواجهة كل المصاعب والشدائد بشجاعة وتضحية وذلك بسلاح العفة والقوة) .

وفي النهاية يشير "ويتني" الأمريكي إلى القواعد الثلاثة : الفكر الحسن والعمل الحسن والقول الحسن ، فيكتب قائلاً: (أليست هذه الكلمات الثلاث هي كل شيء ، أليست أساس كل المذاهب ؟ وهل يمكن لأحد من [1] الفرس أن يضيف إليها شيئًا ؟)

(١) هذا تعبير المؤلف . (المترجم) .

أشعة شمس

إن حكمة زرادشت مثل بحر لا حدود له ، فهو بحر عميق لا ينقص ، وسنذكر لاحقًا شيئًا من أشعة حكمته الساطعة . ولا شك فى أن الفقرة الآتية ليست قسماً من كلمات زرادشت نفسه ولكنها تشتمل على أفكار زرادشت : يا زرادشت إن الطهارة والصدق هما أفضل الأشياء منذ بدء الخليقة ، ومذهب مزدا هو مذهب الصدق وكل شخص يستطيع أن يكون مستنيراً عن طريق (الفكر الحسن والقول الحسن والفعل الحسن) . (ونديداد - فرجرد - ١٠ - الفقرة ١٨) .

(أبعد نفسك عن التكاسل وإلا فسوف يمنعك عن العمل الحسن) . (منيوخرد)

(سوف أحارب دائماً شيطان الكسل لأن البطالة والتكاسل مضران لنا) .

(يجب أن تستمع إلى الشخص الذى يكون صادقًا حقا ويجب أن تصغى إلى المعرفة التى فيها علاج "آلام الحياة") .

(سوف نمدح أصدق علم لمزدا المقدس والذى فيه طريق الخير الذى يوصلنا إلى الصراط المستقيم) .

(يا إلهى أرشدنا إليك بالصدق حتى تصبح ضمائرنا طاهرة وطبيعتنا خيرة) .

(إن الجوهر بين التوأمين اللذين ظهرا فى بداية الخليقة أحدهما هو الخير (فى الفكر والعمل والفعل) ويختار من بينهما الرجل العالم الخير وليس الشرير) . (يسنا : ٣٠)

(وقد اختار عابد الكذب من بين هذين الجوهرين أشر عمل له ، ونصير الصدق هو ذلك الشخص الذى يسعى لرضا أهورا مزدا بعمله الخيّر) .

(يجب على كل منا أن يسابق الآخر إلى العمل الحسن وبهذا الشكل يجعل حياته سعيدة وهانئة) . (وهشتواشت جات - يسنا : ٥٣)

(يجب أن يحكمنا الملوك الأخيار أصحاب العمل الحسن والعلم الحسن ، وليس أولئك الأمراء الأشرار) .

(أيها الصدق اجعل عظمة الفطرة النقية فىَّ أنا) . (يسنا : ٢٨)

(إن الشخص الذى لا يسيطر على نفسه لا يسيطر على أى شىء) .

(إن الصدق هو مذهب الإله هو وقانون إيرانى) (منيوخرد)

(يا زرادشت إن خائن العهد والمخرب يملآن المملكة وهما مثل من يرتكب الذنب مئة مرة بل إنه قاتل للإنسان الخير ، يا زرادشت لا ينبغى عليك أن تنقض عهداً سواء مع متبع المذهب الصادق أو متبع المذهب الكاذب لأن العهد معهما أمر صحيح سواء كان هذا الشخص متديناً أو ملحداً) .

(يجب أن نكون نحن من زمرة الأشخاص الذين يصلون بالعالم إلى ذروة الرقى والكمال) . (يسنا : ٣٠ - ٩١)

(يا أهورا مزدا سوف أصل إليك بواسطة الفكر الحسن والعمل الحسن واتباع الحق) . (يسنا : ٢٦ - ٤ - ٥)

(لا يجب لأى شخص أن يجعل نفسه مذنباً فمع الذنب نصبح مثل اللصوص) .

(ونديداد)

(لا تقسم صدقاً ولا كذبا) . (كتاب النصائح - آذرياد)

(إن الشخص الذى لم يؤد وظيفته بالنسبة للأشخاص الآخرين هو لص لهذه الوظيفة ؛ لأنه لم يؤد الدَّين الذى عليه للآخرين) .

(لو أن عملاً كلفت به سواء كان صواباً أو خطأ فلا تتردد فى قبوله وإنجازه) .

مذهب النور

(أتى رجل يبدو أنه من الصين لم تر الأرض مصوراً مثله

وقد بلغ فى هذه المهنة الكمال ، وكان هذا الرجل العاقل يدعى "مانى"

وقال أنا رسول فى مهنة التصوير وأفضل من دعاة العالم) .

(الفردوسى)[1]

(١) الفردوسى (٣٢٥ هـ . ق - ٤١١ هـ . ق) : من أشهر الشعراء الإيرانيين فى العصر الغزنوى ، ومن أشهر أعماله نظمه (الشاهنامه). خسرو شافعى : مائة شاعر ، ترجمة محمود علاوى . (المترجم)

حياة مانى[1]

كان يوم الأحد الذى يوافق اليوم العشرين من مارس عام ٢٤٢م . يوم الاحتفال والعطلة العامة فى تيسفون لأنه وافق يوم تتويج الملك شابور ، وقد حكم شابور الأول لمدة ثلاثين عامًا ، وقد شهدت فترة حكمه هزيمة الإمبراطورية الرومانية وأسر الإمبراطور الرومانى على يد شابور ، وظهور رجل يدعى مانى[2] حيث جاء بأفكار جديدة .

وفى هذا اليوم فإن مانى الذى كان شابًا فى السادسة والعشرين من عمره قد جاء إلى سوق تيسفون يرافقه أبوه ورجلان من أتباعه؛ الأول يدعى شمعون والثانى ازكوه ، وأعلن مانى مذهبه الجديد على الملأ .

ويقول مانى : إن فلسفته تقوم على قاعدتين وثلاث لحظات؛ أما القاعدتان فهما النور والظلمة ، وأما اللحظات الثلاث فهى : الماضى والحاضر والمستقبل ، وإن النور والظلمة أصلان منفصلان فى وجودهما انفصالاً تامًا ، كما أنهما كانا فى بداية الأمر منفصلين أيضًا ، ولكن ليس معلومًا ماذا حدث؛ إذ إن الظلمة قد تجاوزت مساحة النور وسيطرت على جزء منه ولكن من حسن الحظ أن تجاوزات هذه الظلمة قد توقفت وأنها تنتظر أن ينفصل النور ثانية عن الظلمة فى المستقبل، وعندما يقع مثل هذا الحدث فإن الحياة البشرية سوف تنتهى من على وجه الأرض ، وفى النهاية يجب أن ينفصل النور عن الظلمة ، لأن العيش بين هذين الطرفين ليس ممكنًا ، وسبب ذلك أن هناك فرقًا شاسعًا بين الظلمة والنور ، وأن كل شىء حسن ومنظم وهادئ وواعٍ يرتبط بالنور، وكل شىء مضطرب ومادى يرتبط بالظلام . وبالنسبة للفلاسفة المتفائلين فإن الظلمة تعنى عدم النور ، ولكن بالنسبة لمانى فالظلمة ذات وجود مستقل وسمات خاصة .

(١) ولد مانى Mani فى أسرة بارثية ملكية عام ٢١٧ م ، وقضى شبابه فى بلاد ما بين النهرين التى كانت بوتقة انصهرت فيها كثرة من الديانات الرئيسية ، ادعى النبوة وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، ويقوم مذهبه على الثنائية بين أهورا مزدا إله الخير وأهريمن إله الشر . معتقدات أسيوية ص ١٣٨-١٣٩ . (المترجم)

(٢) مانى اسمان : كوربكو ومانى ، إلا إن البعض يرى أن مانى هو اللقب وكوربكو هو الاسم .

وبعد أن تجاوزت الظلمة منطقة النور، ظهر الشر ، فظهر الشر فى الإنسان فى شكل رغبات نفسية ، وأسوأ هذه الرغبات عشق المرأة والابن (وإن التناسل سيئ بحيث يمكن القول إن قتل شخص واحد أفضل كثيراً من ميلاد شخص)[1] .

لأننا بالقتل نحرر جزءًا من النور يكون محبوسًا فى الجسد ! ولكننا مع التناسل واستمرارية الولادة نحبس جزءًا من النور يكون حرًا فى الجسد ! لذلك ، ووفقًا لمذهب مانى فإن الشهوة الجنسية أساس ذنب الإنسان[2] .

ونحن حتى الآن لم نستطع أن نتغلب على الظُّلمة بمساعدة النور وأن وضع العالم يسوء يومًا فيومًا حتى يصل أمره إلى العدم فى النهاية ، حينئذ ينجو النور من الظلمة وينتهى الشر .

ولد مانى فى ٢٧ مارس عام ٢١٧م . فى قرية مردينو الواقعة بالقرب من تيسفون ، وكان أبوه يدعى فاتك أو بيج من أهل نيسابور ، وفى قول آخر من أهل همدان وكان رجلاً عالمًا .

ويصل نسب أمه[3] إلى الملوك الاشكانيين ، وقد تلقى مانى تعليمه أول الأمر على يد أبيه وبعد ذلك على يد معلمين آخرين فتعلم الأدب وفلسفة اليونان والطب وعلم الفلك والموسيقى ، ثم تعلم بعد ذلك بعض الحقائق فى مدرسة الحياة ، وقد تنبأ وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، وقد بدأ إبلاغ مذهبه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، ومذهبه خليط من فلسفة زرادشت وبوذا والدين المسيحى ، وكان تفوقه على حد قول صاحب كتاب (بيان الأديان) فى الكتابة والرسم والتصوير ، وكان مانى أعرج ، ويقال إن مانى ذهب إلى تركستان وخطا[4] لمدة عام واختفى هناك فى مغارة وقد أخذ معه طعامه وشرابه وفى نهاية العام خرج من المغارة وأظهر للناس ألواحه المصورة التى

(١) إن مقولة مانى بأن قتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق أفضل من ميلاد شخص أمر ينسف هذا المذهب من أساسه . (المترجم)
(٢) كان هذا الرأى سببًا فى مقتل مانى شر قتلة . (المترجم)
(٣) واسم والدة مانى نوشيت وفى قول آخر : مريم ، مارميوم اوتاخيم ، وميس (Mays) .
(٤) خطا : اسم بلدة ، وكان يطلق على الصين الشمالية ، وهى مقر القبائل التركية . (المترجم)

كانت تسمى آنذاك (ارجنج)[1]. وقد ورد فى روضة الصفا أن مانى قد هرب من إيران فى عهد شابور وذهب إلى الهند عن طريق كشمير ، ومن هناك توجه إلى تركستان وخطا . وكان مانى رساماً لا نظير له ويقال أيضاً إن مانى كان يرسم بإصبعه الدائرة التى كان قطرها يبلغ خمس بوصات فإذا ما اختبرت هذه الدائرة بالفرجار لم يجدوا اختلافاً فى أى جزء منها ، ذاع صيته وشهرته فى بلاد الهند ؛ لأنه كان يجيد رسم الصور الغريبة ، وكان يتردد دائماً على البلاد الشرقية - من إيران - وقد وصل فى أثناء سيره إلى جبل كان به غار ويشتمل على مناخ وهواء ملائمين .

وقد مكث مانى خارج إيران عدة سنوات وفى النهاية عاد إليها ، حينئذ بدأ رجال الدين الزرادشتيون يناصبونه العداء، بل إنهم ألبوا عليه الشاه فى مؤامرات شيطانية ، ثم سجن وتم إعدامه بعد ذلك[2] ، ويقال إنهم سلخوه وملأوا جسده المسلوخ بالقش وعلقوه على بوابة مدينة "جند يسابور" التى عرفت بعد ذلك بـ "بوابة مانى"[3] .

المادة والروح

خالف مانى مذهب زرادشت فى هذا ، وهو أنه اعتبر أن العالم السفلى أساساً من مخلوقات أهورا مزدا ويعتبره أيضاً خالق العالم سواء النور أو الظلمة ، وهو لا يؤمن مثل زرادشت بأن المادة هى الوعاء وأن الروح هى المحتوى ، بل يظن أن المادة

(١) ارجنج وارتنك وارغنك أو صحف انجليون من أسماء كتاب مانى المعروف الذى يقال إنه قد ضم صوراً مثيرة للحيرة . (المؤلف)

(٢) ظل مانى مدة ٢٦ يوماً حبيساً فى السجن . (المؤلف)

(٣) يقال إن بهرام قد واجه مانى بأحد رجال الدين لكى تتم بينهما مناظرة ، واستعد رجل الدين الزرادشتى للمناظرة وقال : أحضروا رصاصاً مذاباً وصبوه فوق بطنى وبطنه ومن لا يصاب بأذى من كلينا يكون الحق معه ، فرد مانى : إن هذا الفعل ناشئ عن الظلمة ، فأمر بهرام حتى يلقوه فى السجن وقال له : غداً سوف أقتلك بطريقة لم يقتل بها أحد قبلك .
ويقال إنهم ظلوا فى تلك الليلة يسلخون جلده حتى صعدت روحه مع بزوغ نور الصباح ، ويقال أيضاً إنه قبل قتل مانى تباحث بهرام (الملك المعاصر لمانى) معه ولما أعلن مانى أن نجاة الإنسان فى أن تتحرر روحه من قيدها الدنيوى ، قال بهرام له : الآن موتك أفضل من حياتك ، وسوف أعمل بقولك فأخلص روحك من شر جسدك . (المؤلف)

هى التى تجذب الروح ، ويظن أيضًا أن هذه الحياة الدنيا نتيجة للامتزاج الاضطرارى بين الروح والمادة ، وقد اعتقد أن المادة تجذب قوتى الخير والشر إليها دون أى اختلاف ، ونحن نجذب الخير والشر إلينا باختيارنا ولكن مانى كان يعتبر الروح منفصلة تمامًا عن المادة ، ويعتبر أن لها حياة منفصلة، لهذا السبب يعتقد مانى أنه يجب إضعاف الجسم حتى تقوى الروح . ويعتقد مانى أن العالم المرئى هو نتيجة امتزاج الظلمة بالنور ، ومع أن النور والظلمة قد امتزجا معًا مثل الزيت الذى خالط الماء إلا أنهما منفصلان واختلاطهما أمر اضطرارى ولن يستمر[1] والمادة لا تتحرك وهى عمياء وليس لها وعى أو إرادة وقد حدثت حركة المادة بسبب امتزاج الروح معها ، وفى النهاية سوف تسقط فى بئرها السوداء ، وفى النهاية سوف تخلص الروح نفسها من شر الجسم المادى وسوف تنضم إلى (دولة النور) .

وكما قلنا إن مانى كان يعتقد أن المادة (الظلمة) قد أقحمت نفسها بالقوة داخل منطقة الروح (النور) وقد سعى "والد" دولة النور إلى أن يدفع الظُّلمة ولكن النور اضطرب وتاه، ولأن تجاوزات الظُّلمة محدودة فإن والد دولة النور قد جعل قسمًا من نوره داخل الظلمة ، ويشرح مانى هذا الموضوع فى هذه القصة التمثيلية كما يلى :

كان هناك راعٍ ولكى يخلص أغنامه من شر الذئب حفر بئرًا ووضع فيها شاة فلما رآها الذئب دخل البئر وراءها ، وفى تلك الأثناء أخرج الراعى الشاة على الفور من داخل البئر فبقى الذئب وحده ، وبهذه الطريقة فإن قسمًا من النور فى هذه الدنيا قد تحرر حتى يجذب إليه المادة (الشر) ولكن بمجرد أن قوى النور ، فإن هذه الذرة من النور سوف تعود إلى أصلها[2] .

(١) ورد فى كتاب (سر آمدان هز) أو "عظماء الفن" أن فلسفة مانى تقوم على أساسين وعالمين : عالم النور وعالم الظلمة ، إن الألوهية التى عرفت فى تعاليم مانى باسم ملك فردوس النور وأن أرض النور التى ظهرت معه أمور أزلية وأبدية ، وأن النور والظلمة عالمان متجاوران وكلاهما سرمدى وأن الجدار الذى يفصل بين هاتين الدولتين (النور والظلمة) غير موجود مع أنهما دولتان متجاورتان إلا أنهما غير منفصلتين . (المؤلف)

(٢) هذه القصة التى يسوقها مانى لبيان حقيقة النور والظلمة فى فلسفته ليست دقيقة ولهذا فإن زرادشت كان أكثر دقة فى التعبير عن فلسفته . (المترجم)

وعلى الرغم من أن زرادشت يقول بالتثنية[1] (الخير والشر) ولكن الفرق بينه وبين مانى كالفرق بين الأرض والسماء ، إذ إن مانى يقول إن للمادة وجوداً مستقلاً ، وإنها ارتبطت بالروح مضطرة ، وإن هذا الارتباط هو الباعث على حياة الصراع بين الظلمة والنور .

فى حين أن زرادشت يعتبر أن الجانب المادى للحياة (جانبًا إيجابيا) أى أن الخير جانب خيِّر وهذا بناء على أن زرادشت كان موحداً فى الأساس وأن التثنية عنده أو الازدواجية أمر مجازى .

ويرى مانى : أن الجانب المادى للحياة هو جانب الشر ، وأن الروح فى فلسفته بحران متغايران من حيث العذوبة والملوحة وإن هذين البحرين ما داما لم يمتزجا فهما هادئان ولكن بمجرد أن يمتزجا فإنهما يضطربان فتظهر الآلام المختلفة للحياة ، ولكن هذا الامتزاج ليس دائمًا ؛ لأن العالم ليس حقيقيًا والحياة فى هذه الدنيا ليست حياة حقيقية وإن بدت فى الظاهر كذلك ، وأن النور الذى يوجد فى الظلمات هو دائمًا مثل السجين الذى يحاول أن يهرب من سجن المادة لكى يذهب إلى عالم الخلود .

والمقصود من حياة البشر - بناء على قول مانى - أن الإنسان يسعى إلى أن يتحرر من سجن الجسد إلى عالم النور (الروح) ومن ثم يحرر نفسه من الظلمة التى تشكلها المادة .

فلا ينخدع الإنسان من خداع أهريمن الظاهرى الذى تبدو اللذة غير الحقيقية فى نظره حقيقية ، ومن الأفضل أن نقول إن حقيقة الإنسان أنه ذرة من نور أبى الحياة وإنه قد انسجم مع الأب فتحرر من قيوده الشريرة ليرتبط بالأب .

ويشرح مانى تهذيب الأخلاق على أساس هذه الفكرة فيقول إن الشىء الذى يبدو فى هذه الدنيا عزيزاً ولذيذاً بالنسبة للنفس الحيوانية لدينا ، هو فى الحقيقة شىء لا قيمة له ومكروه ، ومن بين ذلك : الزواج والشبق الجنسى والتناسل والرئاسة والشهرة والثروة وغير ذلك ، ولاشك فى أن الرغبة النفسية أو النفس الشريرة هى التى

(١) سماها المسلمون الثنوية . (المراجع)

تزيِّن لنا هذه الأشياء السابقة ، فهى ليست حقيقية وإن بدت غير ذلك كأشياء طيبة لكنها فى الأصل فخ يقيد النور ويمنع الحرية .

(إذًا الابتعاد عن اللذات المادية أمر لازم) ومن هنا فإن الرياضة والتجرد غير الضار بالنسبة للأشخاص الذين هم من طبقة النخبة ورجال الدين يعتبرها مانى أمرًا لازمًا ، وإن هؤلاء يعيشون دون أن يتزوجوا ويتجنبوا الطعام ثلاثة أشهر فى السنة وسبعة أيام فى الشهر ويقنعوا بالطعام اليومى واللباس السنوى .

أى أن يقنعوا بطعام يوم واحد ولباس واحد فى العام وألا يؤذوا كل ذى روح ، وألا يدوسوا النباتات بأرجلهم عبثًا ، وأن يتجنبوا عبادة الأوثان – تجنبًا كاملاً – وعمل السحر والرياء ، وأن يعيشوا كل أوقاتهم فى هدوء وقناعة وتوكل(١) .

ولكن بالنسبة لأتباع مانى العاديين (العامة) الذين يطلق عليهم اسم السماعين(٢) فإنهم يستطيعون أن يتزوجوا وأن يأكلوا اللحوم وأن يلوثوا أنفسهم بالأمور الدنيوية ولكن هؤلاء لأنهم لا يطهرون أنفسهم أو يحررونها فإنهم سوف يتطهرون بعد الموت بالعذاب .

خلق العالم المادى

يكتب ملك الشعراء بهار نقلاً عن ابن النديم فى هذا الشأن تحت اسم "حياة مانى" :

قال مانى : مبدأ العالم كونان ، أحدهما النور والآخر الظلمة كل واحد منهما منفصل من الآخر ، فالنور هو العظيم الأول ، ليس بالعدد وهو الإله ملك جنان النور وله خمسة أعضاء : الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة ، وخمسة أخر روحانية وهى : الحب والإيمان والوفاء والمروءة والحكمة .

وكما قلنا إن الله بهذا الوصف أزلى ومعه شيئان أزليان(٣) ؛ الأول الهواء والثانى الأرض ، وللهواء خمسة أعضاء : التحمل والعلم والغيب والذكاء والعقل ، وللأرض

(١) الأستاذ عباس مهرين : ايران نامه ، المجلد الثالث .
(٢) كلمة الأتباع بالفارسية نغوشاك أو نيو شاك وهى كلمة سريانية بمعنى (سماعين) . (المؤلف)

خمسة أعضاء : النسيم والريح الملائمة والنور المضيء والماء النقي والنار، وللكون الثاني المظلم خمسة أعضاء : الحريق والسموم والدخان والظلمة والسحاب .

وهذان الكونان أو هاتان الدولتان متجاورتان وهما دولة النور ودولة الظلمة ، وهما متصلتان بلا شيء يربط بينهما ، وعالم النور لا حدود له سواء من فوق أو أسفل، من اليمين أو الشمال، كما أن عالم الظلمة الذي يرتبط بعالم النور لا حدود له من الجهتين، وقد ظهر أهريمن من عالم الظلمة وهو لا يشبه عالم الظلمة الأزلي باستثناء العناصر الأزلية التي شكلت جوهره ، وقد تجمع جوهره من هذه العناصر الأزلية فظهر أهريمن من ذلك .

ورأسه مثل رأس الأسد وشكله مثل جسد الأفعى وريشه مثل ريش الطائر وذيله مثل ذيل السمكة وهو من ذوات الأربع كالحيوانات .

ولما كان أهريمن ظهر من الظلمة وتسمى بهذا الاسم فقد بدأ في إفساد العالم وراح يتخبط يمنة ويسرة، وأخذ يعدو ويخرب كل شيء أمامه ويقتله أو يدمره !

وبعد صعوده إلى أعلى رأى وميض نور قد اصطدم بعينيه فأنكر ذلك النور ، ولما أدرك أن النور أعلى منه ارتعد وتأهب حتى يهاجم عالم النور ويطير نحو ذلك العالم .

وقد عرفت دولة النور فجأة قصد أهريمن ، واتضح قصد تلك الأفعى من القتل والتخريب ، وعرف بعد ذلك عالم الذكاء ثم عالم العلم ثم عالم الغيب ثم عالم العقل وأخيراً عرف عالم الصبر والتحمل ، وقد علم إله النور بأهريمن وفكر في حيلة للتغلب عليه ، وكانت جنود إله النور تستطيع أن تتغلب على أهريمن ولكن إله النور أراد أن يقوم بهذا الأمر بنفسه لهذا بعد أن خلق الروح والعوالم الخمسة وعناصرها الاثنى عشر (الإنسان القديم) أخذ في محاربة الظلمة . والإنسان القديم ذو الأسلحة الخمسة عبارة عن خمسة أعضاء للأرض وهي : النسيم والريح والنور والماء والنار .

وقد تسلح الإنسان (القديم) واستعد ، وأول شيء استعان به هو النسيم ؛ إذ إنه جعل من الماء الرقراق الصافي درعًا حوله وقد ارتدى صهوة النسيم العظيم لمدارات النور وعاش وسط دوامة متصلة .

وأمسك في يده النار مثل الحربة والدرع ، وخرج بسرعة مدهشة حتى اقترب من ركن عالم النور ومكان العدو وتسلح أهريمن أيضًا بالعناصر الخمسة : الدخان والحريق والظلمة والسموم والسحاب ، ووضع من هذه الأدوات درعًا وتوجه نحو (الإنسان القديم) .

واستمرت الحرب بينهما لوقت طويل ، وفي نهاية الحرب تفوق أهريمن على الإنسان القديم واستل حربة وأخذ يضرب بها وحاصر بالعناصر الخمسة جوهر ظلمته وحاصره ، فأرسل إله النور آلهة آخرين بعد الإنسان القديم كان من بينهم (حبيب الأنوار) وقد أسرع هذا الإله المليء بالنور لمساعدة الإنسان القديم ، فتفوق على الظلمة فخلص الإنسان القديم من وهاد جهنم وخرج بصحبة الأسرى الآخرين الذين كان قد قبض عليهم من أرواح الظلمة ، خرج من جهنم تلك .

وحينئذ فإن البهجة وروح الحياة قد عادتا إلى عالم النور ، وراحوا ينظرون إلى الهوة السحيقة لجهنم السفلى، وقد شوهد الإنسان القديم وقد أحاط به ملائكته في تلك الساعة من الحياة المظلمة ، وقد عادت روح الحياة للإنسان القديم وبدأ صوته يعلو ويكون أكثر قوة مثل صوت الرعد ، ومن صوته هذا ظهر له آخر ، ولما كان أهريمن القديم قد امتزج بالإنسان القديم وراحا يتصارعان فقد اشتبكت أيضًا الأعضاء الخمسة للنور بالظلمة ووصل الأمر إلى الحرب ، وامتزج النسيم اللطيف للنور مع الدخان وقد ظهر هذا النسيم الكائن في هذه الدنيا من الاختلاط السابق ، فكانت السعادة والسرور وحياة الكائنات من النسيم النوراني وكان الموت والمرض والهواء الضار من دخان الظلمة الأسود ، وامتزج أيضًا مع النار الطاهرة فكانت لنا هذه النار الموجودة الآن .

إن الحرق والهلاك والفساد أساسه حريق الظلمة والضوء والإنارة من الإله النوراني (آذر) وقد امتزج النور بالظلمة وقد صدرت الأجسام النجسة عن الظلمة وصدر الذهب والفضة والجمال والنقاء عن النور ، وكل ما هو نجس وخشن أساسه الظلمة ، وقد ظهرت الريح عندما امتزجت السموم والرياح معًا ، وكل ما هو من اللذة والمنفعة أساسه الريح وكل ما هو مؤذٍ وضار من السموم ، وقد امتزج الدخان الأسود بالماء فظهر الماء من ذلك الاختلاط، وكل ما هو مضيء وساطع من الماء ، وكل ما هو من الغرق والموت والغلاء والفساد والخنق أساسه الدخان الأسود .

ولما امتزجت الأعضاء الخمسة للنور والظلمة غاص الإنسان القديم فى تلك البئر العميقة وحاول أن يجتث أساس أجناس الظلمة حتى لا تتزايد ، وبعد ذلك عاد وصعد وتوقف فى ميدان الحرب ثم أمر بعض الملائكة أن يجذبوا الجواهر الممتزجة إلى أرض الظلام التى كانت مجاورة لدولة النور وعلقت تلك الجواهر من أعلى ، وبعد ذلك اختار ملاكًا آخر إضافة إلى الأعضاء الممتزجة السابقة ، حينئذ أمر إله عالم النور أحد الملائكة حتى يؤسس هذا العالم المادى من تلك الأجزاء والجواهر الممتزجة من النور والظلمة ، وكان سببًا فى نشأة العالم الذى ربما قد تتحرر فيه الجواهر النورانية من اختلاطها بالأعضاء المظلمة ، ومن هنا فإنه يرعى عشر سماوات وقد كلف ملاكًا آخر بمسئولية الأرض ، ولكل سماء ١٢ بوابة ودهليزًا وهى بوابات كثيرة ومفتوحة وكل بوابة ودهليز أمام بوابة ودهليز آخرين لسماء أخرى ، ولكل بوابة ودهليز باب ذو مصراعين ، ولكل دهليز من هذه البوابات ست عتبات ولكل عتبة ٣٠ اتجاهًا كل اتجاه ١٢ صفًا ، وارتفاع كل عتبة من هذه العتبات وكل اتجاه من هذه الاتجاهات والصفوف فى ارتفاع السماوات وعلوها ، وقد ارتبطت أسفل هذه الأراضى بالسماوات وقد حفر حول العالم حفرة (أو خندقًا) حتى تستقر الظلمات التى انفصلت عن النور فى تلك الحفرة ، ثم أقام خلف هذا الخندق سورًا حتى لا تخرج هذه الظلمة التى انفصلت عن النور من هذا السور خلف الشمس والقمر حتى يساعدا فى أمر تصفية أو تنقية النور فى هذا العالم .

والشمس مكلفة بأن تصفى الأنوار التى امتزجت مع الحرارة ، والقمر مكلف بأن يصفى الأنوار التى امتزجت مع البرودة ، وهما ينجذبان نحوه (الإنسان القديم) وفى أوقات الصباح تتصاعد هذه الأنوار النقية مع التسابيح وأنواع التقديس ، وتتصاعد أيضًا مع الكلمات الطيبة والأعمال الحسنة ، وكل يوم تسقط هذه الأنوار النقية على الشمس ، وتلقى الشمس بنورها على نور أعلى منها فى عالم التسبيح ، ويذهب هذا النور فى ذلك العالم حتى يلتقى بالنور الأعلى الخالص ويتكرر هذا الأمر حتى يصل نور الشمس إلى مرحلة يقف عندها فلا يستطيع نور الشمس والقمر أن يقوما بأية مساعدة فى تصفيته (تصفية النور لوجود نور أسمى)، وفى هذا الوقت يكلف ملاك برعاية الأراضى ويكلف ملاك آخر برعاية السماوات وتمتزج السماء بالأرض ومن هذا الاصطدام أو الامتزاج تظهر الدنيا، وفى هذا العالم الذى امتزج تشتعل هذه النار حتى يصبح كل نور تبقى نقيًا بعد ذلك .

ويقول مانى : "يستمر هذا الاشتعال أو الحريق مقدار ١٤٦٨ سنة ولما حدث هذا الأمر فإن روح الظلمة ترى (فى ذلك) خلاص النور وارتفاع الملائكة والجنود والحراس ، وترى أيضًا هزيمة ساحقة لها فتصبح روح الظلمة ذليلة وعاجزة، وتضطر إلى أن تستعد للحرب ولكن الجنود يمنعونها فى كل مكان وتعود إلى الحفرة التى أعدت لها وتختفى ، ويملأ الملائكة تلك الحفرة بالأحجار التى تكون فى خشونة الدنيا ، وغلظتها ويختفى آهريمن الظلام والروح القذرة والظلمة فى تلك الحفرة ، وفى هذا الوقت يتخلص النور من قبضة الظلمة ويستريح من أذيتها" .

مناظرة كبير الزرادشتيين ومانى

كما قلنا على الرغم من أن مانى كان قد اقتبس من أفكار زرادشت ، لكن هناك فرقًا كبيرًا بين أفكاره ومذهب زرادشت ؛ ومن ثم عارضه الزرادشتيون ، وهكذا نظم الفردوسى هذا الحوار فى الشاهنامه فى إحدى المناظرات التى كانت بين مانى ورجال الدين الزرادشتيين :

(قال له يا لك من رجل عابد للصورة .. لماذا تمردت على الله هكذا ؟
وأين من خلق السماء العالية .. وخلق فيها المكان والزمان
وأين النور والظلمة فيها .. وأى جوهر أسمى من جوهره ؟
إن الليل والنهار والفلك العالى الدوار فيه نجاتك وفيه هلاكك ،
فلماذا تعبد إلهًا آخر ولا تنتصح بدين السابقين ؟
وكما يقال إن الله المنزه واحد ولا حيلة لك سوى عبادته
وإذا كنت قد رسمت هذه الصورة لتحركها فإنك تثبت أن هناك محركًا لها
واعلم أنه لا يوجد برهان قاطع لمن لا يمتلك مثل هذا الحديث الثابت
لو أن أهريمن[1] تساوى مع يزدان[2] لتساوى الليل المظلم مع النهار المشرق

(١) أهريمن : إله الشر .
(٢) يزدان : إله الخير .

يتعاقب الليل والنهار كل يوم ويدوران فى انسجام تام
لا يسع باب الظن خالق الدنيا أنه أسمى من الزمان والمكان
لقد تحدث مانى أحاديث كثيرة بما يثبت أنه كان ذا علم وشعبية
وقد أخفق مانى فى حديثه وذبلت وجنته الريانة) .

تعاليم مانى

وكان لمانى نوعان من التعاليم ؛ القسم الأول منها للعوام والثانى للخواص ، وقد قسم مانى أتباعه على هذا النحو :

١ - الأساتذة . ٢ - رجال المذهب . ٣ - شيوخ المذهب .

٤ - المصطفون ٥ - السماعون .

وقد قسمت هذه الطبقات الخمسة إلى ثلاث طبقات أخرى .

١ - الصفوة : وهم المنزهون عن كل دنس دنيوى فهم يحررون نورهم الحبيس .

٢ - السماعون : وهؤلاء بأدائهم الوظائف الأخلاقية والمعنوية يمكن لهم أن يحرروا النور الحبيس .

٣ - الماديون الخُلَّص : وهؤلاء يعيشون فى ظلمة تامة .

وقد كان معبد المانوية بسيطًا جدًا ، كما أن أولئك كانوا يتوضئون لكل عبادة ، وهم يصلون فى اليوم أربع مرات وكل يوم يسجدون ١٢ سجدة ، ويعد يوم الأحد اليوم المقدس للسماعين والاثنين اليوم المقدس للصفوة .

وكان مانى يؤمن بمذهب التناسخ إذ كان يقول : إن المحسنين يذهبون إلى عالم النور ولا يعودون إلى العالم الترابى ، ولا يتعرضون مرة أخرى إلى محن الحياة، ولكن المذنبين يتعرضون لمحن الحياة حتى يتطهروا ، أما أولئك الذين هم من أنصار أهريمن فإن مثواهم جهنم .

وكـان لمانى حواريون مثـل المسيح وكـان يمـارس مهنـة الطب ، وكان يعتقـد - مثل أغلب فلاسفة الشرق - أن الإنسان يتكون من النفس القدسية (النور) والنفس الحيوانية (الظلمة) ويجب على كل عاقل أن يغلِّب النفس القدسية على النفس الحيوانية .

... وهناك عدة فرائض يجب أن يؤديها أتباع مانى ؛ منها أداء أربع أو سبع صلوات وترك عبادة الأصنام وترك الكذب والابتعاد عن تعلم السحر وجميع أنواع الخداع وترك التزوير والشك فى الدين ونبذ الضعف والتكاسل فى العمل والحياة اليومية ، وقد أضاف مانى إلى الأحكام العشرة التى ذكرت الاعتقاد فى أربعة جواهر سامية على هذا النحو :

الله (أمير جنة النور أو ملك النور)، ونور الله ، وقوة الله ، وعقل الله ، والصوم سبعة أيام كل شهر، وقبول الشروط الثلاثة والتى هى من سُنة أغسطين ونادى بها بعض الكتاب المسيحيين وهى كما يلى : طهارة الفم وطهارة اليد ، وهذه الطهارة رمز لترك القول السيئ والعمل السيئ والفكر السيئ[1] .

ويرى مانى أن الزواج يساعد على التناسل أى امتزاج النور والظلمة (الشر والخير) لذلك فهو - فى نظره - شر . ويوجد فى مذهب مانى أربع قواعد أخلاقية وهى :

١ - محبة رب الحياة .

٢ - الاعتقاد بأن القمر والشمس جسمان من نور .

٣ - احترام العناصر النورانية .

٤ - الاعتراف بنبوة الأنبياء الذين سبقوا مانى .

ويرى مانى أن الحاجة تظهر فى شكل رغبات ، ولما كان العلم فى غير حاجة فإنه يجعل محبيه فى استغناء ، ومن هنا فإن قتل الرغبات النفسية هى أساس السعادة ومن هنا فنحن نستطيع أن نكون فى استغناء بالوسيلة السابقة فقط ، ويرى أن الرغبات النفسية تستمد قوتها من الظلمة لذلك فمثل هذه الرغبات رغبات شريرة ؛

(١) نقلاً عن : تاريخ أدبى إيران ، جلد أول (ادوارد براون) .

لهذا يجب على الإنسان أن يسعى دائمًا حتى ينفصل نور الدنيا عن الظلمة تمامًا ، وإن لم يستطع أن يقوم بمثل هذا العمل فعلى الأقل عليه أن يسعى فى هذا الطريق حتى يمكنه أن يحقق النجاحات ، ولما كان العيش بين النور والظلمة أمر لا يمكن تحقيقه فلو أن النور تغلب على الظلمة بشكل مؤقت فإن هذا الأمر من باب الاضطرار وليس الاختيار ، لذلك يجب علينا أن نعد الوسائل التى تجعل النور يتحرر من الظلمة بأسرع ما يمكن وألا تعود الظلمة ثانية إلى (دولة) النور ، والمسيح الحقيقى فى نظر مانى هو مظهر من مظاهر عالم النور وهو يختلف عن ذلك المسيح الذى صلب(١) فى أورشليم(٢) وقد ظهر هذا المسيح فى شكل إنسان يوقظه من نوم الغفلة وهو عيسى المعذب (Jeaus patiblis) وقد عانى من الأسر فى قبضة الظلمة (المادة) حتى ينقذ البشر من خطاياهم وذنوبهم .

أعمال مانى

من بين كتب مانى الشهيرة ، صحف أنجليون (أو أرجنك) وكتاب (شابورجان) .

ومن كتبه الأخرى : كتاب سفر الأسفار، وسفر الجابره، وكتاب فرائض الساعين ، وكتاب سفر الأحياء ، وكتاب فرقماطيا ، وكانت أغلب أعماله باللغة السريانية والرسوم الجميلة وقد كتب كتاب (شابورجان) فقط باللغة البهلوية ، وكان مانى رجلاً واسع الخيال وقد وردت عنه الأساطير ، وعلاوة على الرسم الفنى الذى كان نابهًا فيه فقد كانت له دراية بالشعر والموسيقى .

إن الانطباعات التى أبداها الأوروبيون أخيراً فى شأن مانى تنم عن العداوة بين المسيحيين والمانوية ومع ذلك فقد وجد أنصاراً من بينهم ، ويقال إن مانى قد لفق جزءًا

(١) عدم صلب المسيح ، أمر ورد فى القرآن ، يقول الله تعالى : (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) .

(٢) أورشليم : المدينة التى يطلق عليها العرب بيت المقدس وبها جزء يرتبط بدولة الأردن وهذه مدينة دينية لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين .
محمد معين : فرهنك فارسى جلد : ٥ (الأعلام) صـ ٥٩١ . (المترجم)

من أساطير السابقين وشيئًا من مذهب التثنية القديم بشكل قريب من المادية وأضاف إلى مذهبه عبارات روحية فى غاية البساطة .

وقد مزج كل ذلك بالجانب الأخلاقى القوى ، وقد استطاعت المانوية أن تروى ظمأ المطالب الجديدة لعالمنا المعاصر، وأن ترشد العالم إلى التوبة والتقوى الأخلاقية والمنفعة الروحية التى تقوم على قواعد الفطرة البسيطة .

وكان أحد أسباب سرعة انتشار تعاليم مانى كما قيل هو أنه قدم نظمًا اجتماعية بسيطة ولكنها محكمة فى مذهبه، بحيث يمكن أن يستفيد منها الجميع سواء كان رجلاً عاقلاً أو جاهلاً، رجلاً متعصبًا أو غير متعصب ، حيث إن مذهبه لا يحمل النفس أكثر مما يمكن أن تتحمله .

وهذه الإيجابيات التى ذكرت تمثل القاعدة الأساسية فى الأديان المختلفة ، كما أنها قد راعت الذوق الإنسانى فيها ؛ لذلك فقد كان مذهبه مطابقًا وملبيا لاحتياجات ذلك الزمان تلبية كاملة .

كما أن باستطاعة هذا المذهب أن يناسب أية طبيعة، ومع وجود الاختلافات العديدة التى ظهرت حول هـذا المذهب فى إيران والغرب فإنه مع ذلك انتشـر بسرعة فائقة فى إيران وشرقها وفى أوروبا وأفريقيا[١] .

شجرتا الخير والشر

إن مذهب مانى الذى يقوم على النور والظلمة أو الخير والشر قد وصف هذه الثنائية وصفًا بسيطًا وواضحًا ؛ فقد صور الخير والشر أو النور والظلمة بشجرتين ضخمتين وأطلق على الشجرة الأولى شجرة الحياة وأطلق على الثانية شجرة الموت ، وإن هاتين الشجرتين تثمران ثمرًا من جنسهما ، لهذا فإن الناس يجنون الحظ السعيد من ثمر الشجرة الطيبة ويجنون المعاناة والمشقة من الشجرة السيئة ، وكما ورد فى تعاليم مانى الأولى أن النور يكون أمام الظلمة وأن كلا منهما له خمس خواص مثل الإدراك والعقل والدخان والنار وما إلى ذلك ، كما أن كل نور له خمس أشجار .

(١) نقلاً عن (زندگانى مانى) بقلم : الأستاذ ملك الشعراء بهار . (المؤلف)

وقد استقرت شجرة الحياة فى الشمال والشرق والغرب واستقرت شجرة الموت فى الجنوب فقط ، وهذه الأشجار ليس لها حدود كما أنها منفصلة عن بعضها ، وبمعنى آخر إن فروع هذه الأشجار وأوراقها لا تتصل أبداً .

ويكتب "سوه روس" فى شرح حقيقة الأشجار إن شجرة الخير موجودة فى دولتنا فى القصر الملكى ولكن شجرة الشر مثل الخنزير تعيش فى المستنقعات ، وإن شجرة الشر وه[illegible] بيعتها لا يصدر عنها إلا الفساد والظلام وتسعد عندما تسوء الأحوال وهى مثل الحية الى تعيش فى جحرها !

وتعلم شجرة الحياة أو الخير بوجود شجرة الشر لهذا فإنها تؤمن نفسها أمام شجرة الشر أو الجوهر السيئ عن طريق جدار من النور الذى يخصها هى .

ولا تعلم أغصان شجرة الشر وثمارها شيئًا عن شجرة الخير ، ولما أنها سيئة الجوهر فإنها دائمًا فى معاناة وتعب ، ولأنها ذات طبيعة فاسدة ومعوجة فإنها دائمًا فى حرب وصراع ، ويشتبك هؤلاء (المحاربون) الأشرار مع بعضهم – من شجرة الظلمة – إذ إنهم فروع شجرة سيئة الجوهر ويصلون فى صراعهم حتى حدود دولة شجرة الحياة .

ويشهد نور دولة «شجرة الخير» بحراً من الطمع والحسد وتصبح نار طمع الشر مثل الشعلة ، ويهاجم أنصار شجرة الشر فروع شجرة الخير وقد تسلحت فروع شجرة الشر بالنار ويطلب جنود الشر الإمداد من الظلمة ، ولكن لما أنه لا يوجد فى سيرة شجرة الخير فساد أو فتن أو صراعات فإنها لا تمتلك أية أسلحة ، لذلك فإنها تمنح قدراً من نورها إلى شجرة الموت والشر وبذلك فإنها تعرض عليها المصالحة والسلام ، وهذا العطاء الذى امتزج بذرات الظلام ظهر عنه الكرة الأرضية ، والهدف من خلق الدنيا أن يتحرر ذلك النور ثانية من أسره وأن تنفصل ذرات النور عن الظلام[1] .

(ونهاية العالم على حد قول المانوية ستكون هكذا : إن العالم سوف يسقط فى نار جهنم فجأة وإن عناصر العالم سوف تشتعل نظراً لهذا السقوط والامتزاج)[2] .

(١) نقلاً عن سر آمدان هنر : طاهر زاده بهزاد . (المؤلف)
(٢) سعيد نفيسى : تاريخ تمدن إيران ساسانى . (المؤلف)

نبوغ مانى

إن مانى مثل زرادشت لم يهتم بتقديم القرابين الدينية والعادات والتقاليد ، ولما كان فنانًا فقد أبدى اهتمامًا خاصا بفن الموسيقى، لهذا فقد حث أتباعه على نشر الفن .

وكما قلنا إن مانى كان يؤيد بوذا وزرادشت وعيسى ويعارض موسى وشريعته كما كان يدين التوراة خاصة، وشن حملة على تعاليم موسى .

وعلى الرغم من أن أساس فلسفة مانى يقوم على العقائد والديانات السابقة مثل : البابلية القديمة كالمسيحية والبوذية والزرادشتية ولكن لحمة هذا المذهب وسداه من بنات أفكاره ، ولما كان مانى رجلاً فنانًا وكان ذا نبوغ خاص فى التخيل فقد غدا مذهبه الفلسفى زاخرًا بالأخيلة العجيبة والغريبة وأصبح هذا الأمر باعثًا على صعوبته وتعقيده .

وقد غدا هذا الإلهام والغموض حدا لا نراه فى أية فلسفة أخرى باستثناء فلسفات الهند .

ونظام الخليقة حسب تصور مانى يشتمل على عشر سماوات وثمانى أرضين وسبعة أعمدة وثلاثة أفلاك، وهذا أمر يطول شرحه وتفصيله، حتى إننا يمكن أن نقول إن منظومة العالم الذى تخيله مانى مثل دائرة المعارف التى لا يستطيع أحد أن يفهمها ، وعالم مانى مثل اللوحات الرمزية المليئة بالرمز والإشارة والغموض والتعقيد .

ولقد أصبح هذا الغموض لدى مانى باعثًا على أن هذا المذهب لم يستمر أكثر من ألف عام ، ولكن لما كان مانى ذا نبوغ خارق فى إبداع وخلق اللوحات الفكرية فإن أفكاره تركت أثرًا عميقًا فى معظم المذاهب والمذاهب المعاصرة له خاصة ، وقد كان هذا التأثير قويًا وملموسًا فى المسيحية حتى إننا يمكن أن نقول إن نصف المذهب المسيحى على الأقل مأخوذ عن نبوغ مانى(١) .

ولكى نوضح قدرة تخيل مانى فى كتبه ننقل هذه النبذة التى كتبها تقى زاده حول مانى ومذهبه :

(١) يحتاج هذا الحكم إلى أدلة وبراهين من المؤلف للأسف لم يشر إليها . (المترجم)

(يقوم أساس مذهب مانى على أصلين : الخير والشر أو النور والظلمة ، والأزمنة الثلاثة : الماضى والحاضر والمستقبل ، وأساس الوجود فى الحقيقة هو الله العظيم "المزبوج" المتمثل فى النور والظلمة) .

ويسمى هذان الأصلان فى المصادر الإيرانية بالجذرين ، وفى بداية الأمر أى فى الأزل وقبل خلق العالم كان هذان الأصلان منفصلين ومستقلين عن بعضهما ، وكان أنصار المذهب المانوى يطلقون عليهما اسم الماضى ، وكانت منطقة النور فى الجزء العلوى فى الشمال والشرق والغرب وكانت منطقة الظلمة فى الجزء السفلى وتمتد فى الجهة الجنوبية ، وعلى الرغم من وجود حدود بينهما فإنه لا يوجد حد فاصل بالفعل بينهما .

وبناء على هذا فإن اتساع منطقة النور يصل إلى خمس مرات مقارنة باتساع منطقة الظلمة ، وإن كلا من النور والظلمة مستقر وهادئ فى منطقته ، ويتصف عالم النور بالصفات الطيبة والحسنة ويسوده النظام والسلام والفهم والسعادة والانسجام ، ويسود عالم الظلمة الاضطراب والغموض والقذارة .

والمسيطر على منطقة النور ملك النور والمسيطر على منطقة الظلمة ملك الظلام ، وتقسم منطقة النور إلى خمس نواحٍ أو مساكن ويسكن بها خمسة أعضاء من قبل الإله وهم : العقل والفكر والتأمل والإرادة والموجودات الخالدة .

أما منطقة الظلمة فتتكون من خمسة طوابق بعضها فوق بعض وهى كالآتى من ناحية الترتيب من أعلى إلى أسفل : الدخان أو الضباب والنار المستعرة والعاصفة المخربة والمياه الملوثة والظلمات ، ويوجد دائمًا فى منطقة الظلام صراعات ونزاعات وحروب دائمة وكر وفر واعتداءات متكررة فيما بينها وشهوة وحيوانية بشكل دائم ، وهذه العناصر الأخيرة دائمًا فى غليان ويغلب عليها الأصوات العالية ، وقد تهاجم عناصر الظلمة عالم النور إذ تصعد إليه . وفى بداية الأمر تعلم شجرة الحياة (عالم النور) بوجود شجرة الموت وعالم الظلمة لهذا فإنها تخفى نفسها حتى لا تُرى ولا تثير الشر ، ولكن موجودات عالم الطبيعة أى الثمار والفروع المنبثقة عن شجرة الموت تجهل فى البداية وجود شجرة الحياة، ووفقًا لطبيعتها (شجرة الموت) تظل دائمًا فى صراع ، وفى هذا النزاع الذى يصل إلى أعلى حد له أى حدود منطقة الخير وفجأة ترى النور المتلألئ ومن ثم فإنها تنجذب إليه وتفتن به وتميل إليه وتشتهيه ؛ أى أنها (عناصر الظلمة)

تشن حملة بجيشها على هذه المنطقة وتجعلها جـزءًا من نفوذها ، وأمام هذا الخطر لا يهب ملك النور (المسيطر على النور) لمحاربة الظلمة ، بل إنه يدفع عدوه بروحه وبالمصطلح الخاص بالمانوية بـ "الأنا" ولهذه المهمة أو هذا الهدف يخلق من ذاته موجوداً أو كائنًا فى هيئة الإنسان البدائى والذى هو "أم الحياة" ويدفع الجوهر العلوى الذى يمثل الإنسان القديم أو الإنسان الأزلى ، ويهبط الإنسان الأزلى بأولاده الخمسة أو بعناصره الخمسة النورانية إلى الدرك الأسفل ، وهذه العناصر : الهواء والريح والنور والماء والنار ، وتمثل هذه العناصر أسلحته وروحه إلا أنه يُغْلَب أمام الظلمة .

وإرسال هذا الإنسان الأزلى وهزيمته أساس الامتزاج وفى الوقت نفسه هو أساس النجاة ، وما ابتلعته تلك الظلمة هو روح ابن الإله، وإن ذلك الابن مظهر من مظاهر روح أبيه ولذلك فإنه يعد جزءًا حيا ونورانيا من جوهر الإله وقد توقف فى قلعة الظلمة .

وعلى الرغم من أن الشر قد انتصر فى بداية الأمر فى الظاهر فإن وراء هذا الأمر غاية وهدفًا للنجاة ، ويمكن أن تمثل هذه الهزيمة المسيطرة على روح الإنسان الأزلى على يد الظلمة وعناصرها مجرد تضحية اختيارية قد رضى بها الإله نفسه ، كما أنه أراد لمثل هذا الأمر أن يحدث حتى يهدئ بهذه الطريقة من شهوة المادة فيضحى بجزء من النور أمام الظلمة ويجعلها تحت سيطرته ، إلا أن هذا الأمر فى الحقيقة عبارة عن خدعة عسكرية ؛ إذ سوف يتمخض عنه فى النهاية نجاح الخير للإنسانية وفلاح النور ، وبهذه الطريقة يقلل من الفساد وتدمير الشر ويمهد شيئًا فشيئًا لهزيمة المادة ، وهو يتصرف مثل القائد العسكرى الذى يسلم نفسه لخصمه من أجل إنقاذ كل جيشه ، وحينئذ يقوم (أبو النور) أو ملك العظمة لإنقاذ روحه التى امتزجت بهذا الشكل بالظلمة ويسعى لكى يعد العدة حتى يهزم الظلمة ويحرر النور الأسير ، ومن ثم تتم أولاً عملية إنقاذ الإنسان الأزلى الذى فقد وعيه عندما سقط فى الدرك الأسفل من جهنم ويعود إلى وعيه ثانية فيتضرع لأبيه سبع مرات ...

وفى النهاية فإن الروح الخالدة و «أم الحياة» تهبطان من جديد إلى أسفل فتدخلان هذه المرة داخل الظلمة ، وتمد الروح الخالدة يدها اليمنى إلى الإنسان الأزلى وتجذبه فتُخرج هذا السجين من الظلمة وتحرره من القيود التى أحاطته بها الظلمة .

ويتخلص من جهنم ويصعد من الدرك الأسفل ويصل بصحبة قوتين إلهيتين هما الدعوة والتلبية إلى جنة النور ووطنه السماوى ، وهو أول ناجٍ فى الأرض وهو مثال لسقوطنا وابتلائنا ونجاتنا .

ومع أن هذه الأسطورة مبهمة ومعقدة إلا أنه مع غرابتها التى يشرحها مانى ويعبر عنها فإنها تمثل نوعًا من "الأوبرا العظيمة" (ونحن نتحدث عن نهاية قصة الدور الأول أو الماضى للإنسان) والذى هو مكمل للمرحلتين ؛ الحاضر والمستقبل ، إذ إن الإنسان الذى سقط فى يد المادة (الظلمة) وأصبح أعمى وأصم وفاقداً للوعى وضالاً حيث ابتعد عن أصله الإلهى ، كما أن روحه التى توجد فى بدنه اللعين لم يعد يعرفها فضلٌ وفقد وعيه ، وتحول إلى إنسان آخر بربرى سيئ يملؤه الغيظ والانتقام والفساد لأنه فى هذه الحالة أصبح فى يد المادة واستغرق فى نوم الموت والغلظة ولا يستطيع أن ينهض ثانية من سقوطه ؛ إذ إن الجزء الأعظم منه وهو النور قد سقط وأصبح فى أسر المادة (وهذا الأمر أقل حدوثًا فى حواء) لهذا يبعث منقذاً لنجاته ويسمى هذا المنقذ (الصديق) وهو (ابن الإله) .

وفى بعض الروايات هو نفسه الإنسان الأزلى وأحيانًا يسمى "هرمزد" أو "خردى هيشهر" أو "عيسى المتعال" ويسميه أنصار المانوية "عيسى المستتير والساطع" .

ويوقظ عيسى المتعال هذا الإنسان ويخبره أن بدنه هو الطريق إلى جهنم وأن روحه هى الطريق إلى السماء ، ويتفحص الإنسان نفسه فيدرك حقيقة ذاته ونتيجة لهذه المعرفة لا يعبأ بهذا الجسد الميت ويتحرر للخلود .

ويمكن القول إن مستقبل العالم وتاريخ البشرية يرتبطان بقصة الخير والشر أو النور والظلمة ، وإن انتشار الشر الذى هو عبارة عن امتزاج النور والظلمة هو توطئة وتمهيد للنجاة، ويوجد فى كل مكان من العالم قوة ثنائية وهى (القدرة النشطة) والخلاقة والحامية وهى (قدرة انفعالية) قاتلة لكل أذى[1] .

(١) لمزيد من الاطلاع ارجع إلى كتاب (مانى ودين او) بقلم تقى زاده .

ولهذا سوف ينتصر النور على الظلمة وينتهى هذا الصراع الدائم ، ويجب على الأفراد أن يسعوا إلى تحرير النور وإنهاء الحياة المادية ، ولكن للأسف فإن يوم حرية النور سوف يتأخر ؛ وذلك نتيجة لغرق الأفراد فى الذنب وعدم امتناعهم عن التناسل الذى هو أساس كل المفاسد[١] . ومن وجهة نظر مانى - فى النهاية - سوف ينتصر النور على المادة ويخرج الناس من ظلمات هذه الدنيا وسوف تقرأ الفاتحة (إيذاناً بالنهاية) ؛ أى أن الخير والشر سوف ينفصلان عن بعضهما وسوف يعود كل منهما إلى سيرته الأولى .

وبهذا الشكل سوف تنتهى اللحظة الثالثة (العالم ثلاث لحظات : ماضٍ وحاضر ومستقبل) وبهذه النهاية سوف تقرأ الفاتحة على روح العالم (أو تراجيديا الحياة) .

مذهب مانى كما تراه الشاعرة الإنجليزية

تكتب إليزابيث براوننج الشاعرة الإنجليزية تحت عنوان "مذهب مانى" فى شأن ازدواجية مذهبه إن (أحد هذين الجناحين هو روح الحياة وهو جناح عقاب والعين كالنجم الذى يتلألأ ويفيض حبا ونوراً ، والجناح الثانى هو عنكبوت الجهل والظلمة) .

وهذان الزوجان أحدهما اللحن المقدس والثانى صوت الغضب ، وهما الموت والحياة، الأرض والسماء ، العين والحاجب ، الظلام والنور ، الحقد القاتل الأسود والمحبة .

وهذان الطرفان (النور والظلمة) هما محاربان ، وأحدهما هو عالم الجلال وهو فى هيئة ملاك وقد نثر ضفيرته الذهبية على السماء اللازوردية ، والنور هو القوة التى تصطحب معها النور والعطر والسعادة المطلقة للبئر المظلمة ، ولهذا النور جمال فتان يشاهد فى السماء فى النجوم الساطعة الألاءة ، كما أن هذا النور هو الذى يمنح الأشجار الوجودَ والشباب والحياة ويصل هذا الضياء إلى قلب كل كائن من الكائنات .

(١) يرى مانى أن التناسل فساد أو ظلمة حسب مذهبه ولم يقل لنا كيف أتى هو إلى الوجود لولا هذا التناسل ؟! (المترجم)

وكلما يشرق هذا النور على الدنيا يطلع الفجر الفضى من بين أصابعه الوردية وحينئذ يضحك كل شىء فى الوجود فيتحول العشب اليابس إلى خضرة كلها نضرة ويسعد الناس جميعاً .

أما الطرف الثانى وهو الظلمة فيشاهد حينما تركع الأمهات والشقيقات ويبكين وفجأة يخرج من وسط الليل شبح ويطل برأسه وسط الظلمة الحزينة فى أوقات المساء ، ويشاهد الدم الجارى بدلاً من الأشجار المزدهرة التى تتوقف عن النمو وتتحول الحديقة تحت أقدام شبح الظلام إلى قبور ، وينتشر فى كل مكان الخوف والفزع الشديدان ، وفى هذا الجو الكئيب تمتزج الظلمة بالقبح ويبدو الحزن والعبوس واضحين على الحيوان والنبات ، وفى تلك الأثناء التى يجتث فيها إله الخير - فى نصف العالم الآخر (الخير والنور) - أغصان شجرة الجرم والخطيئة من جذورها ويضع التاج الذهبى الذى يسمونه (الشمس) على جبهتها الوردية ، فإن إله الشر يظهر بوضوح فى أفق الظلم وفى ظلام الليل المشئوم والمنحوس حتى يغطى وجه القمر بغلالة من الفزع ، وينظر إله الشر بعين الغضب إلى النجوم الأخرى ، وبعد ذلك يسود الطرف الثانى مثل لصوص منتصف الليل فى الظلمة الحالكة حيث يواكب ذلك المأتم النسائى .

ونتيجة لوجود إله الشر وهيمنته يتحول الدخان إلى حريق ويفتك الفهد الضارى بالغزلان ، فينتشر تحت السماء الطاعون والسم والشوك والسواد ونبات السيكران(١) المميت الذى يشبه فى سمه الأفعى ، وترى النار التى تأتى على الأخضر واليابس والماء الذى يغرق كل شىء والصخور التى تحطم السفن والعواصف التى تقتلع الأشجار ، كل هذه العناصر الضارة تسود العالم وتعيث فيه فساداً ، ويجثم فوق النائمين بوجهه المخيف فتبدو لهم الكوابيس ولا يرد إلى خاطره سوى دخان احتراق القرابين على النار والأصوات المخيفة للحيوانات الضخمة والشياطين ، وتخرج الأفاعى ألسنتها التى تلعق بها النار ، ويسيطر إله الشر على الحيوانات سيطرة تامة ويكون الطوفان تحت إمرته . وفى هذا الجو المخيف الذى فيه تسترحم صيحات الحزن والأسى أى إنسان ، يصفق إله الشر ويرسل الموت للبحث عن الجرحى ويختلط بريق السيوف بصاعقة الفناء ،

(١) السيكران : معرب الشيكران الفارسية ، نبات موجود فى السعودية والجزيرة العربية . (المترجم)

وحيثما يسير تلتف حوله الشرور وأنواع المساوئ ويضرب الموج الصخور ، ويحث الإنسان على محاربة الرياح ويوشك على الانتصار كل ليلة وتغرق السماوات فى ظلام حالك ، وتسود الظلمة كل مكان إلى درجة أنها تخضع العالم لقبضتها ، وتظهر الأصوات المخيفة من حركة الطوفان .. ويغتبط سعادة لكل هذا .

(... وفجأة وفى تلك الساعة فإن رجال الدين الزرادشتيين يسمعون ضحكات قاطع الطريق (الشر) فى منتصف الليل ، ويخرج الشعاع الأبيض من وسط الظلمة (مطروداً) ، وحينئذ يسطع الفجر الباسم بنوره على ذلك المريض الذى يوشك أن يموت على فراشه، وعلى الأمهات اللائى ملأهن اليأس والقنوط ، وعلى الصوت الخانق والهادر للمد والجزر فى البحار، وعلى ذلك الزاهد الذى يسكن وسط القبور ، وعلى الأسير الذى يرسف فى الأغلال والقيود ، وعلى الصخور فى حضن البحار ، وعلى الغابات المتشابكة ، وعلى النيران المتطايرة ، وعلى كل هذا العالم الذى محته الظلمة يسطع الفجر الباسم)[1] .

صليب النور !

ووفقاً لطبيعة تكوين "عالم مانى" فإن الإنسان ينتمى فى طبيعته إلى الروح والحكمة ، وإن شخصيته وحياته تنحدران من طبيعة الآلهة ، وإن نجاته مرتبطة بالآلهة وكلما حرر ذاته بسرعة من قبضة أنواع النسيان والخرافات الناتجة عن امتزاج الجسم والروح فإنه ينقى جسده ، فإذا فعل مثل هذا الإنسان فإنه بعد الموت سيصل إلى الفردوس الأعلى أو (النيرڤان) والذى هو مستقره الأساسى ومهد السلام والسلامة ، فإذا لم يطهر الإنسان روحه من قذارات الجسم والشهوات المادية فإنه يؤذى ذاته ويحبس روحه فى قيودها .

(١) انظر ترجمة شجاع الدين شفا . (المؤلف)

مذهب التناسخ

من ناحية أخرى بمجرد أن يستعيد الإنسان طهارته الأزلية يجب عليه أن يقطع علاقته بالماديات الملوثة ، ولهذا يجب عليه أن يكون حذراً تجاه أية مخالفة بالنسبة إلى (الحياة الإلهية) ولا يجب عليه أن يستبعد من نظره أن كل شيء في هذه الدنيا لديه روح خاصة ، فالعناصر الطبيعية والأشياء والنباتات ، وفي النهاية الحيوانات والإنسان كل هذه المخلوقات لديها أرواح، والدنيا بمثابة الصليب فوقه (النور) (والروح الخالدة) ، أو على حد قول المانوية إن الغرب هو مسيح العالم وهو في حالة ألم وعذاب .

أي نوع من الخشونة تجاه الأشياء أو الموجودات الحية هو نوع من الذنب والجرم ، وبالنظر إلى هذا الموضوع فإن ترك الدنيا والسيطرة على النفس هو الشعار الأخلاقي للمانوية ، ومن وجهة نظر المانوية إن الزنا والولادة والتملك والزراعة والقتل وأكل اللحوم وشرب الخمر وغير ذلك كلها وسائل تؤدي إلى تلويث "صليب النور" وهكذا يقول قانون العناصر الثلاثة الذي ذكر لمنع ارتكاب الذنب : احرص على فكرك وقولك وعملك ؛ لأنه يمكن ارتكاب الذنب بالفم واليد .

مذهب ماني المقتبس وتأثيره العظيم

إن مذهب ماني مثل قطعة الموزييك التي يمكن أن نجد فيها صورة لجميع المذاهب الأخرى القديمة ، إلا أن جذور هذا المذهب الأساسية تنبع من أفكار زرادشت ؛ حتى إن أحد العلماء [1] يرى أن مذهب ماني هو دين زرادشت وبدا في صورة مسيحية أو دين مسيحي وصور على شكل المذهب الزرادشتي . وقد مزج ماني في مذهبه المقتبس مذاهب بوذا والمسيح وعقائد البابليين حتى يقوى من مذهبه ، ولما كان يعتقد أن سبب زوال الأديان الأخرى عدم كتابتها من قبل مؤسسيها لهذا فقد كتب عدة كتب ما زال جزء منها باقياً حتى الآن .

(١) لم يذكر المؤلف اسم هذا العالم . (المترجم)

وحتى يقوى من مذهبه أكثر من ذى قبل أعلن مانى أنه خاتم الأنبياء ، وادعى أن الدنيا بظهوره قد بلغت المرحلة ٢١ أو نهاية العالم ، وادعى بعبارة أخرى أنه هو اليوم الموعود وأنه مانح النور الكامل فى الدنيا وأنه المنقذ للبشر من جهنم فى هذا العالم ، وخلافًا لزرادشت الذى اعتقد أنه يمكن تغيير هذا العالم المظلم بالسعى والاجتهاد إلى عالم مضىء وسعيد ، اعتقد مانى أن الحياة فى هذه الدنيا نوع من اللعنة الإلهية .

ونظراً لجاذبية مذهب مانى الخاصة فى عصره فقد انتشر فى العالم بأسره ، ولعل السبب الأساسى لتأثيره وانتشاره فى العالم كله هو أسلوب مانى وسحر بيانه .

كما أن رقة هذا المذهب وشفافيته وامتزاجه بالفن والموسيقى والنواحى العاطفية وسلاسته كل ذلك كان باعثًا على أن يعتنق أتباع هذا المذهب أفكاره بسهولة تامة .

وقد انتشر مذهب مانى فى مدة وجيزة فى الشرق والغرب فانتشر فى فينيقيا القديمة وجنوب فرنسا وآسيا ، وقد بلغ تأثير هذا المذهب حداً أنه ساد معظم نصف الكرة الأرضية الشمالية لمدة ١٢ قرنًا ؛ أى بدءًا من القرن الثالث حتى القرن الخامس عشر الميلادى .

(وقد عبر الحدود الغربية لإيران بسرعة كبيرة أملاً فى استمالة قلوب الناس الذين اعتنقوا المسيحية ، وقد توافد دعاة المذهب المانوى إلى مصر طيلة القرن الثالث الميلادى ، وبعد ذلك أصبح هذا المذهب باعثًا على إفساد المحافل المسيحية والتشويش عليها ، بل أفسد أمر الفلاسفة . وبناء على فرمان الإمبراطور ديوكلسين الذى صدر فى ٣١ مارس سنة ٢٩٨م . فى الإسكندرية حكم على أتباع هذا المذهب بالموت وصودرت أموالهم، ومنذ عام ٤٧٢م ، اتجه المذهب المانوى من منطقة بين النهرين إلى فلسطين ومن مصر إلى أفريقيا الشمالية ، وقد ازدهر هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع الميلادى ، بل فاق الدين المسيحى فى تلك البلاد، وقد استمر هذا المذهب حتى عهد سيطرة قبائل الجيرمن[(١)] .

(١) قبائل الجيرمن (أو الفاندال) امتد نفوذهم إلى إسبانيا ثم اتجهوا بقيادة جون إريك (Jean van Eyck) إلى أفريقيا وسيطروا على البحر المتوسط ، وبعد موت قائدهم المذكور (جون إريك) زال سلطانهم فى عام ٤٧٧م . (المترجم)

يعد القرن الرابع الميلادى فترة ازدهار المذهب المانوى فى الإمبراطورية الرومانية ، وقد انتشر هذا المذهب المانوى فى يوغسلافيا وروما كأخطر نوع من الإلحاد الذى تسلل إلى الصوامع ، وفى النهاية ووجه هذا المذهب بالمقاومة والمعارضة فى آسيا الصغرى بأمر من إيطاليا ودولة جبال الألب وإسبانيا ومنذ ذلك الوقت فصاعداً بدأ المذهب المانوى فى التدهور(١) .

ويكتب "عباس آشتيانى" فى مقالته الرائعة عن المذهب المانوى فى شأن الآثار التى أحدثها المذهب المانوى فى العالم القديم والجديد ما يلى :

١ - يرى النقاد المحدثون أن التصوير الصينى الذى يعد أفضل نموذج لأنواع التذهيب ورسومات العصر المغولى والتيمورى والصفوى كلها تنبع من المذهب المانوى ، كما أنها تباع وتشترى بقيمة باهظة كروائع تمثل إعجاب العالم بأسره بكل هذه الفنون (من تصوير وتذهيب) أصلها إيرانى ومانوى ، ولما أن المذهب المانوى - بفنونه - قد انتشر فى تركستان الشرقية وانتقل إلى الصين فإنه يعود مرة أخرى من الصين إلى إيران ، وقد ترك الصينيون أنفسهم أثراً لهم فى هذه الفنون واشتهرت بعد ذلك كفن صينى .

٢ - إن تجليد الكتاب وتذهيبه وتجميعه وكتابة العناوين فوق المجلدات واستخدام حبر الصين وتزيين الخطوط بالأكاليل ومزجها بالرائحة الطيبة ، من عمل أتباع مانى .

٣ - وتزيين الكتب بنقوش وصور كانت مستخدمة فى إيران القديمة هو من عمل المانوية ، وانتشر هذا الفن بعد ذلك فى العصر العباسى ، وكان يتفاخر الزنادقة المانويون على المسلمين بإتقانهم هذه الفنون ، وقد أمر نصر بن أحمد السامانى بعد ترجمة كتاب كليلة ودمنة من العربية إلى الفارسية (أى من الصين أو تركستان الشرقية مركز المانوية) أن يأتوا بالمصورين من تلك البلاد لتزيين ذلك الكتاب .

٤- وفى الفارسية المعاصرة لدينا مصدران ؛ الأول (خواندن) القراءة ، والثانى (نكاشتن) الكتابة، ويستعمل الأول غالباً بمعنى القراءة والثانى بمعنى الكتابة إلا أنه قد اشتق من هذين المصدرين معان أخرى فالقراءة (خواندن) تعنى أيضاً الغناء، والكتابة

(١) هنرى شارل بويش فى مقالة له حول انتشار المذهب المانوى وآثاره اليوم . (المؤلف)

(نگاشتن) تعنى أيضاً التصوير ، وهناك احتمال قوى أن يكون هذا المصدر قد استخدم منذ أن اقترن فى الفارسية قراءة الخط بالصوت وكتابته بالتصوير ، ونعلم جميعاً أن المغنى فى الفارسية بمعنى (خنياكر) وأن الصانع أو الكاتب بمعنى المصور ، ومن وجهة نظر كاتب هذه السطور أن هذا النوع من الاستخدام قد بقى منذ العهد المانوى .

٥ – إن جزءاً من الآداب والتعاليم الصوفية فى الإسلام مقتبس من المذهب المانوى .

٦ – وحركة الزنادقة[١] أساسها التعاليم المانوية .

إصلاحات مزدك[٢]

(جاء رجل يدعى مزدك ... وكان فصيحاً وعالمًا وحكيماً

وقد فتن الناس وباع علمه وأثنى عليه "قباد" وأصغى له

وأصبح لدى ملك الملوك الآمر والناهى ، وأصبح حارس ذلك الكنز وخازنه) .

(الفردوسى)[٣]

وعندما نطالع التاريخ نستمع إلى أصوات فى خضم صراعات الملوك والأحداث السياسية وهى أصوات تشبه حيناً الأنين وتشبه حيناً آخر الصراخ ، وهذه الأصوات التى تسمع من (أعماق) التاريخ هى صوت اعتراض الناس على الهيئات الحاكمة والمتحكمة الظالمة ، التى تقترف أعظم الجرائم تحت اسم العدالة ، وحيناً قد يكتم هذا الصوت وحيناً آخر يبدو عاملاً مناسباً للأوضاع فى شكل طوفان يأتى على الأخضر واليابس ، وقد ظهر مزدك فى إيران وروبسبيير فى فرنسا وأوليور كرامول فى إنجلترا ومئات الأشخاص الآخرين وكان لهم الدور القيادى نفسه وكانوا أساس الثورات . وبناء على

(١) الزنادقة : جمع زنديق والزنديق معرب زنديك أى المظفر أو الملحد أو تابع للمذهب المانوى ، ويسمى العرب كل شخص لا يؤمن بالإسلام زنديقاً .

(٢) ولد مزدك فى سنة ٤٦٠م وكان أبوه يسمى (همدادن) على حد قول أبى ريحان البيرونى و(قامارد) على حد قول مسكويه و (مازيار) على حد قول الدينورى ، واسم الأسرة مزدك وقد ورد فى ترجمة الأفستا (بامداد) .

(٣) ورد هذا النص فى شاهنامة الفردوسى . (المترجم)

هذا فإن مزدك على النقيض مما يقوله معارضوه، فهو لم يعلن أفكاره ومذهبه من باب الهوى والهوس ، بل كان صوت مزدك فى الواقع صوت الشعب ، صوت مئات الألوف من الأشخاص الذين ضاقوا ذرعاً بظلم الطبقة الحاكمة وبطشها ، فتشجعوا بقيادة مزدك ليستردوا حقوقهم المغتصبة لدى الإقطاعيين الظلمة الذين لم يكن هناك شيء يوقف شرههم سوى تراب القبور . وقد أدرك (قباد) بنظرة ثاقبة أهمية هذه الحركة الشعبية ومن هنا فقد راح يساعد أفراد الشعب معارضاً بذلك رغبة الطبقة الفاسدة من الأشراف والأعيان ، إذ كان يعلم أن ظلم الطبقة العليا وإيذاءها حينما يتجاوزان الحدود فسوف يقضى هذا ليس على المملكة فحسب ، بل على عرشه ، وسوف تكون هناك فتنة لن يعلم أحد مداها ، كان يعلم أنه فى ذلك الوقت يمكنه أن يكون ملك الشعب ويضطلع جيداً بمسئوليته الخطيرة فيصل إلى آلام الشعب ويرسى العدالة الاجتماعية بين أفراد شعبه بشكل واقعى ، فقد كان يعلم أنه لو ساعد الطبقة الفاسدة للإشراف فإنه سوف يطأ بقدمه حقوق الشعب ، ولن يفشل فى أداء وظيفته فحسب بل ربما يخاطر بحياته ، أو على حد قول الشاعر :

(الملك الوضيع مثل البحر دُره فى القاع وصدفه طافٍ على السطح

إن الملك الذى رفع الوضيع نشر معه البلاء

لا يحكم الملك وفقًا لرأى السِّفلة كما لا يمكن أن تقرأ رسالة على ضوء البرق

إن منحت الوضيع المال والقوة فإنك تمنح أعمى مصباحاً فى يده

مادام الملك لم يكن أحمق أو وضيعاً فإن وزيره لن يكون شريراً

لا يصح أن يكون الذئب فى ولاية الملك على العرش ويوسف ملقى فى البئر) .

(أحمد حامد الكرمانى)

وكان قباد يعلم أنه إن لم يستمل قلوب أفراد الشعب فسوف يتسلل الفساد إلى دولته :

(حينما ترى الرعية ضائقة بالملك لا تطلب اتساعاً فى ذلك الثغر أو الدولة)

ولما كان قباد يعلم هذا فقد مد يد الصداقة إلى مزدك وعزم على أن يوطد العدالة الاجتماعية بمساعدته .

ذهاب مزدك إلى قباد

وعندما ذهب مزدك إلى قباد قابله الملك الساسانى بوجه بشوش ، وقد ونظم الفردوسى فى شأن هذا اللقاء ما يلى :

(أقبل نحو الأمير وهو يعدو .. وقال له : أيها الملك الورع

إنى أسألك عن خير الحديث .. وليتك تجيبنى عن بعض منه .

فقال له قباد مستبشراً : تحدث فإن كل سؤلك مجاب .

فقال له : إن ذلك الشخص الذى لدغته أفعى وسوف يفارق الحياة

وكان الترياق لدى شخص آخر ولا حيلة للملدوغ سوى هذا الترياق

فما جزاء ذلك الرجل الذى لديه الترياق وليس للآخر أى مال ؟

فأجابه الأمير : إن دم ذلك الرجل فى عنق صاحب الترياق

ويجب قتله جزاء دم الملدوغ فى القصر كأن توجه لهذا الشخص لكمة) .

وفى اليوم الثانى عاد مزدك إلى الملك وتبادلا هذه الكلمات :

(هكذا قال : أيها الملك الشهير حل عقدة الشخص الذى

سلبوه الطعام حتى مات ففارقت روحه الطيبة جسده فى حالة يرثى لها !

وما جزاء ذلك الشخص الذى كان لديه الخبز وترك هذا المكبل بالقيود ذليلاً

ولا حكم لأحد فى ذلك إلا الملك الذى هو رجل عالم وزاهد ؟

فأجاب هكذا : إنه شخص مسكين ودمه فى عنق مَنْ جوَّعه .

وعندما سمع مزدك هذا قبَّل الأرض وأتى سعيداً حيث ترك الملك

وذهب إلى القصر وقال لجماعة توجهوا إلى مكان القمح وليأخذ

الجميع منه نصيبه فإن أرادوا الشيء القيم فقد كفاهم الذهب .

فأغار من كان فى المدينة ليأخذ كل واحد منهم نصيبه

وأسرع كل شخص كان جائعاً فنهب القمح كله) .

مؤامرة الأشراف والزرادشتيين

ولما رأى الأشراف المتطفلون أن الأوضاع سوف تنتهى بضررهم تآمروا على أن يجهضوا أنشطة مزدك[1] وذلك بمساعدة رجال الدين ، وبذلك فإنهم يقضون على كل شيء طيب وجميل ، ويستبدلون الذى هو أدنى وأقبح بالخير ، وبدأوا فى معارضة الملك وجعلوا القضاء خاضعًا لأهوائهم ، وقد تيسر لهم أن ينفذوا مخططهم الشرير فاستطاعوا أن يأسروا قباد وأن يزجوا به فى السجن فى قلعة النسيان .

وقد عاش قباد مدة فى السجن وباءت محاولة إطلاق سراحه بالفشل ، حتى إن شقيقته التى كانت امرأة جميلة وفاتنة قد فكرت فى حيلة وهى أنها وعدت السجان بوصله (خدعة) ودخلت السجن ولفت قباد فى سجادة ووضعت أحد خدمها مكان قباد وأخرجته وقالت للسجان إن هذا الفراش نجس وأنها أخذته لتطهره ، وبهذه الوسيلة نجًت قباد .

وبعد أن خرج قباد من السجن توجه إلى ملك الهياطلة وطلب منه العون إذ إن سخط الناس أخذ فى التزايد إلى حد أنه أوشك أن يتحول إلى ثورة ، وشن قباد حملة بالجيش الذى منحه إياه ملك الهياطلة ، فلما رأى أخوه - شقيق قباد - أن الشعب فى غاية الاستياء والسخط من أوضاع البلاد وأن الثورة سوف تجتاح البلاد لم يبد مقاومة واستسلم لأخيه. وكانت قوة الظلم قد بلغت ذروتها كما أن الإقطاعيين قد زاد اعتداؤهم على الفقراء بشكل واضح ، وتفاقمت ثرواتهم وخفت مصباح الصدق الذى كان زرادشت

(١) المناظرة التى تمت بين قباد ومزدك حدثت أيضًا بين أحد ملوك الصين والمعروف بـ هواى ، (Hway) والحكيم منسيوس (Mencius) وكان هذا نص الحوار :

منسيوس : هل ترى فرقًا بين قتل إنسان بالعصا أو قتله بالسيف ؟

قال ملك الصين : لا .. لا أرى فرقًا .

منسيوس : هل ترى فرقًا بين قتل إنسان بالسيف وقتله بواسطة الدولة من خلال الفساد ؟

يوجد فى مطبخكم لحم كثير ويوجد فى إسطبلاتكم الجياد الأصيلة وشعبكم جائع ، ويوجد فى الصحراء أناس يموتون من القحط ويأكل كلابكم وخنازيركم طعام الشعب ، وأنتم لا تفكرون فى توزيع الغلال بالعدل بينما تكتظ بها مخازنكم . وعندما يموت أفراد الشعب تقولون : هذا ليس ذنبى إنه بسبب القحط والجفاف ! وهذا الأمر يشبه أن رجلاً يقتل شخصًا بخنجر وبعد أن يكون قد قتله يقول : أنا لم أقتل هذا الرجل بل إن الخنجر هو قاتله ! (المؤلف)

قد أشعله وعم ظلم مخيف ، ومع أن قباد قد أدرك أن صلاح البلاد أمر ميئوس منه ؛ إذ إن الأغنياء قد أصابتهم التخمة من الشبع وأن الفقراء قد وصلت أناتهم عنان السماء ، ومع تخوفه من طبقة الأعيان فقد ابتعد عن معارضة مزدك وأتباعه . ولم يكف رجال الدين الزرادشتيون والأشراف أيديهم عن مزدك وقالوا للملك لو أن الرجل نبى حقًا فما هى معجزته ؟! فاهتدى مزدك لحيلة وذلك لإفشال هذه المؤامرة وقال إن معجزته (أن يجعل النار تتحدث) فقال الزرادشتيون لمزدك : أرنا معجزتك بشكل عملى .

فأمر مزدك أتباعه أن يثقبوا الأرض التى يكون بها محرق النار وأن يكون فى وسطها فتحة صغيرة ثم ادعى النبوة وقال لقد أرسلت بما أرسل به زرادشت وخالفتموه ، وأنا مثل موسى فى بنى إسرائيل الذين عارضوا أوامره التى جاء بها فى التوراة فأرسل الله رسولاً إلى بنى إسرائيل لكى ينهى الخلافات بينهم ويجدد التوراة ويهدى الناس إلى الطريق المستقيم . ولما وصل هذا الحديث إلى مسامع الملك قباد فى اليوم الثانى استدعى الكبراء ورجال الدين الزرادشتى وعقد مجلساً واستدعى مزدك .

وقال لمزدك فى ملأ عام : هل ادعيت النبوة ؟ قال : نعم وجئت لكى أصلح دين زرادشت الذى أفسده المعارضون لنا وأشرح معنى كتب (زند) (والأفستا) بشكل أوضح مما هو متبع . فقال له قباد : ما هى معجزتك ؟ قال : إن معجزتى إن أحدِّث النار التى هى قبلتكم ومحرابكم وأطلب من الله أن يأمر النار حتى تشهد على نبوتى . ولما سمع الملك وجماعته هذا قال الملك : أيها الكبراء ويا زعماء الدين الزرادشتى ماذا تقولون فى هذا ؟ قالوا : إن أول شىء نريده هو أن يتبع ديننا وألا يعارض زرادشت ، ويوجد فى كتاب الزند والأفستا أحاديث ، كل حديث له عشرة معان وكل زرادشتى وعالم له تفسير يختلف عن الآخر ، ويمكنه أن يأتى بتفسير آخر أفضل وتكون عبارته أحسن ، وأما ما يدعيه من أنه يحدث النار التى نعبدها فذلك أمر غريب وليس فى قدرة البشر ، والملك يعلم هذا بشكل أفضل . حينئذ قال قباد لمزدك: لو حدثت النار فسوف أشهد أنا أنك نبى ، فقال مزدك : لقد وعد الملك وسيأتى الزرادشتيون إلى المعبد حتى يكلم الله عز وجل النار ببركة دعائى ، ولو أراد الملك أن يتم هذا فسوف يكون اليوم وفى هذه الساعة نفسها ، فقال له قباد : لقد وعدتك أن نأتى جميعًا غداً إلى محرق النار المقدسة . وفى اليوم الثانى أخبر مزدك أحد أتباعه أن يتوجه إلى الفتحة المذكورة

سابقًا وحيثما أتحدث اذهب أنت تحت هذه الفتحة وقل "إن صلاح العابدين فى الأرض أن يؤمنوا بحديث مزدك حتى يسعدوا فى الدارين" ، وبعد ذلك توجه قباد والكبراء والزرادشتيون إلى المعبد واستدعوا مزدك ، فأتى ووقف بجوار النار وذكر اسم الله بصوت عالٍ وأثنى على زرادشت وصمت ، وظهر صوت من وسط النار وردد الجملة التى ذكرناها فلما سمع ذلك الملك والكبراء تعجبوا من هذا الأمر فتأثر قباد بذلك وآمن بمزدك وعاد من المعبد ، وبعد ذلك أدنى قباد مزدك منه وكان يقربه إليه فى كل ساعة حتى آمن بمذهبه ، وأمر قباد بعد ذلك أن يأتوا لمزدك بكرسى مرصع بالذهب والجواهر وأن يوضع على سرير قصر الملك فى أثناء اللقاء[1] .

وكان نجاح مزدك باعثًا على زيادة نار غضب طبقة الأشراف فصمم أولئك على أن يقتلوا مزدك بشتى الطرق ، لهذا لجأوا إلى خسرو أصغر ابن لقباد والذى كان لدى الأب عزيزًا جدا وحثوا قباد بشتى المؤامرات على أن يتخلص خسرو أنوشيروان من مزدك وأتباعه وفقًا لرغباتهم ، ولما بلغ قباد الشيخوخة لم يبد مقاومة وفوض أنوشيروان فى أن يفعل بالمزدكيين ما يحلو له . واهتدى خسرو أنوشيروان إلى حيلة إذ بعث رسالة إلى مزدك قائلاً إنه يريد أن يعتنق مذهبه ولكن شرطه الأساسى أن يتعرف على قوة أتباعه ، ولذلك طلب منه أن يجمع أتباعه فى مكان واحد فوافق مزدك على طلبه وأرسل مزدك رسالة إلى أتباعه فى كل مكان وأخبر القاصى والدانى منهم بهذا ، وقال لهم يجب أن تأتوا فى اليوم المحدد والشهر المحدد لمقابلتنا وأن تأتوا بالأسلحة والعتاد وقلوب ملؤها القوة فإن زمام الأمور فى أيدينا والملك زعيمنا .

ووفقًا للموعد المحدد جاء ١٢ ألف رجل وتوجهوا إلى قصر الملك ورأوا موائد معدة لم يروا مثلها من قبل ، وجلس قباد على العرش ومزدك على كرسيه المزدان بالجواهر ووقف أنوشيروان[2] بين هذا الحشد كصاحب الضيافة ، وجلس كل واحد من أتباع مزدك إلى مائدة وفقًا لمقامه ومكانته ، حتى جلس الجميع وتناولوا الطعام واصطحب الجميع من ذلك القصر إلى قصر آخر فرأوا مرة ثانية مجلسًا لم يروا مثله من قبل ،

(١) نقلاً عن سياست نامه : نظام الملك .
(٢) اسم أنوشيروان فى الأصل (نوشك روان) أى الروح الخالدة ، وقد منح هذا اللقب لعدله !

وجلس قباد ومزدك أولاً على العرش ثم أجلسوهم وجاء المطربون المشاهير إلى ذلك الحفل ، وجاء السقاة بالشراب .

ودار الشراب أكثر من مرة ودخل بعد ذلك مئتا رجل من الغلمان والسعاة يحملون أقمشة الديباج واللفائف المذهبة فى أيديهم ووقفوا حول المجلس ، فقال أنوشيروان : إن هذا القصر لا يتسع لكي ترتدوا هذه الملابس فيه ، لتأتوا هناك فى هيئة مجموعات من عشرين أو ثلاثين شخصًا ؛ حتى ترتدوا الملابس ثم تتوجهوا من ذلك القصر إلى ميدان الصولجان وتقفوا هناك حتى يرتدى الجميع خلعًا ، فإذا ما خلع على الجميع فإن الملك ومزدك يذهبان إلى الميدان ويلقيان نظرة وينعمان بالمشاهدة ، وبعد ذلك سوف نأمر حتى يفتح باب مخزن السلاح ويتسلح الجميع ، وربما كان أنوشيروان قد أرسل رجلاً إلى القرى (المجاورة) لكى يأتى بـ ٣٠٠ رجل بالفيلة بحجة أن ينظفوا الحدائق والقصور من القمامة .

جُمع الجميع فى ميدان الصولجان وأحكموا غلق الأبواب ثم قال لهم أريد اليوم ، بل هذه الليلة أن تحفروا ١٢ ألف بئر فى الميدان وأن تجعلوا عمق كل بئر مقدار ذراع أو ذراعين وأن تتركوا تراب البئر المحفورة ، وأمر الحراس أن يمنعوا الجميع من الذهاب إلى هناك بعد حفر هذه الآبار وكان قد تسلح ٤٠٠ فارس ووضعهم أنوشيروان فى قصر صغير فى الميدان وقال لهؤلاء الفرسان سوف أرسل لكم أتباع مزدك فى مجموعات كل مجموعة قوامها عشرون أو ثلاثون شخصًا وسوف تأخذونهم أنتم إلى القصر الصغير حيث الميدان وهناك جردوهم من ملابسهم وازرعوا رءوسهم فى الحفرات المعدة لذلك واجعلوا نصف أجسامهم حتى الخصر فى الهواء ثم ألقوا فوق كل شخص تراب البئر المحفورة .

وغرسوا على كل واحد من أتباع مزدك فى بئر حتى يدفن فيها ، ولما جاء حملة الملابس إلى القصر تقدمهم مئتا حصان تحمل أمتعة من الذهب والفضة والدروع وحمالات السيوف ، فأمر أنوشيروان أن يأخذوا الجميع إلى القصر وفعلوا ما أمروا . ثم راح أنوشيروان يختار من أتباع مزدك جماعات مكونة من عشرين شخصًا أو ثلاثين وكان يرسلهم إلى ذلك القصر وكانوا يرسلونهم ثانية إلى قصر الميدان فكانوا يزرعونهم

على رءوسهم فى البئر حتى انتهوا من أمرهم جميعًا ، وبقى أنوشيروان والملك ومزدك فقال أنوشيروان : لقد خلعت على الجميع وقد اصطفوا فى الميدان يزينونه فلتنهضوا لتروا ذلك ، فنهض كل من الملك ومزدك واتجها إلى القصر ومن القصر توجها إلى الميدان ، فلما نظر مزدك رأى أن جميع أتباعه لا تظهر منهم سوى أرجلهم ، فنظر أنوشيروان إلى مزدك وقال : إن الجيش الذى أنت قائده لا يمكن لنا أن نخلع عليه بشكل أفضل من هذا ! فقد جئت لكى تفسد علينا أموالنا وثرواتنا ونساءنا وتنتزع الملك من أسرتنا فانتظر حتى أخلع عليك أنت ، فأمر أنوشيروان حتى حفروا لمزدك بئرًا عميقة أمام الميدان وأمر رجاله بالقبض عليه وألقوه فى البئر حتى صدره ولما طلت رأسه من الحفرة بينما كانت قدماه فى البئر وضعوا الآجر فوق عنقه حتى هبطت رأسه تمامًا فى تلك البئر[١] .

تعاليم مزدك

يقول إن للعالم خالقين منذ بداية الخليقة : فاعل الخير (يزدان) وهو النور ، وفاعل الشر (أهريمن) وهو الظلمة ، والأول هو فاعل الخير لا يصدر عنه سوى الخير ، ولا شك فى أن العقول والنفوس والسماوات والكواكب من خلق يزدان وليس لأهريمن أية قوة أو سلطة فى ذلك ، وقد خلق يزدان العناصر والمركبات فهو الذى يجعل النار دافئة ويجعل العواصف هواءً ملائمًا وهو الذى يروى العطشان بالماء ، ومن عناصره الأخرى المعادن مثل الذهب والفضة والنباتات والأشجار المثمرة ، والحيوانات كالأبقار والخراف والجياد والجمال والإنسان الورع ، كل ذلك من خلق يزدان .

وإحراق النار للكائنات وقتلها بالسموم وإغراق الماء للسفن وتمزيق الحديد للجسم ووخز الشوك للبدن وتوجيه الضوارى من الحيوانات كالأسد والنمر والعقرب والحية وما إلى ذلك من عمل أهريمن ، ولما لا توجد لأهريمن أية سلطة على الفلك ، يسمى ذلك بالجنة ولما أنه لا يوجد أية سلطة لعناصر أهريمن (العناصر المدمرة) فلاشك فى أنه أوجد

(١) سياست نامه ، نظام الملك . (المؤلف)

لكل شيء ضدا ؛ فمثلاً الله (يزدان) خلق الحياة وأهريمن دمرها وأوجد يزدان الصحة وأوجد أهريمن المعاناة والمرض و (يزدان) واهب العطايا وهو خالق الجنة وأهريمن خالق النار ، ومن الواجب عبادة "يزادن" ؛ إذ إن ملكه واسع وليس لأهريمن من نفوذ سوى السيطرة على بعض العناصر ، وإن من كان (يزدانياً) أى خيِّرًا وصلت روحه إلى الفردوس الأعلى ومن كان شيطانياً خلدت روحه فى جهنم ، إذاً فإن من العقل أن يمنع العاقل نفسه من أتباع أهريمن مهما يفعل أهريمن[1] .

وقد قال مانى : لقد ظهر العالم نتيجة لأسر الروح فى سجن المادة ، وقد أصبحت المادة باعثًا على هذا الامتزاج المؤلم وليس الروح .

والموضوع الجدير بالبحث هو : هل مثل هذا الشيء ممكن ؟ ويقول مزدك فى هذا : لما كانت المادة لا تعى وليست لها إرادة فإنها لا تستطيع أن تتقدم فى نطاق الروح ، وبناء على هذا يجب أن تعتقد بأن الروح نفسها قد هبطت فى المادة وليس كما يتصور مانى أن المادة تجاوزت نطاق الروح ، ولكن من ناحية أخرى سنرى أن الحياة الدنيوية ملوثة بكثير من المفاسد مهما يكن من أنه يبدو أن الجانب المادى (فى الإنسان) أقوى بكثير من الجانب الروحى ، إذن يجب أن نعتقد أن الحياة الدنيوية تقوم على الحياة وأن هذا الجانب المادى ملوث بالفساد .

والأمور التى تجعلنا نهتم بالحياة الدنيوية دون تقدم الروح هى :

(خمسة أشياء تبعدنا عن طريق الصدق والعالِم من يحيط بهذه الأشياء الخمسة

فأين الحسد والغضب والحقد والحاجة من الشيء الخامس وهو الطمع الذى يفوق الجميع

فلو أنك سيطرت على هذه الشياطين الخمسة اتضح لك طريق عالم الله

لنا من هذه العناصر الخمسة الزوجة والمال إذ إن دين الخير قد تقلص فى الدنيا

لا غنى لنا عن الزوجة والمال فى حياتنا فلا تفسد دين الخير

والحسد والطمع والحاجة فى الشيئين السابقين "الزوجة والمال" والحقد ومعاداة الخصم بسببهما

ويضل الشيطان دائماً عقول الغافلين ولا يجب أن نتبعه) .

(الفردوسى)

(١) عن دبستان المذاهب : محسن فانى كشميرى . (المؤلف)

وبالنظر إلى التعاليم السابقة ندرك أن أحاديث المعارضين لمزدك قد اعتبرته فاسداً وزنديقًا ورجلاً ماديا ، وقد وجهت إليه افتراءات عجيبة وغريبة ، وقد كان هذا بعيداً عن الحقيقة إلى حد كبير ، وعلى حد قول "كريستن سن" : يمكن تفهم الأمر بسهولة لماذا وصف أعداء مزدك "مزدك" بالفسق والفجور والشبق الجنسى فى حين أن باطن هذا المذهب يهدف إلى الزهد والتقوى .

ويمكن القول إن زرادشت ومزدك قد قاما بإصلاحات اجتماعية وكانا يدعوان إلى حسن الخلق ومحبة البشر ، ولم يمنعا سفك الدماء والقتل فحسب ، بل إنهما كانا يدعوان إلى سعادة الإنسان وإكرام الضيف ويعربان أنه يجب على المضيف ألا يمنع أى شىء عن الضيف مهما يكن جنسه أو شعبه .

وعلى العكس فقد دعا مزدك إلى الروحانيات حتى إنه منع أكل الحيوانات ، ويقول ابن الأثير فى هذا : (لقد نهى مزدك عن قتل الحيوانات واعتبر أن الغذاء الذى يخرج من الأرض أو ما يحصل عليه من الحيوانات مثل البيض واللبن والزيت والجبن اعتبر ذلك طعاماً كافيًا للإنسان) .

ولو أن مزدك قال بالشراكة أو الاشتراك فى الزوجة والمال لكان أعيان الدولة قد احتكروا فى ذلك الزمان الزوجة والمال لأنفسهم .

كان مزدك يقول ليس لأحد الحق فى أن يعد لنفسه قصراً للنساء له خاصة وأن يقضى كل أوقاته فى اللهو واللعب ، كان مزدك يقول : المال للمنح والعطاء أو يقسم بين الناس ؛ إذ إن الجميع عباد الله وأبناء آدم .. إذن يجب أن ينفق المال بين الناس جميعاً فلا يبقى أحد فى فاقة وعوز بل يكونون فى حالة مساواة[١] .

إذن لماذا يحتكر الأعيان الرأسماليون أموال الشعب فيظل الشعب أسير القحط والغلاء ؟ ومما قاله مزدك : إن نساءكم مثل أموالكم يجب أن تعتبروا أن النساء مثل الأموال حتى لا يظل أى شخص محروماً من اللذة وشهوات الدنيا ، فينعم كل المواطنين بهذه اللذات بالتساوى[٢] .

(١) وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . (المترجم)
(٢) سياست نامه نظام الملك . (المؤلف)

فأين الفسق والفجور فى هذه التعاليم ؟ ومع ذلك فقد ألصق بمذهب مزدك مختلف الأكاذيب والافتراءات واعتبروه مثل شيطان خطير، وإن هذه الاتهامات لم تلحق به من خلال الكتاب الشرقيين المأجورين فحسب ، بل من الكتاب الغربيين أيضًا ، وقد أدان مؤرخون مثل جيبونى ومالكم "مزدك" ومذهبه بمثل هذه الافتراءات الباطلة .

ودعونا نطالع أفكار مزدك ولنر أى فساد فيها :

كان مزدك يقول : اجعلوا المساواة والمحبة مهنتكم وحاربوا أى اعتداء لفرد على الآخر واشتركوا فى النساء والأسر .

واجعلوا السلوك المحمود نصب أعينكم ولا تسعوا فى قتل أحد أو أذيته .

وقد خلق الله الأرزاق فوق سطح الأرض ؛ حتى تقسم بين الناس بالتساوى ولا يزيد شخص على آخر ، ولكن الناس يظلمون بعضهم وكل شخص يفضل نفسه عن الآخرين .

ونريد أن نشرف على هذا الأمر ونأخذ ثروات الأغنياء للفقراء فما يزيد على حاجة الأغنياء نعطيه للفقراء ، وحينما نأخذ الأموال والنساء والغلمان والأثاث الزائد من شخص ما سوف نقسمه بالتساوى بين الآخرين ؛ حتى لا يمتاز شخص عن آخر .

وكان مزدك يقول : يجب قتل الجسد حتى تتخلص الروح من الظلمة . فهل من الممكن لمثل هذا الشخص أن يجيز السرقة والنهب والشهوات ؟ وهل يمكن أن نستنتج من أفكار هذا الرجل نتيجة غير أنه كان ذا خيال سامٍ ومقدس وأنه يريد أن يحطم نفوذ الرأسمالية والأشراف والزرادشتيين الفاسدين ؟

وعلاوة على التعاليم السابقة فقد فسر مزدك كتاب الأفستا تفسيراً آخر .

وقد شرحه شرحًا عميقًا يختلف عن المعنى الظاهرى له . ويقال إن السبب فى تسمية المزدكية بالزنادقة هو هذا السبب: إن مزدك ألف كتابًا أسماه "الزند" لهذا عرف أتباعه بـ "زنديك" ولكن العرب استبدلوا كلمة (زنديق) بكلمة زنديك ، وقد أطلق على كل شخص يعارض الدين الإسلامى اسم زنديق .

ومن العقائد الأخرى لمزدك عقيدته فيما يتعلق بالنور والظلمة ، وكما قلنا إن مزدك مثل مانى بدأ فلسفته من العلاقة بين أصلين قديمين هما النور والظلمة .

الخلاصة : أنه كان يعتقد خلافًا لم يؤمن به مانى (وهو أن الظلمة والنور لا يعملان لغاية أو هدف ، بل إن عملهما عشوائى ومن باب الصدفة) . وأنه بناء على امتزاج النور والظلمة ظهر هذا العالم المادى ، وقد تم هــذا بدون إرادة أو تدبيـر ، لكن تفوق النور على الظلمة فى مذهب مزدك أكثر وضوحًا مما هو موجود فى مذهب مانى .

ويحكون عن مذهب مزدك أن معبوده يجلس فى العالم العلوى على العرش ، كما يجلس فى الأرض ملك إيران على أريكة ، وقد وقف أمام معبوده أربع قوى هى على هذا النحو : الإدراك والوعى والذاكرة والسعادة ، كما يجلس أمام عرش ملك إيران أربعة أشخاص وهم على هذا النحو : كبير رجال الدين الزرادشتيين والمعلم الأعظم والقائد والمغنى ، ويدير هذه القوى الأربع فى الدنيا وزراء سبعة يرمز لهم بـ "القائد" والخادم والحمال ، وأدلاء القافلة ووزير المستخدمين ، ويتحرك هؤلاء الوزراء السبعة وسط اثنتى عشرة دائرة روحانية[1] .

ويوجد فى كل إنسان أربع قوى ، والكيانات السبعة والاثنتى عشرة هى صاحبة الاختيار فى العالم السفلى وقد سلب الإجبار منها ، وكان مزدك يقول : (إن ملك العالم العلوى يحكم بمساعدة حروف يشكل مجموعها الاسم الأعظم ، وإن كل شخص يكون لديه تصور عن الشىء المتعلق بهذه الحروف يستطيع أن يكشف أعظم الأسرار .

ولكن كل شخص يحرم منها يظل أمام القوى الأربع الروحانية فى بحر من الجهل والعمى والنسيان والحماقة والحزن) .

وفى شأن الأمور السياسية يؤمن مزدك بالحكومة المثالية مثل الحكومة المثالية لأفلاطون ، ولكننا للأسف نفتقر إلى التفاصيل عن تعاليم مزدك ؛ لأن معارضيه قد قضوا تمامًا على الأدب المتعلق بمذهبه ، ولكننا ندرك مما تبقى – وهو قليل – أن مزدك أراد أن يقوم بثورة عظيمة ليس فقط فى الدين ، بل أيضًا فى السياسة والفلسفة ،

(١) والـ ١٢ دائرة : خوانندك ، دهندك ، ستانندك ، بزندك ، خورندك ، روندك ، خيزندك ، زنندك ، كننده ، أيندك ، وبابيندك . (المؤلف)

ولو أنه حقق هدفه وفشلت مؤامرة الأشراف تجاهه ليس معلومًا كيف سيكون حال الدنيا ، لكن من المسلَّم به أن العالم كان سوف يختلف كثيرًا لو انتصر مزدك فى أيامه ، وربما أصبح انتصاره باعثًا على تقوية الأمة الإيرانية ولكان منع حملة العرب[١] ونتائجها السلبية بعد ذلك .

الغصن الذى ينمو فى قلب الأمة[٢]

من الخطأ لو أتصور أن أنوشيروان قد استطاع بمؤامراته الوحشية أن يقضى على أتباع مزدك ؛ إذ إن الغصن الذى ينمو فى قلب الأمة ليس من السهولة أن تستأصل شأفته ، وبعد موت مزدك أتت زوجته الشجاعة إلى مدينة الرى وكانت تسمى "خرمه" وتزعمت فلول المزدكيين المتبقين عن زوجها الشهيد (فى نظرها) ولهذا السبب عرف المزدكيون بعد هذا التاريخ باسم "أتباع خرم" ، وبعد أن سقطت إيران العزيزة فى يد المسلمين حاول أنصار خرم أن يعيدوا (المياه إلى مجاريها) كما يقولون ، وقصص الكفاح البطولية التى قام بها أتباع خرم ضد العرب أشهرها ما نحن بصدده ، ويكفى أننا ذكرنا أن أتباع خرم هم الذين أطاحوا بالحكومة الأموية الفاسدة وأقيمت حكومة إيرانية عباسية على يد الإيرانى الشجاع أبى مسلم الخراسانى بعد ذلك ، ومع استقرار هذه الحكومة وبمساعدة "بابك" الشجاع استقر استقلال إيران !؟[٣]

(١) ما قام به المسلمون فى إيران بداية من القرن الثالث الهجرى ليس حملة عسكرية ؛ بل إنها فتح عظيم ، وقد جنى الإيرانيون من هذا الفتح الكثير : ويكفى أنهم تخلصوا من المذاهب التى نادى بها زرادشت ومانى ومزدك وكلها مذاهب أقرب للفلسفة الشخصية من أن يطلق عليها اسم دين وتحتوى على الكثير من الضلال والمغالطات ، وقد علقت عليها فى مواضعها ، وواضح أن المؤلف من الأفراد المتأثرين بالحركات القومية الإيرانية التى انبثقت عن الحركات الشعوبية . (المترجم)

(٢) إن اللقب (الغصن) الذى يطلقه المؤلف على (مزدك) ما هو إلا سرطان بشع اجتاح إيران وبعض أجزاء العالم الإسلامى فى القرن الثانى الهجرى والتاسع الميلادى ، وأن مزدك وأتباعه بعد ذلك ما هم إلا فرق إباحية ، وقد انقسمت إلى قسمين (البابكية) (والمازيارية)، وقد أسر بابك فى عصر الخليفة المعتصم وأرسل إلى بغداد وقد أمر الخليفة بقتله شر قتلة ، كما أن كثيرًا من الفتن كان أساسها تلك الحركات الهدامة التى ارتبطت بالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية . (المترجم)

(٣) نلاحظ فى هذا الحديث نوعًا من الشعوبية التى ظهرت قبل ذلك كثيرًا فى أحاديث مؤلف هذا الكتاب فى غير هذا الموضع . (المترجم)

القسم السادس

فلسفة إيران بعد الإسلام

أبو نصر الفارابى :

ولد أبو نصر الفارابى – الذى اشتهر فى أوروبا بـ (Alpharabus) أو (Alfrabi) – تقريبًا فى عام ٨٧٠م. فى وسيج – ولعل الكلمة معربة عن وستكند – وتوفى عام ٩٥٠م . وقد نشأ أول الأمر فى فاراب وهى ناحية فى حوض نهر سيحون، ولكنه توجه فى بداية شبابه إلى بغداد وهناك تتلمذ فترة من الوقت على يد أبى بشر متى بن يوسف فى علم المنطق ، ثم انتقل بعد ذلك إلى حران وهناك أكمل تعليمه حيث تعلم المنطق على يد يوحنا بن حيلان ، ثم عاد ثانية إلى بغداد وقضى جل وقته فى الاطلاع على الكتب الفلسفية ، ولما كان حريصًا على الاطلاع على الكتب الفلسفية فقد طالع كتاب (De Anima) لأرسطو مئتى مرة ، وكتاب (Physcis) لأرسطو أيضًا ٤٠ مرة .

وقد طبقت شهرته أنحاء العالم وتزايد عدد مريديه وكان من بينهم سيف الدولة الذى دعاه إلى حلب .

ويروى ابن خلّكان فى شأن أول لقاء للفارابى بسيف الدولة رواية جديرة بالاهتمام على النحو التالى :

حينما وصل الفارابى إلى مجلس سيف الدولة وكان قد حضر فى هذا المجلس جمع من الفضلاء فى جميع الفنون والعلوم ، وفى هذا الوقت كان الفارابى يرتدى الملابس التركمانية ، فأمره سيف الدولة بالجلوس فتساءل الفارابى : أين أجلس ؟ أأجلس فى المكان الذى أنا به ، أم أجلس فى المكان الذى أنت به ؟ ولم يهتم الفارابى بحديث سيف الدولة ونظر إلى الجميع نظرة ازدراء وتوجه إلى مقعد السلطان ورفعه منه وجلس مكانه ، وفى هذا الوقت كان قد تجمع عدد كبير من المماليك لدى سيف الدولة ، وقد تعود سيف الدولة أن يحدثهم بلغة خاصة، فقال لهم بتلك اللغة المذكورة : لقد تجرأ هذا الشيخ علىَّ ؛ لذلك سوف أسأله بعض الأسئلة فإن عجز عن الرد فالتمسوا له العذر .

فأجاب الفارابى فى تلك اللحظة باللغة المذكورة نفسها قائلاً : أيها الأمير اصبر قليلاً ولتنتظر خاتمة الأمر . فتحير سيف الدولة أمام هذه الإجابة ، وقال : تعرف أنت هذه اللغة أيضًا ؟ أجاب الفارابى : أجل ، إننى أعرف سبعين لغة .

وبعد ذلك قام بمناظرة جميع العلماء والفضلاء الحاضرين فى المجلس فى كل العلوم والفنون وتفوق على الجميع .

فسأله ثانية : أتشرب شيئًا ؟ أجاب : لا ، فسأله مرة ثالثة : أترغب فى سماع الموسيقى ؟ أجاب الفارابى : نعم .

وأخرج الفارابى من جيبه صرة من القماش وفتحها وأخرج منها بعض الأعواد الخشبية ثم وصلها ببعضها وبدأ فى العزف عليها ، فضحك جميع الحاضرين ، ثم أعاد وضع تركيب هذه (الآلة الموسيقية) وعزف عليها فبكى جميع الحاضرين، وفى المرة الثالثة نام الجميع بمجرد أن عزف عليها ، فتركهم الفارابى فى نومهم يغطون وخرج .

وعلى الرغم من أن الفارابى[1] قد ترعرع فى بحبوحة من العيش والرفاهية فإنه قد عاش فى دمشق فى قناعة تامة ، حتى إنه لم يكن له بيت وكان يقضى أغلب أوقاته بجوار الحدائق الخضراء والجداول يطالع (معشوقته) الفلسفة ، حتى ليقال إنه كان يشرب بدلاً من اللبن شراب الريحان ! ولأن الفارابى كان يطالع علم الطب كثيراً فليس بمستبعد عليه أن يكون قد لجأ إلى مثل هذه الأمور المجنونة .

ويكتب جمال الدين القفطى النجفى فى شأن الفارابى ما يلى : كان الفارابى يعيش فى مملكة العقل مثل سلطان ، وكان يعيش فى العالم المادى صعلوكًا مفلوكًا[2] .

وكانت له مؤلفات عديدة فى الفلسفة والموسيقى والتصوف وقد فقد القسم الأعظم منها ، وكان أحد مؤلفاته الموسيقية فى شأن (نغمات الأصوات) ولكن شهرة الفارابى ترتبط بالتفسير والشرح على أعمال أرسطو وأفلاطون ومن بينها: شرح منطق أرسطو ، والسماع الطبيعى ، وما وراء الطبيعة .

(١) كان والد الفارابى على حد قول ابن خلكان ذا خيل وحشم زائدين، وقد كتب المؤرخون الآخرون : إن والده كان أمير جيش .

(٢) عاش الفارابى فى دولة العقل ملكًا وفى العالم المادى مفلوكًا ، وقد بقى حتى نهاية حياته فى كنف سيف الدولة ، ولما توفى عام ٩٥٠م . صلى سيف الدولة على جسده . (المؤلف)

وقد شرح أيضًا كتاب (ايسا غوجس فرفريوس) وفسر حديث (إسكندر أفردويسى) فى شأن (النفس) ، ومن أعماله المهمة :

١ – مقدمة فى مدخل الفلسفة : وهذا الكتاب فى شأن أقسام الفلسفة والتعريف بالفلاسفة العظام .

٢ – إحصاء العلوم ، ويقسم الفارابى العلوم إلى ٨ طبقات : علم الإنسان ، وعلم المنطق ، وعلم التعليمات، والذى قسمه أيضًا على هذا النحو : العدد ، والهندسة ، والمناظر والمرايا والنجوم ، والموسيقى ، والأوزان ، وعلم الحيل ، والعلوم الطبيعية ، والعلوم الإلهية ، والعلوم المدنية ، والفقه والإسلام .

٣ – ما ينبغى أن تعلم قبل الفلسفة : يدعونا الفارابى فى هذا الكتاب إلى الاطلاع على الفرق الفلسفية، وهدف أرسطو فى كل كتاب من كتبه وأسلوبه وطريقته فى تهذيب النفس وتربية العقل وما إلى ذلك .

٤ – أغراض أرسطاطاليس فى كتاب ما بعد الطبيعة : وهو مقالة فى خمس صفحات حددها الفارابى فى موضوع كتاب أرسطو ، وقد شرح على سبيل الإجمال فى ١٢ مقالة .

٥ – مقالة فى العقل : وقد بحث الفارابى فى هذه الرسالة معانى العقل وفقًا لتقسيم أرسطو .

٦ – الجمع بين رأيى الحكيمين : يحاول الفارابى فى هذا الكتاب أن يثبت أن أفلاطون وأرسطو لا يوجد بينهما أى اختلاف ، ومن وجهة نظره فإن هذين الحكيمين (الفيلسوفين) مبدعان للفلسفة ومؤسسان لقواعدها الأولى ، وأنهما أوصلاها إلى درجة الكمال ، وأن الاختلاف الذى يبدو بينهما اختلاف سطحى وظاهرى ، وأن الاثنين يسعيان إلى هدف واحد من خلال طرق مختلفة وعلى حد قول الشاعر : (يوجد اختلاف فى الشكل لكن المعنى واحد) !

ولتقرأوا مثلاً نظرية أفلاطون وأرسطو فى شأن (المثل) ، يشير أفلاطون فى كثير من أعماله إلى أن للموجودات صورة مجردة فى العالم الإلهى الذى لا يصله الفساد مطلقًا،

ويشير أرسطو فى كتاب ما وراء الطبيعة إلى نظرية المثل ولكنه يعرض فى كتاب (باتولوجيا)[1] إلى موضوع الصور الروحانية ، وإذا نظرنا إلى الحقائق السابقة : هل أراد أرسطو تكذيب كلام أفلاطون ؟ (وهذا الأمر مستبعد) أم أن كتاباته قد حرفت ؟ وهذا الأمر ليس مقبولاً ، أم أن أرسطو قد صدق على كلامه بشكل خاص ؟ الخلاصة : حتى يمكن أن نكشف هذا اللغز يجب أن نفسر كتاباته .

ومن وجهة نظر الفارابى أن الشق الأخير هو الأقرب إلى الحقيقة والعقل ، وهذه الأحاديث التى ذكرها أرسطو فى هذا الشأن يمكن أن نفسرها بأن الله خلق هذا العالم بالشكل الموجود عليه ؛ لذلك توجد صورة لدى الذات الإلهية عما يجب خلقه . وإن هذه الصورة لا تتغير ولا تزول وأن هذه الحقيقة نفسها التى يؤمن بها أفلاطون لا تتغير ، وبناء على هذا لا يوجد أى اختلاف نظرى بين الأستاذين اليونانيين السابقين .

ويشتمل كتاب "الجمع بين رأيى الحكيمين" على ثلاثة أقسام هى كما يلى :

(أ) المقدمة ، وهذا القسم فى شأن فروع علوم الفلسفة والعلوم الطبيعية .

(ب) شرح مبادئ فلسفة أفلاطون ومسائلها وإيراد شروح فى شأن أعماله .

(ج) تلخيص فلسفة أرسطو وتفسيرها .

٧ - أجوبة عن مسائل فلسفية : وموضوع هذا الكتاب عدد من الأسئلة الفلسفية التى أجاب عنها الفارابى نفسه .

٨ - فى ما يصح وما لا يصح فى أحكام النجوم : ويبدو من فحوى هذه الرسالة أن الفارابى لم يكن يؤمن بنبوءات المنجمين ، وأنه من المسلَّم به أن النجوم لا تؤثر فى مصائر الموجودات .

٩ - تحصيل السعادة : ويتبع الفارابى فى هذه الرسالة أرسطو، فيقول : إن السعادة الحقيقية فى تحصيل الفلسفة والعمل وفقًا لقواعدها .

(١) باتولوجيا أو (Pathologir) مبحث العلل وأعراض الأمراض . (المترجم)

١٠ – عيون المسائل: حديث مختصر يشرح خلاصة نظريات الفارابى فى الفلسفة .

١١ – فصوص الحكم : هذا الكتاب كتب وفقًا لفلسفة الإشراق ، ويبحث فى شأن الخالق والنفس .

١٢ – رسالة فى السياسة : وموضوع هذه الرسالة سياسة الأخلاق التى شرح فيها وظائف الإنسان تجاه رؤسائه والأفراد والنفس والفقراء .

١٣ – المدينة الفاضلة(١) : اتبع الفارابى فى هذا الكتاب أفلاطون فيقول مثلاً إنه يجب أن يكون فى المجتمع قائد أو قادة عقلاء وعلى أفراد الشعب أن يتبعوه . ويجب على هذا القائد أن يتحلى بالأخلاق وأن يتخلى عن الأغراض الدنيوية وأن يسعى لإصلاح شئون الأفراد ؛ فلو شبهنا المجتمع بالجسم فإن القائد بمثابة القلب وإن باقى طبقات الشعب مثل الأعضاء . الخلاصة أن وظائف أعضاء البدن طبيعية وغريزية ، ووظائف أعضاء المجتمع إرادية وتلقينية ؛ ولهذا السبب يجب على الرئيس الأول للمدينة الفاضلة أن يتحلى بفضائل خاصة على النحو التالى :

١ – أن يكون كامل الأعضاء .

٢ – أن يحفظ جيداً ما يدركه ويراه ويسمعه ويعقله .

٣ – أن يكون عاقلاً وذكيًا .

٤ – حسنَ البيان .

٥ – محبًا للتعليم والاستفادة .

٦ – قنوعًا فى أكله وشرابه ومخالطته للنساء وابتعاده عن اللهو واللعب .

٧ – محبًا للحق وعدواً للكذب .

٨ – عظيمَ الطبع ومحبًا للكرامة .

٩ – بعيداً عن حب الدنيا وسائر الأغراض الدنيوية .

(١) تشكك بعض الباحثين فى نسبة هذا الكتاب إلى الفارابى .

١٠- نصيراً للعدل والعادلين وعدواً للظلمة .

١١- عادلاً ورفيقاً .

١٢- قوىَ الإرادة وشجاعًا فى مواجهة الحق .

إن لم تجتمع كل هذه الصفات فى أحد رؤساء المدينة الفاضلة فيجب أن تتوفر فيه أ[illegible](1) .

١٤ و ١٥ – السيرة الفاضلة ، وسياسة المدن (أسماء الكتابين) .

سعى الفارابى فى هذا الكتاب إلى شرح المسائل المهمة للعلم الإلهى وفقًا لفلسفة أرسطو .

وقد شرح الفارابى فى الكتابين السابقين (السيرة الفاضلة ، وسياسة المدن) الأركان المجردة الستة التى أساسها ظهور العالم وعلل وجود الأجسام المادية على النحو التالى :

١ – المبدأ الإلهى أو السبب الأول ؛ أى الوجود البسيط الصرف الذى له وحدة حقيقية وهو جامع لكل أفعال جميع الموجودات على نحو أتم .

٢ – الأسباب الثانوية أو العقول والأجرام العلوية ؛ أى الصورة النوعية للمجردات العلوية الفعلية التى يكون فى وجودها جميع الأجرام العلوية الطولية .

٣ – العقل الفعال أو المربى للنفس الإنسانية، الذى هو فى الحقيقة واسطة إشاعة فيض الوجود وتجليات نور الحق على الموجودات السفلية للأنفس البشرية .

٤ – العقل أو المحرك والمدبر للأجسام المادية ، وهو الذى يتناغم مع الماديات .

٥ – الصورة ؛ أى درجة التحقق وظهور الموجودات المادية .

٦ – المادة المعنوية ، وهى التى تكون ماهية الأجسام المادية وتحققها بواسطة حركتها .

(1) نقلاً عن العلوم العقلية (الدكتور صفا) . (المؤلف)

والمبادئ الثلاثة الأولى مجردة صرف ولا علاقة لها بالأجسام باستثناء العلة والمعلول، ولكن المبادئ الثلاثة الثانية على الرغم من أنها مجردة فإنها تتصل بالأجسام، وهذا الاتصال يكون أولاً فى الفعل وثانيًا فى التحقق والظهور وثالثًا فى التعيين والتحديد[1] .

نظرة شاملة إلى فلسفة الفارابى

فى المنطق

يهتم الفارابى اهتمامًا خاصا بالمنطق وقد اشتهر فى المنطق كثيرًا ، وقد كتب أعمالاً متعددة فى هذا الشأن ولكن للأسف فإن الجزء الأعظم مما كتبه قد ضاع ، وخلاصة آرائه فى المنطق كما يلى :

المنطق هو الصنعة التى تحكمها قوانين العقل ويمكن الاهتداء إلى الصواب بواسطتها ، وتحول دون الوقوع فى الأخطاء ، والعلاقة بين المنطق والعقل كالعلاقة بين النحو والبيان ، والعروض وأوزان الشعر ، ووحدات الوزن والحجم فى قياس الأجسام ، وأجزاء المنطق الثمانية هى كما يلى :

١ – المقولات . ٢ – العبارة . ٣ – القياس .

٤ – البرهان . ٥ – الجدل . ٦ – حكمة الضال أو السفسطة .

٧ – الخطابة . ٨ – الشعر .

ويذكر الفارابى خمسة أنواع للقياس :

١ – القياس البرهانى : وهو ذلك القياس الذى به نحصل على علم اليقين ؛ أى العلم الذى لا يقع معه خطأ ، وهو العلم الذى لا يمكن التشكيك فى صحته .

٢ – القياس الجدلى : وهو القياس الذى يقترب من اليقين دون أن يصل إليه .

(١) كاظمى آذربايجانى : الأخلاق من وجهة نظر الفارابى . (المؤلف)

٣ – القياس السفسطائى : وهو القياس الباعث على الضلال والخطأ ، وهو القياس الذى يظهر الباطل فى ثوب الحق ، ويلبس الحق ثوب الباطل .

٤ – القياس الخطابى : وهو الذى نسميه القياس المقنع ، وفائدته أن يقنع المخاطب بدون أن يتسلل الشك أو الظن إلى يقينه .

٥ – القياس الشعرى : هو الذى يخاطب الخيال وليس العقل . وبهذا الشكل يمكن إقناع الإنسان بتزيين الموضوع أو بتقبيحه عن طريق التخييل بجمال الموضوع أو بسوئه .

النفس

بحث الفارابى فى شأن النفس المباحث التالية :

١ – منشأ النفس – الحدوث : فى الوقت نفسه الذى ظهرت فيه أصلح نفس وتمت عملية استعداد النفس البشرية لتقبلها فإن النفس قد نهلت من فيض العقل النشط ، وفى الوقت نفسه الذى استقرت فيه المادة فى رحم الأم للقيام بدورها ارتبطت النفس بها .

وكما يقول أفلاطون قبل أن تحل النفس بالبدن ، انتقلت النفس من جسد إلى جسد آخر ، ولكن ليس بالشكل الذى يعتقد أنصار مذهب التناسخ .

٢ – القوى النفسانية: إن تقسيم القوى الإنسانية وتحديد وظائف كل منها أمر فى غاية الصعوبة؛ لأن كل قوة من هذه القوى شرحها الفارابى فى أعماله بأسلوب خاص ، وسوف ننقل فى هذا الصدد خلاصة آراء الفارابى فى شأن القوى النفسانية بعد الرجوع إلى عدة كتب من مؤلفاته ، إذ إن للإنسان قوى نباتية وحيوانية وإنسانية ويشكل مجموع هذه القوى النفسانية (أو النفسية) ووظيفة التغذية والنمو من وظيفة القوة النباتية ، والقوى الحيوانية قسمان : القوى المحركة والقوى المدركة ، وينبع تحريك الإحساس من الشهوات أو الغضب أما الإدراك فيتم بمساعدة الحواس الظاهرية والباطنية .

والحواس الظاهرية هى الحواس الخمسة نفسها ، أما الحواس الباطنية هى عبارة عن الحواس المشتركة وإحساس التحصيل (التعلم) والتخيل والذاكرة .

والقوى الإنسانية : هى القوى المتعلقة بالعقل ، وقد قسم العقل إلى قسمين : عملى ونظرى ، والعقل العملى هو المسئول عن إنجاز الأعمال وإدراكها واختيار الأشياء الجميلة أو القبيحة ، المفيدة أو المضرة .

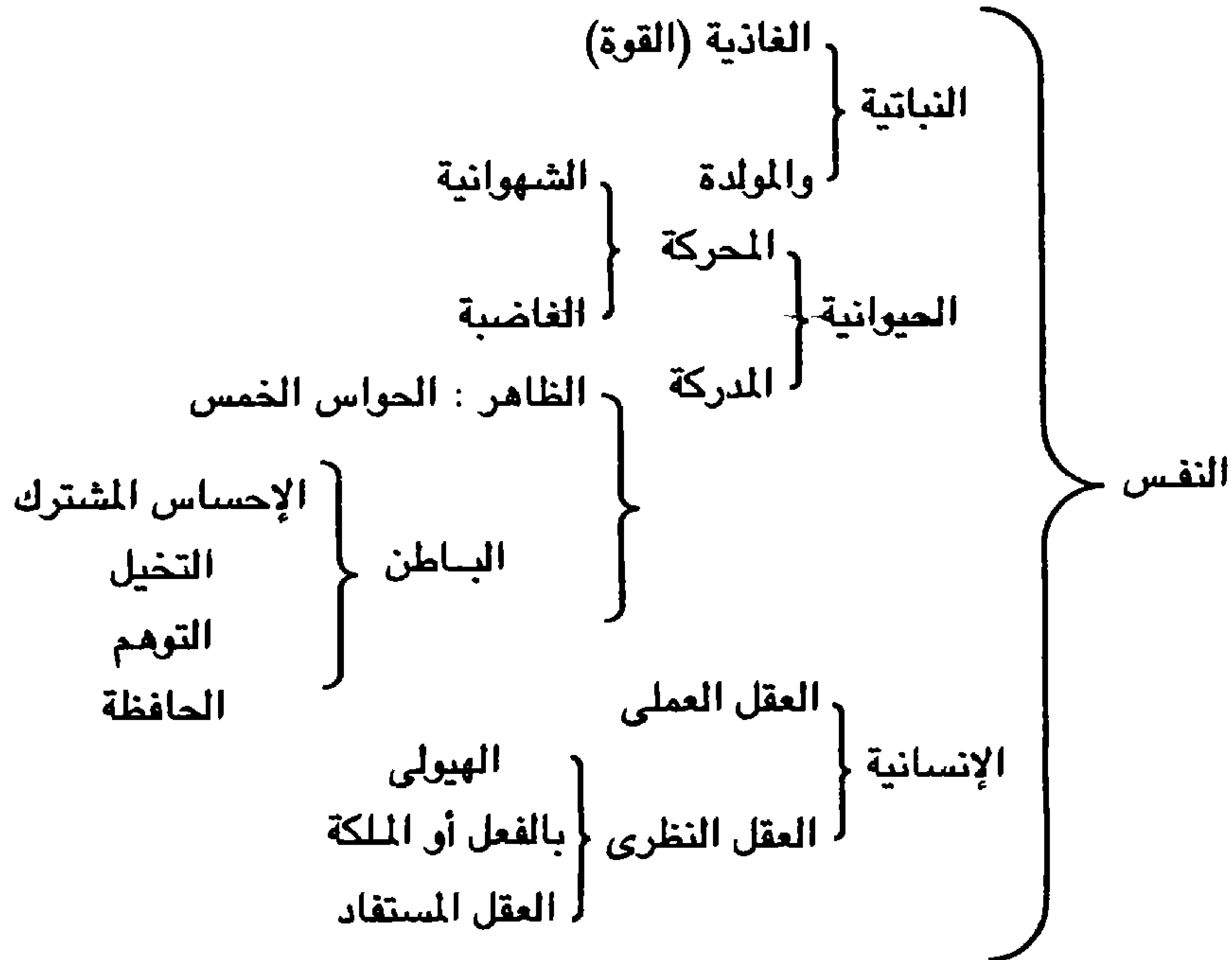
أما العقل النظرى فإنه يدرك المعقولات وهو على ثلاث درجات :

١ - العقل الهيولى أو العقل المنفعل (عقل بالقوة) .

٢ - العقل بالفعل .

٣- الملكة والعقل المستفاد .

ويمكن توضيح الموضوعات السابقة فى الجدول الآتى :



معرفة النفس

المعرفة نوعان :

١ - المعرفة الحسية ، التى يشترك فيها الإنسان والحيوان .

٢ - المعرفة العقلية ، وتخص الإنسان .

والفـرق بين المعرفتـين أننا لن نـدرك فى المعـرفة الحسية المعنى المحض لها ، بل سنضيف إضافات لها من حيث الكيف والكم ، ولكن العقل يدرك المعنى المحض بدون شوائب مادية ، ولتوضيح أكثر سنشرح هذين النوعين من المعرفة .

المعرفة الحسية

إن قوى المعرفة الحسية كما قلنا تقسم إلى ظـاهرية وباطنيـة ، والحواس الظاهرية هى الحواس الخمس نفسها التى تنعكس على المحسوسات ، والمعرفة الباطنية عبارة عن الإحساس المشترك الذى يكمن فى نقطة مشتركة للظاهر والباطن ، وللمعرفة الباطنية وظيفتان :

١ - أن تستقبل صورة المحسوسات التى تنتقل بمساعدة الحـواس الخمس ، ويبدو ذلك فى شكل الإحساس وبعد ذلك ينتقل ذلك إلى قوة التخيل .

٢ - الإحساس بالصور التى ترد من الباطن ؛ كأن يتصور أحيانًا شخص أنه يسمع أصواتًا ويـرى أشخاصًا ، ويحـدث هـذا الإحساس الداخـلى عن طـريق التأثر الشديد .

التخيل

وأهم وظائفه :

أولاً : إدراك المناظر الخارجية .

ثانيًا : التجزئة والتركيب .

إذا فرغت قوة التخيل من وظيفتها الأولى ؛ أى إدراك المحسوسات الخارجية ، فإنها فى الوقت الذى تدرك فيه هذه المناظر تفصلها عن بعضها (تحددها) ثم تكون صوراً جديدة .

والعمل الأساسى للمخيلة أن تنقل المحسوسات من الأعضاء الحساسة فى اليقظة إلى الدماغ ، ويتوقف هذا العمل فى أثناء النوم ، ولكن لما كان عمل الذاكرة لا يتوقف فى هذا الوقت فإنها تعد أشكالاً من الصور المحسوسة المنقولة (الأشكال الأصلية نفسها) التى انتقل بعض منها مع الأشياء المحسوسة إلى الدماغ عن طريق اليقظة ، ولو أن مخيلة فرد من الأفراد العاديين كانت قوية وكاملة كما ينبغى فإنها تبادر المحسوسات من الأعضاء الحساسة إلى الدماغ ، وتتخيل هذه المحسوسات وفقًا لذكرياتها وأخيلتها فى وقت واحد فى أثناء اليقظة . ولكن هذا التخيل يكون فى درجات مختلفة من حيث الكمال أو النقص أو الجمال والقبح ، فقد ترى أحيانًا أشياء غريبة وعجيبة قد لا يتخيلها شخص آخر .

وفى الوقت الذى تصل فيه قوة التخيل إلى قمة الكمال فإن الإنسان يمكنه أن يرى فى أثناء اليقظة عن طريق العقل النشط تفاصيل الأمور الراهنة والمستقبلية ، وما إلى ذلك من المحسوسات والمعقولات[1] .

وبالنظر إلى الموضوعات السابقة فليس عجيبًا أن نجد الفارابى يعتقد فى الرؤية الواضحة (Telepathy) و (Claior voyance) .

المحاكاة

التخيل قوة نفسية تستقبل المحسوسات الخارجية وفقًا لطبيعتها وماهيتها مثل العقل الذى لا يستقبل رطوبة الأجسام ولكنه يهتم بماهية الرطوبة .

وطبيعة قوة التخيل أن تتجسد جميع الأشياء فى صور محسوسة ، ولكن إذا استقبلت صوراً محسوسة فإنها تستقبلها كما هى موجودة بالفعل ، وأحيانًا تشبهها

(١) نقلاً عن العلوم العقلية – دكتور صفا . (المؤلف)

بالأجسام التى تكون مثلها ، ولو أن أشياء ليس لها جسم فإنها تستقبلها فى صور مناسبة لها .

وأهم الأشياء عديمة الصورة التى تستقبلها قوة التخيل هى الحالة الجسمانية أو الفكرة العقلانية ؛ فمثلاً يشعر الجسم بالحرارة أو الرطوبة ، فترسل القوة المتخيلة من الفور صوراً من الذهن ترتبط بالرطوبة .

ويظهر الماء والسباحة فيه أحيانًا كحالة من قبيل الشهوة والغضب فى الجسم ، فتوصل قوة التخيل هذه الحالة إلى الفعل الذى ينسجم مع هذا الأمر أو يرتبط به (أى ممارسة السباحة بالفعل) وتقوم أعضاء الجسم بالممارسة الفعلية لذلك ، وأحيانًا يصدر أمر غريب من إنسان ما كأن يصحو شخص من نومه ويقوم بضرب شخص آخر أو يجرى مفزوعاً .

ولكن لو انتقلت المعقولات إلى القوة المتخيلة سواء من العقل البشرى أو من العقل النشط فإن القوة المتخيلة تمارس عملها من جديد وتخلق صوراً مناسبة فى الذهن ، وأحيانًا تنقل هذه الصور إلى الإحساس المشترك فيظن الإحساس المشترك أن هذه الصور انتقلت من خارج البدن .

التصور

يذكر الفارابى التصور فى أعماله ويقول : لما كان إدراك التصور من المحسوسات الممتزجة بمعلومات كمية وكيفية ، لذلك فإنه لا يعد مثل الإدراك العقلى .

الذاكرة

لم يحدد الفارابى للذاكرة وظائف غير التى وردت فى كتاب فصوص الحكم ، وهذه الوظائف عبارة عن تلك الأشياء التى ارتبطت بالتصور .

المعرفة العقلية

للعقل النظرى البشرى مراحل ودرجات ، وقد سمى الفارابى كل واحدة منها باسم :

١ - العقل الهيولى أو العقل المنفعل (عقل بالقوة) وذلك العقل قبل الإدراك .

٢ - عقل بالفعل أو الملكة ، وهو العقل بالقوة إذ إنه يدرك المعقولات مجردة عن المادة ، ويتم هذا الإدراك بمساعدة العقل النشط ، ويتبدل العقل بالقوة إلى عقل بالفعل وينقل صور المحسوسات التى أدركت بالقوة إلى الفعل ، وعلاقة ذلك بالعقل والصور كعلاقة الشمس بالرؤية والمشهودات .

٣ - العقل المستفاد ، وهو العقل بالفعل ، ونظراً لأن إدراك المعقولات قد وصل إلى مرحلة الكمال وليست هناك علاقة بين العقل المستفاد والعقل النشط نرى أنه بمساعدة العقل المستفاد ينقل العقل النشط المعقولات إلى العقل بالفعل .

وبعد ذلك يصل إلى القوة المتخيلة ، وحينئذ يصل الإنسان إلى مرحلة الفيض فى العقل ثم يصبح فيلسوفاً ، أو عن طريق هذا الفيض يصل إلى مرحلة التخيل فيصبح نبياً .

علاقة النفس بالعقل

تدرك النفس المعقولات التى هى مجردة عن الصور المحسوسة فى ضوء العقل النشط ، وتتصل النفس بالعقل النشط فى موضعين فى أثناء النوم وفى أثناء اليقظة : ففى أثناء النوم ترى رؤى صادقة وفى أثناء اليقظة توهب علم الغيب والنبوة .

روحانية النفس

تدرك النفس المعقولات البسيطة ولا تدرك المعقولات للأجسام المجزأة ، ومن ثم فالنفس جوهر بسيط .

خلود الروح

يرى الفارابى أن خلود النفس مرتبط بروحانياتها ويقول فى ذلك حيث إن النفس لا تفسد[١] ، لذلك فإنها تخلد بعد موت الجسد !

وقد أشار الفارابى فى كتابه "المدينة الفاضلة" إلى خلود النفس العالمة .

عودة الروح

أجل إن النفس العالمة نفس خالدة والنفس العالمة إما فاضلة أو فاسقة ، والنفس الفاضلة يغلب عليها صورة النفس الجميلة وتعود إلى ذاتها بعد الموت وهى تكتسب اللذة والسعادة[٢] ، وعندما ننظر إلى الأنفس الفاضلة الأخرى الشبيهة بها التى تلحق بها فإنها تسعد لمشاهدة ذلك ، وكلما لحقت بهذه النفس الفاضلة أنفس فاضلة أخرى زادت سعادة النفس المذكورة .

أما النفس المفسدة فهى نوعان :

(أ) الصورة الجميلة الناتجة عن علمها وفضلها .

(ب) الصورة القبيحة الناتجة عن العمل السيئ . وهاتان الصورتان تكونان دائمًا فى تضاد ، وتكون النتيجة العذاب الأبدى للنفس .

الأخلاق

على الرغم من أن الفارابى اهتم بتربية الجسم فقد أولى اهتمامًا خاصا بتربية العقل وفيه الكمالات الإنسانية ؛ لأنه أدرك هذا الموضوع جيداً ، وهو : إن نيل درجات الكمال الإنسانية لا يمكن بلوغها إلا بتربية العقل .

(١) المقصود بالنفس هنا الروح .
(٢) هذا الأمر شبيه إلى حد كبير بمذهب زرادشت الذى يقول إن كل شخص بعد الموت يواجه إما ضميراً جميلاً أو قبيحاً ، فلو كان ضميره قبيحاً أصابه الخجل وإن كان ضميره جميلاً سعد . (المؤلف)

والعقل الذى يخص الإنسان دون غيره أساسه التربية القديمة ، هذا العقل يجب أن يستعين بالمبادئ الدينية التى تكون باعثًا على صفاء الروح ونورها .

فتنشأ العواطف الإنسانية السامية فى ضوء التعاليم الدينية الصحيحة ، ويجب أن نبدأ بالأخذ بتربية الأخلاق منذ بداية العمر فى المدارس ، وأن نتحلى بالجانب العملى هذا إذا أراد المعلمون أن يخرجوا تلاميذ نافعين .

ويجب أن يكون مناخ المدرسة مناخًا مناسبًا ؛ حتى يظهر هؤلاء التلاميذ النافعون بحيث تصبح صفة الصدق ملكة لهم ، ويجب أن يتم تعليم جميع الصفات الحسنة الأخرى بهذا الشكل .

ويدرك الفارابى جيدًا (الجانب الحيوانى) فى الإنسان لأنه قال قبل ذلك إن الإنسان عابد للشهوة ومحب لذاته .

ويميل الإنسان دومًا إلى أن يجعل إرادته فوق إرادة الآخرين حتى يستفيد من ذلك إلى أقصى حد ، ولكن من ناحية أخرى فإن للإنسان جانبًا روحانيا جديرًا بالرعاية والتربية ، هذا الجانب الروحانى ليس سوى قوته العاقلة ، وبمعنى آخر فإنه بتربية العقل يمكن للإنسان أن يسيطر على الجانب الحيوانى داخله ، ووظيفة المعلمين هى أن يقووا الجانب الروحى فى الأطفال وأن يهذبوا الجانب الحيوانى .

وعلى الرغم من أن الفارابى يدافع عن الدين فقد كان على خلاف مع رجال الدين ؛ لأنه كان يدرك أن (بعض رجال الدين) قد جعلوا الدين ألعوبة فى أيديهم حتى يستنزفوا الطبقات الفقيرة والبسطاء من أجل مصلحتهم ومصلحة الرأسماليين ، وبناء على هذا ينبغى أن نلاحظ أنه عندما يقول الفارابى إن أفضل الحكومات هى التى تدافع عن التدين والزعامة الدينية ، لم يكن قصده الحكومات المزورة المعاصرة اليوم وهى نفسها حكومات فاسدة ولا دين لها وتتظاهر بالدين، فهذا النوع من الحكومات حكومات ذئاب مفترسة فى ثوب حملان وديعة ، ويقصد الفارابى بهذا الحكومات المذهبية .

ويعتبر الفارابى أن السعادة نتيجة لاتباع العقل للأحاسيس ؛ لأنه عندما تتم تربية العقل أو تهذيبه فإن الخرافات لا تقوى على تحريك الأحاسيس فى ارتكاب أعمال مذمومة هى عدو السعادة . ولتغذية العقل يجب تقوية الرغبة (الميل) لدى الإنسان ؛

لأن الشخص الذى ليس لديه رغبة لن تكون لديه إرادة ، والشخص الذى يفتقر إلى الإرادة لا يمكن أن يتبع العقل .

ولكن ينبغى أن لا ننسى هذا الموضوع وهو : لابد من أن نهتم بنوع هذه الرغبات السيئة التى تقوى الإرادة فى ارتكاب أعمال سيئة ، ويجب أن نهتم فقط بالرغبات أو الميول الإيجابية التى يمكن بواسطتها أن ننجز أعمالاً إيجابية .

ولياقة العقل أو الشعور السامى يظهر فى الإنسان عندما تقوى رغبته فى إنجاز الأعمال الحسنة ، والأفراد بمثابة اللبنات فى البناء الاجتماعى ، والمجتمع لا ينصلح إلا إذا أحسن تربيته ، أو على حد قول هربرت سبسنر لا يمكن إنشاء مجتمع مثالى من أفراد لم يحظوا بتربية . ولأن سعادة المجتمع كامنة فى تربية جميع الأفراد ، فإن التربية الأخلاقية مقدمة على أى تعليم آخر .

ويشبِّه الفارابى المدينة الفاضل بالجسم الذى لا يمكن أن يكون سالمًا ومعافى ما لم تؤدِ جميع أعضائه الوظائف الطبيعية المنوطة بها .

وليس هم الأثرياء أو أصحاب الوجوه الجميلة أو الشجعان هم أفضل بل العقلاء والحكماء والأنقياء هم الذين يجب عليهم أن يقودوه .

الفارابى ذلك الرجل المثالى

لقد كتب الفارابى ردا على الراوندى وردا آخر على الرازى ، وسبب اختلاف الرازى والفارابى سبب واضح ، فالفارابى مثل هؤلاء الأشخاص الذين نطلق عليهم لقب الفيلسوف فى الحضارة الإسلامية وله أسلوب قياسى وعقلى يقوم على أساس المنطق النظرى ، فى حين أن الرازى له أسلوب استقرائى وتجريبى ، ويهتم بالأمور والمسائل المحسوسة المحققة .

كان الفارابى عالمًا فى المنطق والرياضيات ولهذا فقد كان يهتم بالمجردات ، فى حين كان الرازى طبيبًا وعالمًا بالعلوم الطبيعية ؛ ولهذا السبب كان يهتم بالحقائق المحسوسة ومن هنا فإن آراءه وعقائده لا تجد قبولاً لدى الفارابى وكثير من معاصريه ،

وهذا الاختلاف أكثر وضوحاً فيما يتعلق بعقائد العارفين إذا نظرنا إلى فكر الفارابى وأبى على بن سينا .

فمثلاً نجد أن أبا على بن سينا قد أضاف أفكار العارفين كملحق لكتابه ، فى حين نرى أصول العرفان واضحة فى أعمال الفارابى وتشاهد المصطلحات الصوفية فى أغلب كتبه ، وقد غدا هذا الاهتمام المعنوى للفارابى بالموضوعات العرفانية باعثاً على كثير من الغموض ، وإذا نظرنا إلى أفكار الفارابى وجدنا بعض الغموض فى فلسفته ، بينما الصراحة التى نراها فى أسلوب أبى على بن سينا لا نراها عند الفارابى(١) .

تقييم الفارابى

إن نصف كتب الفارابى فى التفسير ونقد أعمال المفكرين السابقين والنصف الآخر يمثل فلسفته الشخصية . ويعد الفارابى أعظم شارح لفلسفة أرسطو لدى المسلمين كما كان مفسراً لفلسفة أفلوطين .

وقد تأثر بكتاب "المدينة الفاضلة" لأفلاطون كما نهل من فلسفة أنصار أفلاطون الجدد فى كتاب "فصوص الحكم" .

وقد كان الفارابى قبل الأفلاطونيين الجدد (برجسن) الذين يعتقدون أن العالم صدر عن طريق الفيض وأن الخليقة نتيجة للطبيعة - ينادى بهذا المذهب نفسه والمعنى نفسه ، فقد كان عارفاً مثاليا .

وكانت للفارابى اطلاعات واسعة فى الرياضيات وكان ممتازاً فى الموسيقى وكان جيداً جدا فى المنطق ، وقد نظم الشعر بالفارسية والعربية ، وكان مشربه الفلسفى هو الأسلوب الأفلاطونى الجديد فى الإسلام .

وقد جاءت أفكار الفارابى – مثل نيتشه – فى شكل كلمات قصار فى مذكرات ، ولم يعبأ بتنظيمها ؛ ولهذا السبب فعلاوة على أن إنشاءه كان غامضًا كان أيضًا غير منظم ومتفرقًا .

(١) تاريخ العلوم العقلية فى الحضارة الإسلامية (دكتور ذبيح الله صفا) . (المؤلف)

وفلسفة الفارابى فلسفة تركيبية[١] ، وبعبارة أخرى فكما كان يسعى مانى إلى أن يدمج أفكار بوذا وزرادشت ودين المسيح (العهد الجديد) فى فلسفته ، سعى الفارابى إلى أن يمزج بين تعاليم أفلاطون وأرسطو والفكر الإسلامى[٢] .

ويقيِّم السيد الدكتور ذبيح الله صفا الفارابى على هذا النحو : وفى الحقيقة إن فلسفة الفارابى مزينة فى أعين المسلمين وقلما وجدنا إبهامًا أو غموضًا فيها ، وقد قلد فى فلسفته فلسفة أفلاطون وأرسطو متبعًا فى ذلك الأفلاطونيين الجدد، كما قام بتطبيق كثير من مذاهب القدماء على المبادئ الإسلامية والتفسير والتوضيح، وقام بتدوين جميع منطقيات أرسطو وأجزاء مختلفة من العلوم فقدم بذلك خدمة جليلة للأسلوب المنطقى الإسلامى ، فأسس بذلك شعبة من فلسفة القرون الوسطى فى العلوم .

ويكتب والهى قمشه فى كتاب "توحيد الأذكياء" فى شأن الفارابى ما يلى :

لم يصل إلى مقام حكمته أحد من حكماء الإسلام ، كما أضاف كثيراً من التحقيقات إلى تحقيقات الحكيم محمد بن إسحاق الكندى والفلاسفة الآخرين ، مثل الجوانب التعليمية وقيامه بالتحليل فى المنطق والشروح العديدة فى الصناعات الخمس ، كما قدم بيانات فى كيفية تركيب صورة القياس فى كل مادة ، فضلاً عن كثير من الموضوعات الأخرى .

كما مدح صاحبُ شرح حكمة الإشراق قطب الدين السهروردى الفارابى على هذا النحو : ذلك الفيلسوف الذى لم يظفر بمثله فى تحقيق المعانى .. إلخ .

وكتب أيضًا أبو على بن سينا : لقد قرأت رسالة علم النفس لأرسطو أربعين مرة ولم أفهم شيئًا منها، حتى وجدت ذات يوم فى السوق كتابًا فى يد امرأة فقيرة فاشتريته منها على سبيل الإحسان والشفقة بها ، وذات ليلة رحت أطالعه فوجدت ذلك الكتاب هو الرسالة النفيسة نفسها للحكيم أبى نصر الفارابى ، فحلت لى تلك الرسالة المذكورة مشكلات كتاب أرسطو .

(١) Synreetism وتعنى هذه الكلمة أن التوحيد عقائد فلسفية أو مذهبية مختلفة .

(٢) لعل مزج هذه العقائد كان باعثًا على أن ابن طفيل اعتبر فلسفة الفارابى فلسفة مليئة بالشكوك والتناقض . (المؤلف)

ومن أشهر العبارات التى قيلت عن شرح الفارابى : (إن الفارابى أفضل المتقدمين والمتأخرين) .

ويكتب السيد داود رسائى فى رسالة حول (حياة أبى نصر الفارابى وفلسفته فى شأن المدينة الفاضلة) ما يلى :

المدينة الفاضلة

لا ندرى على وجه الدقة ما العوامل التى كانت باعثًا على أن الفارابى قد أولى اهتمامًا كبيرًا بالموضوعات الاجتماعية فى المسائل الفلسفية ، فهل كان الوضع الاجتماعى لتلك الفترة فاسداً ؟ هل قلد الفارابى أفلاطون ؟ وربما أراد الفارابى فى أواخر حياته أن يبين أفكاره النظرية المجردة فى هذا العالم .

وعلى أية حال فقد كان هناك باعث حث الفارابى على أن يجعل هذا الموضوع موضع بحث فى الجزء الأخير من هذا الكتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) .

ألف الفارابى هذا الكتاب فى أواخر حياته، ويعد فى الحقيقة آخر كتاب له، والموضوعات التى بحثها فى هذا الكتاب هى على هذا النحو : واجب الوجود، والفيض، والعقول ، وعالم ما وراء القمر ، والرؤيا ، والنبوة ، وفى آخر الكتاب تحدث عن المدينة الفاضلة .

ويرى الفارابى فى المدينة الفاضلة أنه لكى يصل الأفراد إلى السعادة الحقيقية يجب عليهم أن يتعاونوا مع بعضهم . وتقوم هذه المدينة على أساسين :

الأساس الأول : تعاون الأعضاء فيما بينهم ، ويتم هذا التعاون فى شكلين ؛ إما أن يكون هناك تعاون فكرى ، وفى هذه الحالة يجب أن يتعاون أعضاء هذه المدينة للتعرف على الذات الأحدية والعقول، وإما أن يكون هناك تعاون عملى وفى تلك الحالة يتعاون الأعضاء على اكتساب الفضائل وعمل الخير فيما بينهم ، وبدون التعاون العملى سيكون البشر غير قادرين على سد احتياجاتهم المتزايدة ، وفى الحقيقة إن بقاء النوع البشرى منوط بالتعاون العملى .

ويقول الفارابى – مثل أرسطو – إن الإنسان بطبيعته اجتماعى فلا يستطيع أن يلبى جميع متطلباته واحتياجاته دون مساعدة الآخرين ، وكل من يريد أن يسير

فى سبيل النهوض بشخصيته يجب عليه أن يكون عضواً فى المجتمع وأن يتعاون مع جميع أقرانه .

ويقول الفارابى فى رسالة "السياسة المدنية" إن الإنسان وبعض الحيوانات والنباتات لا تستطيع أن تعيش بدون المجتمع .

أما **الأساس الثانى** : إن السعادة الحقيقية هى هدف المجتمع وغايته ، وقد ذكر الفارابى أسباب تأسيس المجتمع فى كتاب "آراء أهل المدينة الفاضلة" .

وينشأ المجتمع أحياناً نتيجة لإحساس الأفراد بالتفوق ؛ لأن مثل هؤلاء الأفراد فى حاجة إلى عدد من الزعماء حتى يستطيعوا أن يبسطوا نفوذهم ويوسعوا من سلطانهم .

وفى أحيان أخرى يكون التناسل بين الأقارب باعثًا على ظهور المجتمع ، ويمكن أن نجد مجتمعات أخرى تزيد فيها اهتمامات الأفراد باتباع رئيس واحد ، وفى النهاية فمن الممكن أن يتشكل المجتمع نتيجة لوحدة اللغة والعادات والتقاليد والمذهب .

أنواع المجتمعات الإنسانية

المجتمعات الإنسانية نوعان : كامل وناقص .

والمجتمع الكامل ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

(أ) المجتمعات العظمى ، وهى ما نسميه بمصطلح اليوم المجتمع الإنسانى .

(ب) الوسطى ، وهى تشكيل جماعة من الناس فى جزء من الكرة الأرضية .

(جـ) الصغرى ، وهى تشكيل صغير يتكون فى منطقة أو دولة ما .

والمجتمع الناقص (أو غير الكامل) ، وينقسم إلى أربعة أقسام :

(أ) مجتمع أهل القرية .

(ب) المجتمع الذى يتكون فى محلة من المحلات فى كل مدينة .

(جـ) مجتمع أهالى الحى .

(د) مجتمع المنزل .

تنظيم المدينة[1]

الهدف من المجتمع وغايته – كما ذكرنا قبل ذلك – هو الوصول إلى السعادة الحقيقية ، والمجتمع الذى يحظى أفراده بالتعاون هو مجتمع مثالى ، والمجتمع مثل جسد الإنسان الذى يقوم كل عضو من أعضائه بوظيفته فى سبيل الوصول إلى غاية وهى حياة الإنسان ، وفى هذا الجسد عضو أساسى ونشاط سائر الأعضاء مرتبط به ؛ ألا وهو القلب ، ورئيس المدينة فى المجتمع بمثابة القلب فى جسم الإنسان ، ولا شك فى أن هناك أعضاء أخرى فى هذا الجسد ، وأهمية هذه الأعضاء مثل أهمية القلب إلا إن القلب هو (الحاكم) لجميع الأعضاء الأخرى ، وسائر أعضاء المدينة مطيعون له ، ويخضع لهذا الرئيس جميع الأعضاء ووظيفته هى الحكم .

ورئيس المدينة بمثابة قلب المجتمع وأول جميع الموجودات ، ووجود المدينة وقوانينها وعاداتها صادرة عنه ، والمسئولية الملقاة على عاتق الرئيس تحتم أن يُراعَى عند انتخابه الدقة المتناهية والحزم والحيطة . وللرئيس خصائص تختص به دون غيره أولها العقل وبهذه الخاصية يدرك الرئيس صورة الأشياء مجردة عن المادة والمعقولات حتى تستبدل (بالعقل المستفاد) ومن ثم يدرك كنه جميع المجردات وبذلك يصبح فيلسوفًا عالى المقام .

(١) يقصد بكلمة مدينة ما يعنى ترجمته فى اللغة الفارسية كلمة (شهر) أى مدينة وهى أيضًا تعنى حكومة المدينة إذ إنه فى ذلك الوقت كان أفلاطون قد اقترح فكرة تأسيس المدينة الفاضلة (الدولة المثالية) وكانت اليونان قد تشكلت من مدن صغيرة فمثلاً حكومة مدينة أثينا كان عدد سكانها ٤٠٠,٠٠٠ نسمة وقد حرم ٢٥٠ ألفًا من حقوقهم المدنية . (المؤلف)

القوة المتخيلة

يجب أن تكون القوة المتخيلة للرئيس فى ذروة نشاطها واكتمالها ؛ حتى يمكنه أن يدرك جميع المحسوسات والمعقولات شريطة أن تهتم حواسه بالمحسوسات وألا يرتبط عقله بعالم المعقول حتى يتم إنجاز كل عمل خاص به .

وإذا وصلت القوة المتخيلة إلى هذه الدرجة من الكمال فإن العقل النشط يستشرف أبسط الأمور المستقبلية فيصل الشخص إلى درجة النبوة[١] .

إذن يجب على رئيس المدينة أن يكون فيلسوفًا وأيضًا نبيا ، لكن الفارابى لا يكتفى بهاتين الصفتين بل إنه يخصص لرئيس المدينة مثل أفلاطون ١٢ صفة أخرى .

كما أن الفقهاء يعتبرون أن هذه الصفات نفسها ضرورية بالنسبة لاختيار مرشحى الخلافة ، ولو أن جميع هذه الصفات لم تجتمع فى شخص واجتمعت هذه الصفات لشخصين أو ثلاثة فإن الفارابى يقول يمكن لعدد من هؤلاء أن يتولى الحكومة شريطة أن يكون أحدهم فيلسوفًا؛ لأنه إذا لم يكن هناك فيلسوف فإن الجهل يسود وتتعرض المدينة للزوال والفناء .

ساكنو المدينة الفاضلة

يجب على جميع أفراد المدينة أن يكونوا مطيعين ، ويجب أن تقسم الأعمال وإداراتها بينهم وفقًا للياقتهم ومهارتهم واحتياجات المجتمع ، فإذا افتقرت المدينة إلى النظام فى الإدارة والحكم أصابها الاختلال والفوضى، فالنظام مظهر لإرادة الله ، فيلاحظ مثلاً النظام والانسجام فى جميع الكائنات . وعلاوة على أن أعضاء المدينة يجب أن يكونوا

(١) النبى فى نظر الفارابى هو الشخص الذى لديه قوة تخيلية كاملة ويصل الإلهام إلى عقله النشط عن طريق قوته التخيلية فى المنام واليقظة، ولا يحظى معظم الأفراد بهذه القوة التخيلية ولا تتصل بعقله النشط، وغير النبى يستطيع أولياء الله أن يكونوا على اتصال أثناء النوم بالعقل النشط ولكن هؤلاء ليسوا قادرين على أن يفسروا مشاهدتهم فى عالم اليقظة ، وللفارابى مقالة بديعة فى شأن الرؤيا . ولعدم الاسترسال فى الحديث آثرنا الإيجاز فى هذا الشأن . (المؤلف) .

متخصصين فى الأعمال الموكلة إليهم ، يجب أيضًا أن يكون لديهم معلومات عن واجب الوجود وقوانين المجتمع والفيض والعقل النشط واكتساب الفيض عن رئيس المدينة والإلمام بشروط المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة .

ويدرك الفلاسفة حقيقة هذه الأمور ، أما العامة من الشعب فيعرفون هذه الأنواع من الموضوعات المذكورة بشكل مجازى ، وكلما أحاط ساكنو المدينة بالموضوعات المذكورة نشأت فيهم صفتان بارزتان ومثاليتان، وهاتان الصفتان هما: العلم والفضيلة. وبالاعتماد على هاتين الصفتين يحقق "ساكنو المدينة الفاضلة" السعادة فى الدارين ، والعلم هو الشيء الوحيد الذى يخلص أعضاء المدينة من أدران المادة .

اختلافات المدينة الفاضلة

وكلما ضاعت الحكمة بين الناس وانقطعت وشائج التعاون بينهم حل الفساد محل الحكمة ، وعمَّ الفساد جميع الأمور ويظهر بعد ذلك مدن أخرى(١) .

المدينة الجاهلة

هى المدينة التى لا يدرك أهلها السعادة الحقيقية وتحول اللذات الجسمانية دون الاهتمام بالسعادة المذكورة .

وأقسام المدينة الجاهلة كما يلى :

- المدينة الضرورية : وهى التى يختار أهلها ما هو ضرورى لمعيشتهم .
- المدينة الاستبدادية : وأهلها يبحثون عن السعادة فى المال والثروة .
- مدينة الكرامة : وأهلها يسعون إلى الشهرة والجاه .

(١) يبدو أن الفارابى يشير إلى الجماعات الدينية المختلفة فى عصره من قبيل الخوارج الدهريين والصوفية ، (المؤلف) .

- مدينة الحدّ والشقوة : وهى المدينة التى يقدم أهلها اللذة واللهو واللعب على كل شىء .

- مدينة السيطرة : وسعادة أهلها فى التغلب على الآخرين والسيطرة على البلاد المجاورة .

- المدينة الجماعية : وهى المدينة التى يتغلب على أهلها الهوس والهوى ولا يمتنعون عن الاعتداء على الآخرين .

- المدينة الفاسقة : وهى المدينة التى عرف أهلها الحقيقة والمعقولات ولكن طلبهم للجاه حال دون تحقيق المدينة الفاضلة .

- المدينة المتغيرة : مدينة فاضلة لكنها ضلت وبعد تغيير عقيدتها عمّ الفساد جميع أمورها .

- المدينة الضالة : هى المدينة التى يعتقد أهلها بالله والعقول النادرة ورئيسها ضال ومخادع ويدعى النبوة كذباً .

وقد تحدث الفارابى عن أوصاف المدن غير الفاضلة وقد حظى بهذه المعرفة من خلال حياته والبيئة من حوله ، وأبرز صفة للمدينة غير الفاضلة هى "قول الزور" ، وفيها يسحق الأقوياءُ الضعفاءَ ، والسعادة فى السيطرة على الآخرين ، والعدالة - فى نظر أهل هذه المدينة - فى القوة العقلية ، والمدينة العادلة فى نظرهم هى التى تفوقت على الآخرين بالقوة فإذا ظهر بطل بين الناس فإنه يقضى على خصومه ، فيجتمع الناس حوله ويتفقون فيما بينهم على اكتساب المال واللذة .

مقارنة بين مدينة أفلاطون الفاضلة ومدينة أرسطو

يتفق أفلاطون وأرسطو فى بعض القضايا ويختلفان فى البعض الآخر ، وأبرز هذه الاختلافات تعارض نظرياتهما مع التعاليم الإسلامية ، وقد كان للفارابى فى هذا الشأن وجهة نظر أخرى وفى بعض الأحيان كان يؤثر الصمت .

اتفاق الفارابى وأفلاطون فى الموضوعات التالية :

- إن المجتمع أمر طبيعى وليد تعاون الشعب .
- إن أعضاء المجتمع مثل أعضاء البدن أو مثل القوى النفسية .
- يجب أن يتم تقسيم العمل على أساس الخبرة .
- يجب أن يكون هناك حكومة للفلاسفة فى كل مدينتين .
- تعليم القوانين للناس بقدر الإمكان .
- الصفات البدنية والأخلاقية والعقلية للرئيس .
- العدالة وسيلة للوصول إلى السعادة .

ومواضع الاختلاف على هذا النحو :

١ - لم يوضح الفارابى الطريقة العملية لنظرياته فى حين بيَّن أفلاطون منذ بداية الأمر طريقة تأسيس كل ركن من أركان مجتمعه ، ولم يقل لنا الفارابى كيف يمكن أن تحمى المجتمع من الفساد وذكر أفلاطون هذا الموضوع صراحة ، ولمدينة أفلاطون منفعة عملية ولمدينة الفارابى منفعة نظرية .

٢ - رئيس مدينة أفلاطون فيلسوف مجرب ، فى حين أن رئيس مدينة الفارابى يستوى أن يكون فيلسوفًا أو نبيا .

٣ - يقترح أفلاطون الاشتراك فى المال والأولاد والنساء ، بينما يصمت الفارابى فى هذا الموضع ؛ لأنه يعارض أحكام الشرع .

٤ - يبالغ أفلاطون فى شأن مثالية المدينة المثالية بينما يعرف الفارابى مدينته الفاضلة بأنها غير فاضلة .

٥ - ويصنف أفلاطون الناس فى المدينة وفقًا لتهذيب القوى النفسية ، بينما يصنفهم الفارابى وفقًا لأهمية الأعضاء فى المجتمع .

٦ - أفراد كل طبقة فى مدينة أفلاطون يمكنهم أن ينتقلوا إلى الطبقة الأعلى بعد اكتساب المعرفة والتعلم ، ولا يحدث شىء مثل هذا فى مدينة الفارابى .

٧ - رئيس مدينة أفلاطون من الطبقة الحاكمة ، فى حين أن رئيس مدينة الفارابى لا ينتمى إلى أى طبقة .

غنى عن القول إن المدينة الفاضلة للفارابى لم تشتهر شهرة جمهورية أفلاطون إلا أنها تركت تأثيراً كبيراً فى الأذهان ، بل اهتم بها الصوفية ، ولكن لا أفلاطون ولا الفارابى استطاع أن يحقق مدينته الفاضلة ويثبت بشكل عملى أن نظرياته صائبة .

محمد الغزالى[١]

كان عهد الغزالى عهد اضطراب فى العالم الإسلامى ؛ فمن جانب أخذت أسرة السلاجقة فى الانقراض ومن ناحية أخرى أخذت الحروب الصليبية من قبل الأوروبيين فى الظهور على مسرح الشرق ، وفى عهد الغزالى عمت الاختلافات العلمية والمذهبية أنحاء الدول الإسلامية وكانت هذه الاختلافات باعثًا على ضعف الإسلام ؛ لهذا فقد اتجه العالم الإسلامى إلى التفكك والتمزق .

والغزالى الذى جاء لإنقاذ الإسلام كان بمثابة آخر شعلة مرتعدة لشمع أوشك على الانطفاء .

وقد كان السبب فى هذا التفكك والتمزق بين المسلمين - فضلاً عن ظهور الفرق المختلفة - أن فلسفة الإسلام قد بدت كمزيج فلسفى جديد لا هو فلسفة ولا هو دين ؛ نتيجة لامتزاج فلسفة أرسطو وأفلاطون وأفلوطين ، والفائدة الوحيدة التى جنتها فلسفة الإسلام نتيجة امتزاجها بالمعتقدات الفلسفية اليونانية أنها حررت المسلمين من المعتقدات الخاطئة إلى حد ما وفتحت آفاقًا أمامهم .

(١) كان الغزالى معاصراً لأغلب سلاطين السلاجقة، وقد ولد فى عهد طغرل وتوفى فى عهد السلطان محمد ، وكان الخلفاء فى عهد الغزالى هم : عبد الله القائم بأمر الله ، وعبد الله المقتدى بأمر الله ، وأحمد المستظهر بالله . (المؤلف) .

وقد فطن علماء الكلام إلى الخطر الذى كان يهدد الإسلام ؛ لذلك سعوا إلى أن يقربوا بين الفلسفة والدين ، ولكنهم لم يفلحوا فى ذلك الأمر .

ولتحقيق هذا الأمر اضطروا إلى اللجوء إلى عقائد لا تتناسب المسائل المذهبية أو القواعد الفلسفية .

والغزالى مثل كنفوشيوس كان يسعى إلى إنقاذ الدين وذلك بإحياء الإيمان ومعارضته الدينية الشديدة أن يقوى أساس حكومة رؤسائه من السلاجقة ، وأن ينقذ ذلك من الاضمحلال والعدم ، ومع أن كنفوشيوس قد بلغ مأربه إلى حد ما إلا إن الغزالى قد اضطر أن يلقى سلاحه ويترك الميدان لأعداء الإسلام[1] .

حياة الغزالى

ولد أبو حامد الغزالى الطوسى عام ٤٥٠ هـ . ق (١٠٥٨م) فى غزالة التى كانت إحدى قرى طوس ، وفى عام ٥٠٥ هـ . ق = ١١١١ م توفى فى المدينة نفسها .

وهو ينتمى إلى أهل طابران بطوس ، وبينما كان لا يزال طفلاً توفى والده وتولى رجل صوفى أمر تربيته ورعايته ، ومع أن الغزالى كان يتيماً فقد قضى فترة طفولته فى هدوء ، ونتيجة لحدة ذكائه فقد تقدم بسرعة فى تحصيل العلوم إلى حد أن معلمه وهو إمام الحرمين قد سماه (بحر أمواج العلم) .

وفى بداية الشباب شغل الغزالى فى نيسابور بتحصيل العلوم لدى أحمد الرادكانى وابن نصر إسماعيل الجرجانى وأبى المعالى الجوينى ، ثم هاجر من نيسابور وشغل بالسياحة لمدة سبعة أعوام فى المدن الإيرانية فأكمل فى هذه الفترة ما كان ينقصه من معلومات واستفادة علمية .

وبعد ذلك وبناء على دعوة نظام الملك فى سنة ٥٨١ هـ . ق . شغل بالتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد .

(١) هذا الحديث يعبر عن رأى الكاتب ولا يعبر عن آراء جمهرة المفكرين المسلمين . (المترجم)

وبعد أربعة أعوام – قضى منها ثلاثة فى الاطلاع على الكتب الفلسفية والبحث فى المذاهب والفرق المختلفة – ترك بغداد وتوجه إلى الشام ، وشغل هناك بالبحث والعلم لمدة عشرة أعوام فى بلاد الشام وبيت المقدس والحجاز .

وفى تلك الأيام كان يعيش عيشة الدراويش ، وقضى حياته فى البحث والتحصيل وفى أثناء هذا السفر الذى دام عشرة أعوام ألف كتاب "إحياء علوم الدين" الذى يعد أعظم أعماله ، وفى عام ٤٩٨ هـ . ق . عاد من الشام إلى طوس وعاش لمدة ١٥ عامًا فى المدينة المذكورة فى عزلة حتى دعاه نظام الملك وعمل بالتدريس فى نظامية نيسابور التى أسست عام ٤٥٩ هـ . ق . وقام الغزالى بالتدريس فيها لمدة عام واحد وبعد ذلك اعتزل التدريس وعاد إلى طوس ، وأسس الغزالى فى طوس بالقرب من بيته خانقاه للصوفية ومدرسة لتعليم الطلاب ، وقضى وقته بين التدريس والتأليف حتى توفى عام ١١١١ م وهو فى الخامسة والخمسين من عمره .

تحرى الحقيقة

وفى سن التاسعة والثلاثين تعرض الغزالى لتحولات روحية غريبة ، وفى هذه السن قام بتحرى الحقيقة واتجه إلى محاربة كل علم يخالف الحقيقة .

ولكى يحصل الغزالى على در الحقيقة بدأ فى التحقيق والبحث فى فكر المتكلمين من الإسماعيلية والمتصوفة والفلاسفة ، ولما كان المتكلمون أصحاب فكر محدود ومتعصب فقد تركهم وشغل بفكر الإسماعيلية فوجد أن أتباع الإسماعيلية أكثر ضلالاً فتركهم واتجه إلى الفلسفة ، وقد ظن فى النهاية أنه سوف يكشف بمصباح العلم كل مجهول ولكنه للأسف أدرك أن هذا الأمر ليس باليسير ؛ ولذلك اهتم الغزالى بالعلم باعتباره فنا من الفنون الطبيعية، ثم اتجه إلى التصوف ووجد فيه الدر الذى كان يبحث عنه ، ونتيجة لهذا فقد اعتبر أن الفقه والكلام يأتيان فى الطبقة السفلى من العلوم الدينية وأن علم التصوف ينجى نفسه من الاضطراب الذهنى ، ولكنه ظل حتى نهاية حياته فى تشكك وريبة .

لأنه حيناً كان يتجه إلى الدين الذى يقوم على قواعد دجماتية ثابتة وحيناً كان يتوجه إلى روضة العرفان الواسعة والفلسفة ، ولم تكن حيرة الغزالى واضطرابه من فراغ ؛ لأن الغزالى أصبح لديه كم من المعلومات الهائلة بسبب هذه الحيرة كما تشعبت روافد اطلاعه .

لماذا حارب الغزالى الفلاسفة ؟

يقول ابن طفيل : (كان الصراع ضد الفلاسفة من أجل جذب انتباه أنصار الدين؛ ولما كان الغزالى رجلاً صاحب فكر ، لم يقتنع بأى مذهب من مذاهب الفلاسفة فقد أنكر عليهم مذاهبهم الفلسفية ، ولما لم يصل إلى هدف فى طريق الإنكار فقد اتجه إلى الزهد ؛ إذ كان يريد أن يخلص نفسه من قيود العقل والاستدلال بسماع الصوفية والدراويش) .

علاوة على جذب انتباه أنصار الدين سعى الغزالى إلى تقوية القواعد الدينية فجذب بذلك نظر الحكام - أى حكام الحكومة السلجوقية - ولما كانت الفلسفة هى العدو الوحيد للدين ، فقد حارب الغزالى الفلسفة بكل قوة بقدر ما يستطيع حتى يقضى على هذا الخصم (الفلسفة) تماماً .

وقد أعلن الغزالى فى كتاب "المنقذ من الضلال" وفى "تهافت الفلاسفة" وجهة نظره تجاه الفلسفة فقال : إن أكثر الموضوعات الفلسفية تخيلات واهية وضعيفة ، وفى الإلهيات فإن كل أفكار الفلاسفة مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو والفارابى وابن سينا لا أساس لها ويشوبها الخطأ .

وقد اعتبر أن أساس أخطاء هؤلاء الفلاسفة كان فى ٢٠ مسألة[1] كما اعتبر أن

(١) عشرون المسألة هى كما يلى :
١ - فى أزلية العالم ٢ - فى أبدية العالم ٣ - فى أن الله صانع العالم وأن العالم من صنعه ٤ - عجز الفلاسفة عن إثبات الصانع ٥ - يقولون إن وجود مبدأين للعالم أمر مستحيل لكنهم لا يستطيعون أن يأتوا بدليل على دعواهم ٦ - نفى صفات الله ٧ - أن الذات الأولى لا تنقسم إلى جنس وفصل ٨- حق الوجود الأول بسيط وهو بدون ماهية ٩ - يقول الفلاسفة لا يوجد =

ثلاثة مسائل منها فى إنكار المعاد الجسمانى وعلم واجب الوجود بالكليات وعدم العلم بالجزئيات (قدم العالم) دليل على كفر الفلاسفة وإلحادهم[1] .

عجز الفلاسفة عن إثبات المعتقدات الإيمانية

يعتقد الغزالى أن كل شىء ينـدرج تحت العلوم الرياضية مفيد فى ذاته وهو لا يرتبط سلبًا أو إيجابًا بالأمور الدينية ، وهناك مسائل برهانية واستدلالية لا يمكن إنكارها ، لكن فى الوقت نفسه هناك آفتين تصدران عن العلوم الرياضية وهما أن كل شخص يبحث فيها يتملكه العجب من نكاتها الدقيقة وبراهينها وأدلتها ، كما أن هذا الإعجاب يخدع الفلاسفة فيظنون أن كل العلوم الرياضية فى وضوح العلم الرياضى وهذا يخدع المطلع ومن ثم يُحسن الظن بالفلاسفة فيظن أن كل العلوم فى وضوح علم

= جسم للمبدأ الأول لكنهم يعجزون عن الإتيان بدليل ١٠ - أن قول الفلاسفة يستلزم نفى المانع والاعتقاد فى الدهر ١١ - عجز الفلاسفة عن إثبات حق أول العالم بالغير ١٢ - لا يستطيع الفلاسفة أن يثبتوا أن علم واجب الوجود بذاته ١٣ - ينفى الفلاسفة إدراك أول العالم بالجزئيات ١٤ - بطلان كلام الفلاسفة بأن الفلك الحيوانى يتحرك بالإرادة ١٥ - خطأ الفلاسفة فى شأن محرك الأفلاك ١٦ - إبطال مذهبهم الذى يرى أن النفوس الفلكية عالمة بالأحداث الجزئية لهذا العالم ١٧ - وفى هذا الشأن يقولون إن خرق العادة أمر مستحيل ١٨ - يقولون إن النفس الإنسانية جوهر مجرد قائم بذاته وليس جسمًا أو عرضًا ، وليس لديهم برهان عقلى صحيح على هذا الأمر ١٩ - وفى هذا الشأن يقولون إن النفس الإنسانية لا تفنى ٢٠ - ينكر الفلاسفة الحساب والبعث وحشر الأجساد .
نقلاً عن غزالى نامه : همائى . (المؤلف)

(١) يقول الغزالى فى هذا الشأن فى تهافت الفلاسفة : ما أقصده إثبات تناقض الآراء وبطلان عقائد الفلاسفة فى علم الإلهيات ، ولكن فى علوم المنطق والحساب والهندسة فلا مجال للتساؤل أو الاستفهام .
ولهذا السبب فلا يختلف الفلاسفة فى هذه الفنون ، ولو أن المسائل الإلهية مثل المنطق والهندسة تقوم على براهين حقيقية لما حدثت كل هذه الاختلافات ؛ لأنه فى البرهان اليقينى أى الثابت لا مجال للشك ، لكن الفلاسفة أخطئوا فى هذا الباب وجعلوا الآخرين يخطئون بدورهم إذ اعتبروا أن العلوم الإلهية مثل الهندسة والمنطق ، فى حين لا يمكن أن تكون صحة الموضوعات الهندسية دليلاً على صحة الموضوعات الإلهية ، وهذا الأمر مثله مثل شخص ينجز عملاً بإتقان ويدعى شخص آخر قائلاً لما أن عمل فلان كان متقنًا فإن كل أقوالى وأعمالى متقنة وصحيحة مثله ، وهذا ليس دليلاً صحيحًا لدى الناس العقلاء .
نقلاً عن غزالى نامه : همائى . (المؤلف)

الرياضيات وثبات برهانه ، وحينئذ يتأثر بكفرهم (الفلاسفة) وضعفهم فى أمور الشرع فيقلدهم فى طريق الكفر ، فيقول لنفسه لو أن الدين حق لما خفى عليهم فهم يتفقون جميعًا فى العلوم الرياضية . ومن العبث أن يقال إن الفلسفة والدين ميدانان مختلفان عن المعرفة وليس من الممكن أن يكون الشخص عالمًا وحاذقًا فى المجالين ؛ بل إن كان عالمًا فى مجال فلابد من أن يكون جاهلاً فى المجال الآخر ، وإن طريق الاستدلال فى الرياضيات غير طريق الاستدلال فى الإلهيات؛ ففى الرياضيات يكون الاعتماد على البرهان وفى الإلهيات يكون الاعتماد على التخمين ، ويدرك هذه الحقيقة جيداً الشخص الذى جرب وبحث فى كلام القدماء فى الرياضيات والإلهيات ، ولو أن هذه الأحاديث تقال لشخص اعتمد على الفلاسفة دون بحث أو تحقيق فإنه لن يقبلها فحسب ، بل سوف تتغلب عليه الشهوة والهوى وسوف يزيد حسن ظنه فى كل العلوم بهؤلاء الناس (الفلاسفة) وهذه هى الآفة الكبرى ، وبسبب هذه العلة فإنهم سوف يمنعون كل من يبحث فى هذه العلوم ويطلع عليها من إدراك هذا الأمر ؛ لأن هذه العلوم على الرغم من أنها لا تتعلق بأمر الدين فإن مبادئ العلوم الفلسفية لها جانب آخر سيئ ومضر لكل من يطلع عليها، وقلما بحث شخص فى العلوم الرياضية ولم ينصرف عن الدين وضعف إيمانه .

وفى باب الطبيعيات فإن للغزالى وجهة النظر السابقة نفسها ، فيقول فى هذا الصدد : (وفى الطبيعيات الحق ملوث بالباطل والصواب ممزوج بالخطأ) ، ولا يختلف الغزالى بالنسبة للمنطق عن كثير من علماء أهل السنة . الخلاصة : أولاً إنهم يسمون ذلك فى العادة بأسماء غير اسم المنطق الذى كان موضع نظر علماء الدين ، مثل : (معيار العلم) (ومحك النظر) وعلاوة على هذا فإن موضوع البحث فى هذه الكتب كان مرتبطًا بالمسائل الفقهية والدينية على غرار المنطقيين .

وعلى أية حال فإن الغزالى يسيء الظن فى كتاب "المنقذ من الضلال" كما أساء الظن قبل ذلك فى كل مقدماته فى علم المنطق .

يقول الغزالى فى هذا الكتاب ليس للمنطق الخطر نفسه مثل الرياضيات على الدين ، ولا توجد أية علاقة بين قواعد القياس والمسائل الدينية حتى ينكرها الشخص ، ويمتنع عنها ، ويجب القول إن من نتائج هذا الإنكار أن يشكك أهل المنطق فى عقل من يصدر عنه مثل هذا الحكم .

ومن ناحية أخرى فإن أهل المنطق يرتكبون ظلماً بينا حينما يجمعون على برهان ثابت ويظنون أنه من المؤكد أن يتحول إلى يقين ، ولكن عندما يصلون إلى الأغراض الدينية فإنهم لا يوفون بهذه الشروط ويتساهلون فى هذا الأمر إلى أبعد حد ، فكم من صديق فى علم المنطق بحث فى العلم المذكور وثبت لديه الكفر بالبراهين اليقينية عن أهل المنطق[1] ...

أعمال الغزالى

لقد ألف الغزالى ما يقرب من مئة مجلد وكتاب ورسالة بالفارسية والعربية وأهمها ما يلى :

١ - إحياء علوم الدين : المعروف بإحياء العلوم ، باللغة العربية ، وهو فى الأخلاق والتصوف والمسائل الدينية .

وهذا الكتاب الذى ألفه فى بيت المقدس لعب دوراً مهما فى آسيا وأوروبا ، وفى عصر الغزالى لقى الكتاب العديد من الاعتراضات عليه وقد كتب الغزالى فى الرد على هذه الاعتراضات كتاب "الإملاء على مشكل الإحياء" ، و"الانتصار لما فى الإحياء من الأسرار" .

وقد لخص عدد من الكتاب إحياء العلوم ومن بينهم الغزالى نفسه فقد لخصه تحت عنوان : "المرشد الأمين إلى موعظة المتقين" . ولخصه أخوه أحمد الغزالى فكتب "كتاب الإحياء فى تلخيص إحياء العلوم" .

٢ - كيمياء السعادة : (بالفارسية والعربية) فى الأخلاق .

٣ - بداية الهداية : فى التصوف والمواعظ .

٤ - البسيط فى فروع المذهب الشافعى .

(١) نقلاً عن غزالى نامه : همائى . (المؤلف)

٥ – تهافت الفلاسفة : أو (ادعا نامه) وهو كتاب يعارض فيه الفلاسفة (باللغة العربية) .

٦ – المنحول فى علم الأصول .

٧ – المستصفى فى أول الفقه .

٨ – مقاصد الفلاسفة : وهو بمثابة مقدمة لتهافت الفلاسفة .

٩ – معيار العلم فى المنطق .

١٠– مواهم الباطنية : فى الرد على فرقة الباطنية .

١١– نصيحة الملوك : (بالفارسية) فى الحكمة العملية والأخلاقية .

١٢– الوجيز فى الفقه .

١٣– الوسيط فى الفقه .

١٤– الوقف والابتداء فى التفسير .

١٥– ياقوت التأويل فى تفسير التنزيل : فى تفسير القرآن .

١٦– المنقذ من الضلال : أو (اعتراف نامه غزالى) .

١٧– خلاصة الرسائل إلى علم المسائل : فى الفقه .

١٨– الدرة الفاخرة فى كشف علم الآخرة : فى الرد على مذهب التعليمية .

١٩– الذريعة إلى مكارم الشريعة : فى علم الكلام .

ومن المؤلفات الأخرى للغزالى: "أخلاق الأنوار" ، و "آفات اللسان" ، و "إثبات النظر" ، و "الأجوبة المسكنة" ، و "الاقتصاد فى الاعتقاد" ، و "الأنيس فى الوحدة" ، و "أسرار معاملات الدين"، و "أسرار الأنوار الإلهية" ، و "آداب الصوفية" ، و "أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار" ، و "الأدب فى الدين" ، و "أسرار الحج" ، و "أيها الولد" ، و "ميزان العمل" ، و "فاتحة العلوم" ، و "معارج القدس" ، و "معراج السالكين" ، و "الأشراف فى مسائل الخلاف" .

النثر العربى والفارسى للغزالى

ويكتب فى هذا الصدد الأستاذ جلال همائى فى (غزالى نامه) ما يلى :

للغزالى فى النثر العربى أسلوب خاص يمتاز عن جميع الكتاب ، كما أنه بسيط وفصيح ومطبوع وعميق . ويقول أحد معاصريه الكبار : على الرغم من أن البعض يأخذ على الغزالى بعض الهنات إذ إنه قد يخطئ أحياناً فى أثناء الكلام من حيث النحو العربى إلا إنه كان متمكناً فى كتابة الخطب والكتب والرسائل إلى حد ما .

كما أن الأدباء والبلغاء لم يستطيعوا تقليد إنشائه ، وقد كان الغزالى متفوقاً فى مجال النثر الفارسى إلى حد كبير ، حتى إنه جعل الناس فى حيرة من أمره، فمثل هذا الرجل العظيم على الرغم من مشاغله الفكرية العديدة وانشغاله بالعبادة والرياضة الروحية فقد كان يتذوق الأدب ، حتى إنه قضى معظم حياته فى الاطلاع على الأعمال والمؤلفات العربية ، وكان يكتب دائماً الكتاب باللغة العربية فكتب مثلاً إحياء العلوم والمستصفى ، وكان يعشق هذه اللغة وأبدى تمكناً فى الكتابة بها ، وكان يمتلك ذوقاً سليماً وملكة غير عادية، فقوى لديه الطبع الواضح حتى إن نثره الفارسى لم يؤثر سلباً على لغته العربية، فلم يأت أسلوبه فى اللغة العربية مختلطاً بأى لفظ من الألفاظ الغريبة ، بل كان دائماً جذاباً وجميلاً حتى إن الكتاب الكبار راحوا يقلدونه ولا يزالون يقلدونه ويقتفون أثره فى الكتابة ، وأغلب الأشخاص الذين كانوا يعرفون اللغتين العربية والفارسية لو أنهم مثلاً كتبوا شيئاً بالفارسية فإن بعض الكلمات العربية الغريبة تتسلل إلى أسلوبهم .

أما الغزالى فلم يسقط فى شرك الصنعة اللغوية ، وكان دائماً يكتب لغة واضحة ولم يفقد امتلاكه للغة فى أى عبارة من العبارات .

وكان يجيد اللغة العربية أفضل من الجميع ، ولم يكن مفتوناً بالمعلومات والمعارف المكتسبة أكثر من اهتمامه بالمعرفة، وقد كان لاتساع اطلاعه وذوقه المباشر أثر كبير فى البعد عن الصنعة اللفظية ؛ فلم ينصع للأسلوب المتكلف المزدان بالصنعة .

وإجمالاً يمكن القول إن نثر الغزالى الفارسى نثر بسيط وجذاب وناضج وعميق ، وليس لدينا كلمة شاملة فى شأن أسلوب كتابة هذا الأستاذ العظيم أفضل من هذا :

(إن الغزالى كان يجيد كتابة الفارسية واللغة الفارسية الجيدة وليس الترجمة العربية أو الملمعات الفارسية والعربية .

وغنى عن القول إن الغزالى لم يكن كاتبًا متمكنًا فحسب ، بل كانت لديه قدرة فائقة على حسن التعبير والبيان ، وقلما وجدنا شخصًا يمكن منافسته فى المجادلة والمناظرة) .

فقد هاجم الغزالى المسيحيين فى كتاب "مقاصد الفلاسفة" ، وفى "القول الجميل فى الرد على من غير الإنجيل" ، وانتقد الفرق والمذاهب فى كتاب "إلجام العوام" ، و "المنقذ من الضلال" ، كما سخر من أعمال المتصوفة الكاذبين فى "إحياء علوم الدين" .

وقد انتقد البعض كتاب (إحياء العلوم) فى عصر الغزالى نفسه فى بعض المجالس ، كما أخذ عليه البعض كثيراً من التجاوزات، وقد أخذها البعض عليه مدعين أن الغزالى قد مزج أحاديث الفلاسفة الملحدين بشريعة الإسلام وأنه يتحدث عن (النور والظلمة)[1] ويعتبر الله نوراً محضاً وهذه عقيدة المجوس والزرادشتيين .

وقد ردَّ الغزالى كما قلنا على هذه الادعاءات فى أحد كتبه .

رباعيات الغزالى

لقد نُسبت الرباعيات التالية إلى محمد الغزالى :

(ليس لأحد سبيل وراء ستار القضاء ولا يعرف أحد سر القدر

وكل من قال شيئًا عن سر القياس كان مجهولاً ولم يكن سوى قصة قصيرة) .

(لقد وضعنا خرقة الصلاة فوق الدن وتيممنا بتراب الحانات

فربما نجد فى هذه الحانات ذلك العمر الذى لم نجده فى المدرسة)[2].

(١) عقيدة النور والظلمة موجودة فى مذهب زرادشت المجوسى القديم وهنا نوع من التلميح والاتهام للغزالى بأنه متأثر بها . (المترجم)

(٢) أشك فى نسبة هذه الرباعيات إلى الغزالى فهى لا تتناسب مع فكره وعقيدته فضلاً عن أن الرباعية الثانية التى تبدأ بـ (لقد وضعنا خرقة الصلاة) وفى نسخة أخرى وردت (خرقة الزهد فوق الدن) إحدى رباعيات عمر الخيام التى كان يسخر فيها من الصوفية . لمعلومات أكثر انظر بحثنا فى هذا الشأن : تأثير رباعيات الخيام فى الشعر العربى ، قصيدة الطلاسم لأبى ماضى نموذجًا ، مجلة الدراسات الشرقية . (المترجم)

(يا مصدر البقاء أى مكان ذلك الذى لا تبقى به وفى أى مكان لا توجد به وأى مكان لا تكون أنت به ؟

يا من ذاتك فى غنى عن المكان والجهات أين أنت وأين المكان الذى لا تكون به ؟!) .

(لا تكن ترابًا فى الشخص فأظنك كذلك ولو كنت كل النار لاعتبرتك بردًا وسلامًا

ما دامت "عَطِشا" إلى الخلق فأنت أكثر احتياجًا لهم ، فكن فى غنى عن الجميع حتى أعتبرك المثال) .

وكان للغزالى شقيق يدعى أحمد وكان صوفى المشرب ، وقد نظم بعض الأشعار فى العرفان ونسب إليه الشعر التالى :

(ما كتبناه جدير بالزوال وما أخذناه جدير بالإهمال

وا أسفاه لقد قضينا العمر هباء فيما ظنناه تجارة !!) .

بعض أقوال الغزالى

وفى كتاب "المنقذ من الضلال" الذى يعد فى الحقيقة كتاب اعتراف للغزالى والذى قارنوه بكتاب (كفتار درروش ديكارت) شرح فيه تدرج تطوراته الفكرية وأبرزَ سبب اتجاهه إلى التصوف .

وسننقل هذا الجانب من الكتاب المذكور الذى أعده السيد جمال زاده فى (كشكول[1] جمالى) :

(١) الكشكول : هو آنية يحملها الصوفية والدراويش . (المترجم)

إن عشق التحقيق والبحث كان أمرًا أصيلاً فى طبيعتى ، وعشق إدراك الحقائق منذ بداية شبابى كان رفيقًا لى[1] .

ومنذ زمن بعيد كنت أيضًا متعطشًا إلى إدراك حقيقة كل شىء ، ولم يكن هذا التعطش من اختيارى بل كان فطرتى التى جبلت عليها ، ولم أكن أحب أمـر التقليد ولم تكن روحى لتستريح إلى أسلوب تقليد الآخرين ، ولم أكن لأتبع هذا أو ذاك دون دليل واضح ؛ ومن هنا كنت أبحث دائمًا فى أثر الحقيقة والاجتهاد وكنت أريد أن أدرك كل شىء كما هو موجود .

وبينما لا يزال عهد شبابى لم يمض ، وفترة صباى لم تنقض ، حتى تقطعت أسباب تقليدى (للآخرين) ، وتهاوت عقائد ميراثى الذى كان قد بلغنى عن هذا وذاك ، ولم أكن أستطيع أن أنصاع لأسلوب التقليد ... وأدركت أن اختلاف العقائد جميعًا بسبب عوارض التقيد والتقليد .

فكنت أريد أن أصل إلى حقائق العلوم ، فقلت لنفسى يجب أن أعرف أولاً ما حقيقة العلم، وبعد ذلك أسعى وراءه ، وقد اتضحت لى هذه النكتة وهى أن العلم الحقيقى واليقينى هو الاطمئنان إلى الشك والشبهة والخطأ والظن لا يصل إليه بأى حال من الأحوال ، وأنه لا يمكن للتشكيك أن يتسلل إلى أركانه، ولو أن ذلك العلم وصل إليه الشك والشبهة والاحتمال فهو ليس علمًا حقيقيًا بل ظنًا ، وقد بحثت فى العلوم فرأيت أنه لا يوجد أى علم آخر غير الضروريات[2] والحسيات ووجدت أن حل المشكلات ينحصر فى هذا الأمر ؛ أى مبادئ الضروريات (البديهيات) والحسيات .

المحسوسات

فى الواقع لقد بحثت فوجدت أن هناك شكا أيضًا فى المحسوسات ... لماذا ترى العين (أقوى حواسنا) الظل ساكنًا ، وبعد تجربة ومشاهدة ثبت أن الظل يتحرك

(١) هذه الأقوال فى الترجمة الفارسية مأخوذة عن كتاب الغزالى المعروف بالمنقذ من الضلال وفقًا لترجمة صاحب "غزالى نامه" .

(٢) المقصود بالضروريات : البديهيات الأولى كأن تقول العدد (١٠) أكبر من العدد (٣) .

بالتدريج ، وأنه ليس له - الظل - حالة السكون والتوقف ، ونرى مثل هذه النجوم السماوية فى حجم الذرات الصغيرة ، ولكن البراهين تثبت أن هذه الأجرام أعظم من الأرض .

الضروريات

وبتّانت المحسوسات تقول لى من أين إيمانك بالضروريات (البديهيات) فهى لا يُطمأن لها مثل الحسيات ، ألا يُحتمل أن تكون أفضل من العقل فتفسد أحكامه ... ؟ فصرفت النظر عن الضروريات ولم أعد أطمئن إليها .

لأننى قلت إن حكم العقل أظهر أخطاءً حسية ، ألا يمكن أن يكون هناك حكم أفضل من العقل يمكنه أن يوضح أخطاء العقول ؟!

وفى النهاية عدت خالى الوفاض (لم أصل إلى شىء) . الباحثون عن الحقيقة أربع طبقات :

لقد وجدت أن الباحثين عن الحقيقة ينحصرون فى أربع طبقات :

١ - المتكلمون : ويعتبرون أنفسهم أهل الرأى والنظر .

٢ - الباطنية : ويقولون إنه ينبغى أن نأخذ العلم مباشرة من الإمام المعصوم .

٣ - الفلاسفة : ويسمون أنفسهم أهل المنطق والبرهان .

٤ - الصوفية : ويدعون الكشف والشهود .

الكلام

مع كل المحاولات التى أبديتها فى البحث فى شأن الطوائف الأربع السابقة إلا أننى ذهبت أولاً فى طريق المتكلمين ، فوجدت فى النهاية أن هذا العلم وضع لحماية العقائد الدينية وليس كافياً لهدفى .

الفلسفة

وبعد علم الكلام بدأت فى الفلسفة ولم يطل زمن البحث أكثر من عامين حتى وقفت على جميع رموز هذا العلم وأسراره ، وقد بحثت لمدة عام آخر فى مسائل (هذا العلم) وأقوال فلاسفة الفكر ، وقد انتهيت إلى أن هذا العلم علم تخيلات واهية وأنه منذ زمن طويل شغل (هذا العلم) جماعة من البشر ... وعلمت فى نهاية المطاف أن هذا العلم ليس كافياً للكمال المطلوب بالنسبة للبشر ، وأن العقل الفلسفى لا يمكنه وحده أن يكشف سر الوجود أو يحل مشاكل البشرية .

فرقة الباطنية

وهؤلاء يدعون أنهم يحصلون على حقائق الأمور من الإمام المعصوم وأن المعارف الإلهية تصل إليهم عن طريق الإمام القائم بالحق ... ويتحدث أنصار الباطنية عن المعلم ولكن إذا بحثت فى الأمر ماذا تعلموا من المعلم لا تجدهم يعرفون شيئًا ، فإذا عجزوا أحالوا أمرهم إلى الإمام الغائب. وقد اطلعت على (مذهب التعليمية) وفرقة الباطنية اطلاعًا جيداً ووقفت على رموز هذا المذهب ودقائقه ولكننى لم أجد فى هذه الطريقة شيئًا يقنع روح الإنسان الباحث .

طريقة الصوفية ... كما أننى تعلمت علم التصوف كما ينبغى وأدركت أن التصوف لا يختلف من الناحية العلمية عن سائر العلوم الشرعية والعقلية وإن وجد يكون الاختلاف فى العمل .

الخلاصة : أصبح معلوماً لدىَّ أن التصوف ليس سوى طريقة وتقوى والابتعاد عن الأمور الشهوانية ، وشيئًا فشيئًا أصبحت أمور الدنيا فى نظرى لا قيمة لها ، واتضح أن كل هذا يرتبط بفخ الشيطان ، ورأيت حتى أن أشرف الأمور الدنيوية والتى هى عبارة عن التدريس والتعليم غير مفيدة .

وإجمالاً فقد ابتعدت عن كل شىء فى الحياة باستثناء المرأة والابن ووضعت قليلاً من مال العراق الذى كان وقفًا على مصالح المسلمين للزوجة وللابن وخرجت من بغداد .

وامتدت مدة خلوتى ورياضتى وفقًا لما فهمته عن طريقة الصوفية عشرة أعوام وفى تلك الأحوال تكشفت لى أشياء لا يمكن حصرها وأعجز عن وصفها ... وتكشفت لى حقائق لا يمكن أن نجدها إلا فى الذوق والحال وإن هذه الدنيا أوسع من صدور الناس ، وخلاصة ذلك أننى علمت أنه لو كانت هناك حقيقة فهى تكمن فى التصوف وكفى ... ثم طويت الطريق الذى بدايته طهارة القلب ونهايته الفناء فى الله .

التفويض

إن كل هذه الأحوال بيد الله فهو مقلب القلوب والأحوال ، ولم يكن لى حيلة فى اختيار زمام الأمور وليس لأحد خيرة غير ما يختاره الله ، والآن أقول بمعنى الكلمة لا حول ولا قوة إلا بالله (فنحن مثل القشة والقضاء مثل العاصفة الشديدة) .

وقد قال الغزالى أيضاً :

عجز العقل : إن الحقائق الموجودة فى الكون لا تنحصر فى الحقائق التى ندركها بعقولنا ، بل هناك حقائق أخرى موجودة تعجز عقولنا عن إدراكها ، وحقيقة فإننا لا يمكن عن طريق المنطق أن نخرج عن رسالة النبوة للرسل ومع ذلك ينبغى علينا أن نصدقهم ونقبلهم ، وأنه يوجد عالم آخر يخرج عن عالم فهمنا وإدراكنا يسمونه العالم الربانى ، ولا يوجد برهان يعارض ذلك، ومع أنه فى تقبل ذلك تخفى علينا بعض الحقائق إلا أنه ليس هناك مستحيل عقلى .

جلال الدين الرومى

ولد محمد جلال الدين – المشهور بمولوى ذلك العارف والمفكر – فى عصر (الإقطاع) فى آسيا الصغرى ، فى السادس من ربيع الأول عام ٦٠٤ هـ . ق = ١٢٠٧ م ، ببلخ ، وهو ابن بهاء الدين محمد بن حسين الملقب بسلطان العلماء ، وقد تعلم مبادئ العلوم على يد السيد برهان الدين محقق، وفى الـ١٩ من عمره هاجر بصحبة أبيه إلى قونية

وكان سبب هجرة بهاء الدين من بلخ يكمن وراء المساعى التى كان قد قام بها فخر الدين الرازى وزير محمد خوارزمشاه لدى ملك تلك المنطقة[١] .

تزوج جلال الدين وهو فى الحادية والعشرين من عمره من "جوهر" ابنة شريف الدين السمرقندى فى (لاريندا) وأنجب منها ولدين هما علاء الدين وبهاء الدين ، وبعد وفاة "جوهر" تزوج مولوى من امرأة يونانية مسيحية وأنجب منها ولداً وبنتاً .

وفقد جلال الدين وهو فى الخامسة والعشرين والده فذهب إلى الشام لمواصلة التحصيل ، وأمضى هناك عدة سنوات فى دمشق وتبحر فى تحصيل العلوم المكنونة وأصبح متبحراً فى علوم ذلك الزمان ، وصاحب نظر .

ونظم مولوى وهو فى الثامنة والثلاثين عمله الخالد المثنوى بتشجيع من حسام الدين ، وقد قيل فى طريقة نظم هذا الكتاب إن حسام الدين كان يجلس الليالى مع جلال الدين وكان ينظم جلال الدين المثنوى ارتجالاً ، وكان حسام الدين يكتب ما يملى عليه ، ثم كان يقرأ ما كتبه على جلال الدين فى صوت عال ، وكان فى بعض الليالى يظل الاثنان حتى الفجر وهما يدونان المثنوى .

وقد كتب جلال الدين المثنوى تذكاراً لصديقه "شمس تبريزى" الذى كان قد تركه منذ فترة كما يقول :

(عندما ذهب الورد وخرب الروض فإننى أبحث عن رائحة الورد فى ماء الورد)[٢]

وفى الحقيقة فإن شمس تبريزى كان سبباً فى ظهور المثنوى لأنه قبل مقابلة شمس تبريزى كان مولوى معمماً ولا يفارق المنبر ولكن بعد لقائه بشمس حدث تحول عجيب فى حياته ، حتى إنه ترك المنبر وأصبح العشق مسيطراً عليه وأصبح زاهداً ، وكان عشق شمس بمثابة مصباح الهداية فى طريق حياته المظلم وهذا الطريق أثر عليه فكرياً فخلق عالماً معنويا ممزوجاً بالرؤى .

(١) لقد كانت هجرة سلطان العلماء من بلخ أمراً مفيداً لأسرة مولوى ؛ لأنه بعد سنوات شن جنكيز خان المغولى حملة على خوارزم وخرب تلك البلاد الجميلة . (المؤلف)

(٢) المقصود من قول مولوى بالورد أى : شمس تبريزى ، وماء الورد أى : حسام الدين . (المترجم)

وحب مولوى لشمس تبريزى وصل الحد الذى يمكن القول إنه لم ينسه حتى نهاية حياته ، وقد شيد قصراً عظيماً إحياء لذكراه ، وشغل بإكمال قصره المعنوى حتى آخر لحظة من عمره .

وتوفى مولوى فى غروب يوم الأحد ، ٥ جمادى الآخرة عام ٦٧٢ هـ . وكتب فوق قبره البيت الشعرى التالى :

(هذا المقام كعبة للعشاق وكل من جاء ناقصاً[١] أصبح فى هذا المكان كاملاً) .

وبلاشك فإن كتاب المثنوى هو أعظم الأعمال العرفانية فى جميع العصور[٢] التاريخية ولا نجد كتاباً به فكر جديد ومعارف قيمة وسامية كما يوجد فى المثنوى[٣] وحقا قال : (لا يوجد كتاب منظوم فى العجم أفضل منه) وحقًا يعد المثنوى المعنوى (دائرة المعارف الصوفية)[٤] لأنه لا يوجد كتاب نظير له فى العرفان ، وعلى حد قول موريس بارس : إن المثنوى ليس أثراً تعليميا أو كتاباً مذهبيا ، بل إنه كله يزخر بالانفعالات العرفانية والوجد وكأن شعره يصعد للسماء، وقد وردت به بعض الأفكار العجيبة فى أشكال عديدة يشوبها الغموض ، حتى إن القارئ لهذا المثنوى يظن أن كل من يمسك بهذا الكتاب يمكنه أن يحدد لنفسه طريقًا وسط الأساطير الأخلاقية والحوارات الفكرية والمسائل الدقيقة فيما يخص ما وراء الطبيعة ، هذا فضلاً عن اشتماله على العديد من النصائح .

وقد ورد بالمثنوى ١٢٨١ موضوعًا جديراً بالبحث أهمها ما يلى :

الروح ، والقلب ، والشهوات ، والروح الحيوانية ، والحواس ، والتضرع ، ومشاركة الآخرين حزنهم ، والسخاء، والعدالة ، والظلم ، والطاعة ، والقناعة ، والفناء والبقاء ، والأنس ، والقرب ، والصبر ، ومن الصوفى ؟ ، والتسليم ، والقضاء ، والتوكل ،

(١) أى كل من كان ناقص الإيمان .
(٢) ألف جلال الرومى كتاب (فيه ما فيه) وهو شرح وتفسير لبعض القضايا والموضوعات الواردة فى المثنوى. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية كاتب هذه السطور بالاشتراك مع الدكتور محمد علاء الدين منصور ، والدكتور يوسف عبد الفتاح فرج (انظر إصدارات المجلس الأعلى للثقافة) . (المترجم)
(٣) جلال الدين همائى فى مقالة عن (جلال الدين الرومى) .
(٤) وقد عد المستشرق الألمانى "بوته" مولوى أعظم كاتب لوحدة الوجود فى جميع العصور . (المؤلف)

والإخلاص ، ومعرفة الحق ، والتحمل ، والخوف والرجاء ، والزهد ، والتأمل ، والاعتكاف ، والفقر ، والزهد فى الدنيا ، والتوبة ، والعشق ، والوفاء ، ووحدة العلم ، والإيمان ... وما إلى ذلك.

ويرى مولوى أن العشق أعظم فضيلة إنسانية وعن طريق العشق تسمو العواطف الإنسانية .

إن المراسم الدينية والعبادة أمر محمود ولكن المسجد والمعبد والكنيسة ليست هى المكان الوحيد لعبادة الله، بل إن مقر إقامة الله هو القلب الطاهر ، ويجب أن يكون هذا هو الهدف الأساسى للإنسان فى الحياة فيستطيع أن يهذب نفسه عن طريق الإيمان والعبادة ، والشر موجود فى الكائنات ولكن الخالق منزه عن أى نوع من الشر .

إن الوثن الحقيقى للإنسان هو الروح الحيوانية وهى الشر الذى يملأ وجوده ويراه فى الآخرين ، وهو لا ينظر إلى نفسه ويسخر من الآخرين - مع عيوبه هذه - ويؤمن مولوى بأن الإنسان لديه حرية الإرادة على الرغم من أن إرادته خاضعة لإرادة الله ، فلو أن الإنسان لا يتمتع بهذه الحرية فإن الندم والإحساس بالخجل يفقدان قيمتهما ، والعشق الكامل حرية كاملة، ومثل هذا العشق أساس توحد الإرادة الإنسانية مع إرادة الله ، ويرى جلال الدين الرومى أن هذه الحرية هى التى تصل بالإنسان إلى مرحلة العشق والوحدة مع الله .

ويبدأ المثنوى بأنين الناى (الروح) فى الانفصال عن أصله ، فيرى هذا الأصل فى كل جسم ، ولكن ليس بوسع الشخص أن يدرك ماهية حقيقته ، فالروح فى شوق للوصل ومن فقد مثل هذا الشوق أو العشق مثل طائر ليس له جناح .

وحينما تتخلص مرآة القلب من غبار الشهوات يصل الإنسان إلى المعشوق وتتضح الروح الحيوانية فى حكاية الملك (النفس الإلهية) العاشق لجارية (النفس الحيوانية) فى حين أن الجارية - فى الحقيقة - عاشقة للشباب أى أن عشقها من أجل غرض أو مطلب ، ولا تشفى الجارية مع استخدامها لأكثر من علاج (الاستدلال العقلى) وفى النهاية يطلب السلطان المساعدة من الخالق ، وهدف مولوى هو توضيح أن العلم الروحانى موهبة إلهية . ويلتقى السلطان بالطبيب (المرشد) فيطلب الطبيب المذكور من الشاه أن يسمح له بأن تعيش الجارية مع ذلك الشاب الذى هو موضع اهتمامها .

ويعيشان لمدة ستة أشهر معًا وخلال هذه المدة يقدم الطبيب إلى الشاب جرعة علاج فيصبح الشاب بعد تناولها مريضًا ويفقد وسامته والفتاة التى كانت تعشق وسامته تضيق به ، وعندما يموت الشاب تنسى عشقها. وهدف مولوى لا يعنى أن الروح الحيوانية تقتل الآمال ، بل هدفه تهذيب هذه القوة وتنظيمها لتفكيرها الدائم فى زخرف الدنيا وحطامها .

ويعتبر مولوى العشق نوعين : عشق الأموات أى الأشياء المادية ، وعشق الأحياء أى عشق الحقائق المعنوية ، ويجب على الإنسان أن يعشق شيئًا كاملاً وثابتًا وحقيقيا . ويصنف الأعمال إلى نوعين أيضًا :

١ - الأعمال التى تتم عن طريق الإرادة الإلهية .

٢ - الأعمال التى تتم عن طريق الإرادة الشخصية .

وأعمال النوع الأول قد تبدو غير قانونية[1] إلا أنها صحيحة، ولبلوغ الحقيقة لابد من مرشد ، وينبغى التدقيق فى اختيار المرشد ، فبالرغم من أن المرشدين كثيرون فإن نفرًا قليلاً منهم هم الذين يمكن أن يكونوا مرشدين .

فالمرشد الحقيقى هو الذى يسعى لخير الجميع وسعادتهم ، بينما المرشد الكاذب هو من يسعى لتحقيق المصلحة الشخصية ، والمرشد الحقيقى هو الذى يحقق الوحدة والانسجام أما المرشد الكاذب فهو الذى يكون باعثًا على العداوة والنفاق .

وقد اتضحت الفكرة السابقة فى قصة الملك اليهودى الذى كان وزيره فى الظاهر مسيحيا ولكنه يهودى وعدو للنصارى ، وبزهده الكاذب كان يوحى أنه مؤمن للغاية ونقى ، وبمجرد أن آمن الناس بعقيدته شرع فى بث الفرقة بينهم . وقد قدمت هذه القصة دروسًا ذات عبرة وعظة .

وتتضح مرحلة الفناء فى قصة الببغاء الذى حبسه تاجر إيرانى فى قفص ، وعندما نوى التاجر أن يسافر إلى الهند سأل ببغاءه أية هدية تحب أن أحضرها لك ؟ فطلب الببغاء أن يحمل من طرفه رسالة إلى ببغاوات الهند .

(١) أى ليست خاضعة لقانون مرئى أو عقلى . (المؤلف)

(وفحوى هذه الحكاية أن ببغاءً حبس فى قفص وكان يأمل أن يرى الببغاوات الأخرى، فقبل التاجر هذا الأمر وعندما وصل إلى الهند والتقى فى الغابة بعدد من الببغاوات أرسل التاجر رسالة الببغاء إلى نظرائه من الببغاوات الأخرى وعندما سمع أحد الببغاوات برسالته أخذ يرتعد وسقط على الأرض كما لو أنه ميت . ويعود التاجر إلى بيته ويقص هذه الحكاية الغريبة على ببغائه العزيز ، فأخذ الببغاء الذى كان فى القفص يرتعش وكأنه يموت فحزن التاجر كثيراً ، ولما لم يجد وسيلة لعلاجه أخرج الببغاء من القفص ، وراح يطير وحطَّ فوق غصن شجرة عالية وبهذا الشكل فقد تحرر) .

... وشرحت فضيلة عدم الغرور فى قصة أخرى فحواها أن شخصًا طرق باب بيت صديقه وعندما سأله الصديق من بالباب أجابه (أنا) فلم يفتح الصديق الباب ، وبعد عدة لحظات طرق الصديق ثانية الباب وعندما سئل مَنْ ؟ قال هذه المرة (أنت) ففتح الصديق الباب .

والأشخاص الذين يخالفون الخير والإنسان الخيِّر فإنهم فى الحقيقة يخالفون الله، والصديق الحقيقى مثل المرآة التى يرى فيها الشخص ذاته كما هى موجودة ، فينبغى أن يكون عمل الإنسان لوجه الله وليس للوصول لأغراض شخصية .

... ومولوى مثل معظم الصوفية يؤمن بأهمية القلب ، ويعتقد أن القلب شىء نورانى غير عادى ، مقامه أدنى من الذات الإلهية وأعلى من الروح الإنسانية ، والقلب من الداخل يعادل الذات الإلهية، ومن الخارج هو أقرب إلى الروح الإنسانية ، ويستنير القلب من الذات الإلهية فيضىء الروح .

وقد شبهوا النفس الحقيقية بالنجم المتلألئ ، والقلب بالزجاج الذى يشع النور داخله ، والروح بزيت المصباح .

وكما أن البحر الذى تتلاطم أمواجه ليس فى الأصل أكثر من بحر واحد وهو مثل الوجود الحقيقى ليس أكثر من واحد حتى لو تعددت مظاهره .

... وقد اتضح العشق الحقيقى والإحساس بمعرفة الحق فى قصة لقمان وسيده ؛ إذ كان لقمان هو ذلك العبد الذى كان مولاه يؤثره ويحترمه ، وذات يوم قطع السيد قطعة من البطيخ وقدمها من باب الملاطفة والمحبة إلى لقمان ، فأكل لقمان قطعة البطيخ

بشهية مفتوحة ، فعندما رأى سيده كيف أن لقمان يأكل الفاكهة بشهية ولذة شديدتين ، قدَّم له قطعة أخرى من بقية البطيخة حتى تبقى من البطيخة قطعة واحدة ، وحتى يتذوق السيد طعمها أكل القطعة الأخيرة من البطيخة ، ولكن للأسف وجدها على غير ما يتوقع فهى مرة وسيئة المذاق ، فسأل لقمان : لماذا أكلت هذه البطيخة المرة مع كل مرارتها وسوء مذاقها ؟ فأجابه لقمان : لقد أخذت من يدك أشياء حلوة عديدة وقد أكلتها ، ولهذا فقد خجلت أن أمتنع عن أكل هذه البطيخة المرة .

ويمدح جلالُ الدين الرومى العشقَ فى نهاية هذه القصة ، فهو يقول إن ماهية كل شىء تتغير بالعشق .

بحيث يجعل العشق المر حلواً والنحاس ذهبًا والأسد فأراً والشيطان ملاكًا ! والعشق ثمرة العلم فالله يحب عباده الذين يعشقونه أكثر ممن يقومون بأداء الأوامر الدينية[1] .

مثنوى مولوى فى بيان أسرار الواحد الأحد

ويحتوى المثنوى على ٢٦ ألف بيت ، فهو بحر بلا حدود ، وينساب آلاف الدر النفيس من كل موجة من أمواجه ، والمثنوى المعنوى ثورة فى العشق العرفانى ، ويمكن القول إن مذهب المثنوى هو مذهب العشق . ولا عجب لو أن مولوى عند مقارنته بالعطار وسنائى ينظم ما يلى :

(لو كان العطار عاشقًا فسنائى ملك وقد كان ، ولست أنا هذا أو ذاك وإلا فقدت مكانتى)[2].

وقد شرح مولوى الحقائق العرفانية والنكات الروحانية الجذابة بأسلوب تمثيلى وتشبيهات محببة .

(١) نقلاً عن Outlines of Islamic Culture تأليف Prof: Abbas shushry .

(٢) بعد أن مكانتى تفوق الاثنين فلا تصح مقارنتى بهما . (المترجم)

لقد جعل جلال الدين الرومى من المثنوى سلمًا لمعراج الحقائق ، وأسلوب مولوى فى التدليل على نظرياته هو الإتيان بقصة داخل قصة ، وبعد عدة قصص متتالية يعود إلى قصته الأولى ويأتى بالنتيجة ، وأحيانًا لتأكيد فكرة ما فإنه يكرر الموضوع الواحد عدة مرات .

وقصص مولوى زاخرة بعجائب الأفكار ونوادر الأمثال ولطائف التعبيرات وحقائق علم النفس الجذابة:

(بسبب هـذه القصص جاءت الحيرة إثر الحيرة ، وتساوت الخاصة مع من هم أخص) .

وليس عجبًا لو أن كتاب الغيب هذا ، منذ أن زين فى عبارته ونظم فى شعره إلى اليوم ، هو معشوق السالكين وطالبى الحقيقة ومكمل لأصحاب المعرفة ومرشدهم ومؤنسهم ، وملجأهم ورأس مال السعادة بالنسبة للروح والقلب وأصحاب الذوق والحال[١] وليس عجبًا لو قال صائب :

(أصبحت مذهولاً من كلام مولانا وأصبح لصائب[٢] هذه الكأس الروحية وهذه الصهباء الأخرى) .

وعلاوة على أن المثنوى بحر زاخر بالنصائح والأمثال والانفعال العرفانى فهو مجموعة قيمة من القصص ، أكثرها من المصادر الشرقية ، خاصة المصادر الهندية والإيرانية (مثل : سنائى ، ونظامى ، والعطار ، وعوفى) .

وينقل الحكايات كأنها ليست أكثر من وسيلة لبيان أفكاره وما قاله هو تعبير عن آلام قلبه هو ، وبناء على هذا فإن مولوى له حق لو قال : (لم أقبل عارية من أحد وقد قلت ما قال لى قلبى قُله) .

(١) من مقالة بديع الزمان فروز انفر فى شأن جلال الدين مولوى .
(٢) صائب التبريزى (١٠١٦ هـ - ١٠٣٤ هـ) : من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى ومن أساتذة السبك الهندى . (المترجم)

وبعد الاطلاع على المثنوى نتفق مع السيد "حسين شجرة" بأن روح مولوى جوهر فياض وهو فى حركة دءوب لكشف الحقيقة ؛ لأننا عند الاطلاع على المثنوى نلتقى دوماً بأفكار رجل قد نفر من التقليد والجمود الفكريين وهو دائماً مشغول بالبحث والتحقيق .

مع أن المثنوى ليس كتاباً سهلاً وبسيطاً ، فإن كل شخص من أية طبقة يمكنه أن يدرك منه شيئاً وأن يتذوق فيه جانباً من المعرفة .

غزليات مولوى

إن غزليات مولوى هى المعروفة بغزليات "شمس تبريزى" وهى ذات أسلوب فصيح ومحبب وقد قيل فيها : (لو أن مولوى لم يكن له أعمال أخرى سواها فإن هذه الغزليات الفصيحة والبليغة – التى صدرت عن روحه السامية – تكفى أن تجعله رائد التصوف والعشق) .

ويقول نيكلسون فى شأن المثنوى وديوان شمس : إن الأول مثل نهر عظيم يصب بغزارة وتؤدة فى أراضٍ مختلفة وفى النهاية يلتقى بالمحيط الذى لا حدود له ، فى حين أن الثانى يشبه الإعصار الذى يجتاح كل ما يقابله .

وقد نظم مولوى الشعر فى هذا الكتاب فى ٥٥ بحراً مختلفاً ، وبلغ شعره إجمالاً ٣٥٠٠ غزلية .

وكليات شمس كلها شرح للمثنوى ولو أننا شبهنا المثنوى بالتوراة فيجب أن نعتبر كليات شمس هى التلمود .

الموسيقى فى أشعار مولوى

ليس غريباً لو رأينا الانفعال العرفانى العجيب فى غزليات مولوى والمثنوى ؛ لأن أشعاره زاخرة بالموسيقى ، وسنمثل ببعض الأشعار المفعمة بالموسيقى فيما يلى :

– هذا المثنوى وحدة فى وحدة من السمك حتى السماك .

– أنا مثل الفراشة أحترق وأسقط وأنهض من السكر والثمالة .

– لست سحاباً ولا برقاً ولا قمراً ولا فلكاً فكلى عشق وعقل فكلى روح المعشوق .

– بماذا وشوشت الورد فضحك ضحكة عجيبة ، وماذا فعلت فى فم الناى فأحلته سكراً .

– يا من حججتم أين أنتم أين أنتم ، إن معشوقكم ها هنا .

– معشوقك بجوار جدار ففى أى مكان ضللتم الطريق فى البادية ؟

– لو أنكم ترون أن معشوقكم منزه عن الوصف فأنتم الحجيج وأنتم الكعبة وأنتم البيت .

– لو أن هدفكم رؤية بيت الحبيب فعليكم أن تصقلوا أولاً وجه المرآة .

– إذا أحرمتم فدعوا البيت وتخلوا عن خرقة البشر جميعاً .

انفعالات مولوى العرفانية

ننقل هنا شرارات فكر مولوى النارية فيما يلى :

– على الظمآن أن يبحث عن الماء ويرتوى منه تماماً

وكل من رأى نقصه وعرفه سارع إلى استكماله .

– هذه الأرض والسماء بذراتهما هى علاقة جاذب ومجذوب أو عاشق ومعشوق .

– تطوف حول الكعبة مترجلاً آلاف المرات ولا يقبل الحق منك طوافاً مادام صدرك ضائقاً .

– فجأة رأيت بقلبى ذلك الذى كنت أبحث عنه لسنوات .

– إذا تغيرت حالة الأسير ، أصبح حليف موسى[1] فى حرب مع حلفائه الآخرين .

(١) يقصد مولوى بحلفاء موسى ، حلفاء موسى بن جعفر الملقب بالكاظم السابع إمام الشيعة ، ويعنى البيت : إذا تغيرت حالة العاشق تنازع الشيعة مع أنصارهم من الشيعة الآخرين . (المترجم)

- قدم أهل العقل خشبية ، والقدم الخشبية واهية وهشة .

- للعلم جناحان وللظن جناح واحد ، والظن ناقص وأبتر فى الطيران
يسقط الطائر ذو الجناح الواحد سريعًا وينقلب إن خطا خطوتين أو أكثر .

- يسقط طائر الظن وينهض أملاً فى الوصول إلى عشه
فإذا تحرر من الظن وازدوج علمه صار له جناحان وكساه الريش .

- ليس كتاب الصوفى مجرد كتابة وحديث بل هو قلب أبيض كالثلج .

- كنا مسرورين وكان الجميع جوهراً واحداً وكنا عدمًا وذلك سر الجميع .

الأهداف العملية لتعاليم مولوى

لا شك فى أن المثنوى المعنوى هو إحدى روائع الفكر البشرى ، ولاشك أيضًا فى أن هذا الكتاب يشتمل على النصائح والأمثال ذات الحكمة والحكايات الجذابة والمحببة ، ويشتمل كذلك على نصائح للآخرين ؛ فمثلاً نرى أن مولوى فى كل موضع يدعونا فى المثنوى المعنوى إلى الزهد فى متاع الدنيا[1] وأن نقيم حياتنا على الصبر والقناعة ويجب أن نعتبر الدنيا جسراً مهتزاً غير ثابت وذلك للعبور للحياة الأخرى .

وبقليل من الاطلاع فى المثنوى يمكن أن ندرك أن جلال الدين الرومى قد شرح هذه الأفكار العرفانية عن طريق التصوير والحكايات القصصية .

وكما يعلم القراء أن مولوى كان رجلاً ثريا وكانت له حياة مرفهة وكان يجد الحماية من قبل الإقطاع فى عصره لذلك فإنه كان يدافع عنهم[2] ، وسعى إلى تقوية شوكة رأسمالية الإقطاع فى عصره وذلك من خلال إجلال الفقر وتبغيض الغنى ، وأنه

(١) يقول مثلاً فى :
(الفلك كالنار فى الدنيا وقد أخرجت لنا مئات الشعل لكل فم
وهذا الذهب أمام العقل مثل الروث وإن بدا الروث ضوءاً للنار) . (المؤلف)
(٢) هذا كلام مرسل من المؤلف يحتاج إلى أدلة وبراهين لإثبات ذلك . (المترجم)

سعى بهذا الفكر أن يرضى الطبقات المستاءة فى الممالك الإسلامية والتى ثارت فى المناطق المختلفة من العالم الإسلامى(١) .

ومولانا جلال الدين – مثل هيجل – كان يؤمن بالتطور والتغير وأن الحياة تتغير دائمًا ، بل تتغير فى كل لحظة .

(جاء(٢) أولاً إلى إقليم الجماد وانتقل من الجماد إلى النبات
وقد عاش سنوات فى النبات ولم يتذكر عن النبات أى صراع
وعندما انتقل من النبات إلى الحيوان لم يتذكر شيئًا عن النبات
إلا ذلك الميل نحو الحيوان خاصة وقت الربيع والريحان
وهو ميلٌ كميلِ الأطفال إلى الأمهات ، ولا يستطيع أن يعبر عن سر ميله بالكلام
وذلك الخالق الذى تعلمه حلّ من الحيوان فى الإنسان
وانتقل من مكان إلى مكان [من مرحلة إلى مرحلة] حتى أصبح الآن ذلك العاقل والعالم والبخيل
ولا يذكر عقله الأول شيئًا عن هذا التطور أو التغير) .

ويعتبر مولوى العشق سبب هذا التغير والتطور الدائمين ويقول فى هذا المقام :

(إن لم تكن أنت عشق الوجود فمن تكون وماذا تكون إن لم يكن العشق زادك ؟
كان زادك العشق وما تشتهيه وإلا فدع ذلك الزاد الذى هو روحك
إن زاد العشق يحيى الميت فتخلد الروح التى كانت فانية) .

(١) هذه المعلومة التى أوردها المؤلف (مهرداد مهرين) والتى تجعل من جلال الدين الرومى نصيراً للرأسماليين والظلمة من الحكام وأنه فضلاً عن ذلك جعل من أعماله (المثنوى ، وديوان شمس "الغزليات" ، والرباعيات ، وفيه ما فيه) بوقًا يروج فكراً مسموماً يحمى به الطبقة الحاكمة ، معلومة خاطئة ولم يذكرها العديد من الكتاب والنقاد الذين بحثوا فى فكر جلال الدين الرومى ، لأن هذه المعلومة إن صحت فإنها تنسف كل جهود هذا الشاعر والمفكر والمتصوف الكبير ، وهذا غير صحيح بالمرة . (المترجم)

(٢) يتحدث مولوى هنا عن الروح أو الإنسان وكيف أنه مرّ بهذه المراحل قبل أن يصبح هذا الإنسان فى صورته وهذه المراحل هى : مرحلة الجماد ومرحلة النبات ومرحلة الحيوان وأخيراً مرحلة الإنسان . (المترجم)

ويقول مولوى بالثنائية – مثل هيجل – المتمثلة فى عقيدة الضدين :

(لقد اختلط أهل النار وأهل النور وكان بينهم جبل هائل

لقد امتزج الاثنان وكان بينهم بحر عميق لا حدود له

وكان هذا الامتزاج كاختلاط التراب بالذهب وبينهم مئة صحراء ومانع

أو كاختلاط الدر بغير الدر فى العقد ، أو الضيوف بأشباههم

فاختلط الصالح بالطالح ، فافتح العين جيداً وانتبه

لقد كنا جوهراً واحداً مثل الشمس وكنا فى سلام وصفاء مثل الماء

وعندما بدا ذلك النور واضحاً ، تعدد كظلال الطلل

حطموا الطلل بالمنجنيق حتى يزول الخوف من بين هذا الفريق

وقد عرض العالم أجمع حتى جاء هذا المعنى "هل أتى ؟" فمم ولدت هذه العروض ؟

أمن الصور ؟ ومم ولدت هذه الصور ؟ أمن الفكر ؟

هذا العالم فكرة من العقل الكل ، والعقل الكل ملك والرسل صور

وكانت لفظة أعوج تعنى كلمة مستقيمة فإن ذلك العوج لفظة يحبها الله

قال المعشوق للعاشق : يا فتى لقد رأيت فى الغربة العديد من المدن

إذن أى المدن أفضل ! قال تلك المدينة التى فيها معشوقى

لم أر فى الدنيا مباحثة أفضل من الخلق الكريم

لا تقس عمل الأطهار بنفسك حتى وإن كانت كتابة كلمة أسد بمعنى أسد

أريد صدراً ممزقًا من الفراق حتى أشرح ألم الاشتياق

إن كل من ابتعد عن أصله يبحث ثانية يوماً عن وصله

إننى أحزن لكل جماعة فأصبحت قرين البؤساء وقرين السعداء

كل من ظن أنه أصبح حبيبى لم يعرف أسرار الباطنية

إن سرى ليس ببعيد عن أنينى ، ولكن العين والأذن تفقدان ذلك النور

إن الجسد من الروح ، والروح من الجسد ، لكن للشخص بصيرة الروح

للبحر نصفان نصف حلو مثل السكر ، والمذاق الحلو واضح اللون كالقمر
والنصف الآخر مر مثل سم الأفعى ، والمذاق المر أسود اللون كالقار
وكلاهما يمتزجان من أسفل إلى أعلى مثل ماء البحر وهدير موجه
وامتزاج الصورة من ضيق العين وهو اختلاط الأرواح فى السلام والحرب
وإذا سادت أمواج السلام ارتفعت الأحقاد من الصدور
وإذا سادت أمواج الحرب اختفى الحب من كل مكان
إن المحبة تحيل المر حلواً لأن أصل المحبة طيب
ويجعل القهرُ الحلو مريراً فكيف يلتقى المر بالحلو ؟!
ما أكثر الحلو الذى كان مثل السكر ، ولكن السم كان مدسوساً فى السكر)[1] .

مع أن مولوى يؤمن بأن الإنسان مخير فإن هذا الاختيار أمر اعتبارى ومجازى بل مظهر للجبر وأن الجبر يكمل الاختيار :

(هذا ليس جبراً فهذا يعنى الظلم وذكر الظلم يراد به المذلة
وقد أصبحت مذلتنا دليل الاضطرار وأصبح خجلنا دليل الاختيار
ولو لم يكن هذا اختيار فما الخجل وما الأسف وأين العدل
ولماذا يزجر الأساتذة تلاميذهم إن لم يكن وراء ذلك نفع لهم ؟!
وهب أنك لست غافلاً عن جبره فإن قمر الحق يختفى فى سحابه
لو تسمعنى فإن هذا الوجود هو نعم الصواب فدعك من الكفر وتمسك بالدين
الحسرة والمذلة فى المرض وعند المرض يستيقظ الجميع
ذلك الوقت الذى تمرض فيه تستغفر من الذنب تائبا
ويبدو أن ذنبك كبير وتنوى فى الوقت ذاته قائلاً سوف أعود ثانية للطريق نفسه [أى الذنب]

(١) وبعبارة أخرى يريد مولوى أن يقول : أيها العاجزون والمحرومون فى المجتمع لو كانت حياتكم مريرة فاعلموا أن نظرتكم للحياة هى التى جعلت حياتكم بهذه المرارة ، وإلا فاتركوا وافتحوا العين الأخرى سترون أن أنواع السعادة الحقيقية للحياة فى العالم الآخر . (المؤلف)

تعطى العهود والمواثيق قائلاً لن أفعل أمراً سوى ما يرضى طاعة الله

وقد أصبح يقيناً أن المرض بالنسبة لك يوقظك من الغفلة

فكل من أصبح يقظاً صار أكثر تألماً ، وكل من أصبح أكثر معرفة شحب وجهه

فأين مذلتك لو عرفت الجبر وأين ظلمك فى هذا الجبر ؟!

عندما يسعد الأسير فى الأصفاد فهو عبد مؤمن

عندما يتحرر الأسير من الحبس يسعد أسير البلاء لذلك

لو أنك ترى أنهم كبلوا قدميك فقد تسلط عليك قواد الشاه

إذن لا تتسلط على أحد من العاجزين فلست عاجزاً مثلهم فى الطبع

عندما لا ترى جبراً له فلا تقل بالجبر ، وقل بالجبر إن رأيت برهان الشيطان

وفى كل أمر تميل إليه ترى قدرته واضحة وضوح الشمس

الأنبياء مجبرون فى أمر الدنيا والكافرون مجبرون فى أمر الآخرة

والأنبياء مخيرون فى أمر الآخرة والكافرون مخيرون فى أمر الدنيا

ولما أن كل طائر يميل إلى جنسه فإنه يتعقب الروح

ولما كان الكافرون من جنس واحد "ثابت" فقد طاب لهم سجن الدنيا

وعندما كان الأنبياء من جنس عليين فقد توجهوا نحو العليين بالروح والقلب) .

وكان مولوى يؤمن بالتناسخ ويقول فى هذا الصدد :

(أصبحت إنساناً من الجماد كما تشكلت فى صورة إنسان من الحيوان

وغدوت إنساناً من الحيوان فى صورة "آدم" فأى شىء يخيفنى من الموت ؟!

وسوف أموت مرة أخرى كالبشر وسأكون ملاكاً من الملائكة المجنحين

ويجب علىَّ البحث عن "الملك" فكل شىء هالك إلا وجهه

وسأصبح قرباناً مرة أخرى للملك بعد أن أكون قد فنيت

إذن سأصبح عدماً والعدم مثل "الأرغون" يقول لى إنا إليه راجعون) .

إن تصوف مولوى تصوف إيجابى ؛ إذ يرغب أتباعه فى العمل والسعى :

(طريق الرزق فى العيش معاناة وتعب ، والعجب أن يكون للإنسان طريق غير هذا

اطلب كل من له مهنة فعن طريق التكسب والمعاناة والتعب يكون الرزق

اطلبوا الأرزاق من أسبابها وادخلوا البيوت من أبوابها) .

وفى موضع آخر يشير مولوى إلى أن الحياة لن تحلّ بركة الله عليها ما لم نتحرك :

(أنى للطفل بشرب اللبن إن لم يبك، وأنى للروض أن يضحك إن لم تبك السحب ؟!) .

والفرق بين فلسفة مولوى وفلسفة هيجل فى شأن رؤية العالم أن هيجل تأثر بفلسفة "بركلى" ، وبالنسبة للثنائية فإنه يعارض ما يدعو إليه الماديون والعالم المادى ، كما أن مولوى يقبل العالم الخارجى بصوره فى النهاية فى صور مثالية وعرفانية .

تواضع مولوى

يجل مولوى كلاً من "سنائى" و "العطار" ويعتبرهما أفضل منه :

(صار العطار سبع مدن للعشق ولا زلنا لم نصل لجزء من حيه

لقد تركت الانفعال ولست مجرباً فاستمع إلى الحكيم الغزنوى جيدا

كان العطار روحاً وسنائى عيناه وقد اقتفينا نحن أثر كل من سنائى والعطار) .

وقد قال فى شأن سنائى: كلام الحق مثل اللبن وكتاب "الهى نامه" بمثابة القشدة . ويقصد بـ "الهى نامه" كتاب "حديقة سنائى" .

عصر عمر الخيام

كان عصر عمر الخيام عصر اضطراب ، وقد دفع استبدادُ الحكومة السلجوقية وعدم استقرار الأوضاع الاجتماعية فرقةً إلى اعتزال الحكومة السلجوقية ودفع فرقة ثانية إلى الاستسلام واضطرت فرقةٌ ثالثة إلى الثورة ، وكان عمر الخيام من بين الأفراد الذين سلكوا الطريق الأول . أما الغزالى وفخر الرازى ونظام الملك فقد آثروا

العمل فى الحكومة وفى كنف الحكام ، وقد قام المذكورون بحماية عمر الخيام إلا أن حسن الصباح الذى كان يمثل الطبقـات المستاءة قـد سلك طريق الثورة والتمرد ، بل ألحق بحكومة ملكشاه السلجوقى ضـربات قاصمة عن طـريق مساعدة بعض الفدائيـين له .

ولكى نبين للقراء الأعزاء مدى قدرة حسن الصباح ، سننقل فيما يلى حكايات عن الإمام فخر الرازى :

ذات يوم كان فخر الرازى يتحدث فى خطبة حول حسن الصباح وأتباعه فقال : إن الأتباع الملاحدة يفسرون "الله" وفقًا لأهوائهـم فيقـولون هذا وذاك فى حين أنهم لا يملكون برهانًا قاطعًا على ما يدعون .

وعندما وصل هذا الخبر لحسن الصباح ، أرسل أحد الفدائيين التابعين له إلى مجلس درس فخر الرازى حتى يؤدب الإمام التأديب اللازم ، واستطاع الفدائى المذكور بعد عدة أيام أن يكسب ثقة الإمام ، وذات يوم أذن له الإمام أن يدخل حجرته وأن يتحدث معه فى خلوته ، وبمجرد أن وجد الفدائى نفسه فى حجرة الإمام ، أمسك الأستاذ بيديه وكاد يطرحه على الأرض وحينئذ أخرج سكينًا وصاح فى وجه الأستاذ : سيدنا .. إن مقصود حسن الصباح أن يريك برهاننا القاطع الذى يناسب فهمك !

ولكن لما كان احترام بعض فضائلك أمرًا واجبا فقد أرسلنا لك أيضًا برهانًا ثانيًا ، فهذه الصرة بها ثلاثمئة دينار من الذهب الأحمر النيسابورى وكل عام سوف يصلك المبلغ نفسه من وكيلنا فى مدينة الرى أبى الفضل نباتى ، أما إذا (أطلت لسانك) مرة ثانية فسوف نريك البرهان الأول[1] . ويقال إن فخر الرازى منذ ذلك الوقت فصاعدًا قد ابتعد عن فرقة الإسماعيلية حتى عندما سئل عن سبب عدم تدخله قال فى الرد مبتسمًا : لقد رأيت برهانهم القاطع بعينى !

(١) نقلاً عن : دانشمندان اسلام ، تأليف آقاى خيرى ط٢ ، مؤسسة مطبوعات عطائى . (المؤلف)

حياة الخيام

كان الخيام[1] معاصراً للغزالى وكان يعيش فى فترة حكم ألب أرسلان وملكشاه السلجوقيين ، وللأسف ليس لدينا تفاصيل كثيرة عن فترة طفولته أما ما يتعلق بفترة تعليمه مع نظام الملك وحسن الصباح فإن هذه القصة عدت منحولة وأنكر حدوثها أغلب المؤرخين . والشىء المسلَّم به أن الخيام لم يكن من أهل السياسة وعاش منعزلاً فى حياته مثل أغلب الفلاسفة والعلماء ، وكان يشاهد فصول القصة التراجيدية لحياته عن بعد. ويكتب القفطى أن الخيام كان يدرس العلوم اليونانية ولم يكن لا نظير له فى الحكمة والنجوم وكان مطلعًا اطلاعًا كبيراً على الطب والفقه واللغة والرياضيات والتاريخ . ويكتب زكريا بن محمد بن محمود بن القزوينى : إن عمر الخيام كان يعيش فى عهد السلطان ملكشاه وقد قدم له هذا السلطان أموالاً طائلة حتى يشترى آلات لرصد الكواكب ، ولكن سرعان ما توفى السلطان فلم تنجز هذه المهمة. ويكتب الشهرزورى فى شأن قدرة الخيام الحافظة : إنه قرأ كتابًا فى أصفهان عدة مرات وعندما عاد إلى (نيسابور) روى ما قرأه فى الكتاب المذكور ، وعندما قارنوا بين النسخة الأصلية وما أملاه الخيام لم يجدوا فرقًا .

ويكتب أيضًا فى تاريخ الحكماء : كان تلو أبى على بن سينا فى أجزاء علوم الحكمة وكان عالمًا باللغة والفقه والتواريخ . ولكن الخيام كان متخصصًا فى الرياضيات وعلم النجوم ، ويقال إنه لا نظير له فى عصره فى علم النجوم ونتيجة لجدارته فى هذا الفن فعندما أراد ملكشاه أن يصلح التقويم كان عمر الخيام من بين الأشخاص الثمانية الذين اختارهم ملشكاه لهذا الأمر ، ومن بين نتائج ذلك إصلاح (تاريخ جلالى) والذى أخذ عن اسم (جلال الدين)[2] علاوة على أنه صنف جدولاً للنجوم باسم (زيج ملكشاهى) الذى اشتهر بعد ذلك واستفاد منه عدد من العلماء ، وكان الخيام بعيداً عن البلاط والناس ، وقنع بالعيش خارج مدينة نيسابور ، وكان دخله السنوى ١٢٠٠ مثقال من الذهب ، ولم يتزوج وظل طوال حياته الطويلة مشغولاً بالاطلاع والبحث والتحقيق .

(١) اسمه الكامل : غياث الدين أبو الفتح عمر بن إبراهيم . (المترجم)

(٢) يبدأ التاريخ الجلالى من عام ٤٧١ هـ .

وتوفى الخيام عام ١١٢٣م . ودفن بالقرب من مدينة "نيسابور" وقبره الآن مزار لأهل الحقيقة والدراويش الأطهار .

أعماله

١ - رسالة فى الاحتيال بمعرفة مقدار الذهب والفضة فى جسم ركب منهما .

٢ - رسالة فى الجبر والمقابلة ، وهى بالعربية، وكانت تعد فى عصره أعظم وثيقة فى الكتب الرياضية .

٣ - رسالة فى شرح ما أشكل من مصادرات كتاب إقليدس (فى علم الهندسة) .

٤ - فى الطبيعيات .

٥ - لوازم الأمكنة ، وهو فى تغير الفصول وظروف تغير الماء والهواء فى الممالك والمدن المختلفة .

٦ - روضة القلوب (أفضل وثيقة لمعرفة المشرب الفلسفى للخيام) .

٧ - نوروز نامه (بالفارسية) .

٨ - رباعيات عمر الخيام (والتى لم يكتب مثلها حتى الآن[١] فى العالم)[٢] .

٩ - زيج ملكشاه (وكان الخيام واحداً من مؤلفيه) .

فلسفة الخيام

الموضوع الأصلى فى رباعيات عمر الخيام هو فناء الدنيا والحث على اغتنام اللحظة ، والخمر ، وموضوع الجبر وقلة حيلة البشر ، ويقدم عمر الخيام النصائح فى شأن زوال

(١) لعدة أسباب : سهولتها ، وبلاغتها ، وفكرتها ، وجدتها . (المترجم)

(٢) لكاتب هذه السطور بحث فى رباعيات الخيام يبين أن معظم ما نسب إلى الخيام من رباعيات منحول عليه ، اسم هذا البحث (تأثير رباعيات عمر الخيام فى الشعر العربى قصيدة أبى ماضى نموذجًا) . (المترجم)

العمر وعدم قيمة الوجـود وأننـا نعيش فى عالم الغفـلة ، وأن حـزن الإنسان لحظـة لا يساويها هذا الوجود ببحره وبره ، وأن الإنسان لن يحصل على أى شىء فى الدنيا والآخرة سوى المعاناة؛ لهذا فإنه يصيح متأسفًا: (ما أسعد الشخص الذى لم تلده أمه) ويقـول فى موضع آخر بمنتهى العجـز : (لو أن مجيئى للحـياة شـرا لم جئت !) لأننا ألعوبة فى هذه الدنيـا وأن الفـلك هو اللاعـب بنا وكـان الأفـضل ألا يكون لـهذه الدنيا وجود .

ومع أن الخيام كان حزينًا لزوال العمر ، وهو يشبِّه سرعة زوال العمر بماء يجرى فى نهر أو ريح فى صحراء ، وينصحنا لكى نكسب الحياة ونستثمرها علينا أن نغتنم لحظة العمر وأن نسعد ، فلا فائدة من وراء الحزن سواء رضينا أم أبينا :

(تذبل أوراق وجودنا بمجىء الربيع وكر الأيام)

إذًا لا محـال من الهلاك فى قبضة الأجل ومن ثم علينـا أن نغتنم لحظة العمـر ولا نضيعها ولا نحزن لغد؛ لأن هذا الغد غير معلوم بالنسبة لنا، ولا ينبغى أن نفـرط فى هذا العمـر (النقد) وننظر لغد هو أشبه بقرض أو بدين ، ونحن لسنا ذهبًا نوضـع فى التراب ويحصلون عليه ثانية فنحن مثل شقيقة الورد التى إذا ذبلت لن تتفتح ثانية ، فلا ينبغى أن نضيع الوقت بل نغتنمه ونسعد .

اللحظة

(تمر قافلة العمر هكذا بسرعة عجيبة فاغتنم اللحظة التى تواكب الطرب) .

كان الخيام يقول : إن الحياة هى الشىء الذى ينبغى أن نتغلب عليه ، فكيف يتأتى لنا ذلك ؟ باغتنام اللحظة وعدم الاكتـراث بالموت ! ويمكن اغتنام هـذا العـمـر الزائل بطريقـة واحـدة: عن طريق الاسـتفادة من هـذه اللحظات سـريعة الزوال والتى تضـيع فى سراديب الفناء .

والأحمق من يسير وراء الجاه والعظمة والثروة ، ويعرِّض نفسه وسلامته للخطر أمام السير وراء هذه الألاعيب ، ولكن العاقل يغتنم هذه اللحظة دون أن يخسر شيئًا ،

بل يسعى لكى يستفيد من مظاهر الطبيعة الجميلة ويلجأ إلى "واحة الفن" فراراً من صحراء الحياة المحرقة .

ويولى الخيام موضوع الاستفادة من اللحظة اهتماماً كبيراً ، ويشير إلى ذلك قائلاً :

(اسعد فإن محصلة العمر لحظة وكل ذرة من التراب يتشكل منها جسد الملك كقباد وجمشيد

أحوال الدنيا وأصل هذا العمر حلم وخيال وخداع ولحظة

أيها الغافلون لا يوجد فى الكون شكل مجسم ، كما أن هذ السماء ليست هى الفلك المزين

فاسعد فإن الوجود والعدم مرتبطان ولا يوجد شىء غير ذلك) .

ولكى نستفيد من اللحظة ينبغى علينا أن ننسى أحزان الماضى ولا ننشغل بالمستقبل ، يقول فى هذا الصدد :

(لا تذكر اليوم الذى مضى ولا تنشغل بغد لم يأت

واصرف النظر عن الغد والماضى واسعد ولا تضيِّع العمر هباءً) .

وينبغى أن نؤمن بهذه الحقيقة ؛ وهى أن راحة البال فى الحقيقة ، وهى شىء ثمين وقيم ، يقول فى هذا الصدد :

(إن الفردوس لحظة من أوقاتنا الطيبة وجهنم شر من معاناتنا التى لا طائل من ورائها) .

ولا ينبغى أن نفرط فى راحة بالنا حتى لا يهددنا الموت : (مادامت عاقبة الأمر فى الدنيا هى العدم فاسعد واعتبر أن العدم مثل الوجود) .

لن تعود ثانية فإن رحلت فقد رحلت

وكما يبدو من الشطرة السابقة فإن أسلوب اصطدام الخيام بالموت والحياة أسلوب مادى تماماً .

وبالنسبة له لا يوجد وراء القبر ثواب أو عقاب ولا يؤمن ببقاء الروح ، ولكنه يؤمن ببقاء المادة ؛ أى أنه مثل سائر الفلاسفة الماديين يعتقد أن الجسد يفنى بعد الموت ويتحلل إلى عناصر منفصلة ثم تدخل هذه العناصر فى جسد شخص حى آخر ، وبعبارة أخرى : (من سيف الأجل يقطر ماء الحياة كما يستخرج الترياق من السم) . والخيام كما سبق القول لا يؤمن بالعالم الآخر وراء القبر، بل إنه يسخر من ذلك فيقول :

(يقولون إن جنة عدن طيبة مع الحور وأقول إن خمر الكرم أطيب

فخذ هذا النقد ودعك من القرض فإن سماع صوت الطبل طيب من بعيد) .

ويحقِّر الخيام من حياة البشر القصيرة فيقول :

(إن مجيئك فى هذا العالم مجيء ذبابة ظهرت واختفت) .

ولأنه كان غير راضٍ عن هذه الحياة الحقيرة القصيرة القذرة فقد كان يأمل لو استطاع أن يمحوها :

(لو كانت لدى قدرة مثل الخالق فى هذا الفلك لكنت دمرته) .

ويرى الخيام – حاشا لله – أن صانع هذا العالم مثل فنان ثمل ومجنون إذ إن عمله هو الصنع دومًا والتحطيم دومًا لما صنع[1] .

ويخيم ظل الموت الأسود على جميع رباعيات الخيام ؛ لأن الإنسان بعد الاستمتاع السريع بهذه الحياة يتحول إلى جيفة أو ميت ولهذا فقد اقترن سرور الخيام دائمًا بغم العدم ، كما اقترن أيضًا ضحكه بالبكاء حتى فى الوقت الذى يقول فيه : اشرب الخمر فإن الموت ينتظر العمر ، ولينقض ذلك العمر فى النوم أو الثمالة !

ويرى الخيام أنه محروم من السعادة الحقيقية ؛ لأن فكرة الموت لا تفارق عقله لحظة واحدة فهى مثل الشوكة التى تخز قلبه من وقت لآخر .

(١) إن حيرة عمر الخيام فى طبيعة هذا الكون وخالقه وإخفاقه فى تفسير ما يجرى دفعه إلى هذا القول . (المترجم)

والعالم فى نظر الخيام ليس منظراً جميلاً يمنح الأمل ، بل إنه كله كارثة مثيرة للحزن وإنه فرض على الإنسان قسرا، ويرى عمر الخيام - مثل أغلب الفلاسفة - أن الإنسان وليد الهوس وأن عمره مرتبط بلحظة، ولا يتصور الخيام أن الإنسان يمكنه فى مثل هذه الدنيا أن يسعد بينما يكمن له الموت بالمرصاد فى كل لحظة ، وكان الخيام يرى الحياة مثل دودة القز حيث أصبح ضحية الظلام الحالك للفناء ، وكان دائماً يعترف بعجز الإنسان وضعفه ولهذا كان يسعى أن ينجز عمله وفكره بشكل واقعى ومن ثم لم يحسن الظن بالحياة ، فهو يدعونا أن نغتنم ملاذ الدنيا وإن (بدت كلها غير حقيقية) مادمنا أحياء بقدر ما نستطيع .

(والآن أسعد للسبب المذكور)

الخلاصة : نحن بمثابة جسر بين عدمين ، وينبغى علينا أن نسعى لكى ننهل بقدر الإمكان من لذات الدنيا ، ومع الاستمتاع بلذات الحياة والموت دون خوف فإننا نبصق على الموت والحياة ونتخلص منهما .

سخرية الخيام

إن الجزء الأكبر من رباعيات الخيام ساخرة ، وننقل فيما يلى بعض هذه الرباعيات :

(يقولون لا تشرب الخمر فى شهر شعبان فإنه لا يجوز ، ولا يجوز أيضاً فى رجب ؛
إنه شهر خاص بالله

فإن كان شعبان ورجب يخصان الله والرسول فسنشرب الخمر فى رمضان فهو شهرنا)[1] .

(عندما رغبت نفسى فى الصوم والصلاة قلت إن مراد الكليم قد حدث

وا أسفاه فقد فسد الوضوء من الخمر وفسد ذلك الصوم بنصف جرعة خمر) .

(يقولون : لقد اقترب شهر الصيام ولا يمكن أن أعود إلى الخمر ،

سأشرب فى آخر شعبان كثيراً من الخمر وسأنام فى رمضان ثملاً حتى العيد) .

(١) إن شهرة الخيام جعلت كثيراً من المزيفين ينسبون كثيراً من الرباعيات إليه ، لهذا فقد وصلت الرباعيات المنحولة إلى الآلاف ، لمزيد من المعلومات انظر بحثنا : تأثير الشعر الفارسى فى الشعر العربى قصيدة إيليا أبو ماضى (الطلاسم) نموذجاً . (المترجم)

شجاعة الخيام

واليوم لو أن أحداً يسخر من بعض القصص المذهبية التافهة فإنه لم يصنع فناً لأن العلوم أثبتت بطلانها ، ولكن عمر الخيام مع ذلك استطاع أن يحارب الترهات الدينية فى فترة مظلمة وموحشة - الفترة السلجوقية - وأن ينال من الدجماتية الدينية(١) ، وهذا دليل على شجاعته الفائقة . وكان عمر الخيام العدو اللدود للخرافات الدينية فى عصره وليس غريباً أن يكتب القفطى فى شأن رباعيات الخيام : (إن باطن تلك الأشعار حيات لواسع : للشريعة وتمثل مجموعة من قيود الضلال) .

رباعيات الخيام رباعيات لا تبلى أبداً

يكتب صادق هدايت فى هذا الشأن : إن فلسفه الخيام لا تفقد جدتها أبداً ، ورغم أن هذه الرباعيات فى الظاهر قليلة فإنها زاخرة بالمعنى والعمق، فهى تتناول الموضوعات المهمة والمسائل الفلسفية الدقيقة التى حيرت الإنسان فى العصور المختلفة ، وكذلك الأفكار التى فرضت على الإنسان جبراً والأسرار التى ظلت غامضة عليه .

والخيام ترجمان هذه العذابات الروحية ، وصيحته انعكاس للآلام والاضطرابات والمخاوف والآمال ويأس ملايين الأجيال السابقة التى عذبتهم دوماً ، ويسعى الخيام فى رباعياته أن يحل كل هذه المشكلات والأسرار والطلاسم فى لغة عربية يبين فى ضحكات هستيرية الحل للمشاكل المادية والمعنوية .

وتعد رباعيات الخيام بشكل موجز مرآة يرى فيها كل شخص متحرر جانبا من أفكاره ويأسه فيرتجف .

وقد تمخضت هذه الرباعيات عن مذهب فلسفى هو اليوم موضع اهتمام علماء الطبيعة ، وشراب الخيام المصحوب بالمرارة يكتسب الجدة أيضاً كلما قدم .

(١) الدجماتية هى الفلسفة القائمة على اليقين : Dogmatism .

وفى النهاية فإن الشيء الذى سوف يحفظ رباعيات الخيام من الفناء هو لحنها المثير للحزن ، والذى يؤكد موضوع أن العمر سريع الزوال وأننا جميعًا سنفنى ، والروح المضطربة للخيام ورهافة حسه هما اللذان يحركان أحاسيس كل فرد ويجعلانه يتعاطف معه ، كما أن تشكك الخيام وضيقه بهذا العمر القصير والتافه يجعلان الإنسان يستخف بالدنيا ممن يتظاهرون بالزهد والتقوى ، كل هذه العوامل سوف تحفظ رباعيات الخيام خالدة حية .

ويجب علينا بدورنا أن ننهل من فيض الخيام وذلك بالاطلاع على رباعياته التى تقول : (عندما تكون اللحظة هى فيض صباح حديث العاشقين فإن هذه اللحظة تحيى العالم بأسره) .

احتقار الدنيا

إحدى الخدمات الجليلة التى أسداها الخيام للبشرية هى أنه جرد هذه الدنيا من ذلك التاج الذى تتحلى به ، واحتقر تلك الدنيا التى يعيش فيها كما يلى :

(أيها الغافلون إن هذا العالم ليس شكلاً مجسمًا ، وهذه السماء ليست ذلك الفلك المزين

فاسعد .. فإن الوجود والعدم مرتبطان بلحظة وما سوى ذلك هباء) .

ومن وجهة نظر الخيام فإن كل النجوم نجوم نحس ولا يوجد فى الكون نجم سعد ، فالحياة شر ولأنها شر فكلما ترك الإنسان هذه الدنيا بسرعة كان ذلك أفضل له ، ويقول فى هذا الصدد :

(سعيد ذلك القلب الذى رحل عن هذه الدنيا سريعًا ، وما أهنأ ذلك الشخص الذى لم تلده أمه !) .

وكان الخيام يؤمن بالجبر ولا يؤمن بالقضاء والقدر وأن هذا الجبر المؤس علم الخيام أنه لا يوجد ثواب وعقاب ، وبعبارة أخرى : لا يوجد فى قاموس الخيام جنة

ونار أو ثواب وعقاب ولا بعث أو حساب ، وأن الإنسان الذى عرف نفسه وعرف الدنيا لا يمكن أن ينخدع بهذا النوع من الأوهام التى قد تبدو حلوة .

ولهذا السبب فإن الخيام ينظر إلى هذه الدنيا التى ليس لها هدف - مع كل عظمتها - سوى الضرورة والحاجة ، ولا يمكن أن يجد فيها أى أمر آخر يستحق الاهتمام ، وقد بذل كل قواه العلمية وليس هناك هدف للإنسان فى هذا العالم سوى اللذة .

وفى شأن وجود الخير فى هذه الدنيا فإن الخيام لا يعد الإنسان مسئولاً عن أعماله وأفعاله .

(ماذا أفعل وقد خلقتنى من ماء وطين، وماذا أفعل وقد كسوتنى بالصوف والحرير؟!
فكل خير وشر يصدر منى أنت كتبته علىَّ .. فماذا أفعل ؟!)

روح الشك والتشاؤم

من السمات الأساسية للخيام روح الشك لديه ، ويفضل الخيام الحاضر الغائب فى أمور الحياة والتى يرمز لهما بـ (النقد والنسيئة) ، ويعتبر أن اللذات الممزوجة بسم هذه الدنيا أفضل كثيراً من السعادة السرمدية للآخرة .

(الكأس والخمر والساقى بجوار روض كلها لى نقداً ولك الجنة قرضاً
فلا تسمع حديثًا من شخص عن الجنة والنار سواء من ذهب إلى النار أو من جاء من الجنة) .

واقترنت رباعيات الخيام بأنات حزينة ، وفى هذا الصدد يقول صادق هدايت : إن ألم الخيام ألم فلسفى وهو يلعن أساس هذه الخليقة ، والخيام يلعن الحياة القصيرة والقذرة، وتتضح فى أغلب رباعياته تلك الكراهية لهذه الحياة . ومن بين ذلك هذه الرباعية التالية :

(لو أن الآتين يعلمون ما سيعانونه من الدهر لما أتوا) .

وهو مثل "شوبنهاور" لا يعتبر الحياة أكثر من مجرد حلم وخيال :

(أحوال العالم وأصل هذا العمر حلم وخيال وخدعة ولحظة
من خمر البارحة لم يتبق أكثر من قدح ، ولا أدرى كم تبقى من العمر) .

صانع الأكواز

يشبه الخيام الخالق بصانع الأكواز :

(هكذا يصنع صانع أكواز الدهر (الخالق) كئسًا جميلة ثم يحطمها على الأرض ثانية)

ويشكو الخيام من قسوة هذا الصانع وعدم مبالاته :

(يا رب لقد حطمت إبريق خمرى فأغلقت فى وجهى باب السعادة

وسكبت خمرى المعتقة على الأرض والتراب بفمى فهل أنت ثمل يا رب ؟!) .

ورغم أن الخيام لا يولى أهمية أو يكنُّ احترامًا لصانع الأكواز هذا فإنه يعتبر أحسن خلقًا ومودة من رجال الدين ، إذ إن صانع الأكواز هذا لا يستمتع (بعذاب) الأكواز الناقصة ولو أنه حطمها فإنه يفعل مثل الفنان الحقيقى الذى يبحث عن الكمال فهو مستاء من عمله لهذا النقص أو ذلك العيب .

المذنبون الأبرياء ؟!

ولأن الخيام قد أدرك أنواع الضعف البشرى فهو مثل (أناتول فرانس) لا يعتبر البشر مسئولين عن الذنوب التى ترتكب ، وإن الذنب فى نظره محصلة الغرائز الطبيعية التى تدفع الإنسان - أراد أم أبى - نحو ارتكاب الذنب ، ويتصور أن البشر ضعفاء النفس فطرةً ولهذا فإنهم غير مسئولين عن الأعمال الحمقاء التى يرتكبونها ، وإن أعمال البشر مثل تجول السيارات المجنونة التى تدور حول أنظمتها الخاصة الطبيعية وهى لا تتغير وخارج سيطرة البشر .

ولهذا السبب فإن الخيام لا يؤمن بيوم الحساب والبعث .

ولا يمكن تصور أن الخالق ظالم إلى هذا الحد أو أنه يجب معاقبة المخلوقات الضعيفة والعاجزة على أعمال هى غير مسئولة عنها ، ومن وجهة نظره أن النظريات الكاذبة لبعض المتصوفة والمتدينين لا هدف لها سوى خداع العوام البسطاء .

والخيام بفكره الثاقب ورأيه الرزين قد أماط اللثام عن هذا النوع من الخرافات فأنقذ بفكره الشجاع كثيراً من الضالين السذج[1] .

أخلاق الخيام

(تتفاخر قائلاً لا أشرب الخمر وتفعل مئة ذنب أكثر منه مثل الغلمان)[2]

كان الخيام رجلاً قنوعًا وصادقًا ولم يلوث قلمه مثل الشعراء الآخرين بالتملق والرياء ، لهذا ابتعد عن الرياء والكذب ، ولأن الخيام متحرر الطبع ؛ فقد انتقد الزهاد الكاذبين ورجال الدين المرائين .

(قال شيخ لمومس أنت سكرى ، كل يوم ترتبطين بخليل

قالت أيها الشيخ كل ما تقوله عنى صحيح .. ولكن هل أنت كما تبدو ؟!) .

ويوقظ الخيام بالرباعية التالية ضمائر المذنبين الذين يظنون أنفسهم أبرياء :

(قل لى من لم يرتكب جرمًا فى هذه الدنيا ؟ وقل لى كيف عاش ذلك الشخص الذى لم يذنب ؟!

أنا أسىء وأنت تسىء مكافأتى ، إذن قل لى ما الفرق بينى وبينك ؟!) .

كلمة موجزة : إن صراع الخيام مع الخرافات والترهات فى عصره واضحة فى كل رباعياته ، وكل ضحكاته الساخرة تنصب على الزهاد والفقهاء والفلاسفة ، كما أنه ينتقدهم بأستاذية لا تُرى عند غيره[3] .

(١) لاشك فى أن بعض رباعيات الخيام تحمل فى ثناياها فكرًا ثاقبًا وأقرب للعقل والمنطق والفطرة الصحيحة ، ولكن هناك جانبًا آخر من هذه الرباعيات يميل إلى الانحراف الشديد عن الحكم الصحيح فى كثير من الأمور ولا تمثل قيمة يعتد بها . (المترجم)
(٢) اللواط والغزل بالمذكر . (المترجم)
(٣) نقلاً عن مقدمة صادق هدايت حول رباعيات الخيام . (المترجم)

هل كان الخيام متصوفاً ؟

على الرغم من أنه تُشاهد فى رباعيات عمر الخيام أفكار ضد التصوف ومع ذلك فقد اعتبره بعض الأفراد صوفيا .

والحقيقة أن الخيام كان يعيش حياة صوفية ولكن ليس لديه معتقدات صوفية ، فقد كان ماديا ومتشائمًا فى حين أن الصوفى متفائل ومثالى الفكر ، وقد منعته ماديته وتشاؤمه خاصة من أن ينسجم مع الصوفية[1] .

وكما يقول "هنرى ماسه" : خلافًا لما هو مشهور عن الخيام من أنه كان شاعراً ورياضيا فقد كان بعيداً عن العرفان والتصوف ، وقد بدد الخيامُ بشكل ذكى وأسلوب بسيط المخاوفَ البشرية فيما يتعلق بأسرار مصير الإنسان .

مزاح الخيام

كان الخيام - مثل برنارد شو وفولتير- يحب المزاح وكان مزاحه فى الغالب مزاحًا ساخراً وذا معنى .

ويروى من بين هذه القصص والحكايات أنه كانت هناك مدرسة قديمة فى نيسابور فجىء بالحمير التى تحمل طوب الآجر من أجل ترميمها وتعميرها ، وذات يوم وبينما كان عمر الخيام يسير مع عدد من تلامذته فى المدرسة رأى حماراً وقد امتنع عن دخول المدرسة المذكورة ! فلما أبصر الخيام هذا المشهد تبسم وتقدم نحو الحمار وقال هذه الرباعية ارتجالاً : (يا من ذهب وعاد وصار أبله وضاع اسمه بين الأسماء

فتجمعت أظافره وصارت حافراً وتحولت لحيته عند العجز ذنبا) .

وعندما سمع الحمار المذكور دخل المدرسة وعندما سئل عمر الخيام عن هذا قال : إن الروح التى حلت فى جسد الحمار كانت قبل ذلك فى جسد أحد الخطباء والمدرسين فى هذه المدرسة .

(١) الحقيقة أن الخيام لم يكن يعيش حياة المتصوفين كما زعم المؤلف كما كان معاديًا فى أفكاره للصوفية وقد سخر منهم فى معظم رباعياته . (المترجم)

ولذلك فإنه لم يستطع أن يدخل لعل زملاءه يعرفونه، ولكن لما التفت عرفوه فاضطر أن يدخل[1] [2] .

أشعار الخيام العربية

نظم عمر الخيام كثيراً[3] من الأشعار العربية ، وهذه الأشعار نموذج لها :

أصوم عن الفحشاء جهراً وخفيةً عفافًا وإفطاري بتقديس خاطري
وكم عصبة ضلت عن الحق فاهتدت لطرق الهدى من فيضه المتقاطر
فإن صراطي المستقيم بصائر نصبن على وادي العمى كالقناطر

* * *

إذا رضيتْ نفس بميسور بلغة يحصلها بالكد كفي وساعدي
أمنت تصاريف الحوادث كلهاً فكن يا زماني موعدي أو مواعدي

* * *

متى باعدت دنياك كانت مصيبة فوا عجبًا من ذا القريب المباعد
إذا كان محصول الحياة منية فسيان حالا كل ساعٍ وقاعد

* * *

فكم ألفتُ وكم آخيت غير أخ وكم تبدلت بالإخوان إخوانا
وقلت للنفس لما عزَّ مطلبها بالله ما تألفي ما عشت إنسانا

(١) أخطأ كثير من الباحثين المستشرقين والإيرانيين والعرب في تفسير كلمة (بله هم) أو (بلهم) في الرباعية المذكورة فقد فسروا كلمة (بله هم) أو (بلهم) على أنها تعني الحيوان وقد قال بذلك أبو النصر مبشر الطرازي الحسيني وغيره كثيرون ، وأعتقد أن الترجمة الصحيحة لها هي (صار أبله) من البله وضعف العقل والحماقة وهذا أكثر استقامة في ترجمة الرباعية . (المترجم)

(٢) نقلاً عن تحقيق درزندكي ورباعيات الخيام ، تأليف آقاي حسين شجرة . (المؤلف)

(٣) ليس صحيحًا أن الخيام نظم أشعاراً كثيرة بالعربية كما ذكر المؤلف ، بل ما نظمه الخيام من الأشعار العربية أبياتا متفرقة وقليلة ، كما أن الثابت أن ما نظمه الخيام حتى في الشعر الفارسي في شكل رباعيات قد لا تتجاوز مئة رباعية وقد ذكر البعض أنها نحو (٥٠) رباعية إن لم تقل ، وإن ما نسب له من آلاف الرباعيات الأخرى هي لشعراء آخرين . (المترجم)

ابن مسكويه

أبو على أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه : ولد فى القرن العاشر الميلادى وقد توفى عام ١٠٣٠م . بعد أن عاش عمراً طويلاً ، وكان أحد أعظم الحكماء الإيرانيين ، وكان مطلعًا على اللغة والمنطق والشعر والطب .

وكان ابن مسكويه فى بداية حياته زرادشتيا ، اعتنق الإسلام بعد ذلك وقضى فترة من حياته موظفًا لدى محمد بن المهلبى وزير معز الدولة، ثم عمل بعد ذلك أمين مكتبة لدى ابن العميد .

وقد قضى ابن مسكويه عمره فى التعلم والتعليم ، وفى التاسع من صفر عام ٢٤٠ توفى فى أصفهان ودفن فى "تخت فولاذ" . وترجع أهمية ابن مسكويه إلى الجانب الأخلاقى لديه ، وفى نظره فإن الوصول إلى الكمال عن طريق الخير واجتناب الشر والوصول إلى الخير والشر فطرى فى طبقتين فى الإنسان وبين هاتين الطبقتين لا توجد طبقة مفطورة على الخير أو الشر ، ويمكن فقط عن طريق التربية والتهذيب أن يصل الإنسان إلى الخير فى شأن الأفعال الإنسانية . ولكن بعبارة أخرى فإن الجانب الإنسانى يوجد فى الأفراد بدرجات مختلفة، وبناء على هذا فإن الاستمتاع بجميع أنواع الخير لا يمكن أن يتحقق دون الاستعانة بالأخيار ، ولهذا يجب تآلف الأفراد وأن تسود المحبة بينهم وأن يتجنبوا الاعتكاف والرهبانية . ويستنتج من كل هذا موضوع مهم فى أسلوب ابن مسكويه الأخلاقى وهو محبة أفراد المجتمع واستعانتهم ببعضهم ، فلو نفذت أحكام الشريعة بهذا الشكل فسوف تتحقق الغاية المذكورة[١] .

أعماله

١ - الطهارة فى علم الأخلاق (فى الحكمة والأخلاق) .

٢ - كتاب العقل الخالد فى الأخلاق .

٣ - فى جواب المسائل الثلاث .

(١) تاريخ العلوم العقلية فى الحضارة الإسلامية ، تأليف الدكتور صفا . (المؤلف)

٤ – الفوز الأصغر ، فى الفلسفة .

٥ – أحوال المتقدمين وصفات الأنبياء السالفين وأحوالهم .

٦ – تجارب الأمم ، فى التاريخ .

٧ – كتاب السعادة : فى شأن السعادة وطريقة الوصول إليها .

٨ – دفع الهم عند وقوع الموت : فى شأن التغلب على الموت .

٩ – الفوز الأكبر .

١٠– أنس الفريد : مجموعة من الأشعار والحكم والأمثال .

١١ – كتاب الجامع .

١٢ – كتاب السير فى الأخلاق .

١٣ – آداب العرب والفرس : فى ذكر الآراء الأخلاقية للعلماء الإيرانيين واليونانيين والهنود والعرب .

١٤ – كتاب السياسة .

١٥ – كتاب مختار الأشعار .

١٦ – كتاب مجموعة الخواطر .

١٧ – كتاب المستوفى : مختارات من الأشعار .

طريق الحصول على السعادة

... هكذا يوجهنا ابن مسكويه إلى طريق الحصول على السعادة فى كتاب تهذيب الأخلاق وكتاب (السعادات) أو كتاب ترتيب السعادات ، يرى أن كل إنسان له غاية فى الحياة يسعى إليها ويعتبر ذلك سعادة له ، فالبعض يتجه إلى اللذة والثروة والبعض الآخر يتجه مثلاً إلى طلب الصحة والجاه والعلم ، وسبب هذه الاختلافات أن الناس لا يسعون إلى السعادة القصوى وإلا لتركوا جميعًا كل اللذات المذكورة وبحثوا عن السعادة الحقيقية المنشودة ، والسعادة (العامة) موجودة فى الإنسان والحيوان ولكن هذا

النوع من السعادات ليس سعادة حقيقية لنا لأن هذا النوع من السعادة لا يندرج تحت الكمال الإنساني أو السمو الإنساني ، أما السعادة الخاصة بالإنسان فهي الحقيقة .

الخلاصة : إن هذا المعنى بالنسبة لجميع الأفراد له طابع العمومية أما السعادة الخاصة بالإنسان فهي أنواع ، النوع **الأول** : السعادة العامة للناس ، والنوع **الثاني** : السعادة الخاصة بالإنسان بالمعنى الحقيقي للكلمة، والنوع **الثالث** : سعادة خاصة الخواص ، وهي السعادة التي ينشدها الجميع وفي الحقيقة يمكن اعتبارها أسمى أنواع السعادة وأسمى درجات الكمال ، أما تلك السعادة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان من أكل وشرب والأنواع الأخرى للراحة من هذا القبيل فلا يمكن أن نعدها سعادة ؛ لأنها لا تحقق الكمال الإنساني والغاية المثلى ، والسعادة التي يشترك فيها جميع أنواع البشر وتتصف بالعمومية نتيجة لصدور أفعال وأفكار وما إلى ذلك هي السعادة التي تمثل القاسم المشترك بين أبناء آدم .

ومن الممكن لكل شخص أن ينهل منها بنصيب وهذا الأمر هبة من الله وفطرة ، واختلاف طبقات الناس نتيجة لمدى الاستفادة من هذا الاستعداد ، أما السعادة الخاصة بالإنسان وهي السعادة الحقيقية فيصل إليها كل ذي علم أو صنعة .

وبناء على الاختلاف بين الأفراد في العلوم والصناعات تختلف درجاتهم في هذا المقام ، ويتفاوت الأفراد في درجة سعادتهم وفي تصنيفهم وفقًا لما يحققونه من قدرة في المجالات السابقة (العلوم والصناعات) وعلى الرغم من أن وجوه السعادة عديدة ومختلفة فإن الشخص السعيد الحقيقي هو من تعلم جميع مذاهب الفلسفة وكل الصناعات ونهل من الحكمة ، وهو الشخص الذي بلغ السعادة القصوى وهو دائمًا سعيد وبشوش ومتحرر ومتفائل ولديه قلب هادئ ومستريح البال(١) ، ولا يعبأ بشئون الدنيا إلا قليلاً ، ويبدو أنه يرتبط مع الناس بعلاقات وصلة ولكن في الحقيقة فإن باطنه

(١) من الممكن أن يكون شخص ما قد حصَّل معظم العلوم وتعلم كثيراً من الفنون وأحاط بكثير من الصناعات ومع ذلك دائماً يكون في شقاء وتعاسة ولا يمكن أن يوصف بأنه سعيد - (المترجم) .

يجافي أولئك تماماً وهو فى الحقيقة مشغول بذاته وسعيد ولا يعنيه هذا أو ذاك وهذا الأمر حالة ملازمة له لا تتغير[١] .

إخوان الصفا وخلان الوفا

كان يعيش إخوان الصفا أو بعض علماء العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى وكانوا يمثلون عدداً من العلماء الإيرانيين والعرب ، وكان إخوان الصفا وفرقة الإسماعيلية يسعون إلى أن يؤسسوا مذهباً أحدث زلزالاً فى الدين الإسلامى بسبب نشر أفكارهم الفلسفية المختلفة وأن يغيروا من دين الإسلام ، وقد أسس المحفل السرى فى البصرة على يد إخوان الصفا ولما كان مؤلفو الرسائل طائفيين ثوريين فقد أخفوا أسماءهم خوفاً من ملاحقتهم ولكن التاريخ يذكر بعضاً من أسماء هؤلاء وهم كما يلى :

أبو سليمان محمد بن معشر البستى المعروف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى ، وأبو أحمد مهرجانى ، وعوفى وزيد بن رفاعة ، ومعصومى أبو العباس ، وأبو المأمون اسبها ، وكان كل فرد من أعضاء المحفل المذكور متبحراً فى علم أو فن ، وكانت هناك هيئة خاصة تشرف على الموضوعات فى كل علم وفن ثم تنشر هذه الموضوعات .

لم يخف كتاب إخوان الصفا أسماءهم خوفاً من تكفيرهم فحسب، بل إنهم راحوا يكتبون موضوعاتهم وأهدافهم على لسان الحيوان (مثل رسالة الحيوان والإنسان) .

وخلاصة القول فى شأن رسائل إخوان الصفا إن هذه الرسائل هى دائرة معارف فلسفية كتبت بإيجاز على غرار العلوم الطبيعية ، وكانت تحمل فى ثناياها أغراضاً سياسية .

ويمكن القول فى شأن فلسفة إخوان الصفا إنها كانت فى شأن علم النفس والإلهيات ، وكانت فلسفة إخوان الصفا تشبه إلى حد كبير معتقدات الفلاسفة

(١) نقلاً عن علوم عقلى تأليف ذبيح الله صفا .

الأفلاطونيين الجدد . وعلومهم الأخلاقية مزيج من الفضائل العربية والهندية والإيرانية ووضعت على أسس فلسفية يونانية ، وكان إخوان الصفا يعارضون الماديين .

ورفضوا المادية ولم يكونوا من حيث المثالية يصدرون عن مدرسة فلسفية واحدة ، بل لقد نهلوا المثالية من الفلسفة والمذاهب المختلفة .

والشيء المهم بالنسبة لهم هو شرح تفاصيل موضوعاتهم عن طريق التشبيهات والحكايات والأمثال .

وكانت هذه الجماعة تهتم من جانب بأسلوب مدرسة فيثاغورث والأفلاطونيين الجدد وقواعد الفلسفة الإشراقية ، ومن جانب آخر كانت تهتم بأصول عقائد الإيرانيين والهنود والعبرانيين ، وأيضًا بطريقة المعتزلة والإسماعيلية ومراعاة أسس النظريات الصوفية فى موضع اللزوم، خاصة فى المنطق والطبيعة والفلسفة المشائية ، وكانوا يوضحون معتقداتهم بالاستفادة من هذه المذاهب المختلفة .

(... وقد أخذت علوم إخوان الصفا من أربعة مصادر من الكتب الدينية والرياضية ، وقد لجأ هؤلاء القوم فى أخذ علومهم ومعارفهم إلى جميع الكتب الدينية ومن بينها التوراة والإنجيل والقرآن ، وأعمال العلماء الآخرين مثل هرمس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وآخرين ، لكنهم كانوا يفضلون سقراط وأفلاطون على أرسطو)[١] .

رسائل إخوان الصفا

وتشمل رسائل إخوان الصفا جميع مسائل العلوم المنطقية والرياضية والطبيعية والإلهية والحكمة العملية ، وإذا دققنا فى موضوعاتهم نرى أنها توضح أن كتاب هذه الرسائل كانوا يقومون بتدوين هذه الرسائل وذلك بعد التدقيق وإمعان النظر فى المسائل المذكورة .

(١) ذبيح الله صفا : علوم عقلى .

وفى كثير من الموضوعات كانوا يطبقون العقائد ومصطلحات الفلاسفة والقواعد الدينية ، فضلاً عن قيامهم بتأويل كثير من أفكار هذه الرسائل ، وقسمت هذه الرسائل إلى أربعة أقسام :

١ – الرسائل الرياضية التعليمية ، وتشمل ١٤ رسالة فى الموضوعات التالية : العدد وخواصه (الارثماطيقية) ، والهندسة (جومطريا) ، والنجوم (أسطرنوميا) ، والموسيقى ، والجغرافيا ، والنسب العددية ، والصناعات العلمية النظرية ، والصناعات العملية والحرفية ، وبيان اختلاف أخلاق ايساغوجى[1] قاطيغورياس[2] – بارى أرميناس[3] ، وتحليل القياس الأولى ، وتحليل القياس الثانى .

٢ – الرسائل الجسمانية الطبيعية : وتشمل ١٧ رسالة فى الهيولى وصورة السماء والعالم والكون والفساد ، والآثار العلوية ، وكيفية تكوين المعادن ، وماهية الطبيعة ، وأقسام النبات ، وأنواع الحيوان ، وتركيب الجسم ، والحاس والمحسوس ، والنطفة وكيفية تكون النفس بعد دخولها الرحم ، وفى معنى قول الحكماء أن الإنسان عالم صغير ، وكيفية نشر النفوس الجزئية فى الأجساد البشرية والأجسام الطبيعية ، وبيان طاقة الإنسان فى المعارف والمقصود الغائى من البحث فى معرفة وجود الواجب ، وماهية الموت والحياة ، وماهية اللذات والآلام الجسمانية والروحانية ، وأسباب اختلاف الألسنة .

٣ – والرسائل النفسانية العقلية ، وتشتمل على ١٠ رسائل فى : المبادئ العقلية بناء على رأى فيثاغورث ، والمبادئ العقلية بناء على رأى أحد إخوان الصفا وخلان الوفا ، وشرح قول الحكماء أن العالم إنسان كبير ، والعقل والمعقول ، والأكوار والأدوار ، وماهية العشق ، وماهية البعث والصور والنشور والقيامة والحساب وكيفية المعراج ، وكمية أنواع الحركات ، وكيفية الاختلاف ومبادئها وغاياتها ، والعلل والمعلول .

(١) المدخل . (المترجم)
(٢) المقولات . (المترجم)
(٣) العبارات . (المترجم)

٤ – الرسائل الناموسية الإلهية والشرعية الدينية ، وتشمل ١١ رسالة في : الآراء والمذاهب الدينية والفلسفية ، وكيفية الوصول إلى الله ، واعتقاد إخوان الصفا في بقاء الأرواح بعد انفصالها عن الأجساد ، وكيفية معاشرة إخوان الصفا مع بعضهم ، وماهية الإيمان وخصال المؤمنين الحق ، وماهية الناموس الإلهي والوضع الشرعي ، وكمية أنواع السياسات وكيفيتها ، وكيفية ترتيب العالم الذي اهتم به أكثر بوحدة العالم مثل جسم الإنسان والحيوان ، وماهية السحر والعزائم . وفي نهاية هذه الرسائل وردت رسالة تجمع كل المسائل المذكورة في الرسائل السابقة وفي مقدمتها رسالة في شرح موضوعات كل رسالة وتصنيفها والغرض من تأليفها . وبناء على هذا فقد وصل عدد كل هذه الرسائل إلى ٥٤ رسالة ، ومجموع الرسائل الأصلية للكتاب ٢٥ رسالة ، أما القفطي فقد ذكر أن عددها هو ٥١ رسالة[١] .

العلم والعلوم

ومن وجهة نظر إخوان الصفا فإن العلم عبارة عن صورة المعلوم في النفس العالمة . وهو مفهوم يخالف الجهل ، والنفس العالمة علامة بالقوة ولا يتأتى العلم إلا عن طريق التعليم والتعلم ، والتعليم والتعلم يعني الإتيان بالعلم من القوة إلى الفعل ، وبعبارة أخرى إن التعليم يعني أن تبصر النفس العلامة بالفعل النفس العلامة بالقوة ، والتعلم أن تتصور النفس صورة المعلوم ويحدث هذا من خلال ثلاث وسائل : الوسيلة الأولى عن طريق الحواس ، والثانية عن طريق البرهان ، والثالثة عن طريق الفكر والروية .

والعلوم في نظر إخوان الصفا هي : الصناعات العلمية للعلوم النظرية ، وفي هذا الشكل نأتي بالصورة التي تبدو فيها في هيئة هيولي مصنوع ، وهذه العلوم ثلاث شعب :
١ – علوم الرياضة ٢ – العلوم الشرعية الوضعية ٣ – العلوم الفلسفية الحقيقية .

والعلوم الرياضية هي العلوم بالآداب التي وضعت في الغالب لطلب العيش وإصلاح شئون الحياة ، وهي تسعة أقسام : الكتابة والقراءة ، وعلم اللغة والنحو ، وعلم الحساب

(١) ذبيح الله صفا : تاريخ علوم عقلي در تمدن اسلامي .

والمعاملات، وعلم الشعر والعروض، وعلم الزجر والفأل ، وعلم السر والعزائم والكيمياء ، والحرف والصناعات ، وعلم البيع والشراء والتجارة والزراعة ، وعلم السير والأخبار .

والعلوم الشرعية ، وقد وضعت لمعالجة الأرواح وطلب الآخرة وهى ستة أنواع : علوم التنزيل وعلم التأويل ، وعلم الروايات والأخبار ، وعلم الفقه والسنن والأحكام ، وعلم المواعظ والتذكير والزهد ، وتفسير الأحلام .

والعلوم الفلسفية وهى على أربعة أنواع : الرياضيات والإلهيات ، والرياضيات نفسها أربعة أنواع : الحساب والهندسة والنجوم والموسيقى، والمنطقيات تقسم إلى : قاطيقورياس (المعقولات) وبارى ارميناس (العبارات) ، انالوطيقا (تحليل القياس) ، ريطوريقا (الخطابة) ، طوبيقا (الجدل)، بوطيقا (فن الشعر)[1] وسوفسطيقا (المغالطة)، بالإضافة إلى (ايساغوجى) أى المدخل .

والعلوم الطبيعية وهى على سبعة أنواع :

١ – علم المبادئ الجسمانية ؛ أى معرفة الهيولى والصورة والزمان والمكان والحركة .

٢ – السماء والعالم؛ أى معرفة جواهر الأفلاك والكواكب وكمية دورانها وكيفية دورانها وتركيب دورانها وسبب دورانها .

٣ – علم الكون والفساد، أو معرفة ماهية الأركان الأربعة وكيفية استحالتها معًا .

٤ – علم حوادث الجو ؛ أى معرفة كيفية تغيرات الهواء .

٥ – علم المعادن؛ أى معرفة جوهر المعدن .

٦ – علم النبات ؛ أى معرفة كل نبت ينمو على الأرض والجبال والبحار والأنهار .

٧ – علم الحيوان .

وقد لجأ إخوان الصفا فى تفسير هذه العلوم المختلفة إلى شروح علمية ومنطقية مستخدمين لغة بسيطة، وقد يوضحون هذه العلوم بالتمثيل أو من خلال رسالة ، وتوضيح الموضوعات العلمية الغامضة بتقديم الحكايات التمثيلية التفصيلية ، وقد تأثروا

(١) كل هذه الكلمات (قاطيقورياس وبارى ارميناس وطوبيقا وبوطيقا) كلمات يونانية الأصل . (المترجم)

كثيراً فى هذا المجال بالكتب القصصية والروايات الخاصة مثل الكتب البهلوية المنقولة عن اللغة العربية[1] .

نظرية المعرفة

ومن وجهة نظر إخوان الصفا فإن تحصيل العلم يتخذ وسائل ثلاث :

الوسيلة **الأولى** : عن طريق الحواس الخمس ، وهذه الوسيلة ترتبط بالوسائل الأخرى جميعاً وتبدأ من بداية الطفولة ، وكل الأفراد يشتركون فى هذا الأمر مع الحيوانات .

الوسيلة **الثانية** : وهى العقل ، وهو يخص الإنسان فقط ، وتبدأ هذه المرحلة منذ الطفولة وحتى البلوغ .

الوسيلة **الثالثة** : أى البرهان ، ويخص طائفة العلماء ، وتبدأ هذه المرحلة بعد الاطلاع على الهندسة والمنطق[2] ، ويتصور إخوان الصفا - مثل الصوفية - أن الإشراق والوحى والإلهام موهبة تكون من نصيب عدد قليل من البشر ، ويعتقدون أنه للحصول على مثل هذه الجدارة ينبغى أن تطهر مرآة النفس من أدران الهوى والهوس ، وأن يتم جلاء الروح فى عالم روحانى .

وقد انتشرت تعاليم إخوان الصفا عن طريق مسلم بن أبى القاسم المجريطى الأندلسى فى أوروبا وأثرت تأثيراً كبيراً فى بعض المفكرين الأوروبيين .

أبو بكر الرازى

اشتهر أبو بكر محمد بن زكريا الرازى فى أوروبا باسم (Rhazes) وهو الفيلسوف والطبيب الإيرانى الكبير الذى فاق ابن سينا فى بعض الجوانب ، إلا أن شهرته كانت أقل بين العوام .

(١) نقلاً عن علوم عقلى : ذبيح الله صفا . (المؤلف)
(٢) نقلاً عن علوم عقلى : ذبيح الله صفا . (المؤلف)

وقد ولد زكريا الرازى عام ٢٥١ هـ فى "الرى" تلك المدينة الإيرانية القديمة التى كان يعيش فيها ذات يوم ٥٠٠ ألف نسمة وكانت تحتل أهمية كبرى مثل لندن وباريس .

حصَّل الرازى فى مدينة "الرى" الفلسفةَ والرياضيات والنجوم والأدب ، وقد فاق الجميع فى كل هذه العلوم[١] .

وقد وقعت حادثة صغيرة كانت باعثًا على أن الرازى اتجه إلى تحصيل علم الطب بل قضى عمره فيه ، أما تلك الحادثة فهى أن الرازى أصيب بمرض فى عينه نتيجة التجارب التى كان يجريها فى علم الكيمياء ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه الحادثة سببًا فى أن الرازى أوقف حياته على تحصيل علم الطب .

أعمال الرازى

تبقى من أعمال زكريا الرازى عدد محدود من الكتب ، وهى فى العلوم الطبيعية وما بعد الطبيعة والطب والفلسفة ، ومن بين الكتب والرسائل التى تركها الرازى :

سمع الكيان ، والهيولى الصغير والهيولى الكبير ، وفى الزمان والمكان ، واللذة فى العادة ، والمدخل إلى المنطق، وكتاب البرهان، وفى الفلسفة القديمة ، وكيفية الاستدلال، والعالم الإلهى على رأى سقراط ، والعالم الإلهى الكبير ، ورسالة فى نقد المعتزلة ، وقصيدة إلهية ، والحاصل النفسى الكبير ، وفى السيرة الفلسفية ، والطب الروحانى ، وإمارات الإقبال والدولة ، وفى النبوة ، وحيل المتنبين المعروف بمخاريف خوارق الأنبياء.

وعلاوة على الكتب السابقة فقد ترك كتبًا فى شكل ردود مختلفة على معارضيه ، وشرح شرحًا جامعًا حول أعمال أرسطو وأفلاطون ، وكتب أيضًا كتابًا فى المنطق وآخر فى فلسفة فيثاغورث .

(١) يكتب سليمان بن حسان أنه كان يعزف على آلة العود فى شبابه وكان يغنى وعندما تخطى مرحلة الشباب اتجه إلى الفلسفة والطب والكيمياء حتى أصبح رائداً فى هذه العلوم . (المؤلف)

ومن أعماله أيضًا كتاب مهم فى الطب هو "الحاوى" ، الذى يعد دائرة معارف طبية ، هذا فضلاً عن كتاب (منصورى) (والفضول) .

وقد ألف الرازى زهاء ٢٣٨ كتابًا ورسالة وللأسف فإن أغلبها فُقد ، واليوم يوجد ٣٠ مجلدًا من أعماله ومعظمها مكتوب باللغة العربية .

المنهج التجريبى لزكريا الرازى

كان الرازى يعمل وفقًا لقواعد تجريبية ، وكانت رؤيته مادية ، وقد نفر من الخرافات ولهذا السبب فقد انتقده بعض المتدينين (المزيفين) فقال الكعبى فى شأنه : أنت تدعى أنك كيميائى فى حين أنك لم تستطع أن تدفع عشرة دنانير مهر زوجتك فى محضر القاضى ، وتدعى أنك طبيب فى حين أنك لم تستطع أن تعالج عينيك وأصبحت أعمى ؟!

وعلاوة على الاكتشافات المهمة التى حققها الرازى فى الطب فقد اكتشف الكحل والكبريت ، وقد أعد أوانٍ خاصة لتجاربه الكيميائية[1] .

طريقة الرازى فى العلاج

كانت للرازى طريقة خاصة فى معالجة المرضى ، وقد أولى العلاج النفسى أهمية كبرى ، وكان يعامل المرضى بمودة وبشاشة ، ولم يكن يأخذ من الفقراء مالاً نظير (الكشف عليهم) وأحيانًا كان يعالج المرضى مجانًا .

وقد أوجد الرازى فى الطب لأول مرة فى العالم نظام الكُرسات التعليمية الدائمة ، وحث تلامذته على أن يعالجوا المرضى تحت إشراف رئيس المستشفى ، كما كان أول شخص يكتب التقارير حول كل مريض ، ووضع فى المستشفيات نظمًا خاصة أصبحت فيما بعد موضع تقليد الأوروبيين لها .

(١) اكتشف الرازى الكحل بتقطير المواد السكرية . (المترجم)

ومن أقواله المعروفة: (كلما كان الطبيب ماهراً والمريض مطيعًا شفى المريض بسرعة ، وفى بداية المرض يجب معالجة المريض بسرعة حتى لا يفقد قوته) .

ونتيجة للجدارة السابقة التى أبداها الرازى فى معالجة المرضى دعاه الخليفة العباسى إلى بغداد حتى يدير مستشفى بغداد . وقد قسم زكريا الرازى مستشفى بغداد إلى عدة أقسام، وقد عالج فى كل قسم من المستشفى نوعًا خاصاً من المرضى ، وفى حقيقة الأمر فقد أسس الرازى نمطًا من المستشفيات المعاصرة فمهد الطريق للعلاج على أسس علمية صحيحة .

معارضته للأديان

كان الرازى معارضًا لبعض الأديان ، وكان يعتبر بعض الأديان مزورين ودجالين وسببًا رئيسيًا فى بذر بذور التفرقة والاضطراب بين المجتمعات البشرية[١] وكان يعتقد أنه يجب الاستعانة بالفلسفة والاستدلال المنطقى لتخليص المجتمعات البشرية من الاضطراب والفتن[٢] .

يعارض زكريا الرازى ذلك الرأى الذى يقول إن العالم قديم وأبدى . وكان يعتقد فى خمسة أصول أبدية ، وهى عبارة عن : الخالق وروح العالم والمادة أو الهيولى الأول والزمان المطلق والمكان المطلق ، ويعتقد أبو ريحان البيرونى أن زكريا الرازى أخذ عقيدته فى الأصول الخمسة المذكورة من اليونان ، ولكن عدداً آخر يعتقد أنه اقتبس ذلك عن المعتقدات الفلسفية للإيرانيين . ويكتب المسعودى مثلاً فى هذا المضمار : كان المجوس يؤمنون بالقدماء الخمسة أى أهورا مزدا وأهريمن والزمان والمكان (والطينة) ، وقد ظهر أهريمن (إله الشر) لأن الله وقع فريسة الملل من الوحدة وسيطرت عليه الأوهام من الخوف فتجسمت هذه الأوهام وحلت محلها الظلمة ومن هنا ظهر أهريمن .

(١) ينتقد زكريا الرازى فى كتابيه (النبوات) والمعروف بـ (نقض الأديان) وكتاب (حيل المتنبين) والمعروف بـ (مخاريق الأنبياء) المذاهب الأخرى خاصة المانوية والديصانية . (المترجم)

(٢) هذا الرأى يحتاج إلى توثيق من المؤلف ومن ثم فإن الأخذ به أمر ليس سهلاً أو مقبولاً . (المترجم)

أصول عقائده

وأصول عقائد الرازى على حد قول (أبى حاتم) أن الله خلق جميع الناس متساوين ولم يفضل أحداً على الآخر ، ولو قلنا إن لإرشاد الناس يجب أن يكون هناك شخص منتخب فقد اقتضت حكمته البالغة أن يعرف الجميع بخيرهم وشرهم ، لكنه لم يفضل شخصًا على الآخر ولم يضع بينهم بذرة الاختلاف والنزاع ، كما أن اختيار إمام وزعيم لا يعنى أن تقوم كل فرقة بتكذيب الفرق الأخرى فينتشر البغض والكراهية بينهم فتظهر جماعات كبيرة على أساس خدعة وأكذوبة وأغلبها أساطير دينية والتى ظهرت بعد ذلك، كما أن مبادئ الأديان وقواعدها لا تتفق مع الحقائق ولهذا السبب يظهر بينها الاختلافات، وسبب اعتماد الناس على الأديان وطاعتهم للزعماء الدينيين هو العادة (؟!) والأديان والمذاهب السبب الرئيسى للحروب كما أنها تخالف الأفكار الفلسفية والتحقيقات العلمية والكتب التى تسمى كتبًا سماوية مقدسة تخلو من القيم والمبادئ !(١) .

وإن أعمال القدماء مثل أفلاطون وأرسطو وإقليدس وسقراط قد أدت للبشرية خدمة أجلّ مما قدمته الأديان ؟!

معارضة أرسطو

كان الرازى عمومًا عالمًا ماديا ويمكن أن نشبه أفكاره بأفكار أبيقور ، كما كان الرازى يعارض أرسطو أشد المعارضة ، فى حين أنه كان من أنصار أفلاطون ، وكان يفتخر بأن يتبع أستاذًا جليل القدر مثل أفلاطون .

روزبه الفارسى أو ابن المقفع

روزبه الفارسى بن دادويه وهو المعروف بعبد الله بن المقفع الذى كان أحد أبرز المترجمين والعلماء الإيرانيين المشاهير فى القرن الثانى الهجرى، وقد ولد فى فيروز أباد

(١) هذا الرأى يجافى الحقيقة وهو رأى مرسل ؛ فإن خلت الأديان من القيم فهل الفلسفات هى التى تحافظ على القيم والمبادئ ؟! (المترجم)

بفارس وتربى ابن المقفع فى البصرة مولى فى أسرة (آل هاشم) ، ونتيجة لاختلاطه بالعرب فقد أجاد اللغة العربية وبلغ فيها مرحلة الأستاذية ، وكان يعد من بين الفصحاء والكتاب العرب العشرة المشاهير فى عصره[1] .

وكان أبوه زرادشتيا ومن أصل إيرانى، وعلى الرغم من أن ابن المقفع كان مسلماً فى ظاهر الأمر إلا أنه عاش حتى نهاية حياته زرادشتيا[2] .

ولما كان ابن المقفع يجيد العربية الفصيحة عهد إليه الكتابة بها ، وكان لوقت متأخر كاتباً لدى أفراد مشاهير من أمثال مروان بن محمد آخر خليفة أموى ، وعيسى بن على .

وقد أغضب ابن المقفع المنصور وقتل بطريقة شنيعة على يد أحد عماله وهو سفيان والى البصرة[3] .

أخلاق ابن المقفع

كان ابن المقفع من حيث السجايا الأخلاقية نموذجًا للشرف والإنسانية والنجابة والهمة العالية والشجاعة ، وكان يعرف قدر الصداقة جيداً ، وقد أحسن تهذيب نفسه ، وكان يفرض عليها كل ما هو باعث على الشرف والعزة والنجابة والعظمة ، وكان يهتم كثيراً بالضعفاء من المواطنين ، وكان لا يتوانى عن تقديم النصح إلى الملاك والحكام ، وكان يتحلى بأسمى الخصال فى المعاملة وحسن الطبع والألفة ، وكان يحترم أدب الصداقة مع الطبقات الخاصة وتقوم علاقته معهم على أساس من المودة والبشاشة والصفاء ، وكان ذا ذوق وكفاءة واستعداد لكل شىء ..

(١) نقلاً عن علوم عقلى لذبيح الله صفا . (المؤلف)

(٢) كان ابن المقفع يجيد اللغة البهلوية أيضاً والقصة التالية تبين أنه لم يترك دين آبائه أو أجداده :
ذهب ابن المقفع إلى عيسى بن على وقال إن الإسلام قد استقر فى قلبى وأريد أن أسلم على يديك ، فقال له عيسى : إن إعلان إسلامك فى مجلس وجوه القوم يكون أفضل وأنسب ، ولما وضعوا العشاء على المائدة همهم ابن المقفع على مائدة الطعام على عادة المجوس ، فقال له عيسى : همهم بنية الإسلام ، فقال : أجل لا أريد أن أقضى ليلة بدون دين . (نقلاً عن هيثم بن عدى) . (المؤلف)

(٣) يقال إنهم أشعلوا فرنًا ومزقوا جسد ابن المقفع قطعًا وألقوا بتلك الأعضاء فى الفرن حتى أتت عليها النار تماماً . (المؤلف)

وكان عظيماً وسخيا ، وكان بيته مفتوحاً ومائدته دائماً منبسطة ، وكان طعامه يصل إلى كل فرد وكل من كان يحتاج شيئاً لم يكن يتوانى عن مساعدته ، وكان هناك ثروة من ماله وكان يديرها "داود بن عمر" وتستفيد منها جماعة من أهل البصرة والكوفة فكان يحصل الفرد منهم على ما يقرب من ٥٠٠ إلى ألفى درهم شهريا . وكان صديقاً لعبد الحميد الكاتب ، وذات يوم كانا جالسين فجاء عدد من الأشخاص وكانت مهمتهم قتل عبد الحميد الكاتب ، ولم ير هؤلاء الأشخاص عبد الحميد من قبل أو يعرفوه فسألوهما أيكما عبد الحميد ؟! فقال ابن المقفع أنا عبد الحميد ، فخشى عبد الحميد أن يأخذوا ابن المقفع بدلاً منه ، فقال : لا تتعجلوا وليبق عدد منكم لدينا ويذهب بعضكم فيسأل عن أوصافى لكيلا تقتلوا صديقى بدلاً منى ، وبالفعل نفذوا ما قاله لهم عبد الحميد .

ويقول الجاحظ : إنه كان كريما وسخيا وشجاعاً وفارساً ووسيماً وبشوشاً[١] .

ويقول الأصمعي: سئل ابن المقفع ممن تعلمت الأدب ؟ قال ابن المقفع: من نفسى، أخذت خير الرجال وتركت شرهم . وعلاوة على الأخلاق الطيبة ... كان ذا اطلاع عميق ويتكلم اللغتين: العربية والفارسية، وقال جعفر بن يحيى فيه : إن عبد الحميد الكاتب هو الجذر، وسهل بن هارون الغصن والورق، وأحمد بن يوسف البرعم، وابن المقفع الثمرة .

أعماله

١ - الأدب الصغير .   ٢ - الأدب الكبير .

٣ - رسالة الصحابة .   ٤ - كليلة ودمنة[٢] .

الأدب الصغير فى تهذيب الأخلاق ، وقد كتب فى هيئة كلمات قصيرة ولا ترتبط معانيه بعضها ببعض .

أما الأدب الكبير فإنه يشتمل على موضوعات فلسفية ويختلف عن الأدب الصغير وأكثر تنظيماً وترتيباً منه .

(١) عباس خليلى : برتو اسلام . (المؤلف)

(٢) كتاب كليلة ودمنة من ترجمة ابن المقفع وليس من تأليفه . (المترجم)

ويتحدث ابن المقفع فى كتاب الأدب الكبير عن الصديق والصداقة ، ويعتبر أن الصداقة أعظم وأهم رأسمال الحياة وقد ذكر شروطها .

وقد ترجم ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة عن البهلوية من كتاب هندى (Panchatantra) . أراد ابن المقفع بترجمة هذا الكتاب أن يتخذ منه وسيلة لنقد مساوئ الحكام واضطراب الأوضاع فى عصره والبيئة الفاسدة آنذاك ، كما بين على لسان الحيوان من خلال ترجمة هذا الكتاب كل ما لا يمكن التحدث عنه بنفسه ، وعلاوة على الكتب السابقة فقد ترجم من البهلوية الكتب الآتية :

١ – كتاب التاج : فى سيرة أنوشيروان .

٢ – كتاب خداى نامه : فى شأن الأحداث التاريخية لإيران .

٣ – كتاب مزدك : فى شأن تعاليم مزدك .

وعلاوة على هذا يعد ابن المقفع أول شخص ترجم فن المنطق إلى اللغة العربية وعرَّف المسلمين بالمسائل البرهانية . ولابن المقفع إسهامات فى علم الكلام كما كتب ردًا على المعتزلة فى هذا المضمار .

وكل من يطلع على مؤلفات ابن المقفع يدرك تمامًا أنه شخص مهذب ومطلع على الأدب والعلم ، وقرن تهذيب الفارسية بالأدب العربى ، وهو بالنسبة لأمته رجل متعصب وذو إحساس نقى إذ إنه نقل وترجم ونشر الآداب والمؤلفات التاريخية والسياسية المرتبطة بإيران فى أفضل صورة ، وشرح المساوئ الاجتماعية لعصره ونقل كل ما اعتبره مفيدًا فى السياسة أو نافعًا للمجتمع من آثار إيران ، وكان يطبق كل ذلك على أحوال الشعب فى ذلك الوقت كما أسهم فى إصلاح الأوضاع[1] .

وغنى عن القول إن ابن المقفع والمسمى (حنين) والذى كان مثل والده رجلاً فاضلاً قد ترجم إلى العربية أحد الكتب المعروفة لأرسطو وهو (Nichomacean Ethics) .

(١) عباس خليلى : برتو اسلام . (المؤلف)

أبو علي بن سينا[1]

ولد ابن سينا فى الثالث من صفر عام ٣٧٠هـ . فى "أفشنة" وهى من قرى بخارى ، وألَّف زهاء ٥٠٠ مجلد ورسالة .

وقد تمتع ابن سينا منذ طفولته بذكاء حاد ، حتى إنه بدأ فى تعلم الرياضيات لدى أحد البقالين وتعلم الفقه على يد إسماعيل زاهد .

وبعد ذلك تعلم ابن سينا المنطق والهندسة والنجوم على يد أبى عبد الله ناتلى ، وتعرف بسهولة على مسائل إقليدس والمجسطى ، كما تعلم أيضًا الطبيعيات وعلوم ما وراء الطبيعة ، وفى ذلك الوقت تعلم علم الطب لدى أبى منصور حسن بن نوح وفى فترة وجيزة تعلم العلم المذكور جيداً حتى إنه فى سن ١٧ عالج مرض نوح بن منصور السامانى ، وأصبح من المقربين لدى الملك السامانى .

ونتيجة لمشاهدة ابن سينا فقد أذن له الملك السامانى بأن ينهل من مكتبة السلطنة ، وقد حظى ابن سينا بحافظة قوية جدا ووعى غير عادى ، وقد قرأ ابن سينا فى فترة وجيزة عدداً كبيراً من كتب المكتبة وبدأ فى سن ٢١ فى تأليف كتبه .

ومع أن ابن سينا كان ذكيًا إلى أقصى حد إلا أنه عانى كثيراً فى تحصيل العلم ، وكان يقضى أغلب أوقاته ليلاً فى قراءة الكتب حتى يغلبه النعاس ، مع أنه كان يستعين بالخمر حتى لا ينام ليستمر فى الكتابة والاطلاع .

ومع ذلك كان يستجيب للنوم ، وفى بعض الأحيان كان يحل فى أثناء النوم بعض القضايا المستعصية ؟! وقد عانى ابن سينا فى الاطلاع على بعض الكتب ومنها كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو ، وعلى حد قوله فقد قرأ الكتاب المذكور عشرين مرة ولم يفهم شيئًا مهما منه ، وكان ابن سينا يقرأ الكتاب بسرعة فائقة كما كان يكتب أيضًا بسرعة فائقة إذ إنه كان يتمتع بقوة حافظة ، وكان يكتب أغلب كتبه بدون أن يرجع إلى كتاب (على اعتبار أن الكتاب حاضر فى ذهنه) وكان ابن سينا يكتب بسرعة شديدة حتى أنه أتم كتابة ١٨ مجلداً من كتاب الشفاء فى غضون ٢٠ شهراً .

(١) الاسم الكامل لابن سينا : حسين بن عبد الله بن على بن سينا والملقب بحجة الحق وشرف الملك وإمام الحكماء والمعروف بالشيخ الرئيس أبو على بن سينا .

والعجيب فى أمر ابن سينا أنه لم يكن يكلُّ أبداً من العمل ، إذ إنه كان يقوم بالعمل نهاراً فى الديوان وكان يكتب مؤلفاته ليلاً .

وعندما توفى لم يكن قد تجاوز ٥٣ عاماً أى فى سن نابليون تقريباً ، وكلاهما فى مدة حياته القصيرة كان مثالاً رائعاً للنبوغ والحيوية قلما وجد له نظير .

والموضوع المدهش أن ابن سينا كان أستاذاً فى كل علم يتعلمه فى فترة قصيرة حتى إن أبا عبيدة الجرجاني يروى : ذات يوم كان الشيخ ابن سينا يجلس أمام أمير وكان أبو منصور حبابى موجوداً ، وكان هناك مسألة فى اللغة فقال الشيخ ما كان يعرفه .

فنظر أبو منصور نحوه وقال : أنت فيلسوف وحكيم لكنك لم تقرأ شيئاً فى اللغة حتى تحسن الحديث ؟ فاستاء ابن سينا من هذا الكلام ، فقضى ثلاثة أعوام فى قراءة كتب اللغة وطلب كتاب تهذيب اللغة لأبى منصور على سبيل الهدية . وقد بلغ ابن سينا فى اللغة درجة قلما بلغها أحد ، ونظم ثلاث قصائد وأدخل بها ألفاظاً غريبة ثم ألف ثلاثة كتب أحدها على غرار أسلوب عبد الحميد والثانى على غرار أسلوب صابى والأخير على غرار أسلوب صاحب ثم أمر حتى يجلدوا الكتب بجلد قديم ، وبعد ذلك اتفق مع الأمير ثم أخرج هذه المجلدات لأبى منصور وقال : لقد وجدت هذه المجلدات فى الصحراء فى أثناء الصيد فلتنظر فيها وتخبرنى بما جاء فيها، ثم نظر فيها أبو منصور فوجد فيها صعوبة بالغة ، فقال له ابن سينا ما لا تعرفه من هذا الكتاب قد ذكر فى كتب اللغة فى المكان كذا ... وذكر له العديد من الكتب اللغوية الشهيرة والتى كان الشيخ ابن سينا قد حفظها منها ، وكان يعلم أبو منصور المبهم من اللغة وكان متشككاً فى حديث ابن سينا ، وقد أدرك أبو منصور أن هذه الرسائل قد كتبها شخص ما واليوم أتى له بها لغرض فى نفسه وقد خجل أبو منصور واستاء. وبعد ذلك ألف الشيخ أبو على بن سينا كتاباً فى اللغة وأطلق عليه اسم (لسان العرب) ولم يجمع مثله فى اللغة ، وللأسف لم يبيض ذلك الكتاب ، إذ توفى ابن سينا وبقيت مسودة الكتاب لم يلتفت إليها أحد[1] . ويكتب ابن سينا فى شأن سيرته ما يلى :

كان أبى من أهل بلخ وذهب إلى بخارى فى سلطنة نوح بن منصور ، والتحق بالديوان وتولى أمر قصبة "خرمتين" التى كانت قريبة من بخارى ومركزاً للقرى .

(١) سعيد نفيس : پورسينا . (المؤلف)

وتزوج والدتى التى كانت من أهل "أفشنة" إحدى القرى المجاورة ثم أنجبتنى أولاً وبعد فترة أنجبت شقيقى ، وبمجرد مرور عدة سنوات علينا انتقل والدى إلى بخارى واختار لنا رجلاً ليقوم على تعليمنا ، فتعلمت القرآن والصرف والنحو ، وكنت قد تقدمت فى سن العاشرة فى التعليم بدرجة كبيرة حتى إننى أدهشت الجميع ، وفى تلك الأثناء كنت قد سمعت بعض الموضوعات المرتبطة بالمذهب الإسماعيلى من نقاش حدث بين أبى وأخى وقد ترددت ضمن هذا النقاش كلمات العقل والنفس وموضوعات أخرى تتصل بالفلسفة والحساب والهندسة ترتبط بالمذهب الإسماعيلى إلا أننى لم أقبلها ، وكلما دعانى والدى لهذه الأحاديث لم تلق دعوته لدى القبول .

وفى هذا الوقت أرسلنى والدى إلى "سنبزى فروش" لكى أتعلم الحساب والهندسة، وبعد أن انتهيت من تعلم الحساب كان عبد الله ناتلى الشهير بمعرفته للفلسفة قد وصل إلى بخارى فأنزله والدى فى بيتنا أملاً فى أن يعلمنى شيئًا من العلم ، وكنت قبل ذلك قد تعلمت قدراً من الفقه على يد إسماعيل زاهد .

وكنت قد تعلمت أصول المباحثة والاعتراض والاستدلال والتعمق فى المسائل ، ودرست على يد ناتلى كتاب ايساغوجى (الكليات الخمس) كما تعلمت جيداً (المقصود من تعريف ماهية الأشياء الكلية) كأن نقول إن الإنسان ناطق ، وقد أثارت إجادتى لهذه العلوم دهشة ناتلى أستاذى فقال لأبى : إن ابنك لديه استعداد هائل للعلم أكثر من أى شيء آخر ، ومخافة أن يمنعنى عن مواصلة الدراسة تعلمت المبادئ الأولية للمنطق لفترة من الوقت فى حين أنه لم يكن مطلعًا اطلاعًا دقيقًا على هذا العلم ، وتقريبًا قرأت لديه الأشكال الستة لهندسة إقليدس وبعد ذلك واصلت الاطلاع فأتممت بقية الكتاب دراسة وحلاً لقضاياه ، وحينئذ شرعت فى قراءة كتاب مبسط (فى الفلك) والنبذة التى قرأها فى المقدمة أظهرت لى أن الأستاذ لا يعلم موضوعًا واحداً فى هذا العلم وقال لى : اطلع أنت بنفسك واعرض على النتيجة حتى أبين لك مواضع الخطأ ، وكان فى ذلك الإخلاص لعدم إحراج أستاذى والذى كنت ألمحت به[1] .

(١) هذه المقالة جزء من مقالة أبى على بن سينا بقلم السيد درجاهى كرمانى نقلا عن مجلة (آينده) أو المستقبل .

وسافر ناتلى من بخارى إلى "كركانج" وكنت قد قمت بالاطلاع بنفسى على كتب الطبيعيات والإلهيات من قبيل الفصوص وغير ذلك ، وكانت أبواب خزائن الفلسفة قد فتحت على مصاريعها أمامى ، ودرست أيضًا علم الطب ولأن علم الطب بالنسبة لى كان سهلاً أصبحت فى أقل فترة زمنية طبيبًا ماهرًا فيه وأصبح كبار الأطباء يتوسمون فىَّ خيرًا كتلميذ لهم ، علاوة على أننى قمت أيضًا بالعلاج .

وتوصلت إلى اكتشافات عديدة بالتجربة واستنبطت قواعد جديدة ، ومع هذا الاطلاع والدرس لم أغفل دراسة الفقه والمناقشة حوله وكنت آنذاك فى السادسة عشرة من عمرى ومنذ ذلك التاريخ فصاعدًا وفى غضون سنة ونصف كنت قد اطلعت على جميع مباحث علوم الفلسفة ، وطيلة هذه الفترة كنت أستيقظ فى أثناء الليل كثيرًا وأنا أفكر وأتدبر ، فإذا أعيانى الاجتهاد فى حل القضايا اتجهت إلى الله تضرعًا وأصلى للخالق وأتوسل إليه حتى يضىء النور الربانى كل مظلم لدى وأن يفتح أمامى كل مغلق ومبهم ليسهل علىَّ .

وكنت فى كل وقت أرى نفسى مجهدًا أشرب مشروبًا مقويا وأعود ثانية للاطلاع ، وكنت أهتم بكشف المسائل وحلها . ولو افترضنا أننى ذهبت إلى النوم وكانت هناك ثمة مشكلة كنت أراها فى النوم، وما أكثر المشكلات التى حلت وأنا فى حالة النوم . وتقدمت كثيرًا فى العلوم الرياضية والطبيعية والمنطق إلى حد أننى لا أعلم شيئًا فى علم أكثر منه ، وفى ذلك الوقت شغلت بالاطلاع والبحث فى العلوم الإلهية ، فاطلعت على كتاب ما بعد الطبيعة فبدأ الكتاب صعبًا فى نظرى وبعد أن قرأته ٤٠ مرة وظلت موضوعاته مستغقلة على وأوشكت على أن أيأس تمامًا منه ، وذات يوم كنت أمر فى سوق باعة الكتب فعرض بائع الكتب على كتابًا فى هذا الفن فرفضت وقلت فى نفسى : لا فائدة من وراء هذا العلم الذى لا يفهم ، وفى النهاية ومع إصرار بائع الكتاب وتخفيض قيمته اشتريته بثلاثة دراهم وعندما رجعت اتضح أن الكتاب من تأليف أبى نصر الفارابى تحت اسم (فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة) وشغلت بالاطلاع عليه .

وفى فترة وجيزة قرأته كاملاً وحلت جميع مشكلاتى السابقة وسررت بهذه النتيجة القيمة ؛ حتى إننى تصدقت على الفقراء ببعض المال ، وفى تلك الأثناء كان نوح بن منصور الملك السامانى قد مرض وعجز الأطباء عن معالجته وأصبح مرضه مزمنًا ،

ولما كان الكثيرون يعرفون تفوقى وبراعتى ومهارتى فقد طرح اسمى لدى نوح بن منصور ، فتم استدعائى ، وعندما اشتركت فى العلاج والاستشارة تحسنت حالته وفى هذا الوقت أصبحت محترماً لدى الأمير ، وذات يوم طلبت أن يسمح لى بدخول مكتبته فقبل طلبى، واطلعت على كتبها وخاصة كتب الفقه والحديث والشعر واللغة والفلسفة وغير ذلك، واطلعت على هذه الكتب فى حجرة خاصة وقرأت الكتب المتنوعة التى كنت قد رأيتها هناك واطلعت على كثير من الكتب التى لم أكن قد سمعت عنها ، ونتيجة للاطلاع والمراجعة استفدت استفادة علمية كبيرة وعرفت مكانة المؤلفين من خلال أعمالهم .

وعندما بلغت الثامنة عشرة من عمرى كنت قد انتهيت من الاطلاع على معظم العلوم إلى الحد الذى يمكن أن أقول إننى أصبحت أكثراً اطلاعاً ونضجاً من ذى قبل ، وفى ذلك الوقت ووفقًا لطلب أبى الحسين العروضى جارى ألفت كتابًا فى العلوم باسم "المجموع" ودونت فيه جميع مباحث الفلسفة باستثناء الرياضيات .

وكان لى جار آخر من أهل خوارزم ويقيم فى بخارى وكان متبحراً فى الفقه والتفسير والعلوم الدينية وزاهداً حيث يميل إلى العلوم والعلوم العقلية واسمه (أبو بكر البرقى) وطلب منى أن أشرح له مدلول الكتب ، ولاشك فى أننى كتبت له كتاباً يسمى "الحاصل والمحصول" فى ٢٠ مجلداً . كما ألفت كتابًا آخر فى الأخلاق هو "البر والإثم" ولا يوجد هذان الكتابان إلا عنده فقط ، ولم يسبقه أحد فى الحصول على نسخة . وتوفى والدى ، والتحقت بالعمل فى الحكومة اقتضاء للحاجة آنذاك ولكن سرعان ما حدث أمر اضطرنى إلى مغادرة بخارى وذهبت إلى كركانج عاصمة خوارزم .

وكان أبو الحسين سهيلى وزير خوارزمشاه محبا للفلسفة وللعلم راعيًا ، واستقبلنى على بن المأمون خوارزمشاه استقبالاً عظيماً وكنت أرتدى فى ذلك الوقت ملابس الفقهاء وكذلك الجبة ، وحدد لى راتبًا شهريا يكفل معاشى ، وبعد فترة اضطررت إلى التوجه إلى نسا ومن هناك إلى طوس ومن طوس إلى سمنجان ومن سمنجان إلى جاجرم ومنها توجهت إلى جرجان وكان الغرض الأساسى من ذهابى إلى جرجان هو مقابلة الملك كاوس شمس المعالى ، إلا أن جنوده فى تلك الأثناء قد ثاروا عليه وحبسوه فى قلعة حتى توفى بها .

وبناء على هذا توجهت إلى دهستان وقد أصابنى مرض شديد ؛ فعدت ثانية إلى جرجان وأقمت لدى أبى عبيدة الجرجانى ، وفى تلك الأثناء نظمت قصيدة أشرح فيها حالى وكان هذا شعرها :

(لما عظمت فليس مِصر واسعى لما غلا ثمنى عدمت المشترى

وكبرت حتى إننى ضقت ذرعًا بالحياة وظللت بلا مشتر حتى نهاية حياتى).

وقد عمل الشيخ الرئيس ابن سينا على النحو التالى: فى بلاطات جرجان والرى وهمدان وأصفهان ، وقد عانى ابن سينا كثيرًا على يد الأمراء المستبدين الذين عمل لديهم ، كما تعرض للنفى عدة مرات ، وفى النهاية ونتيجة للعمل الزائد والإفراط فى شرب الخمر توفى فى عام ١٠٢٧م . عن عمر يناهز الثالثة والخمسين .

حديث ابن سينا مع أبى سعيد بن أبى الخير

قيل إن الفيلسوف العالم الشيخ الرئيس فى بداية حياته لم يكن قد بلغ درجة الكمال وعندما دخل أبو سعيد بن أبى الخير المجلس وكان ابن سينا مطلعًا على لغة ذلك العارف فقد عاف عنه وقال ابن سينا هذه الرباعية :

(لقد عفونا عنك وتبرأنا من معصيتك وطاعتك

وما تؤمن أنت به لا يعنينا سواء فعلته أم لم تفعله) .

وارتجل أبو سعيد فى الرد على الرباعية السابقة هذه الرباعية :

(كم من الخير فاتك واقترفت الشرور وحينئذ تمنيت

فلا تعتمد على العفو فإنه لن ينفع أبدًا سواء فعلته أم لم تفعله)[1].

(١) نقلاً عن لغت نامه : دهخدا .

نماذج من الأشعار الفارسية والعربية والتركية لابن سينا

(فتحت عينى على باب حجرة نوم دنياى المضطربة بغية الرؤية

فرأيت أنه لا يوجد فيها أحد يقظ فذهبت إلى النوم من الوحدة) .

(على الرغم من أن قلبى تعجل السير فى هذه البادية لكنه لا يعرف قدر شعرة واحدة

بل إن هذه الشعرة تمزقت فى القلب فأشرقت ألف شمس وفى النهاية لم يعرف مقدار ذرة واحدة) .

(كن حماراً مع هؤلاء الجهلاء الذين يعتبرون أنفسهم علماء العالم من الجهل إذ إن هذه الجماعة من فرط جهلها تعتبر أن كل من ليس حماراً كافر) .

(زمن السِّفلة ودهر الأخساء المشعوذين وفلك ساحر

وإن لم يكن سافلاً فلماذا منح مقام سليمان وجاهه إلى شيطان خسيس !

وإن لم يكن ساحراً فلماذا فى كل لحظة يأتى بألف عمل يخالف الآخر ؟

وإن لم يكن هذا الزمن شيخًا أبله فلماذا جعل راعى الجمال مالكًا لها ؟!

فلو أن عدواً أساء إليك فهذا بسبب كمالك ولا يوجد عدو للطاووس سوى ريشه الجميل

جلب الكمال وعزة النفس البلاء وينثنى غصن الشجرة من فرط الثمر

على الرغم من أن النجوم كثيرة العدد فى الفلك إلا إن الكسوف والخسوف خاصان بالشمس والقمر) .

ومن أشعاره العربية

أما أصبحت عن ليل التصابى وقد أصبحت عن ليل الشباب
تنفس فى عذارك شبح شيب وعسعس ليلة حكم التصابى
شبابك كان شيطانًا مريدا فرجم من مشيك بالشهاب
وأشهب من بزاة الدهر خَوّى على فورى فالماء بالغراب
عفا رسم الشباب ورسم دار لهم عهدى بها رخنى رباب
فذاك أبيض من قطرات دمعى وذاك أخضر من قطر السحاب
فذا ينعى إليك النفس نعيًا وذالكم نشور للروابى
كذا دنياك تراب لانصداع مغالطة وتبنى للخراب
ويعلق مشمئز النفس عنها بإشراك تعوق عن اضطراب
فلولاها لعجلت انسلاخى عن الدنيا وإن كانت أهابى
عرفت عقوقها فسلوت عنها فلما عفتها اعرف تهابى
بليت بعالم يعلو أذاه سوى صبرى ويسفل عن عتابى
وسبل للصواب خلاط قومٍ وكم كان الصواب سوى الصواب
أخالطهم ونفسى فى مكان من العلياء عنهم فى حجاب
ولست سجنًا يلطخه خلاط متى أغبرت أنات عن تراب
إذا ما خالت الأبصار نالتْ خيالاً واشمأزت عن الباب

فلسفة ابن سينا

يقول "مونك" العالم المعروف : إن فلسفة ابن سينا تقوم على الحكمة المشائية ، ويبدو عليها جدية الأسلوب ، وكان أبو على بن سينا يسعى أن يقنن الشعب المختلفة للعلوم الفلسفية فى قواعد ثابتة .

وهو يشير إلى العلاقات الضرورية التى تربط بينها ، وقد قسم ابن سينا فى كتاب "الشفاء" العلوم إلى ثلاثة أقسام :

١ – العلم الأعلى (ما بعد الطبيعة) .

٢ – العلم الأوسط (الرياضيات) .

٣ – العلم الأدنى (الطبيعيات) .

وقد اتبع منهج أرسطو فى هذا التقسيم ، لكنه يختلف عن أرسطو فى صراحة البيان ووضوح الأداء فى حين أن حديث أرسطو فى هذه المباحث كان غامضًا ومبهمًا .

ومع ذلك أراد ابن سينا أن يوفق بين أصول الفلسفة والمتكلمين المسلمين ، وكان يقول بقدم العالم شأن الفلاسفة، وهو يرى أن الإله يعلم الأمور الكلية ، وينسب إلى النفوس الفلكية علم الأمور الجزئية . ولمسألة الروح عند ابن سينا مكانة خاصة ويقول بأن الأرواح البشرية باقية ، ويرى أن بين الروح الإنسانية والعقل الأول اتصال طبيعى دون أن يحتاج إلى العقل المكتسب ، ومع هذا يمكن القول إن ابن سينا لم يوفق بين جمع العقائد الفلسفية الخاصة به والأصول الإسلامية ، ومن هنا كتب الغزالى كتاب "تهافت الفلاسفة" فى الرد عليه[١] .

ويكتب السيد بروخيم : إن ابن سينا قسم العقائد الكبرى إلى قسمين وجعلهما متمايزين ، القسم الأول ويشمل الفلسفة النظرية والتى تهدف إلى منظور واحد ومقصدها الحقيقة ، وبعد ذلك الفلسفة العملية والتى غايتها هى الخير .

وتشتمل الفلسفة النظرية على ثلاثة علوم :

(أ) العلوم السفلى ، وتشمل الفيزياء .

(ب) العلوم المتوسطة ، وتشمل الرياضة .

(ج) العلوم العليا ، وتشمل الحكمة الإلهية .

وتشتمل الفلسفة العملية على ثلاثة أقسام :

(أ) الأخلاق ، والتى تبحث فى ماذا يجب على الإنسان أن يكون .

(١) المعروف أن الغزالى كتب تهافت الفلاسفة ردًا على ابن رشد فرد عليه الأخير بكتاب تهافت التهافت . (المترجم)

(ب) الاقتصاد ، ويبحث فى وظائف البيت .

(ج) السياسة ، ويبحث فى مؤسسة المدينة والدولة .

وكل قسم من الأقسام الثلاثة من علم الفلسفة النظرية إلى العلوم الخالصة الأولى والعلوم العملية أو الثانية تقسم الفيزياء الخالصة (غير العملية) والفيزياء التى تبحث فى الموجودات كلها ، والفيزياء العملية والتجريبية وتشمل الطب والنجوم وتفسير الرؤيا وعلم الكيمياء والطلاسم .

والرياضيات البحتة (غير العملية) ، وتشمل الحساب والهندسة والنجوم والموسيقى.

والرياضيات العملية والتجريبية وتشمل موضوعات الجبر وحساب الأعشار والهندسة وقياس الفضاءات والأحمال ووزن الموازين والمرايا ومقادير الماء وجداول الكواكب وغير ذلك .

والحكمة الإلهية الخالصة ، وتشمل علم المفاهيم الذهنية ، فى حين أن حكمة معرفة الله العملية تشكل علم الإلهيات والكشف والمتعة والمعاناة فى الدار الآخرة .

وفى علم النفس فإن ابن سينا يتناول نفس نظرية العقل للفارابى ، ومن وجهة نظره :

(إن العقل - أو النفس العاقلة - يقسم إلى العقل العملى والعقل النظرى ، والعقل العملى هو فى الحقيقة القوة المحركة التى تتيح لنا قدرة الأعمال ، فى حين أن العقل النظرى هو نفس العقل الخالص والذهنى) .

ويقسم العقل النظرى إلى ثلاثة أقسام :

(أ) العقل المادى : ويعنى الإمكانية المطلقة للمعرفة .

(ب) العقل الممكن : ويعنى بالنسبة للأول عقل بالفعل والذى اكتسب هو نفسه الحقائق اللازمة للأول .

(ج) العقل المأخوذ : وهو نفس العقل بالفعل لدى الفارابى .

والعقل الفعال لدى الفارابى وابن سينا واحد إلا أن ابن سينا أضاف شكلاً آخر إليه وهو أن هذا الشكل يشاهد لدى بعض الأشخاص الصادقين وهو روح القدس الذى يتتبع حقائق الأشياء وينبع من فيض الإشراق .

وفى الميتافيزيقيا[1] فإن ابن سينا يقول بنظرية التدارك التدريجى للموجودات وهى عبارة عن : (ما فوق الجميع فوق الجميع ، وهو الموجود اللازم الحتمى وهو أصل الأصول) .

ما يخرج منه لأول وهلة عالم الأفكار والنظريات وهو العقل الكل والخالص الذى سيكون العقل الكامل الأبدى طيلة الحياة ، وبعد ذلك يهبط عالم الأرواح أو دنيا النفوس ، وجوهر هذه الأرواح جوهر عقلانى وهو لا يصدر تمامًا عن المادة ويظهر فى العالم المادى والجسمانى ويشتمل على قوى مبهمة وممتزجة وهذه كلها مادية[٢] .

أعمال ابن سينا

أولاً : الأعمال الفلسفية

١ - الإشارات والتنبيهات فى علم المنطق (وتشتمل على عشرة أساليب) ، والعلم الطبيعى والإلهى (يشتمل على عشرة أنماط) ، وقد كتب ابن سينا هذا الكتاب فى أواخر حياته وهو من أعماله المهمة .

٢ - كتاب الشفاء ، فى الفلسفة .

٣ - كتاب الإنصاف ، فى عشرين مجلداً ، وقد شرح فى هذا الكتاب فلسفة أرسطو، وهو يبحث فى فلسفة الشرق والغرب .

٤ - كتاب النجاة فى المنطق ، وهو علم طبيعى وإلهى وهذا الكتاب فى الحقيقة خلاصة كتاب (الشفاء) .

٥ - كتاب الحكمة العروضية ، وهو أول كتاب فلسفى ألفه ابن سينا فى بخارى وهو فى سن الحادية والعشرين من عمره .

(١) الميتافيزيقيا : ما وراء الطبيعة . (المترجم)
(٢) نقلاً عن تحولات فكرى در ايران تأليف بروخيم .

٦ - دانش نامه علائى أو "الحكمة العلائية" ، وقد كتب هذا الكتاب حتى يطلع عليه علاء الدولة كاكويه شخصياً .

٧ - الحكمة المشرقية أو الفلسفة المشرقية ، ويشتمل هذا الكتاب على أفكار ابن سينا الفلسفية بصورة أساسية .

٨ - عيون الحكمة، ويشتمل على المنطق والطبيعيات والإلهيات .

٩ - كتاب الهداية ويشتمل على المنطق والطبيعيات والإلهيات .

١٠- كتاب الأجوبة على ست عشرة مسألة لأبى الريحان البيرونى، ويتعلق بالمسائل المختلفة فى العقل .

١١- أجوبة عشر مسائل أو الأجوبة عن المسائل العشر فى الحكمة .

١٢- كتاب فى الحدود .

١٣- كتاب المباحثات .

١٤- أقسام الحكمة ، فى أقسام العلوم الحكمية .

١٥- أقوال الشيخ فى الحكمة ، رسالة فى تعريف الحكمة وأقوال الحكماء .

١٦- دراسات أبى الحسن بهينمار بن مرزبان تلميذ ابن سينا .

١٧- التعليقات فى حكمة (المنطق) والطبيعيات والإلهيات .

١٨- المسائل الاثنا والعشرون مع أجوبتها .

١٩- المجالس السبع، جواب إلى الشيخ العامرى .

٢٠- فوائد أرسطاطاليس وأفلاطون .

٢١- فصول ومسائل ، جواب عن أسئلة فى الحكمة .

١٢- عيون المسائل .

ثانياً : كتب المنطق

١ – أرجوزة فى المنطق أو الرجز المنطقى ، أو ميزان النظر أو المنظومة فى المنطق .

٢ – تعقب الموضع الجدلى .

٣ – المسألة ، تعليق فى المنطق .

٤ – تلخيص المنطق .

٥ – القياس ، سؤال أبى سعيد ابن أبى الخير وجواب الشيخ عليه .

٦ – الكلام .

٧ – النكت فى المنطق – الفصول الموجزة .

٨ – فويطيقا(١) .

٩ – القضايا فى المنطق .

١٠– فى معانى كتاب ريطوريق ؛ أى البلاغة فى الحكومة والخطابة .

١١– جملة معانى السفسطيقا فى إبانة المواضع المغلطة للباحث .

١٢– المسائل العشر فى المنطق .

١٣– المسائل العشر فى المنطق .

١٤– رسالة فى المنطق .

١٥– البهجة فى المنطق .

١٦– الموجز فى المنطق ، المقالة الأولى فى أصول المنطق .

١٧– الموجز فى المنطق .

(١) كتاب فى الشعر . (المؤلف)

١٨- الموجز الكبير .

١٩- علم البرهـان وبيان أن كل تعليم وتعلم من علم سابق - رسالة فى أصول علم البرهان .

٢٠- العروض .

ثالثاً : كتب اللغة

١ - حدوث الحروف فى تعيين الحروف فى أسباب الحروف فى أسرار الحروف .

٢ - النيروزية فى حروف الأبجدية - رسالة الحروف رسالة فى فواتح السور الكريمة .

رابعاً : كتب الشعر

١ - أشعار الشيخ .

خامساً : الكتب الطبيعية

١ - أجوبة المسائل ، سئل عنها أبو الريحان البيرونى .

٢ - رسالة أسباب الرعد والبرق - فى ذكر الرعد والبرق .

٣ - إبطال أحكام النجوم - الإشارة إلى علم فساد أحكام النجوم .

٤ - الأعمال العلوية .

٥ - الأجرام العلوية - جواهر الأجسام السماوية .

٦ - استضاءة النور .

٧ - تلخيص كتاب الكون والفساد - سلسلة الفلاسفة .

٨ - الجسم .

٩ - الجوهر والعرض .

١٠- حد الجسم .

١١- الفضاء - جواب لسؤال بعض المتكلمين .

١٢ - حدوث الجسم .

١٣ - الحدث .

١٤ - الفضاء - الخلاء .

١٥ - السؤال والجواب .

١٦ - الطول والعرض .

١٧ - العلم الطبيعى .

١٨ - الفرق بين الحرارة الغريزية والغريبة .

١٩ - فى أن الكمية والبرودة والحرارة ليست جوهراً .

٢٠ - كنوز المغرمين (فارسى) .

٢٠ - لواحق الطبيعة .

٢١ - النبات والحيوان .

٢٢ - النهاية واللانهاية ، رسالة فى حجج المثبتين للماضى مبدأً زمانيا .

سادساً : كتب علم النفس

١ - القصيدة العينية الروحية فى النفس ، وتشمل ٢٠ بيتًا فى اتصال النفس بالجسد .

٢ – رسالة الحجج العشرة، فى جوهرية نفس الإنسان الناطقة فى السعادة والحجج العشرة .

٣ – هدية الشيخ الرئيس ، أهدى هذا الكتاب إلى نوح بن منصور السامانى .

٤ – اختلاف الناس فى أمر النفس .

٥ – النفس – رسالة فى أمر النفس – رسالة فى أمر الوجود .

٦ – إيضاح البراهين من المسائل العويصة – ثلاثة فصول فى إثبات جوهرية النفس وبقاء الروح .

٧ – بقاء النفس الناطقة .

٨ – تزكية النفس .

٩ – تعلق النفس بالبدن .

١٠– النفوس .

١١– رسالة فى معرفة النفس – مبحث فى القوى النفسانية – كتاب النفس (عشرة فصول) .

١٢– رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها .

١٣– رسالة فى معرفة النفس (باللغة الفارسية) .

١٤– النفس – رسالة النفس من كتاب الرموز .

١٥– رسالة النفس .

١٦– النفس والعقل .

١٧– النفس الفلكية .

١٨– النفس والمعاد .

١٩– المسائل فى أحوال الروح .

٢٠- مسائل سئل عنها الشيخ الرئيس من ابن زيله وأبى الريحان .

٢١- المشف .

٢٢- المفارقات والنفوس .

٢٣ - مختصر أرسطو فى النفس .

٢٤ - المدارج فى معرفة النفس .

٢٥ - القوى الإنسانية وإدراكاتها .

٢٦ - القوى الأربع - مقالة فى القوى الأربع .

٢٧ - الفراسة .

٢٨ - العقول .

٢٩ - رسالة فى علم النفس .

٣٠ - شرح كتاب النفس لأرسطو (باللغة الفارسية) .

٣١ - فى بيان الصورة المعقولة للحق .

٣٢ - الصورة المعقولة - جوابًا لسؤال أبى سعيد بن أبى الخير .

٣٣ - الصورة المعقولة .

٣٤ - حقيقة الروح .

٣٥ - حقيقة الإنسان .

٣٦ - كتاب القانون ، وهو أهم كتاب طبى لأبى على بن سينا ، ويعد فى الواقع دائرة معارف طبية ، وقد ظل هذا الكتاب حتى عام ١٦٥٠ م يدرس فى جامعتى ليون ومونبليه ، والآن يستفاد منه فى بلاد الشرق .

ويبحث هذا الكتاب فى شأن ١٦٠ مادة من العقاقير الطبية فى الأمراض المختلفة مثل السل والأمراض التى تؤدى إلى العدوى عن طريق الماء أو التراب .

ويشتمل كتاب القانون على خمسة أبواب : الباب الأول فى الأمـور الكلية ، والباب الثانى فى الأدوية المنفصلة ، والباب الثالث فى الأمراض الجزئية للأعضاء ، والباب الرابع فى الأمراض الجزئية للأعضاء ، والباب الخامس فى الأدوية المركبة .

٣٧ – الأرجوزة فى الطب .

٣٨ – أيضاً الأرجوزة فى الطب .

٣٩ – الأرجوزة فى الفصول الأربع .

٤٠ – الأرجوزة فى الطب .

٤١ – الأرجوزة فى الباه(١) ، أو أسباب تدهور قوة الباه .

٤٢ – الأرجوزة فى المجريات فى الطب .

٤٣ – الأرجوزة فى التشريح .

٤٤ – الأرجوزة فى الوصايا الطبية .

٤٥ – الأرجوزة الطبية فى وصايا بقراط .

٤٦ – مقالة فى سيلان المنى .

٤٧ – رسالة فى تشريح الأعضاء .

٤٨ – رسالة فى حفظ الصحة .

٤٩ – رسالة فى خصب البدن .

٥٠ – رسالة دستور الطبيب أو (أول ما يجب على الطبيب) .

٥١ – مقالة سياسة البدن وفضائل الشراب أو رسالة الخمرية وسياسة البدن .

٥٢ – رسالة فى شراب (العسل والخل والسكر) وفوائده .

٥٣– رسالة فى الهندبا أو الكاسنى (عشب برى صحراوى يستخدم للعلاج) .

(١) الباه : أى الغريزة الجنسية . (المترجم)

٥٤ – دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية .

٥٥ – الأدوية القلبية .

٥٦ – الأغذية والأدوية .

٥٧ – الاقرابادين[١] .

٥٨ – رسالة فى البول .

٥٩ – رسالة فى مزج الأغذية .

٦٠ – رسالة فى بيان النفس .

٦١ – الخمر .

٦٢ – مسائل حنين .

٦٣ – رسالة فى الطبيب .

٦٤ – علاج الخمر .

٦٥ – منافع الأعضاء .

٦٦ – المسائل الطبية – رسالة إلى الشيخ أبى الفرج بن أبى سعيد اليمانى .

٦٧ – المسائل المعدودة فى الطب .

٦٨ – ذكر مقادير المشروبات من الأدوية .

٦٩ – كتاب السعادة والإقبال .

٧٠ – القوى الطبيعية – رسالة فى الرد على رسالة أبى الفرج بن الطيب .

٧١ – وصية فى حفظ الصحة .

٧٢ – فى ما يدفع ضرر الأغذية .

(١) كلمة يونانية بمعنى : مجموعة قوانين فى إعداد الأدوية . (المترجم)

٧٣ – مفيدتان فى حفظ الصحة .

٧٤ – رسالة الفصد فى العروق المفصودة .

٧٥ – الفصول فى الطيب .

٧٦ – فصول الطيبات .

سابعاً : كتب الكيمياء

١ – الإكسير والكيمياء .

٢ – الدر المكنون والجوهر المصون .

٣ – الرؤيا والتفسير – كتاب فى المنام .

٤ – السحر والظلمات والنيرنجات والأعاجيب .

٥ – رسالة فى الصناعة العالية إلى عبد الله البرقى .

٦ – قصيدة فيما يحدث من الأمور والأحوال .

ثامناً : كتب الرياضيات والموسيقى والنجوم

١ – رسالة فى الموسيقى .

٢ – مختصر إقليدس .

٣ – قيام الأرض فى وسط السماء .

٤ – فاتحة أبواب المدرسة فى الحساب والهندسة .

٥ – الزاوية – تحقيق مبادئ الهندسة .

٦ – حل مشكلات معينة (باللغة الفارسية) .

٧ - الفلك والمنازل - المختصر فى علم الفلك .

٨ - رؤية الكواكب بالليل والنهار .

٩ - شرح خطبة المسعودى لأبى الريحان البيرونى فى علم الفلك .

١٠- مختصر فى علم الفلك .

١١- مختصر إقليدس من (الشفاء) .

١٢ - مختصر كتاب الارثماطيقى[1] من (الشفاء) .

١٣ - مختصر المجسطى .

١٥ - قانون لفصل الشمس والقمر وأوقات الليل والنهار .

١٦ - الطريق الذى أوثره على سائر الطرق فى اتخاذ الآلات الرصدية .

١٧ - علم صناعة الموسيقى .

تاسعاً : كتب الميتافيزيقيا والتوحيد

١ - الفيض الإلهى - الانفعال والانفعالات فى تأخير القوى الجسمانية .

٢ - كتاب المبدأ والمعاد - رسالة فى المبدأ والمعاد الفلسفى .

٣ - كتاب المبدأ والمعاد .

٤ - رسالة فى المبدأ والمعاد .

٥ - كتاب المعاد .

٦ - المعاد (الأضحوية) أو رسالة الأضحوية فى أمر العباد .

(١) علم الحساب النظرى فى الأعداد والمحاسبة .

٧ - رسالة فى المعاد .

٨ - الجسمانية الإلهية فى التوحيد والقصيدة النونية .

٩ - رسالة القدر .

١٠- رسالة القضاء والقدر .

١١- رسالة فى القضاء والقدر أو حقيقة القضاء .

١٢- رسالة سر القدر - من عرف سر القدر فقد ألحد .

١٣- رسالة التمجيد - رسالة فى خطبة التمجيد - الخطبة التوحيدية - الخطبة الإلهية .

١٤ - أجوبة - مسائل سئل عنها أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا وفصول من كلامه .

١٥ - إثبات المبدأ الأول - ما بعد الطبيعة .

١٦ - الفصول الثلاثة - رسالة فى إثبات الصانع وإيراد البرهان القاطع .

١٧ - العروش - العرش - الحكمة العرشية .

١٨ - رسالة العرشية - رسالة التوحيد - معرفة الله وصفاته وأفعاله .

١٩ - عقل الكل - البرهان على وجود عقل الكل .

٢٠ - مقدمة فى المعاد .

٢١ - الممكن الوجود .

٢٢ - رمز كتاب الحكمة والإلهيات .

٢٣ - شرح أسماء الله تعالى .

٢٤ - حقائق علم التوحيد - رسالة فى معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله .

٢٥ – فصول فى الحكمة .

٢٦ – الفلسفة الأولى .

٢٧ – الكلمة الإلهية – فى ذات الله وصفاته .

٢٨ – المسائل – الكلمة الإلهية .

عاشرًا : كتب التفسير

١ – تفسير آية (ثم استوى) .

٢ – تفسير سورة الإخلاص .

٣ – تفسير سورة الأعلى .

٤ – تفسير سورة الفلق (المعوّذة الأولى) .

٥ – تفسير سورة الناس (المعوّذة الثانية) .

٦ – رسالة الطير .

٣ – دفع الخصم (الغم) عند وقوع الموت – الشفاء من خوف الموت .

٤ – دفع الغم والهم .

٥ – قصة سلامان وأبسال .

٦ – رسالة فى العشق .

٧ – رسالة فى العهد .

٨ – كتاب الصلاة وماهيتها أو ماهية الصلاة أو الكشف عن ماهية الصلاة .

٩ – خطبة الشيخ – الخطبة الغراء .

١٠– كتاب حث النكر – الذكر .

١١- الفردوس فى ماهية الإنسان - رسالة فى التصوف .

١٢- الأحاديث المروية .

١٣- رسالة فى بيان المعجزات والكرامات .

١٤- رسالة فى ماهية الحزن .

١٥- رسالة فى كلمات الصوفية .

١٦- الورد الأعظم .

١٧- فوائد ونكات - رسالة فى الفوائد المتفرقة .

١٨- حى بن يقظان - الرسالة الطبرية .

٢٣ - حكمة الموت (باللغة الفارسية) .

٢٤ - الخلوة .

٢٥ - الدعاء .

٢٦ - الزهد .

٢٧ - السعادة والشقاوة الدائمة فى النفوس .

٢٨ - مقامات العارفين .

٢٩ - السلوك - مخاطبات الأرواح بعد مفارقة الأشباح .

٣٠ - النصيحة لبعض الإخوان .

٣١ - مواقع الإلهام .

٣٢ - الموت والحياة .

٣٣ - العلم اللدنى .

حادى عشر : كتب الأخلاق وتدبير المنزل والسياسة والنبوة

١ - كتاب البر والإثم .

٢ - تدبير المسافرين أو تدبير حال المسافر .

٣ - تدبير منزل العسكر .

٤ - تدابير المنزل عن السياسة الإلهية .

٥ - إثبات النبوة - إثبات النبوات أو تأويل رموزهم وأمثالهم .

٦ - رسالة الأخلاق .

٧ - الأرزاق .

٨ - المهدى - رسالة فى أمر المهدى .

٩ - نصائح الحكماء للإسكندر .

ثانى عشر : رسائل شخصية

١ - الإرشاد فى الأصول فى الكفر .

٢ - انتقاد ما نسب إليه من الخطب - انتقاد ما نسب إليه من معارضة .

٣ - رسالة إلى جعفر الكيار .

٤ - حصول العلم والحكمة - رسالة أبى سعيد بن أبى الخير .

٥ - رسائل الشيخ لأبى عبيدة الجرجانى وأبى سعيد ابن أبى الخير فى أمر النفس .

٦ - رقعة إلى أبى طاهر بن حصول .

٧ - رقعة إلى أبى طاهر أحمد بن المتطيب .

٨ - رقعة إلى ابن الفضل بن محمود .

٩ - رقعة إلى علاء الدولة بن كاكويه .

١٠- رقعة إلى ابن زيله .

١١- رقعة إلى جعفر الكاشانى - صورة ما كتبه أبو على بن سينا يستدعى بعض أصحابه .

١٢- رقعة إلى أبى سعيد بن أبى الخير الصوفى .

١٣- رسالة معراجية .

١٤- حواشى موضوعات العلوم .

١٥- فى خواص كاشانى .

١٦- الصنايع العلمية - الرسالة الثانية فى الرياضيات فى معنى (قاطاغورياس)[١] .

١٧- قصيدة .

وقد كتب أبو على بن سينا كتاباً تحت اسم "لسان العرب" ، لم يبيض أو ينشر .

وينبغى علينا أن نضيف فى شأن أسلوب أبى على بن سينا أنه على الرغم من أن أكثر كتب ابن سينا قد دون بأسلوب بسيط فإن بعض كتاباته قد استفادت من المحسنات وأصول المعانى والبيان والبديع وغير ذلك .

وعلى سبيل المثال نجد أن ابن سينا فى كتاب الإرشادات والرسائل الصوفية مثل رسالة "الطير" ورسالة "حى بن يقظان" قد حاول أن يبين مقصوده فى ثوب جميل بقدر المستطاع ، ولا يرى فى كتابى "الشفاء" و "القانون" أى نوع من المحسنات البديعية ، وقد سعى ابن سينا فى هذين الكتابين أن يبين أصول هذين العلمين العظيمين ؛ الفلسفة والطب ، بلغة بسيطة إلى حد ما وقريبة من فهم الباحثين[٢] .

(١) قاطاغورياس كلمة يونانية وتعنى : المقالات . (المترجم)
(٢) الدكتور جوهرين : حجة الحق أبو على بن سينا . (المؤلف)

الملا هادى سبـزوارى

من المناسب أن نذكـر فى نهـاية هذا الفصل الملا هادى سـبـزوارى الفـيلسـوف والعارف فى العصر القاجارى .

وقد ولد الملا هادى سبزوارى عام ١٢١٢ هـ . فى سبزوار ، وبعد تحصيله العلم والحكمة لدى أساتذة مثل إسماعيل الأصفهانى وملا على النورى، جاء من أصفهان إلى مشهد وهناك شغل بتدريس الحكمة .

وسرعان ما عاد إلى مسقط رأسه أى سبزوار ، وقد أسس فيها (الملا هادى سبزوارى) أعظم حوزة بحث لتدريس الحكمة والإشراق ، وبسبب الاحترام الذى تبوأه سبزوارى بين الناس ؛ نجد أنه عندما زار ناصر الدين شاه مشهد عام ١٢٧٤ هـ ، فقد توجه خفية إلى بيت الملا هادى سبزوارى وقد أجله الملك واحترمه .

وقد عاش سبزوارى ٧٨ عاماً من الحياة المتحررة تماماً ويمكن أن نذكر من أعماله المنشورة :

١ – اللآلئ المنظومة، فى المنطق .

٢ – غرر الفرائد المنظومة، فى الحكمة .

٣ – أسرار الحكم .

٤ – تحشية للأسفار الأربعة للملا صدر الدين الشيرازى .

٥ – شرح مثنوى معنوى .

الحكايات المرتبطة بالملا

١ – يقال إن الملا سبزوارى فى أول مرة رأى فيها مهنة التصوير الفوتوغرافى ، تعجب كثيراً وقال إن هذه المهنة لا تتماشى مع قواعدنا إذ إنها تخدش أعراضنا .

٢ – فى أحد المجالس التى قابل فيها ناصر الدين شاه الملا سبزوارى ، سأله ناصر الدين شاه عن حياته ، فأجاب الملا هادى لو أن الشاه يمرر يده على لحيتى

سوف يعرفها جيداً . وسأله عظماء سبزوار عن رأيه فيمن ينتحر بالترياق ، قال إنه يرفض هذا الأمر وكان يقول أنا لا أزرع بذرة الموت[1] .

نظرة إلى فلسفة الملا هادى سبزوارى

لم يكن لسبزوارى مدرسة فلسفية مستقلة ، وبعبارة أخرى لم يكن له استقلال فكرى ، وكان مهتماً فى الغالب بأحاديث صدر الدين الشيرازى خاصة فى الشواهد الروبية وكتاب الأسفار الأربعة[2] .

وقد اتسمت المباحث الفلسفية للملا هادى سبزوارى بالمزيج الفكرى ويمكن أن نذكر مثالاً لهذا الموضوع : يعتبر الملا جلال الدين المحقق الدوانى أن العلم من مقولة المعلوم بالذات ويعتبره أيضاً من مقولة الكيف بالعرض ، ويعتبر الملا صدر الدين العلم من مقولة المعلوم بالعرض ويعتبره أيضاً من مقولة الكيف بالذات ، وقد جمع سبزوارى بين هذين القولين ؛ أى أخذ من كل واحد شيئاً وحذف شيئاً ، فأخذ من قول الملا صدر الدين أن العلم من مقولة المعلوم بالعرض ، وترك القول الذى مفاده أن العلم من مقولة الكيف بالذات ، وترك من قول الملا جلال أن العلم من مقولة المعلوم بالذات ، وقبل أن العلم من مقولة الكيف بالعرض .

وبناء على هذا فإن سبزوارى يعتبر العلم وجوداً ذهنيا من مقولة الكيف ولكن بالعرض، ويعتبر العلم أيضاً من مقولة المعلوم ولكن بالعرض، إذن هو لا يعتبر العلم مستقراً تحت أية مقولة بالتحديد، بل يعتبر ذلك من صنع الوجود الذى لا يندرج تحت أية مقولة.

ومن أقوال الملا هادى سبزوارى فى شأن قدم الوجود : (إن الوجود عندنا أصيل ... دليل من خالفنا عليل) .

ومن أشعاره الفلسفية :

(يا من ذاتك منزهة عن الأغراض والصفات وقصرت يد الإدراك عن نيلك .

حيثما أنظر تظهر لى ولا ظاهر فى الوجود والله سواك) .

(١) نقلاً عن مرتضى مدرسى : زندكانى وفلسفة هادى سبزوارى . (المؤلف)

(٢) المرجع السابق .

بعض مصطلحات فلسفة الإسلام

وهذه بعض المصطلحات التي كثر استخدامها في فلسفة الإسلام ننقلها حتى يطلع عليها القراء :

الأبعاد الثلاثة ، الاتحاد في الإضافة، الاتحاد في الجنس ، الاتحاد في الخاصة ، الاتحاد في الكم ، الاتحاد في الكيف ، الاتحاد في النوع ، الاتحاد في الموضوع ، . الاتحاد في الوضع ، الاتصال ، الآثار العلوية ، إثبات الباري ، اجتماع النقيضين ، الأجساد السبعة، الأجناس العشرة ، الاحتجاج ، الأحداث، أخذ جزء العلة مكان العلة ، أخذ ما بالعرض مكان الذات ، الأخلاط الأربعة ، الإدراك ، الأدوار والأكوار ، الأركان الأربعة ، الأزل ، الأبد ، الأسئلة المتعددة ، الاستعداد ، الاستثناء الرفعي ، الاستثناء الوضعي ، الاستحالة ، الاستدلال ، الاستقراء ، الاستقراء الناقص ، الأسطقساط ، الأسماء المعدولة ، اشتراك الحد الأصغر، اشتراك الحد الأكبر، اشتراك الحد الأوسط ، الاشتراك اللفظي ، أصالة الوجود ، أصحاب المظلة ، الأصول المتعارفة ، الأول الموضوعة ، الأضداد ، الأطراف الأربعة ، الأعداد الطبيعية ، الأعيان الثابتة ، الإقناع ، الامتدادات الثلاثة ، الأمهات العلوية ، الأمهات السفلية ، أمهات الفضائل ، الآن ، الآن الدائم ، الإنسان الكامل ، الانفعالات ، الأنوار المدبرة ، أهل العلوية ، أهل المظل ، أهل الميزان ، الأحمال ، الأوليات ، البارقة، البديهيات ، البديهي ، البرهان ، البرهان الآني ، البرهان التطبيقي ، البرهان الخطابي ، برهان الصديقين ، البرهان القاطع ، البرهان اللمي ، البرهان المطلق ، البسائط الأسطقسية ، البسائط المجردة ، البسيط العقلي ، تجسيم الأعمال ، التركيب الاتحادي ، التركيب الانضمامي ، التركيب المفصل ، التسلسل ، التضاد والتحتاني، التعريف الحقيقي، تعريف المجهول بالمجهول ، التعليل ، تفصيل المركب ، التقابل ، التقابل بين العدم والملكة ، تقابل التضايف ، تقابل الضدين ، التقابل في السلب والإيجاب ، التقدم، التقدم بالذات، التقدم بالزمان ، التقدم بالشرف ، التقدم بالطبع ، التقدم بالمرتبة ، التقريب ، التقسيم بالنقيض ، التكاثف ، التكوين ، التمثيل ، التناقض ، التناقض في المحصورات ، التوهم ، الجدل ، الجرم ، الجزء الذي لا يتجزأ عن جسم ، الجسم البسيط ، الجسم التعليمي ، الجسم الطبيعي ، جمع

المسائل فى مسألة الجنس ، جنس الأجناس، الجنس الطبيعى، الجنس العقلى ، الجهة ، الجواهر الأُول ، الجواهر الثانية ، الجوهر ، الجوهر المفرد ، الجوهر القائم بنفسه ، الحال ، الحد ، الحد الأصغر ، الحد الأكبر ، الحد الأوسط ، الحد التام ، الحدس ، الحد غير المواطئ ، الحد الكامل ، الحد المواطئ ، الحد الناقص ، الحدود الثلاثة ، الحركة الإرادية ، الحركة الذاتية ، الحركة الطبيعية ، الحركة العرضية ، الحركة فى الأين ، الحركة فى الكم ،الحركة فى الكيف ، الحركة فى الوضع ، الحركة القسرية ، الحركة المستديرة ، الحركة المستقيمة ، الحس المشترك ، الحكم ، الحكم السالب ، الحكم الموجب ، الحكمة الإشراقية ، الحكمة البحثية ، الحكمة الذوقية ، الحكمة الرياضية ، الحكمة المجهولة ، الحكمة الموهمة ، الحلول ، الحلول السريانى ، الحلول الطريانى ، حمل الاشتقاق ، حمل المواطاة ، الحواس الباطنية ، الحواس الخمس ، الحواس الظاهرة ، خرق العادة ، الخلق الخوالف ، الخيال المتصل ، الخيال المنفصل ، الدلالة ، دلالة الالتزام ، دلالة التضمن ، دلالة التطفل ، دلالة الحيطة ، دلالة المطابقة ، الدليل ، الدليل الإقناعى، دليل المرافعة الإقناعى ، دليل المرافعة إلى الشخص ، الدهر ، الدور ، الذائعات ، الذات ، الذاكرة ، الذبول ، ذو الجهتين ، الرد على الامتناع ، الردف ، الرسم التام ، الرسم الناقص ، رفع التالى ، رفع المقدم ، الروح البخارية ، الروح الحيوانية ، الروح الطبيعية ، الروح الغريزية ، الروح المحكم ، الروح النباتية ، الروح النفسانية ، رءوس الفضائل ، الزمان ، زوج الزوج ، السالبة الجزئية ، السالبة الكلية ، سر الأسرار ، السرمد ، السفسطة ، السمع ، سوء اعتبار الحمل ، السور ، الشرطية المتصلة، الشرطية المنفصلة، الشكل، الشكل الأول، الشكل الثانى، الشكل الثالث ، الشوق الطبيعى ، الصغرى ، الصور الأفلاطونية ، الصورة ، الضدان ، ضرب الضروب التحتانى، الضروب العقيمة، الضروب المنتجة ، الطرفان ، الطعوم ، الطوبقا ، عالم المفارقات ، عدم اللزوم بالتبع ، العرض ، العصبية ، العقل بالفعل ، العقل بالملكة ، العقل العملى ، العقل الفعال ، العقل المستفاد ، العقل المفارق ، العقل النظرى ، العقل الهيولانى ، العقول العشرة، العلة التامة ، العلة الصورية ، العلة الغائية ، العلة الفاعلة ، العلة اللمائية ، العلة الهادية، العلة الهيولانية ، العلل الأربعة ، العلم اللدنى ، العناصر ، العناصر العقود ، العنصر الأعظم ، العنصر الحقيقى ، العين ، عين التالى ، عين

المتقدم ، الفرق ، الفصل ، الفصل الخاص ، فصل خاص الخاص ، الفصل العام ، الفلسفة الأولى ، الفلك ، فلك الأفلاك ، الفلك الأول ، فلك التدوير ، القرنية ، القضية ، القضية الاحتمالية ، القضيتان الداخلتان تحت التضاد ، القضيتان المتداخلتان ، القضيتان المتضادان، القضيتان المتقابلتان ، القضيتان بالتناقض ، القضية البسيطة ، القضية البعضية ، القضية الثلاثية ، القضية الثانية ، القضية الجزئية ، القضية الحملية ، القضية السالبة ، القضية السالبة الجزئية ، القضية السالبة الكلية ، القضية الشخصية المخصوصة ، القضية الضرورية ، القضية الكلية ، القضية المتصلة ، القضية المحصلة ، القضية المحصورة ، القضية المركبة ، القضية المسورية ، القضية المطلقة ، القضية المعدولة ، القضية الممتنعة ، القضية المنفصلة ، القضية المهملة ، القضية الموجبة ، القضية الموجبة الجزئية ، القضية الموجبة الكلية ، القضية الوجودية ، القلب الباعثة ، القوة الجاذبة ، القوة الحافظة ، القوة الدافعة ، القوة الذاكرة ، القوة الشوقية ، القوة العقلية ، القوة الفاذية ، القوة الغضبية ، القوة الفاعلة ، القوة المتخيلة ، القوة المتذكرة ، القوة المتصورة ، القوة المتوهمة ، القوة المحركة ، القـوة المدركة ، القوة المسترجهة ، القوة المصورة ، القوة الفكرية ، القوة المولدة ، القـوة الناطقة ، القوة النامية ، القوة النزوعية ، القوة الوهمية ، القوة النسفية ، القياس ، القياس الاستثنائى ، القياس الإضمارى ، القياس الاقترانى ، القياس الإقناعى ، القياس الايحازى ، القياس الدجلى ، القياس الجلى ، القياس الحملى ، القياس الخطابى ، القياس الخفى، قياس الخلف ، قياس الدور ، قياس ذو جهتين ، قياس السوفسطائى ، القياس الشرطى المتصل، القياس الشرطى المنفصل ، القياس الشرعى ، القياس الشعرى ، قياس الضمير ، قياس الكامل ، قياس المركب ، قياس المساواة ، القياس السلسل ، القياس المقسم ، القياس الموجز ، الكبرى ، الكلمة ، الكم ، الكم المتصـل ، الكم المنفصل ، الكيف ، الكيفيات الاستعدادية ، الكيفيات الأول ، الكيفيات المحسوسة ، كيفيات مختصة بالكميات ، الكيفيات النفسية ، اللاأدرية ، لا يصدر شىء عن لاشىء ، اللفظ الحاضر ، اللفظ المشترك ، اللمس ، لوح التقابل ، ما ، المادة الأولى ، مانعة الجمع ، مانعة الخلو ، الماهية ، المبادئ الطبيعية ، المبادئ العالية ، المباشرة ، المتضادتان ، متعلقات القياس والبرهان ، المتقابلان ، المتقابلان بالإيجاب والسلب ،

المتقابلان بالعدم والملكة ، المتواترات ، المثل الأفلاطونية ، المجانسة ، المحسوسات ، المحصلة ، المحصورة ، المحكم به ، المحكم له ، المحمول ، المدركات الباطنية ، المدخل ، المساواة ، المسورة ، المشاكلة ، المشهورات ، المصادرة ، المصادرة على المطلوب الأول ، المظنونات ، المعانى الأولى ، المعانى الثانية ، المعدول ، المعدولة ، معدول الطرفين ، معدول المحمول ، المعدول منه ، معدولة الموضوع ، المعقولات الأولى ، المعكوس ، المعكوس منه ، المغالطة ، مغالطة الإبهام ، مغالطة الأسئلة المتعددة ، مغالطة الاشتراك اللفظى ، مغالطة تفصيل المركب ، مغالطة التأكيد ، مغالطة تركيب المفصل ، مغالطة تفصيل المركب ، مغالطة دليل المرافعة إلى الشخص ، مغالطة دفع المقدم ، مغالطة سوء اعتبار الحمل ، مغالطة عدم اللزوم بالتبع ، المغالطة اللفظية ، مغالطة النتيجة غير المتعلقة ، مغالطة وضع الثالث ، مغالطة ما ليس بعلة علة ، المفارقات ، المقابل فى كل شيء ، لا شيء ، المقاطع ، المقبولات ، المقدم ، المقدمات الأول ، المقدمة ، المقدمة الحملية ، المقدمة الشرطية المقدمة الصغرى ، المقدمة الكبرى ، المقولات العشر ، المكاشفة ، المماثلة ، الممتنع الوجود ، الممكن الوجود ، المناسبة ، المنتج ، المنعكس ، المهملة ، الموازنة ، المواضع الجدلية ، الموجبة الجزئية ، الموجبة الكلية ، الموضوع ، المولدة ، النتيجة ، النتيجة غير المتعلقة ، نتيجة ما يرام ، النسبة الحكمية ، النصبة ، النفس الأمارة ، النفس الإنسانية ، النفس الحيوانية ، النفس الكلية ، النفس اللوامة ، النفس المطمئنة ، النفس النباتية ، النفلة ، النقيضان ، نقيض التالى ، نقيض المقدم ، النوع ، نوع الأنواع ، الواجب الوجود ، الواحد بالاتصال ، الواحد بالارتباط ، الواحد الحقيقى ، الواحد المجازى ، واهب الصور ، الوحدانيات ، الوضع ، وضع التالى ، وضع ما ليس بعلة علة ، وضع المقدم ، الوهم ، الوهميات ، الهبوط ، الهلية البسيطة ، الهلية المركبة ، الهيولى ، اليقينات .

على الرغم من أن بعض المصطلحات السابقة واضح ، فإن كثيراً منها فى حاجة إلى شرح ، ونظراً للمشكلات المتمثلة فى طبع الكتاب ؛ فقد قصرنا إيراد المصطلحات بدون ذكر معانيها وإن شاء الله فى الطبعات التالية سوف نشرح الألفاظ المذكورة .

القسم السابع

الفلاسفة العرب والأندلسيون

يعقوب بن إسحاق الكندى[1]

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى الذى سماه العرب فخراً (فيلسوف العرب) وكان أصله يهوديا ويبدو أنه أسلم فيما بعد .

وكان والده إسحاق بن الصباح فى عهد المهدى والهادى والرشيد أميرا على الكوفة ومن أصحاب النفوذ ، وقد ولد يعقوب عام ٨٧٣م فى البصرة ، وترعرع فى بغداد وتبحر فى الطب والفلسفة والمنطق والحساب والهندسة والنجوم . وكان الكندى يعيش فى عصر المأمون والمعتصم والمتوكل ، وقد وجد حظوة فى بلاط المأمون والمعتصم ، وغضب عليه المتوكل ؛ وكان ذلك بسبب اختلاف مذهبه مع مذهب المتوكل ، وبحث الكندى فى فلسفات اليونان وإيران والهند وكان يعرف اللغة البهلوية .

وكتب فى الموضوعات المختلفة من قبيل : الموسيقى والهندسة والحساب والنجوم والمنطق والإلهيات والسياسة .

ولكن أغلب أعماله تعرضت للضياع .

أعماله

أهم أعمال الكندى هى : المدخل المنطقى (بالتفصيل) والمدخل المنطقى (بإيجاز) ، فى المقولات العشر، وفى البرهان المنطقى، ومن سمع الكيان فى بطلان قول من زعم أن

(١) إن اسم الكندى وبخله الشديد يثبتان أنه كان يهودياً ، وفى الوصية التى تركها الكندى لابنه يؤكد على ذلك قائلاً: حافظ على مالك جيداً. كما جاء فى الوصية التالية : (يا بنى ؛ الأب رب، والأخ فخ ، والعم غم ، والخال وبال ، والأقارب عقارب ، وقول "لا" يصرف البلاء ، وقول "نعم" يزيل النعم ، وسماع الغناء ليس فيه نفع للإنسان إذا سمع الطرب ومن ثم فإنه ينفق فيسرف ، فيغتم فيعتل ويموت ، والدينار محموم فإن صرفته مات ، والدرهم محبوب فإن أخرجته فر الناس سخرة فخذ شيئهم واحفظ شيئك !) . (المؤلف)

جزءًا لا يتجزأ ، ومن جواهر الأجسام ، وفى الإبانة عن وحدانية الله ، وفى أن النفس جوهر بسيط غير دائر ، وفى التوحيد ، وفى مائية الشىء الذى لا نهاية له ، وفى الإبانة أنه لا يمكن أن يكون جرم العالم بلا نهاية ، وفى مائية العقل ، والإبانة عنه .. ورسالة فى النفس .

كما ترجم الكندى عدة كتب فلسفية من اللغات السريانية واليونانية ، وكتب فى الفلسفة ٢٢ كتابا ، وفى الحساب والسياسة ١٢ كتابا ، وفى الطبيات ٢٣ كتابا ، وفى الكرويات ٨ كتب ، وفى المنطق ٩ كتب، وفى الموسيقى ٧ كتب ، وفى الإحكام ١٠ كتب ، وفى علم النفس ٥ كتب ، وفى الأبعاد ٨ كتب ، وفى تقديم المعرفة ٥ كتب .

فلسفته

اتبع الكندى فى الفلسفة أسلوب الأفلاطونيين الجدد، وكان يسعى مثل – الفارابى – إلى تقريب الدين من العلم ، وجعل الفلسفة تابعة للإلهام والاستدلال ، والعقل تابعًا لإشراقات الأنبياء ، ويؤمن ببقاء الروح وفى النهاية لا يمكن أن تأتى بالأدلة الفلسفية لإثبات يوم الحشر .

ويعتبر الكندى – مثل بعض الأفلاطونيين الجدد اليونانيين – علم النجوم جزءًا من الفلسفة ، وهو أول فيلسوف مسلم اطلع على رياضيات الهند .

الطب ونظرية المعرفة

وفى الأبحاث الطبية طبق الكندى الرياضيات على نظريته فيما يتعلق بالأدوية المركبة ، وفى الواقع لقد بنى الكندى فعل هذه الأدوية على أساس التناسب الهندسى ، والأمر فى الأدوية هو الأمر الذى يتناسب مع كيفيات المحسوس ، وبهذا الشكل عندما تريد الحصول على حرارة دواء بدرجة واحدة فلابد من أن تتعادل حرارة الضعفين مع حرارة التركيب ، وعندما تريد الحصول على حرارة دواء بدرجة ثانية فينبغى أن تعادل حرارة الدواء أربعة أضعاف الحرارة .

وتقوم معرفة الكندى على الازدواجية ؛ أى المحسوس والمعقول ، وبمعنى آخر فإن المعرفة أو الإحساس أو العقل يكون بين هاتين القوتين المتخيلتين وهو ما يطلق عليه الكندى : القوة الوسطى ، فالحواس تدرك الجزئيات والعقل يدرك الجانب الكلى للعالم ، ومن هنا فكل ما هو محسوس يعد من عالم المحسوسات وكل ما يدركه العقل يعد من عالم المعقولات .

ويقسم الكندى العقل إلى أربعة أقسام : الأول وهو العقل بالفعل وهو علة كل معقول فى الوجود ، وهذا العقل الأول هو الله ، والثانى وهو العقل بالقوة ويكون فى نفس الإنسان ، والثالث وهو العقل بالملكة وذلك كامن فى النفس وتستخدمه النفس فى كل شىء تريده ، مثل قوة الكتابة لدى الكاتب ، والرابع وهو ذلك الفعل الذى تبين النفس كل ما يعتمل فيها بالفعل ، والعقل الأخير عبارة عن فعل العادة أى العقل الذى يكون دائمًا بالفعل وهو العقل الذى يصدر عن القوة إلى الفعل ، وهو منحة إلهية ولهذا السبب يطلق على هذا العقل الثالث العقل المستفاد[١] .

عقائد الكندى الأخرى

ويعتبر الكندى سقراط شهيد وثنية أثينا، وقد كتب حول تعاليمه العديد من الكتب، كما اهتم الكندى اهتمامًا كبيراً بفلسفة أفلاطون وكان يقلد فلسفته وفلسفة الأفلاطونيين الجدد وكذلك فلسفة فيثاغورث ، وكان يعتقد أن الرياضة مفتاح الفلسفة .

ابن رشد الأندلسى

ولد أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الأندلسى (١١٢٦-١١٩٨) فى قرطبة وقد اشتهر فى أوروبا باسم Averrhoes وفى مرحلة الشباب حصّل الفقه والأصول ، وبعد ذلك تعلم على يد أبى جعفر هارون الترجيلى الطبَّ والرياضيات والعلوم الفلسفية، وألف كتابًا فى علم الطب باسم "الكليات" يعد من بين كتبه الطبية الشهيرة .

وقد أولى ابن رشد اهتمامًا خاصا بالشعر والأدب ودرس معظم أعمال المتنبى ، وسنأتى بالشواهد فى هذا المضمار عند الحديث عن أشعاره .

(١) نقلا عن فلسفه در اسلام تأليف دى بور ، ترجمة عباس شوقى . (المؤلف)

وقد توجه ابن رشد عام ٥٤٨ هـ . فى عصر خلافة المأمون إلى مراكش ، وليس هناك معلومات مؤكدة هل وثق علاقاته بهذا الخليفة أم لا ، ولكن الشيء المسلم به أنه تعرف بواسطة ابن طفيل إلى ابن الخليفة المذكور أى أبى يعقوب يوسف .

وقد نصبه الخليفة المذكور قاضيًا على إشبيلية ، كما كانت اطلاعاته واسعة وقدرته على الشرح وتفسير فلسفة أرسطو سببًا فى أنه نال حظوة لدى الخليفة .

فعينه لهذا قاضيًا على قرطبة ، وبعد وفاة الخليفة يوسف فإن ابنه يعقوب المنصور الذى كان مثل أبيه محبًا للحكمة والعلم خلفه فى الحكم ، وقد عظم من شأن ابن رشد وأعلى من مقامه فى بلاطه، إلا أن فتنة الحاسدين له بالإلحاد كانت سببًا فى نفيه بعد ذلك إلى (يسانه) وهى إحدى القرى فى جنوب قرطبة ، ولم يتوقف الأمر على مجرد نفيه فقط بل حُظر الاطلاع على أعماله الفلسفية ، كما أُحرق جزء كبير من أعماله ، وبعد أربعة أعوام من حادثة النفى أصدر سلطان مراكش العفو عنه وعاد ثانية إلى بلاط الخليفة ، ولكن فترة تحرره لم تطل كثيراً لأنه توفى بعد عدة أشهر ، وكان ذلك يوم الخميس من صفر عام ٥٩٥ هـ . عن عمر يناهز الـ ٧٥ عامًا ، ودفن ابن رشد أول الأمر فى مراكش ثم نقل جثمانه بعد ثلاثة أشهر إلى قرطبة .

وقيل فى شأن خلق ابن رشد أنه كان رجلاً شريفًا وفاضلاً ومنيع الطبع وفى غاية التواضع .

تأثير ابن رشد فى أوروبا

ومع أن ابن رشد قد استفاد فى كتابة تفاسيره حول أعمال أرسطو نقلاً عن الترجمات الناقصة والمحرفة لأعمال المعلم الأول[1] إلا أن تفاسيره هذه ظلت لفترة طويلة موضع استفادة العالم الغربى كبرهان قاطع .

(١) إن أعمال أرسطو التى كان قد قرأها ابن رشد باللغة العربية كانت قد ترجمت عن اللغة السريانية إلى العربية فترجمها المترجمون ترجمة حرفية دون أن يفهموا موضوعاتها ، ومن ناحية أخرى فقد قرأ ابن رشد أعمال المفسرين التى اصطبغت بالصبغة الأفلاطونية وكانوا قد حرفوا فيها وكان كل هذا باعثًا على أن ابن رشد قد أخطأ أحيانًا فى استنتاجاته ونسب بعض الموضوعات إلى أرسطو فى حين أن أرسطو لم يقل بها مطلقًا . (المؤلف)

ولا يعد ابن رشد فى العالم الغربى أعظم شارح ومفسر لفلسفة أرسطو فحسب ، بل إنهم اعتبروا رأيه يعادل رأى المعلم الأول إلى درجة أنهم فضلوا ابن رشد على أرسطو فى بعض الأحيان .

وكان ابن رشد معجباً إلى حد كبير بأرسطو ، وكان يتصور أنه بلغ الحقيقة الكاملة – فى الفلسفة – ولهذا السبب فقد استفادوا كثيراً من شروحه على أرسطو فى أوروبا خلال القرون الوسطى، حتى إن مدرسةً قد تأسست آنذاك فى الفلسفة خاصة باسم الرشدية، وكان تلامذتها وأنصارها: ساوونا رولا، ولايب نتر، ودانتى، فعده دانتى الشارح الكبير، واعتبره رولا العقل الإلهى ، وكتب إرنست رينان رسالة باسم "ابن رشدية" وقد حظيت بشهرة واسعة .

التقريب بين العقل والإيمان

وفى الوقت الذى اصطدمت فيه الشريعة الإسلامية بالفكر اليونانى وكان ذلك باعثًا على ظهور المشاكل العديدة سواء لدى العوام أو لدى الخواص ، وكانت مسألة التقريب بين العقل والوحى شائكة للغاية بالنسبة للعوام ، بينما بدا أمر التقريب بين المذاهب الإسلامية وتعاليم فلاسفة اليونان بالنسبة للخواص أمراً صعبًا أيضًا ، وتمخض عن هذا الصدام الفكرى ثمار طيبة من ذلك ظهور أفكار وآراء جديدة ، وخرج الإسلام عن إطاره المغلق ، ولكن هذا الأمر ؛ أى اختلاط فلسفة اليونان بالإسلام ، كان له بعض السلبيات منها الاضطراب الفكرى والاختلافات ، فهبت طائفة من المسلمين[1] لتخليص التعاليم الإسلامية من قبضة الأفكار اليونانية وإيجاد نوع من التقارب أو المصالحة بين العقل والإيمان .

وكان ابن رشد أحد الأفراد الذين كانوا يسعون باستماتة إلى التقريب بين الحكمة اليونانية والشريعة الإسلامية ، وفى الوقت نفسه أراد أن يؤسس جداراً صلباً (من الفكر)

(١) قام بهذا الأمر العالم الكبير أبو حامد الغزالى (١٠٥٨ – ١١١١م) . (المترجم)

بين الإسلام والفلسفة حتى يمكن بهذه الوسيلة أن ينقذ حمامة الإيمان من مخالب الشاهين[1] .

ويعتقد الفلاسفة العرب أن للقياس ثلاثة أوجه :

١ - القياس البرهانى . ٢ - القياس الجدلى . ٣ - القياس الخطابى .

والقياس البرهانى مقدماته يقين ونتيجته يقين ولا يوجد به شك أو ظن ، أما القياس الجدلى فإن مقدماته احتمال ونتيجته احتمال ولا يُعتمد عليه ، والقياس الخطابى أضعف من القياس الجدلى ؛ إذ إن مقدماته ذات شك ونتيجته لا يُعوَّل عليها ، وقد اعتمد ابن رشد فى نظريته الخاصة على هذا التصنيف أو التمييز السابق .

وقال ابن رشد : إن الناس ثلاث جماعات ؛ إما أنهم أهل برهان أو أهل جدل أو أهل قياس خطابى ، والفلاسفة جميعهم أهل برهان لذلك يعتمد استدلالهم على العقل الذى يخلو من الشك، أما المتكلمون فهم أهل جدل وهم يقتربون من العلم اليقينى لكنهم لا يصلون إليه ، أما العوام فإنهم أهل قياس خطابى ، أو بمعنى آخر فإن قياسهم أمر تعبدى وتقليدى يخلو من البرهان والاستدلال .

ويحدث هذا الأمر نفسه لو اختلفت عقول الناس وأصبحوا جميعًا غير قادرين على إدراك الحقيقة .. فماذا يعنى الوحى لهم مثلاً ؟

ويتمسك ابن رشد بنظريته فيما يتعلق بقضية "الوحى" ويؤمن بها كثير من الفلاسفة وقد دافعوا عنها (قضية الوحى) ، ويرى أن الوحى له شقان : ظاهرى وباطنى ، فالوحى مثلاً عند الحديث عن الحقائق الدقيقة يتجه إلى المجاز والخيال والتصور والتخيل والتمثيل ، وبهذا الشكل فإن معناه الحقيقى يضيع ، ويهتم العوام بهذا الجانب المجازى ويؤمنون به إيمانًا لا يتزحزح ، لكن الفلاسفة يتجهون إلى التأويل والتفسير ويغوصون فى باطن الوحى فيكشفون المعنى الحقيقى له .

وبهذا الشكل فإن العوام يؤمنون بالوحى من هذا الجانب الخطابى (التعبدى والتقليدى) ويضطلع هؤلاء بالمهام الدينية والأخلاقية ، ومن ناحية أخرى فإن الوجه المشرق للحقيقة يظهر للفلاسفة بدون حجاب أو تمثيل أو قصص ، ويضطلع هؤلاء أيضًا بالمهام الأخلاقية ولكن ليس كإيمان العوام .

(١) الشاهين : أى الصقر . (المترجم)

الروح ليست خالدة !

لا يؤمن ابن رشد بخلود الروح ، وينكر عالم الآخرة ، وينكر ابن رشد فى فلسفته وجود أى أسرار لا يعرفها العقل ؛ أى لا يرى الإنسان جزاء غير الذى يراه عن أعماله فى الدنيا ، ونتيجة لاستنتاجات ابن رشد الفلسفية فقد كفَّره أهل الإيمان وانتقده أهل الحكمة .

وقد بلغ استياء هاتين الطائفتين حد أن هذا الحديث نفسه الذى قاله ابن رشد فى شأن الغزالى قد قيل فى حقه ، إذ إن الغزالى قال عدة كلمات اعتبرها البعض مخربة للشريعة والحكمة معًا ، وربما كان الغرض الأساسى من هذا هو : إن النية الخالصة كانت موجودة لكن نتيجتها كانت سيئة .

معرفة الإنسان ومعرفة الله

ومن وجهة نظر ابن رشد إن معرفة المبادئ لا تحتاج إلى براهين أو أدلة ؛ لأن البراهين ترتبط بالحقائق المركبة ، بينما المبادئ الأولية تقوم على حقائق بسيطة ، ولأنه لو استخدم فى المبادئ أى برهان فإننا لإثبات ذلك ينبغى أن ننتقل من سبب إلى سبب آخر، وبهذا الشكل فإننا ندور حول أنفسنا ولن نصل مطلقًا إلى سبب الأسباب .

وبناء على هذا فإن الجوهر بسيط والعرض مركب ، والله بسيط لكنه غير محدود . الخلاصة : يمكننا أن نذكر حدوداً نسبية وتقريبية له ، فنقول إنه الموجود الأول والوجود الأول والوجود القائم بالذات وهو المبدأ الأول والسبب الأول .

وابن رشد لا يرى فرقًا بين الواحد والبسيط ، وهو لا يفرق فى القول إن الله واحد أو نقول إن الله بسيط، ويرى ابن رشد أنه لما كان عقل الإنسان (منفعلا ومعلولا) فإن عقل الله عقل محض وعلة ولا يمكن مقارنته بالعقل الإنسانى ؛ لأن علمه سبب وعلم الإنسان نتيجة ويعجز الإنسان عن إدراك الكيفية العلمية التى يدركها الله ولن يدركها الإنسان أبداً ، وبمجرد أن يدرك كيفية علم الله فإنه نفسه يقترب من الله .

الجمهورية الفاضلة

تصور ابن رشد مدينة فاضلة تشبه مدينة أفلاطون الفاضلة ، يكون فيها الفلاسفة مكلفون بأن يحثوا الناس على مراعاة القانون واتباع الفضيلة .

مساواة الرجل بالمرأة

يعتقد ابن رشد أن أهم حكومة كانت حكومة الخلفاء الراشدين التى قامت على العدل والمساواة، ولكن معاوية سلب أسلافه زمام هذه الحكومة وأسس حكومته المستبدة والمليئة بالمفاسد . ويرى ابن رشد ضرورة المساواة بين الرجل والمرأة مثل أفلاطون ، كما يرى أن عقل المرأة لا يختلف عن عقل الرجل ولو كان هناك اختلاف فهو اختلاف كمى وليس كيفيا .

لذلك فإن المرأة تستطيع أن تضطلع بالمهام التى يقوم بها الرجال ، وفى رأيه أنها تستطيع أن تحصِّل الفلسفة وأن تدير الأمور السياسية والحكم مثل الرجل .

كما يعتقد ابن رشد أن المرأة يمكنها أن تتولى كثيراً من الأعمال المقصورة على الرجال ، الخلاصة : إن المرأة لديها استعداد خاص فى الفن ولاسيما الموسيقى ، ويؤكد ابن رشد هذه الحقيقة بقوله إن كانت المرأة قد تخلفت فذلك بسبب أن أمور المجتمع لم تكن لتعهد لها لكى تتولى أداءها ، فإذا تمرست المرأة جيداً مثل الرجل فإنها تستطيع أن تقوم بأداء أعمال جليلة .

الأفكار الأخرى لابن رشد

لقد نفذ ابن رشد عمله عن طريق النقد والبرنامج المحدد فكان حينًا يشرح مذهب أرسطو بالتفصيل وحينًا يشرحه إيجازًا ، فكانت هذه الشروح إما موجزة أو طويلة بالنسبة لبحثنا ، بحيث إن المناسب منها سوف نعتبره شارحًا لها ، وهذا اللفظ هو (الذى أطلق عليه "دانتى" فى الكوميديا الإلهية) .

وكان ابن رشد متعصبًا لمنطق أرسطو ، وكان يعتقد أن السعادة بدونه لن تتحقق لأى شخص ، فالمنطق هو الذى يهيئ السبيل لمعارفنا ، حتى ندرك حقيقة العقل المجرد من خلال الجانب المحسوس ، ولكن المعرفة العامة ترتبط دومًا بالإحساس وتغلق باب الضلال ، كما أنها تمنع النظرة القصيرة وضحالة الفكر والعادات المرذولة .

الخلاصة : لا يخلو مجال من وجود جماعة يمكنها أن تدرك المعرفة الحقيقية ..

ويعتقد ابن رشد أن الحياة ليست قاصرة على المهنة والفن والعلوم المفيدة ، بل يجب على الجميع - رجلاً كان أو امرأة - أن يسهموا فى سعادة المجتمع ، ومن هنا فهو يتفق مع أفلاطون فى هذه الرؤية .

وكان ابن رشد ينظر إلى الدين بعين الرجل السياسى ، وهو يرفع من شأن الدين بناء على الغايات الأخلاقية التى يهدف إليها ، وهو ينتقد الغزالى لعدم تأثير الفلسفة فى مذهبه الدينى[1] .

أعمال ابن رشد

يعد ابن رشد أحد الشارحين العظام لأعمال أرسطو ، وقد اختلف الباحثون فى النظر إلى هذه الشروح ، فاعتبرها فريق شرحًا موجزًا واعتبرها فريق ثان شرحًا متوسطًا وعدها فريق ثالث شرحًا كبيرًا .

وقد كتب ابن رشد شروحًا على فلسفة كل من : أفلاطون والإسكندر الأفروديس ونيقولاس الدمشقى وبطليموس وجالينوس والفارابى وابن سينا والغزالى وابن باجه ، كما كتب شرحًا حول المدينة الفاضلة لأفلاطون والذى للأسف قد ضاع .

كما أضاع المسلمون المتعصبون بعض كتب ابن رشد ومن بينها هذان الكتابان : الأول : تلخيص الإلهيات لنيقولاس ، والثانى : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، وقد ألف ابن رشد كتبًا متعددة فى شأن المنطق والنفس والعقل والزمان والحركة والجدل الفلسفى والفقه وعلم الكلام ، وفيما يلى بعض منها :

(١) از تاريخ فلسفة در اسلام (تاج . دى بور) ترجمة عباس شوقى . (المؤلف)

شروح وتفاسير

١ - أفلاطون :

لخَّص ابن رشد جمهورية أفلاطون تحت اسم "جوامع سياسة أفلاطون" أو مجتمعات أفلاطون السياسية ، والنسخة العربية لهذا الكتاب ضائعة ولكن ترجمتها العبرية واللاتينية موجودة .

٢ - أرسطو :

لخص ابن رشد أعمال أرسطو ومنها : المنطق والبرهان والطبيعيات والمقالات السبع من كتاب ما وراء الطبيعة وكتاب الأخلاق ، كما كتب الشروح الشهيرة التالية :

- شرح كتاب القياس .
- شرح كتاب البرهان .
- شرح كتاب النفس .
- شرح السماع الطبيعى .
- شرح كتاب السماء والعالم .
- تفسير ما وراء الطبيعة .

وبهذا الشكل فإن ابن رشد قد كتب تفاسير حول أعمال المعلم الأول غير كتاب السياسة ولخص بعضاً آخر .

٣ - الإسكندر الأفروديس :

كان الأفروديس أحد الشارحين لأرسطو وقد كتب ابن رشد شرحًا أسماه "مقالة فى العقل" فى شأن الأفروديس والترجمة العبرية لهذا الشرح موجودة .

٤ - نيقولاس الدمشقى :

تلخيص الإلهيات .

٥ – بطليموس :

مختصر المجسطى (الترجمة العبرية لهذا الكتاب موجودة) .

٦ – جالينوس :

لخص ابن رشد الكتب الشهيرة التالية لجالينوس : القوى الطبيعية ، وكتاب العلل والأمراض ، وكتاب الحميات ، وكتاب المزاج ، والمقالات الخمس الأولى من كتاب الأدوية المفردة ، وكتاب اسطقسات .

أما كتب : القوى الطبيعية ، والعلل والأمراض ، والحميات – فقد كتبت باللغة العربية وهى ماتزال موجودة وإن فقد بعض منها .

٧ – الفارابى :

كتب ابن رشد مقالة فى شأن معارضة الفارابى لأرسطو .

٨ – ابن سينا :

شرح أرجوزة ابن سينا فى الطب (النسخة العربية منه موجودة) ، الرد على ابن سينا فى تقسيمه الموجودات إلى الممكن على الإطلاق والممكن بذاته والواجب بغيره والواجب بذاته (توجد الترجمة العبرية لهذا الكتاب) ، الفحص عن مسائل وقعت فى العلم الإلهى فى كتاب الشفاء .

٩ – الغزالى :

مختصر المستصفى فى الفقه .

١٠ – ابن باجه :

رسالة اتصال العقل بالإنسان .

مؤلفات ابن رشد

١ – فى المنطق :

الضرورى فى المنطق (وقد بقى منه قطع بالعبرية) ، ومقالة فى المقدمة المطلقة ، ومقالة فى المقاييس الشرطية ، ومقالة فى القياس ، ومقالة فى المقول على الكل .

٢ – فى مجال النفس والعقل :

مقالتان فى علم النفس ، ومسألة فى علم النفس ، ومقالة فى اتصال العقل المفارق بالإنسان (الترجمة العبرية منها موجودة) ، ومقالة فى العقل (توجد قطع منها بالعربية) .

٣ – فى شأن الزمان والحركة :

مقالة عن حركة الجسم السماوى ، وكلام على المحرك الأول ، ومقالة فى الوجود السرمدى والوجود الزمانى ، ومسألة فى الزمان .

٤ – الحكمة والجدل الفلسفى :

مسائل فى الحكمة ، ومسألة فى أن الله يعلم الجزئيات ، وتهافت التهافت (من أهم أعمال ابن رشد ، وقد كتب فى الرد على "تهافت الفلاسفة" للغزالى) .

٥ – فى الطب :

الكليات ، ومقالة فى الترياق ، ومقالة فى حمية العفن ، ومسألة فى نوائب الحمى .

٦ – فى الفقه :

بداية المجتهد ونهاية المقتصد .

٧ – فى علم الكلام :

فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال (حاول ابن رشد فى هذا الكتاب أن يزاوج بين الدين والفلسفة) ، والكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة .

أبو العلاء المعرى

ولد أبو العلاء المعرى يوم الجمعة ٢٧ ربيع الأول عام ٣٦٣ فى "معرة النعمان" ، التى تبعد عشرين ميلاً عن حلب ، وبعد ثلاثة أعوام من ولادته أصيب بمرض الجدرى وفقد الرؤية فى عينيه الاثنتين وأصبح منذ ذلك الوقت ضريراً إلى الأبد .

وقد عاش أبو العلاء فى كنف أبيه الذى كان شاعراً وعالما ، وفى ذلك الوقت ذهب إلى حلب وواصل تعليمه ، وبعد ذلك عاد إلى معرة النعمان ، وقد قنع بالعيش فى هذه المدينة حتى بلغ الخامسة عشرة من عمره .

وقد ذهب أبو العلاء إلى أنطاكية ؛ لإكمال العلوم العقلية والنقلية ، وهناك تعرف على الفكر اليونانى والفلسفة المسيحية ، وبعد ذلك اتجه إلى طرابلس واستفاد كثيراً من المكتبات هناك ، ولما كان ذا حافظة قوية فقد حصل معارف قيمة هناك .

وقد اتجه فى ذلك الوقت إلى بغداد التى كانت آنذاك عاصمة العواصم ، وهناك التقى بعدد من الفضلاء والشعراء فى العالم الإسلامى ، وبمساعدة العلماء والفضلاء الإيرانيين اطلع على فلسفات إيران القديمة ، حتى إنه يمكن أن يقال إنه أحاط علمًا باللغة الفارسية ، ويبدو أن أبا العلاء المعرى كان شغوفًا باللغة الفارسية ؛ إذ يشاهد فى أشعاره العديد من الكلمات الفارسية ومن بينها :

(إذا أعظموا كيوان عظمتُ واحداً .. يكون كيوان أول ساجد) .

وبعد عام ونصف العام من الإقامة فى بغداد - حيث حصَّل هناك مذاهب الهند وفلسفة إيران القديمة والتصوف - عاد إلى معرة النعمان بسبب موت والدته المفاجئ .

ومن فرط حزن أبى العلاء على أمه أغلق باب بيته عليه وغير أسلوبه فى الحياة ؛ أى أنه مثلاً امتنع عن أكل اللحوم واتجه إلى الزهد والعزلة .

ومن المسلَّم به أن هذا التغيير المفاجئ فى أسلوب حياته كان بسبب معرفته لفلسفة الهند .

وعاش أبو العلاء المعرى حتى نهاية حياته فى العزلة ، ووفقًا لفلسفته الخاصة امتنع عن الزواج وكان باراً بالفقراء والمحتاجين وكان ودوداً مع الجميع حتى (الحيوانات) .

وفى الوقت الذى بلغ فيه أبو العلاء سن الـ ٧٤ من عمره ، التقى به ناصر خسرو فى أحد أسفاره ، وهكذا يكتب ناصر خسرو فى شأن هذا اللقاء فى كتابه "سفر نامه" :

(كان هناك فى تلك المدينة "معرة النعمان" رجل يسمونه أبا العلاء المعرى وكان أعمى ، وكان كبير المدينة ولديه نعم عديدة ، وكان العاملون جميعًا فى المدينة بمثابة العبيد له ، أما هو نفسه فقد اتجه إلى الزهد ، وكان غطاؤه الكليم ، وقد جلس فى البيت و ... تى بتناول القليل من خبز الشعير ليل نهار ولا يأكل سواه . وقد سمعت أن باب بيته مفتوح للجميع ، ولا يفعل مستخدموه شيئًا فى الأمور المهمة إلا بعد الرجوع إليه ، ولم يضن بنعمته على أحد من الناس ، وهو صوّام قوّام ، لا يشغله أى عمل دنيوى ، وكانت مكانة هذا الرجل فى الشعر والأدب عالية ويقر بها الشوام والمغاربة والعراقيون ، وألف كتابًا أسماه "الفصول والغايات" وهو كتاب رمزى يزخر بالأمثلة والألفاظ الفصيحة والعجيبة التى لا يفهمها أغلب الناس ، وإن الشخص الذى قرأه عليه اتهمه بمعارضة القرآن الكريم ، وكان يتجمع لديه أكثر من مئتى رجل يتدارسون الشعر والأدب . وسمعت أن له أكثر من مئة ألف بيت من الشعر ، وقد سأله شخص قائلاً : إن الله تبارك وتعالى منحك كل هذه النعم فلماذا تعطى الناس وتضن على نفسك ؟! فأجاب : ليس لى أكثر من أن آكل . ولما وصلت هناك كان لا يزال هذا الرجل على قيد الحياة) .

وبعد عمر مديد ومفيد توفى أبو العلاء المعرى وهو يناهز الـ ٨٤ ، وقد رثاه ٨٤ شاعرًا ، وقد حزنت مدينة معرة النعمان لوفاته أشد الحزن ، ويقال إنه قبل أن يموت أوصى أن يكتبوا على قبره البيت التالى :

هـذا جـنـاه أبـى عـلـى   ومـا جنيت عـلـى أحـد !

أعماله

لزوم ما لا يلزم، وراحة للزوم، وسقط الزند، وكتاب المواعظ السنية، وكتاب أمالى ، وكتاب العظة والزهد ، وكتاب القائف (على غرار كليلة ودمنة) ، وكتاب منار القائف (فى شرح كتاب القائف) ، وتأجج الحرة ، وجامع الأوزان ، والخمسة رسالة السندية ،

ورسالة الغفران، ورسالة المينح، وكتاب خـادمة الرسـائل، ونظم السـور الحقير النافع في النحو ، واختصار ديـوان البحـترى ، وشرح شـواهد جمـل بعـون مع الجمل (وهو ناقص)، وكتاب الشاذن ، واقليد الغايات ، وكتاب الأيك والعفون ، وتضمين الآى ، وكتاب التفسير، والهمزة والردف، وسيف الخطبة، ونشر شواهد الجمهرة ، وكتاب دعاء وحرز الخيل، ومجد الأنصار في القوافي، ودعاء وساعة، وسجع الحمائم، وزجر التاريخ، وزجر الناتج المعروف ببحر الزجر، والسجع السلطاني، وسجع المضطرين، وذكرى حبيب لدى غريب الشعراء ، وعبث الوليد فيما يتصل بشعر البحترى، والرياش المصطفى ، وشرف السيف ، وتعليق الجليس المعروف بالجمل ، وإسعاف الصديق ، وقاضى الحق ، والطل الطاهرى ، ومختصر الفتحي ، وضوء الحفظ ، وتفسير غريب سقط الزند ، ودعاء الأيام السبعة ، ورسالة على لسان ملك الموت ، وبعض فضائل أمير المؤمنين على ابن أبى طالب، وأدب العصفورين، والسجعات العشر، وشرح سيبويه، وظهير العضدى ويرتبط بكتاب العضدى في النحو، ورسالة الفرض، ورسائل قصار ، وعظات السور ، والراحلة الخفية ، ومثقال النظم في العروض ، واللامع المغريزى .

قوة حافظة أبى العلاء

حكى فى صدد قوة ذاكرته ، يقول أبو زكريا التبريزى تلميذ أبى العلاء : لقد تتلمذت سنين طوالاً لدى أبى العلاء المعرى ، وذات يوم كنت عنده فى معرة النعمان وقرأت عليه أحد مؤلفاته . ومنذ سنين لم يأت أحد من أهل تبريز لهذه المدينة ، وفى ذلك الوقت دخل فجأة أحد جيرانى من تبريز للصلاة فى المسجد فرأيته وتعرفت عليه وسررت كثيراً ، فقال أبو العلاء المعرى من الذى وصل لك ؟ فقلت له القصة (أى وصول أحد الضيوف من تبريز) فقال انهض وتحدث معه فقلت أسمع بنهاية الحديث ، قال : انهض وسوف أنتظرك . فنهضت وتوجهت إلى التبريزى جارى ، وتحدثنا معًا حديثًا طويلاً باللغة الآذرية ، وسألته عما أريد ، وعندما عدت قال أبو العلاء: ما هذه اللغة ؟ قلت : اللغة الآذرية ، قال : أنا لا أعرفها ولا أفهمها لكننى حفظت كل ما قلتموه ! وكرر كل الحديث دون نقص أو زيادة ، فاندهش جارى بشدة وقال : كيف حفظ هذه الكلمات وهو لا يعرف معناها ؟

ذم أهل الدنيا

قال أبو العلاء المعرى القطعة التالية فى شأن فقده البصر وذم أهل الدنيا :

أبا العـــلاء بن سليـــمـــانا   عـــمـــاك قـــد أولادك إحـــســـانا
إنك لـو أبصـــــرت هـذا الـورى   لـم يرك إنســـــانك إنســـــانا

* * *

ألا إنما الأيام أبنـاء واحـــــد   وهذى الليـــالى كـلهـــا أخـــوات
فـــلا تـطـلبن مـن عنـد يوم ولـيلـة   خـــلاف الـذى مـــرت به سـنوات

* * *

من راعـــه ســـبب أو هـاله عـــجب   فلى شمـاتون حـولاً لا أرى عـجـبـا
الدهـر كـــالدهـر والأيام واحـــدة   والناس كـــالنـاس والدنيـا لمن غلبـا

فلسفة أبى العلاء المعرى

إن فلسفة أبى العلاء المعرى متعددة المشارب ؛ لأنه من ناحية يتبع أرسطو فى شأن المسائل الاجتماعية ، ومن ناحية أخرى يتبع أفلاطون فى شأن الأخلاق ، ويولى الفضيلة أسمى مقام ، ومن جانب ثالث يتبع المدارس الهندية فى الأمور الروحانية ، كما أولى مسألة الحياة أهمية كبرى .

المعرى متشائم بالنسبة للبشر ، وهو يفضل العزلة عن مخالطة الناس ، ويعتبر الحياة شراً ، وكان يعتبر الامتناع عن التناسل عملاً حكيماً ، وبالنسبة للاعتقاد فى الله فإنه يتبع مدرسة اللاأدرية ، ولم يكن يؤمن بيوم القيامة والجنة والنار .

المذاهب من وجهة نظر أبى العلاء المعرى

وكان أبو العلاء المعرى يعتبر الدين وسيلة للحكم وتسلط الأثرياء على الطبقات الدنيا ، وقد سخر فى اللزوميات وفى رسالة الغفران من يوم البعث والحشر ومن الجنة والملائكة والشياطين والشفاعة ، ويقول فى قصيدة له :

(إن هذه المذاهب وسائل حتى يسيطر الأقوياء على العالم ، استيقظوا ، استيقظوا أيها الضالون إن ديانتكم مكر من القدماء أرادوا بها السيطرة على العالم(١) .

ومن أجل هذا الهدف نصبوا الفخاخ لإضلال الناس ورحلوا ولكن بدعهم التى أشاعوها بقيت وأضلت العوام إلى الأبد) .

ويقسم أبو العلاء الناس إلى طائفتين : أولئك الذين لديهم عقول وليس لديهم دين ، وأولئك الذين لديهم الدين وليست لديهم عقول :

(أهل الأرض اثنان ؛ ذو عقل بلا دين وآخر ذو دين لا عقل له) .

ويقول فى ذم المذاهب : (إن الشرائع قد نشرت بيننا الأحقاد وغرست بيننا الأشكال المتعددة للعداوة) .

ويعتقد أبو العلاء أن الدين حصيلة العقل البشرى ولا يرتبط بأى حال من الأحوال بما وراء الطبيعة ، ويعتبر المتدينين أفرادًا سُذجًا ؛ إذ إنهم تطبعوا على التقليد الأعمى وتأثروا بالعادات والتعليم والتربية فى مرحلة الطفولة ، ومن وجهة نظره أن الدين أسطورة نسجها القدماء حتى يستغلوا الأفراد السذج .

ويشبه أبو العلاء الدين بالمرأة التى تضع النقاب على وجهها - وقد وضع رجالُ الدين بمساعدة هذا النقاب نفسه الزاخر بالأسرار - النـاسَ فى الظلمة والضلال ! ويظل جلال المذهب باقيًا مادام نقاب الأسرار المذكور مسدولاً على وجهها وبمجرد أن نزيل هذا النقاب (أى بمجرد أن نفهم ماهية الوحى والمعجزات) يختفى الجلال السابق للدين وأبهته .

(١) (أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما .. دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا ... وبادوا وماتت سنة اللؤماء) . (المترجم)

ومع هذا فإن الروح المتشككة لأبى العلاء والمعارضة للقوانين المتحجرة والقواعد الصارمة للمذهب ، ومع هذا كان ذا قلب طاهر ومرهف ؛ حتى إنه كان ينزل الفضيلة منزلة رفيعة ، وكان يقول إن الفضيلة لا يعادلها شىء ؛ فالفضيلة هى الفضيلة .

العقل وهوى النفس

ويعتقد أبو العلاء المعرى - مثل شوبنهاور - أن العقل يتبع الهوى والهوس ، وأن فضائل الإنسان ورذائله هى الأمر الذى يكون باعثًا على الصراع الدائم بين الطبيعة والعقل .

وبمعنى آخر عندما تلقينا الطبيعة بين البشر والرذيلة ، فإن العقل يدعونا إلى الفضيلة وطلب الخير، ولكن النفس هى التى تنتصر وينقاد العقل لها، ولهذا السبب فإن الفساد يكون دائمًا هو السائد فى حياة الناس الاجتماعية وتتقهقر الفضيلة وتنهزم .

ولهذا السبب فإن أبا العلاء يؤمن بفساد الفطرة الإنسانية فنيأس فى الحياة وتدعونا هذه الفطرة إلى العزلة والابتعاد عن المجتمع .

الخمر من وجهة نظر أبى العلاء

يرى أبو العلاء المعرى أن المرأة والخمر هما السببان الأساسيان وراء هزيمة العقل أمام النفس، وأن المرأة والخمر[1] هما عدوا العقل، والعاقل هو من يزهد فيهما، كما أن الخمر تتسبب فى ذهاب العقل وتُلقى بالإنسان فى بؤرة المعصية وتؤدى إلى الفقر والاحتياج، وأسوأ عيب للخمر أنها تقضى على الحياء والخجل وتمهد السبيل للفسق والفجور .

أم الحباب وإن أميت لهيبها بمزاجها وافت كأم الحباب
هتكت حجاب المحصنات وجشمت مهن العبيد تفهم الأرباب

(١) قد يكون رأى أبى العلاء المعرى صائبًا فى شأن الخمر وهذا شىء معلوم لأغلب الناس ، لكن زهده وتشاؤمه وابتعاده عن المرأة كابتعاد الرهبان يدل على عيب فى شخصيته هو ، ويبدو أن تأثره بالفلسفات الهندية وغير السوية قد أدى به إلى تلك الحياة القائمة على الاعتزال . (المترجم)

المرأة نار

المرأة فى نظر أبى العلاء مثل النار من بعيد جذابة ومن قريب حارقة وماحقة :

هى النيران تحسن من بعيد ويحرقن الأكف إذا لمسنه

ولكنه لا يعتقد بفساد المرأة بالفطرة ، بل إنه يعتقد أن خطر المرأة ينبع من ضعفها ، ولأن المرأة ضعيفة فإنها تستسلم لشهوة الرجل بسرعة ، ولكى تمنع من الوقوع فى هذا الخطر يرى أبو العلاء أن تحجب المرأة ويمنع اختلاطها بالمجتمعات ، وبسبب هذا الضعف فإنها تنجذب إلى المنجمين ومن يرون الفأل ويضربون الودع ، وهى تتوقع خيراً من هؤلاء الدجالين لضعف عقلها ، ولما كان كثير من المصائب الأخلاقية من الممكن أن تحدث بسبب ضاربى الودع وناظرى الفأل فيجب منع النساء من الاتصال بهؤلاء السحرة والدجالين حتى يمكن أن نمنع حدوث المصائب المؤلمة .

ولا ينبغى السماح للمرأة بالتزين بوسائل الزينة المختلفة؛ إذ إن أفضل زينة للمرأة هى العفة والتقوى (تحلى بتقوى أو تحلى بعفة .. فذلك خير من سوار وخلخال) .

وينبه أبو العلاء الرجلَ إلى مكر المرأة وأن يكون حذراً معها وأن يخشى ضعفها فإن قوتها كامنة فى ضعفها . ومن وجهة نظر أبى العلاء فإن للمرأة استعداداً كبيراً فى خداع الرجل ، وهى تأسر الرجل عن طريق النظرة والزينة والحديث .

من الواضح أن الشخص الذى يعارض الحياة سيعارض الزواج ؛ لأن الزواج هو الوسيلة التى تساعد على استمرارية الحياة ، وبمعنى آخر إن الزواج يجعل الإنسان قادراً على أن يقترف الجرم الأكبر وهو الإنجاب ، ولهذا السبب فإن أبا العلاء يعارض الزواج بشدة ويقول إن أردت أن تتزوج يوماً امرأة فإن أفضلهن العقيم[1] :

إذا شئت يوماً وصلة بقرينة فخير نساء العالمين عقيمها

(١) واضح التأثر الشديد لأبى العلاء المعرى بالفلسفة البوذية ، ولو أخذنا الناس بدعوته لما أصبح فى هذا الكون رجل ولا امرأة : فأنى له أن يستمر مع تحريم الإنجاب ؟! (المترجم)

ويشن حملة على اليهود لأنهم يطلقون المرأة العقيم[١] ، ويشن حملة أيضًا على النظام الإسلامى الذى يجيز تعدد الزوجات ، ويقول إن هذا النظام (التعدد) ليس له فائدة سوى إشباع النفس الشهوانية للرجل .

ويتبع أبو العلاء الدين المسيحى فى أمر الزواج ؛ بمعنى أنه من جانب الزواج بين أبناء العمومة ، ومن جانب ثانٍ يقول إن كان لابد من الزواج ، فإنه لا يتزوج الرجل أكثر من امرأة .

ولكنه بشكل عام يدعو إلى الفرار من مصائب الإنجاب ومساوئه وذلك رحمةً بالأطفال الأبرياء الآتين جبرًا إلى هذه الدنيا ، ومن ثم يضطرون إلى تحمل التبعات الثقيلة للحياة وقضاء هذا العمر المؤلم ، والأفضل ألا نستسلم للزواج ونكبح الشهوة الجنسية فنسحق أفاعى الحياة[٢] .

الإنسان مجبول على الشر

الخير بين الناس رسم دائر والشر نجح والبرية معلم
طبع خلقت عليه ليس بزائل طول الحياة وآخر متعلم

وأبو العلاء المعرى متشائم تجاه الفطرة الإنسانية ، ويعتبر الإنسان سيئ الطبع ويراه أيضًا شرير الجبلة .. ولهذا السبب فإن الناس يميلون إلى الفساد ، والخير الحقيقى منهم نادر .

ويعلى أبو العلاء من القيمة الرفيعة للخير وينصح بأن نسعى إلى البحث عن جوهر الخير بكل ما أوتينا من قوة ؛ لأن الأخلاق الفاضلة خير من تاج الملوك .

(١) إن اليهودى خلى جهله امرأة ، كانت عقيمًا وخير النسوة العقم . (المترجم)

(٢) هذه الفلسفة التشاؤمية أشبه بفلسفة عمر الخيام ، كما أن كثيرًا من أفكار المعرى والخيام متشابهة إلى حد كبير ، لكن الفرق الأساسى والجوهرى بينهما هو أن أبا العلاء المعرى ضد الخمر والخيام نصيرها ، ويتفق الاثنان فى إبراز المجتمع والحياة فى صورة قاتمة . (المترجم)

أبو العلاء المعرى والمتنبى

ويقال إن أبا العلاء كان متأثراً بالمتنبى وكان يفضله على بشار وأبى نواس وأبى تمام ، وكان سيد مرتضى يعادى المتنبى ، وذات يوم ذكر المتنبى فى مجلس مرتضى فأخذ سيد مرتضى يعدد عيوب المتبنى ، فقال المعرى لو أن المتنبى لم يقل سوى هذه القصيدة التى تبدأ بـ : "لك يا منازل فى القلوب منازل" فهذا فى حد ذاته يكفيه فخراً ، وعندما سمع مرتضى هذا الكلام غضب ، فخرج أبو العلاء من المجلس فتوجه مرتضى إلى الجالسين وقال : أعلمتم قصد هذا الأعمى من ذكر هذه القصيدة ؟ قالوا إن سيد مرتضى يعلم أفضل منا، قال : إن قصده من هذه القصيدة هذا البيت :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

وذكر أبو العلاء قائلاً كأن المتنبى سمع الكلام السابق فقال :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

بنو آدم مثل العضو الواحد

ولا يرى أبو العلاء فرقاً بين الأسود والأبيض ، الفقير والغنى ، الشيخ والشاب ، وفى نظره أن جميع الأفراد من أسرة واحدة، وهو لا يرى فرقاً أيضاً فى شأن الطبقات الاجتماعية بين الرئيس والمرءوس والغنى والفقير .

وهذه المساواة فى نظره تكمن فى ثلاثة أشياء :

الأول : أن الجميع أتى من مكان واحد ، والثانى : أن الجميع فى الحياة يسلمون بالقضاء والقدر ، والثالث : أن الجميع مآلهم القبر .

فساد الحكام

لقد نفر أبو العلاء المعرى من الاستبداد أشد النفور ؛ وذلك لأن عصره كان عصر استبداد وظلم .

وهو يعتقد مثل جان جاك روسو أن الشعب أساس الحكم ويجب على الحاكم أن يكون خادمًا للشعب، وكان ديمقراطيا بمعنى الكلمة ، وقد كره أولئك الحكام الذين جعلوا مصائر الشعوب لعبة لهواهم وهوسهم فاضطربت بذلك حياة الشعوب ، فكان معارضًا للحكام المعاصرين له إلى درجة أنه يصفهم فى شعره باللصوص وقطاع الطرق :

قـــد عـــمنا الغش وأزرى بنا   فى من أعـوز فـيـه الخصـوص
وكل من فـوق الثـرى خـائن   حتى عدول المصر مثل اللصوص

ولم يكن توبيخه للحكام محدودًا ، بل إنه أيضًا وبخ النـاس ؛ لأنهم هم الذين يوصلون الحكام إلى هذه الدرجة من البطش والظلم فيكون فى ذلك مسوغًا للحكام لكى يعصفوا بهم :

قد ينصف القوم فى الأشياء سيدهم   ولو أطاقـوا له ريبًـا لرابوه
لم يقـدروا أن يلاقـوه بسيـئـةٍ   من الكلام فلما غـاب عـابوه

وهو يوبخ الناس إذ إنه اعتقد (أنه مادام المظلوم لم يشك فإن الظالم يحلو له الظلم

إن الضعيف هو الذى يوجد القوى مادام الضعيف لم يشك من ظلم القوى فى الدنيا) .

أبيات من شعر أبى العلاء المعرى

والشـر فى الجد القديم غـريزة   فى كل نفس منه عـرق ضـارب
لقد فعلوا الخيـر القليل تكلفًا   وجاءوا الذى جاءوه من شرهم طبعا

*

*

القلب كالماء والأهواء طافيـة   عليه مثل حباب الماء فى الماء
تفـرقـوا كى يقل شـركم   فـإنما الناس كلهم وسخ !

*

*

أمـــا اليـــقين فـــلا يقـين وإنما * أقـصى اجـتـهـادى أن أظن وأحـدسـا
أرى الخـيـر فى عـمـرى حـسـرة * لأنـى عن فـــعلـه عـــاجـــز

*

هى الـدنيـا تـشـابـه مـيـتـة * ونحن حـواليـهـا الكلاب النوابح
فـمن ظن منهـا آكـلاً فـهـو خـاسـر * ومن عـاد منهـا سـاغـبًا فـهـو رابح

*

مـا باخـتـيـارى مـيـلادى ولا هرمى * ولا حـيـاتى فـعـمل لى بعـد تخـيـيـر
دين وكـفـر وأبنـاء نقص وفـرقـان * ينـص وتـوراة وإنجـيـل
فى كـل جـيـل أباطيـل يدان بهـا * فـهل تفـرد يومًـا بالـهـدى جـيل ؟
عـاشـوا كـمـا عـاش آباؤهم سـلفـوا * وأورثوا الدين تـقليـدًا كـمـا وجـدوا
فـمـا يراعـون مـا قالـوا ومـا سـمـعـوا * ولا يبـالون من غـىٍّ لمن سـجـدوا
قـد عـشت دهرًا طويلاً مـا عـلمت به * حـسـا يحس لجنى ولا ملك

*

ولا تطـعن قـومًـا مـا ديـانتـهـم * إلا احـتـيـال علـى أخـذ الإتاوات
وإنما حـمـل التـوراة قـارئـهـا * كـسب الفـوائـد لا حب التـلاوات

*

وإذا أردتم بالـنبـيين كـرامـة * أجـمـع تركـهـم فى الأظـهـر
لو لم تكن طرق هذا الموت موحشـة * مـخـشـيـة لاعـتـراها القـوم أفـواجـا

*

وتحسب مقال الرسل حقًّا ولكن قول زور سطروه
وكان الناس في عيش ورغد فجاءوا بالمحال فكدروه

*

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله وتزويجه بنتيه لابنيه في الخنا
علمنا بأن الخلق من أهل زنية وأن جميع الناس من عنصر الزنا

*

في اللاذقية فتنة ما بين أحمد والمسيح
قس يعالج دلبة والشيخ من حنق يصيح
كل يعزز دينه يا ليت شعري ما الصحيح ؟

*

الخير بين الناس رسم دائر والشر نجح والبرية معلم
طبع خلقت عليه ليس بزائل طول الحياة وآخر متعلم

*

إذا شئت يومًا وصلة بقرينة فخير نساء العالمين عقيمها

*

إن اليهودي خلى عن جهله امرأة كانت عقيمًا وخير النسوة العقم

*

والمرء فصل حسام والحياة له رسل وأصون للهندي لو غمدا

*

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسم الخبيث

*

ابن خلدون

مؤسس فلسفة التاريخ

ولد عبد الرحمن بن حسن بن خلدون ، قاضى القضاة ، الحضرمى الإشبيلى الأصل والتونسى المولد والمكنى بأبى زيد أو أبى مسلم والمشهور بابن خلدون ، المالكى المذهب ، والملقب بولى الدين والذى كان من أعظم مؤرخى العالم – فى عام ١٣٣٢م (رمضان ٧٣٢ هـ) فى مدينة تونس القديمة، وابن خلدون الذى يعد حقا فيلسوف المؤرخين ومونتسكيو العرب ينتسب إلى أسرة تونسية نبيلة قد هاجرت فى أواسط القرن السابع الهجرى إلى تونس .

وقد حصَّل ابن خلدون مبادئ العلوم على يد أبيه ولكنه تعرض فى السابعة عشرة من عمره إلى حادثة مفجعة فى حياته ؛ فَقَدْ فَقَدَ فى هذه السن أباه وأمه وكل أسرته نتيجة مرض الطاعون .

ولم يسلم ابن خلدون من هذا المرض الذى فجعه فى أسرته ويئس ابن خلدون نتيجة لهذا الأمر، حتى إنه قد نوى الهجرة من وطنه لكن حاكم تونس منعه عن الهجرة، وأسند إليه عملاً لديه .

وقد عمل ابن خلدون لدى السلطان أبى عنان المرينى فى فاس ، ولكنه بعد أربعة أعوام قضى عامين فى السجن هاجر إلى غرناطة وهناك عمل لدى السلطان الأندلسى أبى عبد الله الثالث ملك أسرة بنى الأحمر .

وبعد ثلاثة أعوام من الإقامة فى الأندلس ترك البلاد المذكورة ، بعد استئذان سلطانها ، واتجه عن طريق البحر إلى بجايه وهناك استقبله سلطانها استقبالاً حارا وأسند إليه أسمى منصب يمنح لشخص .

ولكن للأسف بعد عام واحد قتل السلطان المذكور فى ساحة القتال واضطر ابن خلدون إلى ترك بجايه والذهاب إلى بيسكرة ، وقد عاش ابن خلدون مدة ستة أعوام فى راحة واستقرار ، فأتاح له هذا الأمر أن يطلع على جوانب حياة سكان البدو فجمع تلك المادة العلمية اللازمة للتاريخ الذى سيكتبه فى المستقبل ، وبعد ستة أعوام من

الإقامة فى بيسكرة اتجه ابن خلدون ثانية إلى الأندلس وعمل فى غرناطة لدى سلطان الأندلس ، ولكنه نفى من جديد إلى المغرب نتيجة وشاية الحاسدين .

وقضى ابن خلدون حياته بعد نفيه من الأندلس ولمدة أربعة أعوام فى قلعة ابن سلامة التى كانت قد شيدت فوق قمة جبلية عالية ، تلك القمة التى كانت تطل على صحارٍ واسعة ، وشغل ابن خلدون بكتابة عمله العظيم لمدة ٤ أعوام ، أى تدوين كتابه المعروف (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر...) .

وفى الوقت الذى وصل فيه ابن خلدون إلى هذه القلعة كان عمره ٤٢ عامًا ، وكان قد تعرض خلال حياته الممتدة هذه لكثير من الأحداث والنوائب .

وخلال هذه الحياة السياسية لم يكف ابن خلدون عن المطالعة وتحصيل العلم ، ولكنه كان يحس أن السياسة كانت تحول دون تحصيل العلم ، فكان يأمل أن يبتعد تمامًا عن العمل بالسياسة ويتفرغ تمامًا لتحصيل العلم والاطلاع .

وكانت هذه القلعة النائية ذات قصر شيد داخلها أفضل مكان هيأ له العمل كما كان يرجو ، ولهذا السبب أقام ابن خلدون أربعة أعوام بها ، وخلال هذه الفترة شغل بالتأمل والتفكر والتأليف نظرًا للهدوء الذى وجده بها والنشاط الذى كان يشعر به . وبدأ خلال هذه الفترة من حياته تأليف التاريخ وكتابة مقدمته فى عالم الوحدة والعزلة فى هذه القلعة النائية المذكورة ، ويصف عند الحديث عن سيرته الذاتية أسلوب عمله فى عبارات قصيرة على هذا النحو :

(أقمت فى تلك القلعة بعيدًا عن كل المشاغل والأعمال، وفى أثناء الإقامة بدأت تأليف هذا الكتاب وأكملت مقدمته بهذا الأسلوب العجيب الذى ابتكرته فى عالم الوحدة)[١] .

ولكن ابن خلدون اضطر إلى أن يسافر إلى تونس للحصول على المصادر والمراجع اللازمة ، كما عمل بالتدريس فى الجامعة فى الوقت نفسه الذى كان مشغولاً فيه بالاطلاع والتدوين .

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون : ترجمة پروين جنابادى . (المؤلف)

وبعد فراغه من التأليف توجه ابن خلدون إلى مصر قاصداً الحج ولكنه صرف النظر عن الحج عندما أصر سلطان مصر آنذاك (الملك الظاهر برقوق) على دعوته للبقاء بمصر .

وعندما وجد ابن خلدون نفسه مستريحًا فى البقاء بمصر ، طلب استقدام أسرته إلى مصر ، وللأسف فقد غرقت السفينة التى كان يركبها جميع أفراد أسرته وغاصت فى أعماق البحر .

وذهب ابن خلدون عام ٨٠٠هـ. فى معية السلطان برقوق إلى دمشق وحظى بمقابلة تيمورلنك الذى كان قد استولى على أرض سوريا ، وذكر ابن خلدون تفاصيل لقائه مع تيمور فى مذكراته الخاصة . وتوفى ابن خلدون عام ٨٠٨هـ ، وكان آخر ذكرياته تلك المذكرات .

ويستنتج من الموضوعات السابقة أن عصر ابن خلدون هو عصر ملوك الطوائف بالنسبة لدول العالم الإسلامى ، عصر الانحطاط والتدهور ، وقد عاش ابن خلدون فى فترة تاريخية مضطربة وكانت سمات هذه الفترة هى النزاعات بين أمراء المسلمين ؛ فكان كل أمير يتنازع مع أمير آخر فى ذلك الوقت ، وكانوا يغيرون على أموال بعضهم بعضاً .

ونظراً لانتشار هذه الأوضاع السيئة فى جميع البلاد كالأندلس وشمال إفريقيا فقد اضطر ابن خلدون أن ينشغل بعالم السياسة على مثل الجامع الكبير وغرناطة وجامع القرويين بفاس وجامع الزيتونة بتونس والمدرسة العادلية بدمشق .

وقد كانت هذه الأوضاع عاملاً مساعداً على أن يدرس العلوم النقلية والعقلية (الرياضيات والمنطق والفلسفة) وأن يؤلف أعماله فى فروع العلوم المذكورة .

مؤسس فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع

ويكتب استفانو كولوزيو : لا يمكن لأحد أن ينكر أن ابن خلدون قد كشف عوالم مجهولة فى علم الأوضاع فسبق بهذا ميكافيللى ومونتسكيو فى تأسيس علم جديد ، وهو عبارة عن النقد التاريخى .

كما يحق أن يتفاخر بتأسيس نظرية (الجبر) فى علم الاجتماع والتى بحثها قبل الفلاسفة وعلماء علم النفس بقرون من الزمان ، وقد اكتشف هذا المؤرخ المغربى العظيم القواعد ونظريات العدل الاجتماعي والاقتصادى والسياسي قبل كونسيدران وماركس وباكونين بخمسة قرون تقريباً .

كما أن نظريات ابن خلدون فى علم الاجتماع تضعه فى مصاف رواد فلاسفة التاريخ، وتجعله أفكاره فى شأن دور العمل والملكية والأجور رائد علماء الاقتصاد فى هذا العصر(١) .

ويكتب كولوزيو : إن ابن خلدون أول كاتب بدأ البحث فى فلسفة التاريخ فى العالم .

ويكتب ناتانيل اشميت الأمريكي : لقد حظى فى مجال علم الاجتماع بمقام لم يحظ به حتى أوجوست كانت فى القرن التاسع عشر(٢) .

وغنى عن القول إن فلسفة التاريخ عند ابن خلدون قد أثرت فى كثير من المؤرخين الغربيين ، فمثلاً نرى أن إشبنجلر قد تأثر به فى كتابه " تاريخ زوال الغرب وتدهوره" وكذلك توينبى فى كتابه "مطالعة فى التاريخ"، وكان ابن خلدون بالنسبة لهما هو الملهم فى أفكارهما .

وتأثر أيضاً كل من ويكو وهيجل وشلينج بأفكار ابن خلدون بشكل مباشر أو غير مباشر .

وفيما يلى نورد نصا تتضح فيه وجوه الشبه الواضحة بين أفكار توينبى وفلسفة ابن خلدون :

(١) مقدمة ابن خلدون ، ترجمة برويين جنابادى نقلاً عن مقدمة المترجم ، وقد كشف ابن خلدون ميدان التاريخ الحقيقى وطبيعته وماهيته ، وهو فيلسوف مثل هربرت سبنسر وفلسفة تاريخه مثل فلسفة هيجل التحليلية وليست عن القضاء والقدر ، وكان هدفه من إيراد الآيات القرآنية ضمن أبحاثه أن يوضح للقارئ فلسفته التى تتفق مع نصوص القرآن . (المترجم)

(٢) المرجع السابق .

العصبية وعامل التكامل

يرى ابن خلدون أن أساس تنظيم الأسر يقوم على العصبية وأن انقراضها يكون نتيجة لضعف العصبية وزوالها .

والأسر الدينية وغير الدينية تبدو فى شكل طبقات ، ولكل أسرة عصبية ، وبهذا الشكل فإن القاعدة والنظرية التى كشفها - خاصة بالنسبة للأسر الحاكمة - تبين أن العمر الطبيعى للأسرة هو ١٢٠ عامًا ، وأن هذه الأسرة تمر بثلاث مراحل : المرحلة الأولى تمثل الأربعين عامًا الأولى وفيها تكون العصبية حية ، وفى المرحلة الثانية أى الأربعين عامًا الثانية تضعف هذه العصبية شيئًا فشيئًا ، حتى تزول فى المرحلة الثالثة وهى الأربعون عامًا الأخيرة منها ، ولتنتظر يدًا قوية لإحيائها من جديد، فى هذا الوقت يكون اسم الأسرة التى فقدت عصبيتها قد انمحى من الوجود .

ولا يقصد ابن خلدون بالعصبية الحكومة، لكن يعنى بها الرغبات المشتركة والفعالة لعدد من الأشخاص أو أسرة أو عقيدة ، تلك الرغبات التى تحث هذه الأسر على التضحية مثلاً .

ومنشأ العصبية هو إما القرابة الأسرية والعلاقات الأسرية أو العقائد المذهبية ، ولكن فى نظر ابن خلدون أن العصبية الأسرية أهم من العصبية الدينية فى تنظيم الأسر ؛ لأن الأسر الدينية والخلافات الأموية والعباسية لم تقم بدون العصبية الأسرية[١] .

أبو بكر بن باجّة

أبو بكر بن باجّة (بتشديد الجيم) أو ابن الصائغ ، الذى عرف فى أوروبا باسم Avempace وكان أحد أفضل الفلاسفة العرب فى الأندلس .

(١) تاريخ فلاسفة الإسلام : مرتضى مدرسى جهاردهى . (المؤلف)

وهو الفليسوف والطبيب والعالم فى الرياضة والموسيقى ، كتب ابن باجة شروحًا على فلسفة أرسطو ، كما ابتكر كتبًا رياضية ، ونشر أيضًا كتابًا تحت اسم "دليل الزاهد" .

وللأسف فإن أغلب كتب ابن باجة ناقصة وقد نشرت فقط الكتب الكاملة له ، واليوم لدينا من هذه الكتب ترجمات لاتينية وعبرية لأعماله ، وابن باجة هو أول شخص نشر الفلسفة بين العرب فى الأندلس ، وللأسف فإن تحرره الفكرى قد ساقه إلى تهمة الإلحاد والكفر ، ومات مسمومًا وهو فى عنفوان شبابه ، حيث توفى عام ١١٣٨م .

وفى شأن مقام ابن باجة وفضله وعلمه يضعه ابن أبى أصيبعة تاليًا للفارابى حتى إنه يعتبره أفضل من ابن سينا .

وابن باجة على عكس الفارابى الذى يقيم أساس فلسفته على أساس الوجد الصوفى، وكان يعتبر أن سبيل التحرر فى الإعراض عن حطام الدنيا وأن العشق - فى نظر الفارابى - أفضل وسيلة (للاتصال)[1] . يعتبر ابن باجة العقل الطريق الوحيد للوصول إلى الحق .

ابن طفيل

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل الأندلسى ، تلميذ ابن باجة . ولد ابن طفيل عام ١١٠٠ م بالقرب من غرناطة وتوفى فى مراكش عام ١١٨٥ م ، وكان فيلسوفًا أديبا وعالمًا فى الرياضة والطبيعة وشاعرًا .

والأثر المعروف له هو "حى بن يقظان" الذى يسعى ابن طفيل من خلاله أن يبين قصة سير الفكر الفلسفى الإنسانى ، وكان هدفه من كتابة هذا الكتاب هو أن يثبت أن كل من حظى بعقل وشعور كافيين يمكنه أن يدرك الحقائق الأزلية بدون مساعدة الكتب المقدسة وبدون أى إرشاد .

(١) الاتصال يعنى هنا : إدراك الذات الإلهية والاتصال بها . (المترجم)

خلاصة قصة حى بن يقظان

إن صبيا ولد فى جزيرة نائية بالقرب من خط الاستواء، وتقوم على رعايته ظبية أو غزالة، وعندما وصل سن البلوغ سيطر على فكره موضوع ؛ ألا وهو أن يتحرى الحقيقة ويكشف أسرار هذا العالم . وكان أول موضوع شد انتباهه هو أن جميع الحيوانات لديها غطاء طبيعى ومحمية فى حين أنه عار ولا شىء فوق جلده يحميه ، وأدرك شيئًا فشيئًا أنه بالاستعانة بالصوف يمكن أن يصنع لنفسه غطاء . كما اكتشف النار وأعد كوخًا ليسكن به، وفى تلك الأثناء توفيت الظبية التى كانت قد بلغها الهرم ، فخيمت عليه الحيرة ، فسعى لكى يبحث عن أسرار الموت وراح يحقق ويفتش عن كنه تلك الأسرار ، ولإدراك ذلك فقد شرَّح جسد الظبية وراح يبحث فى كل أحشائها وأعضائها ، وفى النهاية أدرك هذه النتيجة ، وهى : إن القلب هو العضو الأساسى فى البدن .

وحينئذ واصل بحثه فى المعادن والنباتات والحيوانات وراح يقلد أصوات الحيوانات ، وبعد ذلك جذبت المظاهر المختلفة للطبيعة انتباهه وراح يبحث عن الوحدة من خلال الكثرة وآمن بوحدانية الله[1] . وبعد ذلك راح يفكر فى باطنه ، وبمعنى آخر أخذ يفكر فى الروح وبقائها ، فوضع قانونًا للسلوك وامتنع عن صيد الحيوانات واستبدل بها أكل الأعشاب .

واستمرت لديه التحولات الروحية ، وشيئًا فشيئًا أدرك أن الاستدلالات المنطقية لن تصل به إلى شىء، وأن الدنيا وحطامها أساس عدم استقراره الفكرى ، وصرف النظر عن الحطام الدنيوى واتجه إلى التأملات العرفانية .

وفى جزيرة أخرى كانت مجاورة للجزيرة السابقة نفسها كان هناك رجل آخر فى تلك الجزيرة ويدعى أبسال وكان ملمًا بالعلوم الإنسانية ، وراح أبسال يعلم حى بن يقظان

(١) ويشرح ابن طفيل موضوع (الكثرة) : (... بأن الروح الموجودة فى كل فرد من الأفراد روح واحدة وسبب اختلافها أنها قسمت على قلوب متعددة ولو أمكن جمع هذه الأرواح المتفرقة فى قلوب عديدة وصبت فى إناء واحد فسوف يكون جميعها شيئًا واحدًا (روحًا واحدة) مثل الماء والشراب الواحد الذى صب فى أوانٍ كثيرة ، وهذا هو المقصود بالكثرة وهى كلها شىء واحد وأن الكثرة شىء عارض ومن بعض الجوانب فقط ...) . نقلاً عن زنده بيدا ، ترجمة فروز انفر . (المؤلف)

اللغة ، وبعد أن تعلم حى اللغة راح يتباحث مع أبسال ، وفى نهاية البحث يتضح أن الاثنين قد توصلا للحقيقة .

الخلاصة : إن الأول أدرك ذلك عن طريق الاطلاع فى (جامعة) الطبيعة والثانى عن طريق الإيمان الدينى والعقل الفلسفى . كما ظن القراء أن هدف ابن طفيل فى قصة "حى بن يقظان" هو الجمع بين الحكمة والشريعة .

وقد حاول ابن طفيل أن يصلح بين الفلسفة والدين .

وعلاوة على أن ابن طفيل كان رائد الجميع فى الحكمة والفنون فقد كان يجيد نظم الشعر ، كما كان كاتبًا ماهرًا ، وقد ذكر من أشعاره عدة فى كتاب "المعجب" وقصيدة فى "نفح الطيب" .

ويرى ابن طفيل – مثل شوبنهاور – أن الدين فلسفة العوام وأن الفلسفة هى دين الخواص ، وبمعنى آخر لا يرى فرقًا بين الدين والفلسفة، إلا أنه فى الحكمة تظهر الحقائق واضحة بينما فى الدين تتزين الحقيقة بثوب التشبيه والمجاز والمثال .

ابن عربى

ولد أبو بكر محيى الدين محمد بن على حاتم الطائى الأندلسى عام ٥٦٠ فى "مرسيه" بالأندلس ، وفى الثامنة من عمره ذهب مع أسرته إلى إشبيلية وهناك تعلم مبادئ العلم .

وفى عام ٥٩٠ سافر من إشبيلية إلى تونس ومن تونس إلى مكة وبغداد وآسيا الصغرى ، وتوفى عام ٦٣٨ بدمشق ، وما زال قبره موجوداً بالقرب من جبل قاسيون حتى الآن .

ألّف ابن عربى نحو ٢٠٠ مجلد أكثرها فى الشعر ، ولا تقوم على أسس علمية ، وأشهر أعماله : كتاب "الفتوحات المكية" ، وكتاب "فصوص الحكم" ، وكتاب "حلية الأبدال" ، و "محاضرات الأبرار" ، و "التدبيرات الإلهية" ، و "مفاتيح الغيب" ، و "التجليات" ، و "كتاب الخلوة" ، و "المدخل إلى معرفة الأسماء" ، و "كتاب النقباء" ، و "عقيدة أهل

السنة" ، و "كتاب المقنع من إيضاح السهل الممتنع" ، و "الهوية والأحدية" ، و "الاتحاد العشقى" ، و "كتـاب الجـلالة" ، و "الأزل" ، و "عنقـاء المغـرب" ، و "شمس المغرب" ، و "كتاب ختم الأولياء" ، و "كتاب الشواهد" ، و "مناصحة النفس" ، و "كتاب اليقين ومشكاة الأنوار" ، و "مجموع الرسائل الإلهية" .

وقد نظم ابن عرب أشعاراً صوفية ، وكان هو أساساً متصوفاً أكثر من كونه فيلسوفاً .

وكان ابن عربى يتبع فى الإلهيات مدرسة ظهيرى ، ولكنه من ناحية التصوف كان يعتبر نفسه تلميذاً للخضر ، بل زعم أنه التقى بجميع الأنبياء بشكل خيالى وأن لديه نوراً باطنيا ...

وتقوم نظرياته على قواعد التصوف المعروفة إلا أنه قد أسهب فى شرح هذه القواعد ، فمثلاً كتاب "فصوص الحكم" يشتمل على ٢٧ فصلاً ، وكل فصل سمى باسم نبى ، وهى فصول أشبه بفصول الهجويرى ومن عناوينها مثلاً عبادة الصيام ، وقد خصص فى كلٍّ جانباً لبحث العرفان، وهذا الأسلوب متصنع ومتكلف إلى حد ما ، وهو يشكل مشكلة بالنسبة للأفراد الذين ليس لديهم دراية بالموضوع .

وقد كرر كثيراً من أفكاره فى الكتاب المذكور وأسهب فيه إسهاباً، لهذا ليس غريباً أن يعد أسلوبه سطحيا ويفتقر إلى العمق(١) .

سمات الفلسفة الإسلامية

وكما يعلم القراء المحترمون أن الفلسفة الإسلامية قد عرفت فى العالم العربى بفلسفة العرب ، وهى فى الواقع خليط من فلسفة اليونان والحكمة الهندية والإيرانية والعربانية ، كما أن إطلاق اسم فلسفة العرب على هذه الفلسفة وحدها لكون بعض الأعمال قد كتبت باللغة العربية ليس صحيحاً ؛ أولاً : لأن كثيراً من الفلاسفة المسلمين العظام كانوا إيرانيين ، وثانياً : لأن بعضاً من أعمال الحكمة الإسلامية قد كتبت باللغة الفارسية .

(١) نقلاً عن التصوف ، ترجمة مؤلف هذا الكتاب وعباس شوشترى .

ومن سمات الفلسفة الإسلامية أن القاسم الأعظم منها كان عبارة عن تفسير فلسفة اليونان (خاصة فلسفة أرسطو وأفلاطون) ، كما تضمنت موضوعات من فلسفة الهند وإيران والتعاليم الإسلامية ، علاوة على أن الفلسفة الإسلامية كانت دائمًا خاضعة للتعاليم الدينية وهدفها إثبات وجود الله وإبراز الطريق المؤدى إليه . وقد سلك الفلاسفة المسلمون فى الفلسفة والإلهيات طرقًا مختلفة ، وهناك عدد منهم سعى أن يفسر التعاليم الدينية عن طريق التأويل العقلى والفلسفى ، ويمثل هؤلاء المتكلمون الذين انقسموا قسمين : معتزلة وأشاعرة ، فبينما المعتزلة تقدم العقل على الشرع تقدم الأشاعرة الشرع على العقل ، ويقول مثلاً الشهرستانى ؛ وهو من الأشاعرة : معرفة الله بالعقل تحصل بالشرع تجب . وهناك عدد آخر من الفلاسفة مزج بين التصوف والتعاليم الدينية والفلسفة واعتبر أن الحال سبيلاً للوصول إلى الله والحقيقة ، وقد استقى الصوفية تصوفهم من مشارب مختلفة فمثلاً ابن عربى يتبع مدرسة وحدة الوجود ، وقد اعتقد الحلاج بالحلول ، هكذا يقول :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

ومن السمات الأخرى للفلسفة الإسلامية اهتمامها الخاص بالعلوم الطبيعية (الكيمياء والطب وخاصة الطب) ويشكل الطب عنصراً مهما فى هذه الفلسفة إلى درجة أنه يبدو كأنه جزء لا ينفصل عنها ، ولهذا السبب فإن أعظم الفلاسفة المسلمين كانوا فلاسفة وأطباء ، وبهذا الشكل فقد اتبعوا الأقوال المعروفة (العلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان) .

ومن المميزات الأخرى للفلسفة الإسلامية الاهتمام الخاص الذى توليه بالإلهيات ، وتشكل الإلهيات فى الفلسفة الإسلامية أهمية كبرى بحيث أننا لو شبهناها بهرم لأصبح رأس الهرم الإلهيات وسفحه العلوم الطبيعية .

والفلسفة الإسلامية من حيث الإبداع والابتكار لا تشكل أهمية ؛ لأن هذه الفلسفة علاوة على تفقد القواعد الفلسفية المشابهة لقواعد فلسفة كانت وهيجل فهى أيضًا لا تشتمل على أية أفكار قيمة ، والسبب فى ذلك أنها تابعة لأرسطو وأفلاطون

وخدمة أفكارهما فى محاولة إرساء قواعد الإسلام ، وغير ذلك لا تشكل أهمية تذكر[1] .

وبناء على هذا فإن أهمية هذه الفلسفة لا تكمن فى ذاتها، بل فى كونها استطاعت أن تنقل لأوروبا مؤلفات أرسطو وأفلاطون عن طريق الترجمة العربية التى كان أغلبها للأسف خاطئًا ، كما مكنت الأوروبيين بعد الاطلاع على أعمال الفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد وفخر الرازى من الخروج من ظلمة القرون الوسطى إلى عالم العلم والتمدن .

الآخر للفلسفة الإسلامية فى أوروبا هو انتقال الصراع الفكرى بين العقل والإيمان الذى كان على أشده فى الفلسفة الإسلامية بين الغزالى وابن رشد ، فانقسم الفلاسفة فى عصر القرون الوسطى فى أوروبا إلى طائفتين : الأولى اتبعت الغزالى نصير الإيمان والإشراق ، والثانية اتبعت ابن رشد والعقل ، وقد اشتد هذا الصراع الجدلى الفكرى بحيث شكل فصلاً مهما فى تاريخ أوروبا الفكرى .

ومن المناسب أن نرى بعضًا من الكتب التى أثرت بشدة فى الغربيين ونذكر بعضا منها فى هذا المقام ، فمن أعمال الغزالى : تهافت الفلاسفة والمنقذ من الضلال ، ومن أعمال ابن سينا : القانون ، والفلسفة ، ومن أعمال ابن رشد : تهافت التهافت . كما أن تعاليم الفلاسفة الذين تزعموا المدرسة الأفلاطونية الجديدة قد لعبت دورًا مهما فى القرون الوسطى من حيث المذهب الفلسفى .

ومن الفلاسفة الأندلسيين العظام موسى بن ميمون ، الذى كان من أصل يهودى وقد أثرت مؤلفاته فى فيلسوف يهودى آخر هو اسبى نور كما اقتبس الفيلسوف اقتباسات مهمة منه . ومن الفلاسفة الأندلسيين الآخرين الذين أثروا فى فلسفة أوروبا هو سلمان بن (جبيرول)[2] الذى كانت فلسفته تقوم على أساس فلسفة أرسطو ،

(١) أنا لا أتفق مع رأى المؤلف فى أن الفلسفة الإسلامية كانت سلبية إلى هذا الحد وأنها لم تكن ذات إبداع ، ويكفى ما ذكره المؤلف نفسه من دور الترجمة الإسلامية والعربية للفلاسفة اليونانيين من أمثال أرسطو وأفلاطون وما قدمه الفلاسفة المسلمون من شروح على هذه الفلسفات ، فضلاً عن الإضافات الإيجابية للغزالى وابن رشد والفارابى وابن سينا وغيرهم، وهى خير دليل على ما أقول . (المترجم)

(٢) Avicebron .

كما تأثر بها الأفلاطونيون الجدد والفكر الإسلامى ، وكان أيضًا ينظم الشعر وقد اتسمت فلسفة هذا الفيلسوف الأخير بالتشاؤم ومن كتبه الأساسية (جشمه زندكى) أو "عين الحياة" أو ينبوع الحياة[١] .

خدمات المسلمين فى مجال العلوم

وإن كان المسلمون لم يلعبوا دوراً مهما فى الفلسفة وكان دورهم مثل النملة[٢] قاصراً على النقل والانتقال ، فقد قدموا لأوروبا خدمات جليلة فى مجال العلوم ، فمثلاً كان المسلمون أول من أجرى التجارب[٣] وأسس لأول مرة مستشفى بمعنى الكلمة بإسهام فخر الرازى فى بغداد وهو الذى أسس علم الكيمياء بمعناه المعروف اليوم وبلغ به المرحلة التى أدخلته كعلم من العلوم المعاصرة .

ونقل المسلمون كذلك علم الرياضيات – ذلك العلم الهندى العميق – إلى أوروبا ، وأسسوا كذلك علم الجبر الذى اشتهر فى الغرب بالاسم العربى نفسه (Algebra) هذا فضلاً عن إسهاماتهم فى علوم البحار والفلك والنجوم والعلوم الطبيعية والجغرافيا .

كما ألف ياقوت الحموى معجمًا جغرافيا تحت اسم "معجم البلدان" ولا يزال يعد من الأعمال العظيمة ، ولاشك فى أن كل ما سبق من إسهامات تعد أعمالاً مهمة للمسلمين .

كما أسهم المسلمون كذلك إسهامًا كبيراً فى مجال الفن والمعمار والهيئات الإدارية مما يخرج عن مضمون بحثنا .

(١) للمزيد من المعرفة حول الفلسفة الإسلامية على القراء الاطلاع على فلسفة أرسطو وأفلاطون من خلال كتاب : (سيرحكمت در اوروبا) أو مسيرة الفلسفة فى أوروبا وهو من تأليف فروغى (ومكتب هاى فلسفى) أو المدارس الفلسفية ، الذى نشره الناشر : كانون معرفه .

(٢) سبق الرد على المؤلف فى هذه النقطة وأبرزت دور المسلمين فى هذا الشأن فى موضع سابق من هذا الكتاب .

(٣) لم نبالغ إذا قلنا أن (روجر بيكون) كان أول العلماء الأوروبيين الذين تأثروا بالأسلوب التجريبى للمسلمين وتأثر بكتاباتهم بل قلدهم ، والشىء الجدير بالذكر أن روجر بيكون كان يجيد اللغة العربية . (المؤلف)

القسم الثامن

التصوف

يمكن القول إن التصوف خليط عجيب من المدارس الفسفية المختلفة ؛ ويشاهد به مذاهب البرهمنية والبوذية والرواقية والنسطورية ومذهب المسلمين الزهاد والأفلاطونيين الجدد ، هذا فضلاً عن موضوعات من مذهب زرادشت .

وقد فسروا التصوف تفسيرات مختلفة فاعتبرت جماعة أن التصوف مشتق من الصوف ، وعدت جماعة ثانية التصوف مأخوذًا من بنى صوفة ، الذين كانوا عاملين على الكعبة ، ورأت جماعة ثالثة أن التصوف خليط من (Bhesovebug) أى الحكمة الإلهية و (yheosophy) أى محبة الحكمة .

وقد ظهر التصوف منذ القرن التاسع الميلادى[1] فصاعداً ، وفى القرن الثالث الهجرى سمى بعض الأفراد بالصوفية الذين قاوموا الشر عن طريق المعارضة السلبية. وفى هذا القرن تشكلت زوايا صوفية عديدة ، وانتشرت الخانقاهات، ولما كان التصوف يمدح الفقر والزهد فى العمل (هذا هو التصوف السلبى) فقد كان الرأسماليون يساعدون الخانقاهات بالمال اللازم حتى يمارسوا أنشطتهم أكثر من ذى قبل .

وفى القرن الخامس الهجرى انتشر التصوف انتشاراً واسعًا وظهر آنذاك الصوفية الكبار ، فكان ذلك باعثًا على انتشاره بين صفوف العوام .

انتشر التصوف منذ القرن السابع الهجرى حتى القرن التاسع انتشاراً واسعًا بسبب حملة جنكيز خان وتيمورلنك ، وأصبح التصوف مصدر عزاء طبقات المجتمع المختلفة ، الذين ضاعت حقوقهم تحت سنابك خيول الغزاة .

ومع ظهور نادر شاه انحسر التصوف كثيراً ، ولكنه ازدهر ثانية فى العصر القاجارى بمساعدة محمد على الباب الذى كان يشجعه الروس ، وبعد ذلك ظهر فى حركة أخرى ألا وهى الحركة البهائية[2] ، ولكى يحافظ الإنجليز على مصالحهم

(١) ذكر المؤلف خطأ أن التصوف ظهر منذ القرن التاسع الهجرى وهذا ليس صحيحاً ، بل منذ القرن التاسع الميلادى والثالث الهجرى . (المترجم)

(٢) لم تكن الحركة البهائية حركة صوفية كما زعم المؤلف بل إنها حركة دموية قامت على سفك الدماء وكان لها آثار سيئة على المجتمع الإيرانى فى هذه الفترة . (المترجم)

الاستعمارية ساندوا الحركة البهائية التى كانت تتجه إلى المعارضة السلبية وتؤيد الاستسلام فى مواجهة القوة .

ماذا يقول التصوف ؟

إن أساس فكر الصوفية ليس فقط أن الوجود هو الله ، بل إن الجمال والبهاء ومظاهر الحسن والجمال المتجلى فى آلاف المرايا فى العالم مصدره الله ، ومن كلمات الصوفية : (كان الله ولم يكن معه شىء) وأحياناً يقال (والآن كما كان) . الخلاصة : إن الله هو الوجود المحض وما سوى الله جانب من وجوده ، والله هو الجمال المطلق ، ومن هنا مدح الصوفية كثيراً فى أشعارهم معشوقهم ومحبوبهم الأزلى والسرمدى ويقول مثلاً جامى فى هذه الأشعار :

– جمال باد فى كل مكان وإن كان خافياً عن معشوقى العالم .

– وترى حجابه وراء كل حجاب وعبادته كامنة فى كل قلب

وعشقه حياة القلوب وعشقه فلاح للأرواح .

– إن القلب الذى يعشق الحسان ودود ولو علم به لأصبح عاشقا .

– حتى لا تجاوز الحقيقة لا تتحدث فإن العشق منا والحسن منه .

– أنت مرآة وهو المزين لها ، أنت خفى وهو واضح .

– لو نظرت جيداً ستعلم أنه مرآة أيضاً ... وليس فقط كنزاً بل كنوزاً .

– لا شأن لى ولك وما ظننا إلا عبثا .

وبناء على هذا فإن مفهوم التوحيد من وجهة نظر الصوفية يختلف عنه لدى المسلمين ، فيقول المسلمون : (لا يوجد إلا الله) ويقول الصوفية : (لا يوجد أى شىء قط سوى الله)

وإن عالم الصور والمحسوسات ليس أكثر من سراب فإذا سقط شعاع من وجوده على عدم خلق منه وجوداً ..[1] .

ووفقًا لتعاليم التصوف فإن عالم المحسوسات مجرد خيال ، ولو أن الإنسان يغض البصر عن الأشياء المحسوسة فسوف يحظى بمشاهدة الوجود المطلق ، وبالنسبة للصوفية يمكن للعقل أن يدرك بمساعدة قوة المكاشفة الكلية التى هى أسمى من قوة الاستدلال والعقل ، ولما كان عالم الباطن فى نظرهم هو العالم الحقيقى ، فهم ينظرون إلى العالم بعين الاحتقار ، ويقول صدر الدين الشيرازى فى هذا :

(كل ما فى الكون وهم وخيال ... أو عكوس فى المرايا أو ظلال) .

ويقول الشبستري :

(ليس للعالم من وجود سوى المجاز ... وكل أمره لهو ولعب) .

ويوجد بالنسبة للصوفية عالمان : العالم المحسوس (The Senre World) وعالم الحقيقة (The Real World) .

وكل من وجد السبيل إلى عالم الغيب والحقيقة ، يدرك أن العالم الدنيوى ليس أكثر من مجرد خدعة ، وأن الشيء الحقيقى هو القوة التى تظهر فى كل شيء ، وقد عبر الصوفية عن هذا فى صور عديدة ، يقول جلال الدين البلخى :

- لقد توحدت وبعدت عن الثنائية فرأيت .. العالمين عالمًا واحداً فى بحى وفى قولى وفى عملى وفى قراءتى .

- وهو الأول وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن .. وسواه لا أعلم شيئا .

ويقول آخر :

- إنه نقطة وجرت .. فاعتبرتها أنت نهراً جاريا .

ويقول آخر :

- إن الواحد يصبح كثيراً بالتكرار ومن يقول هذا الحديث رجل خبير .

(١) تاريخ الأدب الإيرانى : تأليف بروان ، ترجمة على باشا صالح . (المؤلف)

ويعتقد الصوفية أن من أدرك أنه كل شيء موجود وليس هناك شيء سواه لا يتعصب ويستوى لديه الكفر واليقين .

– لو كان جوهر العشق يقينًا لك ... فدعك من الكفر والإيمان والدين

وحينما تصبح جديراً بالعشق ... تصبح عاشقًا صادقًا لعشق الحق) . **(العطار)**

وعلى الرغم من أن الصوفية يعشقون جمال الحق فإنهم لا ينصرفون عن جمال الدنيا ، وينصحون مريديهم :

لما أن المجاز قنطرة الحقيقة فيمكن الوصول للحقيقة من خلال هذا الجسر .

... ويقسم بروان الصوفية ثلاث طوائف :

١ – الأشخاص الذين يعتبرون كل المذاهب والطرق الفلسفية والعلوم حقيقة واحدة .

٢ – أهل الكشف والشهود .

٣ – أهل الكرامات وخوارق العادات .

ويذكر بروان فى شأن التصوف ثلاث فرضيات ، وهى عبارة عن :

١ – فرضية باطنية الإسلام ، وشعارهم هذا القول المعروف :

(كنتُ كنزاً مخفيا فأحببت أن أُعرف فخلقت الكون لكى أُعرف) .

٢ – فرضية رد فعل الجنس الآرى :

ووفقًا لهذه الفرضية فإن التصوف كان رد فعل الذى أبداه الإيرانى الآرى أمام الجنس السامى الذى فرض عليه بقوة السيف دينه[1] .

٣ – فرضية أن أساس التصوف طريقة للأفلاطونيين الجدد .

(١) لقد اعتبر أبو نصر السراج المقامات سبعًا وهى : التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا ، أما الأحوال فذكر أنها عشر وهى : المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والاطمئنان والمشاهدة واليقين . (المترجم)

المقامات الصوفية

إن الوجد هو منتهى آمال الرجل الصوفى وهو أمر داخلى وعاطفى ، ويجب على الصوفى أن يقطع عدة مراحل للحصول عليه وهو ما يسمى فى مصطلح العارفين (الأحوال) و (المقامات) ، وإن السير فى هذه المقامات يستلزم من الشخص مجاهدات وتضحيات .

ومن بين هذه التضحيات أن يغض الصوفى بصره عن الحطام الدنيوى ويرضى بالتوكل والتسليم والرضا ، كما كتب سعدى فى شأن أخلاق الدراويش :

(إن ظاهر الدرويش ثوب خرقة وشعر حليق وحقيقة قلب حى ونفس متينة ، وطريق الدراويش ذكر وشكر وخدمة وطاعة وإيثار وقناعة وتوحيد وتوكل وتسليم وتحمل ، وكل من اتصف بهذه الصفات التى بيناها يتصف بحقيقة الدرويش وإلا فلا) .

الرمزية الصوفية

وقد بين الصوفية مقاصدهم بشكل إجمالى بلغة الإيماء والإشارة ، فمثلاً لا يستخدم هؤلاء معان عادية فى شأن (الشراب والضفيرة والوجه والحال) وغير ذلك من المعانى .

ويقول الصوفية فى هذا الشأن :

(ليس شراب العشق خمر بنت الكرم ، ولا تشرب عن طريق الخلق

وليس كأسها كأساً ولا قدحها قدحاً ولا دنها دنا

إن العارف لا يعتبر الضفيرة ضفيرة ولا يعنى شعر المرأة المعروف

ولا يعرف مصطلح العارفين سوى العارف) .

التصوف وسيلة لتهذيب النفس

ويعرف أبو محمد الجريرى التصوف بقوله : إن التصوف هو الدخول فى كل خلق سَنىٍّ والخروج من كل دنىٍّ . ويعتبر الصوفية أنفسهم حلقة الاتصال بين البشر وبلاط الحقيقة ، ويزعمون أنهم يمرون بمقامات معنوية وقد وفقوا فى تهذيب النفس وطهارة القلب ونورانية الباطن .

ويقول الصوفية إنهم معنيون بالحال وليس بالقيل والقال ؛ لذلك فإنهم لا يهتمون بالعلم والأدب ، ويرون الطهارة فى التحرر الذى يجدونه فى العزلة فيجلسون فى صمت ويكتفون بمشاهدة أحداث الحياة من بعيد ، ويكرهون الرياء ويعتبرون أن أى عمل سيئ أفضل من الرياء كما يقول حافظ فى هذا المضمار :

(يا حافظ اشرب الخمر وعربد واسعد ... ولكن لا تقع فى فخ الرياء مثل الآخرين الذين يراءون بقراءة القرآن) .

ويقول حافظ أيضًا فى هذا المعنى نفسه :

(لدى مشكلة .. اسأل عالم المجلس .. لماذا أنت أقل توبة من التائبين ؟)

ويعتبر الصوفيةُ الدنيا وطنهم ويعارضون أى نوع من التعصب الجاف الظاهرى؛ ولهذا السبب لا يرون فرقًا بين جميع الأديان فلا يرون مثلاً فرقًا بين المسجد والدير والمعبد :

(المسجد والدير والمعبد كلها بيوته .. وحيثما تسمع خطبة فى مكان تجده) .

تصوف الغزالى ومولوى

وكان الغزالى يسعى إلى أن يبين أن التصوف كامن فى الإسلام والمثالية، فيقضى بذلك على الجماعات المتعصبة والثورية ، وقد كانت طريقة التصوف بالنسبة لمولوى طريقة خاصة ، كما أن مسلكه لا يشبه مسلك العارفين والصوفية المعروفين ؛ فقد مزج

فى طريقته بين فلسفات الهند واليونان ولا يجد مبرراً أن يرسى التصوف على قواعد دين الإسلام ، فى حين نرى أن الغزالى يعتقد أن التصوف لا يقوم على القرآن وحديث الرسول وليس له أساس أو قاعدة .

وكان تصوف الغزالى مصحوباً بالتقشف وليس العشق، ولكن تصوف مولوى يقوم على أساس العشق ، وقد اقتبس كثيراً منه من المسيحية .

التصوف ووحدة الوجود

ويقال إن غرض منصور الحلاج بمقولته الشهيرة (أنا الحق) لم يكن يدعى الألوهية بقدر ما يريد أن يثبت وجود الله فى كل شىء موجود .

ولاشك فى أن جميع الصوفية كانوا أصحاب وحدة وجود ، يقول يزيد البسطامى : كان الله تعالى مرآتى لمدة ٣٠ عاماً والآن أنا مرآته ، وأنا أقول إننى الآن مرآته لأن الله يتحدث بواسطة لسانى .

ويقول آخر :

(رأيت كثيراً بنفسى ولم أر غير الحبيب .. واخترت بنفسى مظهر العشق) .

منطق الطير

هكذا شرح فى منطق الطير الصعوبات التى توجد فى سبيل نيل الحياة الروحية والمعنوية ، هكذا يشرح فريد الدين العطار الكتاب "منطق الطير" بهذا الشكل : يحكى أن جميع الطيور قد تجمعت فى مكان لكى يولوا عليهم سلطاناً ، ويؤمر الهدهد بتنفيذ هذه المراسم ، وتبدأ الطيور رحلة البحث عن اختيار الملك أو السلطان ، ويوضح الهدهد أو رئيس الجلسة أن الملك العظيم قد انتخب من أجل الطيور قبل ذلك وأن اسمه السيمرغ ، وهو يعيش فى جبل قاف الذى شكل العالم ، ويضيف أنه للوصول إلى حضرته يجب على الطيور أن تعبر سبعة أودية (أودية التصوف) يصعب عبورها .

وبعد مباحثة طويلة في شأن الاستفادة وتنفيذ مثل هذا الأمر الصعب ، يأتي القرار في النهاية بالاستسلام للسيد في هذا السفر الصعب .

ونتيجة لدخول أول وادٍ للبحث الذي يجب على الشخص فيه أن يسعى لكي يبحث عن الطريق الصحيح ، ولتحقيق مثل هذا الهدف يجب على الشخص أن يسلك طريق الاستقامة ، ولم يطق كثير من الطيور مشاق هذا الطريق ؛ فصرفت النظر عن مواصلة رحلة السفر ، ولكن عدداً آخر منها تمكن من مواصلة السفر ودخل الوادي الثاني ؛ أي وادي العشق .

وتكتشف الطيور أن هذا الوادي أصعب من الوادي الأول ويجب عليها أيضًا أن تتحمل جميع المصائب والظلم والجفاء في سبيل المعشوق ، ولا يمكن للعقل الإنساني أن يساعد صاحبه في هذا الطريق ؛ لأن العشق لا يعبأ بالعقل وحيثما يكون العشق نجد العقل كالأبكم ، ولم يستطع كثير من الطيور أن تواصل هذه الرحلة ولهذا فقد استسلم بعضها ، ولكن الأشخاص الذين كانوا عشاقًا حقيقيين تغلبت عليهم ثمالة العشق ، ونتيجة لهذا فإنهم يدخلون مرحلة العلم .

وهو العلم الذي لا يستطيع أحد أن يحصله عن طريق الاستدلال العقلي والتجربة ، بل يجب أن يكون صاحبه ذا موهبة حتى يلهمه الله ، وهذا العلم لا بداية له ولا نهاية ، ويضيء الله قلب الإنسان وفقًا لسعته، وقلوب الأشخاص الذين استضاءت بهذا النور ترى مظاهر الجمال الأعلى في كل ذرة تراها ، ولا تتحمل كثير من الطيور قوة هذا النور ، ولكن تلك التي تحملت هذا النور تدخل المرحلة الرابعة. وهذه المرحلة عبارة عن الإعراض أي مرحلة الوحدة ، وفي هذه المرحلة ترى الكثرة كامنة في الوحدة وتزول فروق الكم والكيف ، أو الفرق بين الأبيض والأسود، الوضيع والسامي، فمثلاً العسل له أشكال عديدة ولكن بمجرد أن يمزج .

وبعد العبور من هذا الوادي يصل بعض هذه الطيور إلى المرحلة السادسة أي مرحلة الحيرة وفيها تزول الفروق بيني وبينك . لدرجة أن هذه الطيور تنسى من هي ومن منها العاشق ولماذا هي عاشقة ، وقد وصل الأمر أنها لا تتذكر أي دين أو مذهب تعتنق ، فقلوبها عامرة ، وفي الوقت نفسه خالية من أية شائبة .

وبعد عبور هذه المرحلة العجيبة والمضطربة يصل عدد من الطيور إلى المرحلة السابعة وهى مرحلة الفناء . وفيها تجهل النفس نفسها وتصبح الطيور فى حالة من البكم والصمم فتقطع علاقتها بكل شىء إلا المعشوق . بمعنى أنه يستوى وجودها مع عدمها ؛ لأنها تحررت من الشوائب المادية وزال منها الجانب الذى لا يفنى من وجودها وبقى الجانب الخالد منها ، واستقرت الطيور أمام النور العظيم لشمس الخلود .

ومن بين مئات الألوف من الطيور بقى منها فقط ثلاثون طائراً كان لها الامتياز دون غيرها فى المثول أمام ملك العالم ، وبعد كل هذا البحث تدرك الطيور الثلاثون أن الملك الذى كانت تبحث عنه ليس إلا هى (الطيور) وبهذا الشكل تدرك أن السيمرغ[1] هو الطيور الثلاثون نفسها وأنها تحولت إلى طائر السيمرغ ، وعندما تنظر إلى ذاتها تدرك أنها ليست ثلاثين طائراً بل إنها واحد ، فى هذا الوقت تسمع هذه الجمل : (أنا المرآة ... وكل شخص ينظر فىَّ يرى نفسه .. حتى إن الأعمال الطيبة تتم وفقًا لمشيئتى .. وأنت ترى نفسك مثل السيمرغ ولكننى أنا جوهر الطيور الثلاثين ، فلو أنك فنيت فىَّ فسوف تحظى بالخلود ، فإن الظل يختفى فى نور الشموس) .

وبهذا الشكل تعثر تلك الطيور على نفسها وعلى السيمرغ ، وبهذا الشكل أيضًا يحل لغز الوجود وتحل المسألة التى تؤرقنى وتؤرقك[2] .

الأهداف العملية للتصوف

والغرض الأساسى للتصوف هو قمع الغرائز وإعداد الناس لتحمل الفقر والحاجة ، كما يذكر زين العابدين مؤتمن فى كتاب الشعر والأدب الفارسيين :

يجب على الصوفى أن يتقبل مشكلات العصر ومساوئه ، وأن يصبر على سوء الخلق ويتحمله . وعلى حد قول سعدى (خرقة الدراويش ثوب الرضا وكل من يضيق بهذا

(١) السيمرغ: طائر خرافى وهذا الاسم مكون من سى أى العدد (٣٠) ومرغ أى طائر، بمعنى: الطيور الثلاثون أو ثلاثون طائراً . (المترجم)

(٢) نقلاً عن (outlines of islamic cultore) .

الثوب فهو مدعٍ والخرقة عليه حرام) ، وألا يتألم للفقر والعوز ، وأن يخرج من قلبه حب المال وحطام الدنيا ، والفقر للصوفي أثمن زينة، والغنى ونعمة الدنيا حجاب أمام طريق السالك ، ويجب على الصوفي أن يفكر في الآخرة وأن هذه الدنيا بطولها وعرضها ليست إلا منزلاً مؤقتًا ، ومثل هذه المنازل المؤقتة بين الطرق لم تشيد للإقامة الدائمة ، كما أن الزخارف الدنيوية وأنواع الجمال والنعم الظاهرية كلها مجرد بريق أو سراب ، ويجب أن نعبر من عالم الظاهر وندخل عالم الباطن . والاستثناء والنظرة العميقة هما حياة الصوفي .

وإن ما يراه المرء أمامه مثل الشمس والقمر هو بمثابة تفاحة ألقاها طفل في الهواء ، إن الصوفي يخجل من فقره مع أنه باستغنائه يحثو التراب في وجه الحاجة ، وإن هذا الاستغناء يجعله ملكًا ، في غنى عن كل ما في هذا الكون .

(إن الفقر يقلل من قيمة سلطنة العالم.. والملك ذو الهوى لا يكون ابنًا لأدهم)[1].

كما أن الصوفي ليس مثل المحب لذاته الذي يتصارع مع هذا وذاك ، وليس مثل الغازي، والأخذ بالشريعة الذي يعتبر الجهاد مع الكفار ثوابًا عظيمًا ، والصوفي عدو لنفسه قبل أن يكون خصمًا للآخرين ، والجهاد الأعظم في نظر الصوفي جهاد النفس المبردة ، التي إن سالمتها زادت عداوة لك ، والنفس مثل الأفعى الملتوية التي تناصر في النفس الأهواء ضد صاحبها ويجب التغلب عليها . وبعد كل هذا فإن الصوفي في حاجة إلى معلم ومرب ، كما أن طي هذه الطرق وقطع هذه المراحل الخطيرة والوعرة أمر لا يمكن أن يتحقق دون مساعدة الخبراء وشيوخ الطريقة العارفين بالمنازل ، وكما أن الإسكندر لم يستطع أن يغزو البلاد بدون دليل فإن الصوفي لابد من أن يعرض مشكلاته على مرشد يقظ القلب يحل له الألغاز ، ويجب عليه أن يعلم أنه لا يستطيع وحده أن يصل إلى منزل العنقاء أو أن يقطع هذه المرحلة بدون إرشاد طائر سليمان (الهدهد) .

(١) إشارة إلى إبراهيم أدهم ، الذي كان على حد تعبير الجنيد مفتاح العلوم ، وكان نموذجًا أعلى في الفقر والورع ، على الرغم من أنه كان أرستقراطيًا - ديوان حلاج ، كذرى بر انديشه وتعبيرات عرفانى ، ماسينيوس، ترجمة قاسم مير أخورى وحيدر شجاعى . (المترجم)

ويكتب سعيد نفيس فى مقالة له عن (تصوف إيران من وجهة النظر الفلسفية) :

إن تصوف إيران يذكرنا بفترة العصر الساسانى والتى عانى فيها الإيرانيون من الامتيازات الطبقية للساسانيين ، وكانت تعاليم مانى مقدمة للقضاء على هذه الامتيازات فى العصر الساسانى ، لأنه فى هذه الفترة وضع مانى تعاليمه التى هى أسمى الأخلاق والفضائل المعنوية والرياضات المعنوية والرياضات والمجاهدات وأنه يمكن لأى شخص أن يرتقى أسمى درجات الفضيلة ، مهما كان منغمسًا فى أسوأ الرذائل ، مثل الجندى الذى يمكنه أن يرتقى أعلى المناصب العسكرية .

وبعد ذلك يكتب سعيد نفيس: إن نظام خلافة انتخاب الخلفاء الراشدين الذى انتهى بالحكم المورث لبنى أمية كان باعثًا على أن الإيرانيين قضوا على الامتيازات العرقية والطبقية وحتى الدينية عن طريق التصوف .

وعندما ننظر إلى تصوف إيران نجده كان دائمًا تصوف طريقة وليس شريعة ؛ أى أنه كان دائمًا نوعًا من المذهب الفلسفى أكثر من كونه دينًا أو مذهبًا بالشكل الذى تحدثنا عنه .

الألفاظ والمصطلحات الصوفية

لا يوجد فى أى مذهب أو مدرسة كم بين المصطلحات والتفاسير المتعددة كما يوجد فى مدرسة التصوف ، وعندما نعقد المقارنة بين الخمريات والأشعار العرفانية وبين الأشعار الغزلية والخمرية للشعراء غير الصوفيين ، يتضح هذا الفارق الكبير فى سعة الألفاظ والمصطلحات وضوحًا جليا .

وفى خمريات القدماء لا يوجد سوى قدر قليل من الألفاظ الخاصة بهذا الأمر ، مثل الكأس والنبيذ والخمر وما إلى ذلك ، ولكن فى الخمريات الصوفية اللاحقة نجد أسلوبًا وألفاظًا يختلفان اختلافًا كليا عما هو موجود لدى السابقين ، وسيقابلنا مئات من الكلمات والمصطلحات المختلفة، مثل : الحانة والصومعة والدير وحانات الزرادشتيين والمصطبة والزرادشتى والطفل الزرادشتى وكبير الحانات والشيخ بائع الخمر والساقى ،

والقدح ، والصهباء والصراح ، والدن والمحتسب والعربية والثمالة وحى بائعى الخمور وبلاط كبير الزرادشتيين وخمر (اكست) ، وثمل حتى النخاع ، والثمل ، و (حريق الليل) وبنت الكرم ، والكأس المفعم ، وبيت الخمار ، والخرقة الملوثة ، وغمزة الساقى ، وبكاء الصراح وكأس جمشيد والكأس الفخارى وشفة الكأس الضاحكة ، وقلب الكأس الدامى والثمالة وعدم الاكتراث ... وما إلى ذلك ، وكل لفظ من الألفاظ السابقة زاخر بالعديد من المفاهيم الغامضة والتفسيرات المختلفة[1] .

الصوفية الكبار

ونختم هذا الفصل بأفكار عارفين من العارفين الكبار وهما كما يلى :

السهروردى

(كان الأشراف (الصوفية) زجاجات مختلفة .. فسقط بها شعاع شمس الوجود

وكل زجاجة كانت حمراء أو صفراء أو زرقاء .. ظهرت الشمس فيها كما كانت)

(جامى)

كان البهلويون جماعة من الحكماء الإيرانيين القدامى ، الذين اعتبروا أن الوجود حقيقة ونو درجات مثل النور الذى يشمل شعاعه العالم ، وذلك النور الوحيد الذى يصل إلى شرنقة دودة القز فيمنحها الحياة، ولا يمكن القول إن مثل هذا النور بالنسبة لدودة القز مع ضعفه يمكن أن نقارن بينه وبين نور الشمس ، إذن هو ليس نوراً ، بل إنه فى الحقيقة إضاءة للشمس ولكن هناك فرقًا كبيراً بين ذلك النور وهذا النور الربانى[2] .

ويعد شهاب الدين يحيى السهروردى أحد العارفين الإيرانيين العظام ، وقد أسس مدرسة خاصة فى العرفان ، وكان من البهلويين ، وتعرف تعاليمه بحكمة الإشراق ،

(١) نقلاً عن شعر وأدب فارس ، تأليف : زين العابدين مؤتمن . (المؤلف)

(٢) نقلاً عن أفكار السهروردى وملا صدرا ، تأليف (اكبر دانا سرست) . (المؤلف)

وسبب إطلاق هذه الكلمة على فلسفته أنه يعتقد أن الخليقة قد تمت عن طريق الإشراق وليس عن طريق الخلق والإيجاد ، وبمعنى آخر فإن مذهبه يشبه مذهب برجسن ويمكن القول إن فلسفة برجسن هى تفكير للسهروردى فى بعض جوانبها .

ومن وجهة نظر شيخ الإشراق فإن العوالم أربعة أقسام : الأول عالم الأنوار القاهرة ، والثانى عالم الأنوار المدبرة ، والثالث عالم البرزخ ، والرابع عالم الأشباح والصور المعلقة ، والنور أيضًا نوعان : نور عارض ، ونور مجرد . ويقول شيخ المعلقة شيخ الإشراق فى هذا الصدد :

(الشىء ينقسم إلى نور وضوء فى حقيقة نفسه ، وإلى ما ليس بنور وضوء فى حقيقة نفسه ، والنور ينقسم إلى ما هو هيئة لغيره وهو النور العارض ، وإلى نور ليس هيئة لغيره وهو النور المجرد والنور المحض) .

ومن وجهة نظر شيخ الإشراق أن ما هو غير النور يسمى الجوهر الغامق أو المظلم حتى وإن كان لغيره بدا شكلاً أو هيكلاً ويسمى بالهيئة المظلمة .

ويكتب هنرى كوربين الفرنسى الذى قضى عمره فى مجال البحث فى تعاليم شيخ الإشراق : إن أفكار السهروردى قد قامت على مذهب إيران القديمة .

وهناك ارتباط أو صلة بين حكمة الإشراق والزرادشتية أو عقيدة نور الأنوار التى تسمى فى كتاب (الأفستا) بـ (انكرهه روشيو) .

وفى نظر السهروردى أن نور الأنوار هو الضوء الذى ليس له بداية أو نهاية كما جاء فى كتاب الأفستا[1] .

وتعتبر حكمة الإشراق – مثل الزرادشتية – أن الظلمة عدم والنور وجود ، كما أن الظلمة تفقد أى وجود حقيقى أمام نور الأنوار وفى النهاية تنمحى تمامًا .

ومن وجهة نظر شيخ الإشراق فإن الحقيقة وذات الله عبارة عن نور محض وخالص ، وهذا النور بلا حدود ويبلغ ما وراء الأفلاك ويسمى نور الأنوار ، ولكن ليس

(١) وقد ورد فى الفصل ٨ من الفقرة ٣ نقلاً عن زرادشت أنه قال : نحن نثنى على نور لا نهاية له للخالق .

بشكل مباشر ولكن عن طريق فلك سابق والفلك الأخير هو فلك يرتبط بالأرض الترابية ، والفلك التاسع فى الشفافية أنقى من الأفلاك الأخرى وأقرب إلى الله وهو خالٍ من النجوم والكواكب ؛ ولهذا يسمى بفلك أطلس وهو فلك غير مكوكب ، وهذا الفلك لا يظهر بسبب إشراق نور الأنوار واستقر العقل الأول بينه وبين الله المذكور ، وهذا العقل فى الحقيقة شعاع من نور الأنوار .

وهذا النور عقل محض ، ومن وجهة نظر السهروردى أن كل فلك يكون بعيداً عن نور الأنوار ؛ أى مبدؤه ، يكون أكثر إظلامًا ، ومن وجهة نظر السهروردى أن كل شخص يرغب فى النور فإنه يرغب فى الله ، وأن الذهاب إلى النور باعث على زيادة الحكمة وتقوى الإنسان، وعلى النقيض فإن كل شخص يكره النور فإنه لا يجب مما يجعل هذا الأمر الإنسان دومًا فى فساد وتعاسة .

ولا وجود للعلة والمعلول ، فالله ملك كل العلوم : المادى والمعنوى ، ولا شريك له ولا نظير . وكما أن لكل فرد حياة خاصة ومستقبلة ولا يشبه أحد الآخر فإن الإنسان فى الأصل نور ، وحيث أنه نور فيجب عليه أن يسعى لكى يعود إلى أصله .

ويرى السهروردى أن للإنسان خمس خواص خارجية وخمس أخرى داخلية وقوة جذب وهضم وإنتاج . والخصائص الروحية التى تظهر فى روحه الحيوانية عبارة عن : طلب الجاه والدفاع عن النفس والغضب ، وحينما يكون هناك انسجام بين هذ الصفات يظهر على الإنسان سلوك طاهر وتظهر أيضًا العفة والشجاعة ، وحينما يضطرب هذا الانسجام يحرم الإنسان من نعمة السعادة .

ويرى السهروردى – مثل أفلاطون – أن الدنيا مثل وصور ، وهو يتبع بذلك زرادشت الذى يرى أن العالم صور وأخذ المثل من أفلاطون . فهو يقول إن أساس الماء (خرداد)[1] وأساس النبات (أمرداد)[2] وأساس النار (أرديبهشت)[3] وجميع الأنواع ذات صور ومثل الإنسان الروح القدس أو العقل الكل .

(١) خرداد : اسم إله .
(٢) أمرداد : الشهر الخامس من كل سنة شمسية .
(٣) أرديبهشت : الصدق .

وخلاصة ذلك أن أساس حكمة الإشراق يقوم على الفلسفات مع مراعاة هذا الفارق ، وهو أن عرفان الشيخ السهروردى إيجابى بينما تصوف الآخرين سلبى . وبمعنى آخر فى حين أن شيخ الإشراق يعزف لحن الحياة ويدعونا إليها فإن الآخرين يخرجوننا من الحياة إلى العزلة . وسبب ذلك واضح وهو أن شيخ الإشراق متأثر بحكمة زرادشت الآرية التى تقوم على التفاؤل ، فى حين أن معظم مدارس التصوف قد تأثرت بأفكار تعاليم المفكرين الساميين ، تلك الأفكار التى تقوم على التشاؤم .

صدر الدين الشيرازى

صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازى المشهور بملا صدرا والملقب بـ "صدر المتألهين" ، من الحكماء المشاهير فى القرن الحادى عشر ، وبعد تعلمه العلوم الشرعية ذهب إلى الشيخ بهاء الدين العاملى، كما شغل بتعلم العلوم العقلية لدى صهره الأمير فى قُم لمدة سنين طوال ، وفى ذلك الوقت عاد إلى شيراز بناء على دعوة (الله وردى خان) حاكم فارس وشغل هناك بالتدريس .

ومن أعماله المتعددة نذكر الكتب الآتية :

١ - الأسفار الأربعة .

٢ - شرح الهداية .

٣ - شرح أصول الكافى .

٤ - شواهد الربوبية .

٥ - تحشية على شرح حكمة الإشراق .

٦ - تحشية على الهبات الشفا .

٧ - مفاتيح الغيب .

ويعتقد صدر الدين الشيرازى - مثل السهروردى - أن الماهيات عارضة على الوجود .

(الوجود فى كماله سار وحار ... والماهيات أمور اعتبارية) .

واتخذ صدر المتألهين أسلوباً خاصا فى الفلسفة ، بحيث لا يمكن أن نعتبره صوفيا أو إشراقيا أو مشاءً أو تابعًا للشريعة أو فيلسوفًا .

ولم يكن رجل دين ضيق الأفق ، بل كان رجل دين واسع الاطلاع والنظر ؛ ولهذا السبب فقد اتهم بالكفر وتعرض للإيذاء من الكثيرين .

وقد مزج صدر المتألهين بين طريقة المشائين والإشراقيين، وقد نقح فلسفة الإشراق ودعا الناس إلى النظر بعمق فى المسائل الدينية ولم يتبع نهج رجال الدين السطحيين ، فيقول فى شأن الطهارة على سبيل المثال :

إن الغرض من الطهارة ليس الوضوء والاغتسال ، بل الهدف الرئيسى أن يطهر الإنسان باطنه من الأغراض الفاسدة والأوهام العابثة .

فلسفته

يعتبر صدر المتألهين العلم والإرادة أساس الوجود ، ويعتبر أيضًا أن مبدأ العالم الجسم الطبيعى وأن المادة الأولى للعالم هى الهيولى . ويرى أيضًا أن الجسم الطبيعى سواء كان جمادًا أو نباتًا أو حيوانًا أو إنسانًا دائمًا فى حركة وتغير ، وينبغى القول (إن جوهر عالم الطبيعة دائمًا فى حركة وتجدد وتغير ، وإن هذه الحركة ضرورية لهذا الجوهر فى هذا العالم ولا تنفصل عنه أبدًا) ، وكل شىء فى هذا العالم مثل الماء الجارى والسارى (إن الزمان الذى هو أمر تدريجى ومتغير كم يصدر عن حركة جوهر النظام العالم) .

إن أصل وحقيقة الوجود والماهية أمر فرضى واعتبارى ، ومن الممكن أن يكون لوجود واحد عدة ماهيات لعدة اعتبارات ، ومن ثم فإن الحركة والتغير لا يكونان فينا بل إنهما حركة تجدد الوجود . إذن يُستنتج من هذا أن وقوع الحركة فى عوارض الجسم دليل على حدوث الحركة فى جوهر الجسم . فإن اختفت الحركة فى جوهر الأجسام فلن يكون هناك حركة فى عوارض الأجسام ؛ لأن الحركة تجدد واشتداد واستكمال للوجود . ووجود العرض والجوهر فى الخارج أمر واحد على الرغم من أن ماهيتهما فى الذهن اثنان .

يرى صدر المتألهين أنه نتيجة للحركة فى الجوهر فإن نفس الإنسان لا وجود لها قبل وجود البدن بل إنها تظهر مع ظهور البدن ، وشيئًا فشيئًا ونتيجة لحركة الجوهر تطوى طريق الكمال وتصل إلى مقام التجرد ، كما أنها لا تموت بموت البدن بل تظل

حية وخالدة . وبناء على هذا فإن النفس تظهر مع تكون البدن ، وكما قلنا إن وجود الإنسان فى نظر صدر المتألهين حقيقة تدريجية تشتمل على المادة ثم العقل . وحقيقة الإنسان تبدأ مع ظهور المادة وبعد المرور من مرحلة الإحساس والتخيل تصل إلى مقام العقل ، ثم تدخل ضمن المجردات حيث تبقى إلى الأبد .

وحقيقة الإنسان مثل لُب اللوز الذى يمتزج بالجلد مع بداية الظهور ، وهى أيضًا مثل الجنين فى رحم الأم ، وهى مثل الفراشة فى الشرنقة تظهر مع البدن وتظل فترة فى حاجة إليه ، وشيئًا فشيئًا ونتيجة للحركة واستكمال الجوهر تنفصل عنه وتصبح فى غير حاجة إلى البدن ، مثل الحيوان الذى يستبدل الجلد ، أو الزيت الذى ينفصل عن لب اللوز ، أو الفراشة التى تترك الشرنقة فتتخلص من البدن وتعيش بدون مادة .

ولو أن الإنسان يريد أن يتخيل تلك الصورة التى رآها وسمعها ويستحضرها أمامه فيجب عليه أن يتزود بقوة هذا العقل لهذا العمل .

ويؤمن صدر المتألهين بنظرية (المثل) لأفلاطون فيقول فى هذا الصدد : إن كل موجود فى عالم الطبيعة له حقيقة ثابتة فى عالم الملكوت ، وبمعنى آخر كل موجود له وجهان : وجه فى الحركة والتغير ، ووجه فى الثبات ، ويسمون الوجه المتغير للموجودات عالم الملكوت ، وعالم الطبيعة يحتل درجة أدنى من عالم الملكوت ، وعالم الملكوت أسمى من عالم الطبيعة ، وبمعنى آخر فمثابة الجسد وعالم الملكوت بمثابة الروح ...[1] .

ولصدر المتألهين نظريات خاصة فى تفسير القرآن الكريم ومن بينها أنه يعتقد أن العذاب الإلهى يمنع عن أهله فى الآخرة[2] ، كما يؤمن بأن كثيراً من الآيات القرآنية تتضمن اعتقاد مشايخ الإسلام بوحدة الوجود ، وقد نسبت إليه هذه الرباعية :

(إن أولئك الذين اختاروا طريق الحبيب .. جميعهم قد سكنوا فى حى الشهادة
والفوز للعشق فى صراع العالمين ... على الرغم من أن جيشه كله شهداء) .

(١) نقلاً عن فيلسوفى الشرق والغرب (ح . راشد) .

(٢) وهو ينكر وجود جهنم كما يتضح من خلال هذه الرباعية التى وجدت فى نهاية تفسير القرآن :
(يا من تحترق من النار الداخلية ... وتحترق خوفًا من نار الجحيم
لو أنك تريد نموذجًا لنار جهنم ... فانظر إلى داخلك ترى مثيلاً لها) . (المؤلف)
هذه الرباعية ليس فيها أى إنكار لجهنم أو عذاب الآخرة كما زعم المؤلف ، ولا يفهم منها أى شىء من هذا القبيل . (المترجم)

المصادر والمراجع

أولاً : الإنجليزية

1 - Story of Civilization will (Durant).

2 - Outlines of Islamic Culture (A shush tery).

3 - Tao-Teh-king (Laotse).

4 - Chinese philosophy.

5 - Indian philosophy (Zimner man).

6 - Six systems Indian philosophy (Max muller).

ثانياً : الفارسية

١ - تاريخ ملك شرق ويونان — البرماله

٢ - ايران نامه — عباس مهرين

٣ - راز بزرك — ترجمة : د. منصورى

٤ - عبرت بودا — ترجمة : قائميان

٥ - داستان كرسنا — ترجمة : عباس شوشترى مهرين

٦ - كاتها — ترجمة : بور داود

٧ - سر آمدان هنر — بهزاد

٨ - تاريخ أدبى ايران — بروان

٩ - تاريخ تمدن ساسانى — نفيس

١٠ – زندگانی مانی	بهار
١١ – مانی ودین او	تقی زاده
١٢ – شاهنامه	فردوسی
١٣ – سیاست نامه	نظام الملك
١٤ – مجله کاوه	مدیر ، تقی زاده
١٥ – دبستان المذاهب	محسن فانی کشمیری
١٦ – علوم عقلی در اسلام	دکتر صفا
١٧ – اخلاق در نظر فارابی	تألیف : کاظمی آذر بایجانی
١٨ – غزالی نامه	همائی
١٩ – کشکول جمالی	جمالزاده
٢٠ – جلال الدین مولوی	فروزانفر
٢١ – دانشمندان اسلام	خیری
٢٢ – ترانه های خیام	هدایت
٢٣ – تحقیق در زندکی ورباعیات خیام	حسین شجره
٢٤ – برثو اسلام	خلیلی
٢٥ – پورسینا	سعید نفیسی
٢٦ – بو علی سینا	درجاهی کرمانی
٢٧ – لغت نامه	دهخذا
٢٨ – تحولات فکری در ایران	دکتر بروخیم
٢٩ – فلسفة در اسلام	دبور – ترجمة شوقی

٣٠ - مقدمة تاريخ (ابن خلدون) ترجمة بروين كنابادى
٣١ - يكتابرستى در ايران سركرد اورنك
٣٢ - تاريخ فلاسفة اسلام مرتضى مدرس جهاروهى
٣٣ - تصوف عباس مهرين
٣٤ - فلسفة هند مهرداد مهرين
٣٥ - در بر تصوف دكتر موسى جوان
٣٦ - در فيلسوف شرق وغرب راشد
٣٧ - زندگانى وفلسفه ملاهادى سبزوارى (مرتضى مدرس جهاروهى)

المصادر العربية

١ - فى ذكرى أبى العلاء طه حسين

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	أن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى

٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمري
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوي
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	محمود السيد علي
٨٣- مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤- موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل (رواية)	جمال مير صادقي	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧- نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠- وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيدرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤- مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوي
٩٥- مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	سري محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
٩٨- الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحي
١٠١- النص الروائي: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبي	عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣- قبر ابن عربي يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجني (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوي
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرامتي	أشرف علي دعدور
١٠٧- صورة الفدائي في الشعر الأمريكي اللاتيني المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من المؤلفين	محمود علي مكي
١٠٩- حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	إكرام يوسف

١١٣-	راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧-	مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩- العمى والبصيرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣- عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية)	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧- سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧- ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨- لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	على إبراهيم منوفى
٢١٩- بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥- حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل شوبكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١- فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤- الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	حسن بيومى
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- أقدم لك: ديكارت	ديڤ روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	ڤاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	چون جريبين	على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروبكى
٢٦٨- ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢- الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣- الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤- السيدة باربارا (رواية)	رومولو جايبجوس	محمود على مكى
٢٧٥- ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧- الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨- البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠- الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١- الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
٢٨٤- هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥- رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨- الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩- ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥- سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦- مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨- مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- أقدم لك: فتجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل برونديتو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو يوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٣٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٣٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٣٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٣٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر	فيليب تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامى	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	توبور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩- العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠- مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١- الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣- إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥- من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧- بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨- الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩- أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠- أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١- أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢- أقدم لك: ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣- أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧- رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨- بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩- موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢- حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥- حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦- التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧- أقدم لك: نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨- أقدم لك: علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩- أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠- أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا ورببيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١- أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢- أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤- خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠- أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣- الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥- قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧- التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩- جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد الننة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨- الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩- المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠- تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١- بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤- جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥- التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦- الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩- هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠- أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	آرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقَّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١- ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢- المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧- للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨- النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧- أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠- أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣- مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦- أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١- جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١- تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤- مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥- الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١)	جون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجيبة (رواية)	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٩١٨ / ٢٠٠٣

إن الباحثين عن الحقيقة أو الحقائق يدركون الدنيا بالنظر والاستدلال، أو عن طريق الرياضات والمجاهدات بالنفس، وبهاتين الوسيلتين إما أنهم يؤمنون بالدين، وإما أنهم لا يعتنقون أى مذهب أو دين. فإذا بحثوا الحقائق بالنظر والاستدلال وتركوا المذهب أطلق عليهم الفلاسفة (المشاءون)، وإذا استدل الباحثون عن حقيقة أسرار الدنيا عن طريق التجرد واجتناب لذات الدنيا أطلق عليهم الفلاسفة (الإشراقيون)، وإذا استدلوا عن حقيقة أسرار الدنيا بالنظر والاستدلال أسميناهم (المتكلمين)، أما إذا استدلوا على الحقائق عن طريق المجاهدة بالنفس وتهذيب الأخلاق وتزكية النفس والإيمان بالدين أطلقنا عليهم اسم (الصوفية).

حول هؤلاء وأولئك يدور هذا الكتاب متعرضًا لكل تلك الأنواع الفلسفية وما يتعلق بها من مبادئ وآراء ونظريات فلسفية حول الكون، والنفس، وغير ذلك.